سلسلة العصبية القبلية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس



دار الكتاب العربي




2007
عاصمة الثقافة العربية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين
في بلاد المغرب والأندلس



دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجــوال: 070 91.77.73

بوزياني، الدراجي
دول الخوارج والعلويين / بوزياني الدراجي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.- الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 243ص؛ 23سم
ردمك: 978-9947-833-01-8
الإيداع القانوني:154-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 5-2007 دار الكتاب العربي



الإهـــداء

– إلى شهداء الجزائر الأبرار الذين قدموا أرواحهم من أجل قيام دولة جزائرية عزيزة مستقلة وموحدة.

– إلى المجاهدين المخلصين لهذه البلاد الطاهرة؛ الذين حققوا المعجزة وحرروا البلاد والعباد.

– إلى شباب الجزائر المستقلة الذين يضحون بكل غالٍ ورخيصٍ في سبيل وحدة الجزائر وازدهارها الثقافي والاقتصادي.

– إلى كل امرأة جزائرية حافظت على قيم شعبها وثوابت أمتها.

– إلى كل هؤلاء جميعا أهدي كتابي المتواضع هذا؛ راجيا من الله أن يكون لبنة جديدة تضاف إلى صرح بلادي الثقافي.



المقدمة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة تاريخية ستنشر تباعا بإذن الله. وتعالج هذه المجموعة من الكتب مواضيع تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس؛ انطلاقا من الفتح الإسلامي وحتى حلول العهد العثماني. ولا بد هنا من التنبيه إلى أني قد التزمت ـ في إعداد هذه الدراسات ـ بمنهج يميل إلى شكل من أشكال الكتابة التي تنطوي على قراءة جديدة للأحداث. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية القبلية؛ تلك النظرية التي تفسر أثر العصبية في قيام الدول وفي سقوطها. ويعود سبب اهتمامي بموضوع العصبية القبلية إلى إيماني الشديد بما سعى ابن خلدون إلى إبرازه؛ بخصوص تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية التي هيمنت على المجتمعات المغربية؛ الأمر الذي جعلها بمثابة الأداة المعرقلة والمقيدة لكل ما من شأنه إضفاء حركة تنموية، وعمل تنظيمي على المجتمع المغربي بكامله.

لقد اكتشف ابن خلدون ـ بعد تأمل عميق وتجربة واسعة ـ أن ظاهرة العصبية في بلاد

المغرب وقفت في طريق كل المحاولات الممهدة لقيام أي دولة قوية أو لاستقرار أي تنظيم مخالف للتنظيم القبلي؛ ذلك التنظيم الذي يفتقر – بدوره – للاستقرار والانضباط. وعليه فقد وضع نظريته ليساعد الدارسين لتاريخ هذه الديار على فهم السبب الكامن وراء التخلف السائد في بلاد المغرب؛ ذلك التخلف الذي منع كل تطور وتقدم نحو حياة جديدة فاضلة؛ كان ابن خلدون قد عرفها في بلدان أخرى. وإذا كان هناك من يشكك في موضوعية النظرية الخلدونية وصحة طرحها؛ فإن قراءتنا نحن للأحداث التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلاد المغرب تجعلنا أكثر قربا من التسليم بها وتصديق معظم ما جاء فيها.

وإذا كان ابن خلدون يصف ظاهرة اجتماعية سلبية كانت سائدة في عصره المظلم؛ ذلك العصر الذي تميز بالتراجع والانكماش في الميادين الحضارية كافة من: فكر وثقافة، أو صناعة وابتكار، أو عمران وبناء، أو سياسة مدنية، أو اقتصاد منظم؛ فإن تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية ما زالت متحكمة فينا، ومهيمنة علينا حتى في زمننا هذا؛ حيث ظلت الروح القبلية والنزعة للعصبية في أوج قوتها وعنفوانها؛ على الرغم من انتسابنا للقرن الواحد والعشرين، وعلى الرغم من قربنا من مراكز الحضارة الحديثة، وعلاقاتنا الوطيدة مع المجتمعات المدنية المتحضرة في العالم المتقدم.

ولما كان التاريخ ـ دوما ـ عبارة عن مخزون حضاري وثقافي يلخص تجارب الأسلاف.. مخزون يوضع بين أيدي الأجيال الحديثة للاستفادة من تجارب غيرهم، ولأخذ العبر من الأحداث التي مرت بالأجداد؛ فأني وجدت من الضروري ـ هنا ـ معاودة الكشف عن خطورة ظاهرة العصبية القبلية المتخلفة، وتأثيرها على سلامة وأمن مجتمعنا، وعلى استقرار المؤسسات الحضارية القائمة فيه. وعليه فلو تأملنا جيدا في معظم الأحداث التاريخية الموغلة في القدم ـ أو على الأقل ـ التي سادت البلاد منذ الفتح الإسلامي؛ لوجدنا أنها عبارة عن تسجيل وتاريخ لأحداث متواصلة من الحروب والفتن الدائمة بين القبائل فيما بينها، أو بين القبائل والدولة التي أقامتها قبائل أخرى؛ بحيث لم تعرف الأطراف المتورطة كلها فوائد الأمن والاستقرار؛ سواء: القبائل المشاغبة، أو الدول المدافعة عن كيانها، أو الدولة التي سعت القبائل لإقامتها وحمايتها.

وسيلاحظ القارئ في هذا البحث كيف عانى الفاتحون العرب من ظاهرة العصبية القبلية؛ سواء كان ذلك من داخل أوساطهم المريضة بالعصبية القبلية، أو بواسطة القبائل الأمازيغية المعادية لهم؛ والتي تتحكم فيها عصبيات عاتية أيضا. لذا كانت جل الفتن والحروب بين الفاتحين والأمازيغ مصدرها العصبية. ومما يعزز الرأي الذي يحصر الخصومات التي قامت بين الفاتحين

والأمازيغ في نطاق العصبية لا غير؛ هو أن الثورات الأمازيغية بكاملها تقريبا كانت تتمسك بالدين الإسلامي؛ وترفع شعاره عاليا؛ بل يصل تمسكها بالإسلام إلى درجة التعصب والتزمت أحيانا. وهذا ما يمكن ملاحظته في ثورات الخوارج من الصفرية والإباضية؛ تلك الثورات التي انطلقت اعتبارا من الربع الأول من القرن الثاني الهجري؛ إذ كانت كلها – مع كثرتها – تنادي بالمبادئ الإسلامية؛ بل تخضع لمذاهب عربية إسلامية أصلا. كما ترحب بالنموذج الحضاري العربي وتتبناه؛ سواء في جانبه الثقافي أو في جانبه الاجتماعي. وأهم ما يمكن ملاحظته هو أنه يمكن التأكد – بسهولة – من طبيعة الدول التي قامت في بلاد المغرب؛ إذ منها: من تأمر عليها ملوك من أصل أمازيغي يلتزم بالإسلام ديناً، وبالعربية ثقافة؛ ومنها من سلمت قيادها طوعاً إلى ملوك من أصل عربي؛ ولكنها – في حقيقة الأمر – كانت أمازيغية التركيبة والنشأة؛ إذ قامت على دعائم رفعت بسواعد قبائل أمازيغية، وبقيت طوال حياتها أمازيغية المحتوى والتركيب، إسلامية العقيدة.

وعلى الرغم من قيام دول أمازيغية قوية في ربوع المغرب؛ فقد لوحظ تمسكها بالإسلام ودفاعها عنه بكل قوة وإصرار؛ سواء كانت تلك الدول خارجية كـ: دولة بني مدرار، والدولة الرستمية؛ أو سنية مثل: دولة المرابطين والموحدين وغيرهما؛ أو علوية كـ: الدولة الإدريسية التي أقامتها قبائل

أمازيغية واستماتت في حمايتها؛ ثم الدولة الفاطمية التي نشأت بسواعد أبناء كتامة وصنهاجة. وعليه فلا شك في أن أي صراع حدث بين قبائل المغرب والدول القائمة في تلك الأثناء لا يعدو أن يكون محصورا في نطاق العصبية القبلية؛ كما لا يخرج عما ذكره ابن خلدون حول تطلع القبيلة ــ كل قبيلة ــ ورغبتها في الوصول إلى مرتبة الملك؛ كمرحلة طبيعية؛ تقتضي تطور السلطة في القبيلة من مرتبة الرئاسة إلى مرتبة أعلى وأسمى وهي الملك.

ولا تفوتني ــ قبل الختام ــ فرصة التنويه بالمجهود الكبير الذي بذل من طرف دار الكتاب العربي بالجزائر في نشر وطباعة هذا الكتاب ــ وغيره من الكتب التي أتممتها ــ بهذا الشكل الأنيق الجيد. وأخص بالذكر ــ هنا ــ مدير الدار السيد **محمد خير الجهماني**، ووليديه: **مهند الجهماني**، و**فراس الجهماني**؛ بالإضافة إلى الآنسة الفنانة **لويزة الحسين**؛ التي لم تبخل ــ في كل مرة ــ بما حباها الله من إحساس مرهف كي تمنح كتابي لوحات معبرة بريشتها الذهبية.

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 4. جوان. 2001م

مدخل

يتضح من عنوان هذا الكتاب؛ أن للموضوع شقين: أولهما يتعلق بنشأة الدولة وسقوطها؛ وثانيهما يعالج نشاط الحضارة وأفولها؛ وذلك من خلال تأثير ظاهرة العصبية القبلية عليهما. وستتم معالجة الشقين ـ ضمن هذا المجال ـ في سياق واحد؛ دون اللجوء إلى الفصل بينهما؛ لأنهما متكاملان، ويدوران ـ معا ـ في حلقة واحدة.

فعند التأمل في موضوع نشأة الدولة؛ سينساق الذهن ـ منذ الوهلة الأولى ـ نحو إيجاد تصور للكيفية التي نشأت بها الدولة الأولى عبر التاريخ؛ في المجتمعات الإنسانية عموما. ويبدو أن هذه الفكرة تحتل مكانة ذات إغراء وإثارة أكثر من مجرد الاكتفاء باستقراء وتتبع الطريقة التي قامت بها دولة ما؛ على أنقاض دولة أخرى. وعليه فبفضل هذه الدراسة، وما يليها ضمن هذه السلسلة؛ ستتضح الصورة عن الكيفية التي تنشأ أو تسقط بها الدولة. وهنا سيتحتم ـ في هذا السياق ـ الاعتماد على نظرية ابن خلدون؛ لكونه احتل مكانة مرموقة ومتقدمة بين المفسرين لنشأة الدولة

بالمغرب الإسلامي بصورة خاصة، والمجتمعات الإسلامية عامة.

وكما هو معروف فنشأة الدولة ـ عموما ـ ليست سوى خطوة حدثت بين خطوات عديدة سبقتها؛ ضمن مسيرة الإنسان الطويلة؛ عبر الفترات التاريخية المختلفة في سبيل تحقيق التمدن والتحضر. وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال الشواهد التي تثبت مواكبة نشأة الدولة ـ في غالب الأحيان ـ للنشاط العمراني، والازدهار الحضاري. وبالمقابل فقد لوحظ أن سقوط الدولة ينجر عنه ـ في جل الحالات ـ انهيار عمراني، وتقهقر حضاري.

فالدارس لتاريخ بلاد المغرب سيلاحظ ـ حتما ـ ما تعرضت له هذه البلاد من تقلبات؛ نتيجة لطغيان ظاهرة اجتماعية مثيرة للجدل؛ تركت بصماتها العميقة في المسار التطوري للمجتمعات المغربية، ومنعت كل نشاط يهدف إلى استقرار الدول في تلك الديار. وهذه الظاهرة تتمثل في كثرة القبائل وتباينها، وتعدد العصبيات واختلافها. ويبدو أن الذي اكتشف تأثير هذه الظاهرة قبل غيره هو عبد الرحمن بن خلدون؛ ذلك النابغة الذي خصص فصلا مستقلا في مقدمته يشير فيه إليها وهو: **"فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب؛ قل أن تستحكم فيها دولة".**[1]

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 646.

وقد برهن على رأيه ـ في هذا السياق ـ ببعض الأمثلة التي جرت في بلاد إفريقية والمغرب. كما حرص على مقابلتهما بما هو حاصل في بلدان أخرى؛ كانت تتميز بقلة القبائل وضعف العصبية. ثم أشار إلى موقف المسلمين خلال فتح ديار المغرب؛ أي حينما واجهتهم مقاومة شديدة؛ لم تواجههم عندما فتحوا أقطارا أخرى آنذاك. ومن الأمثلة التي ذكرها؛ ما حدث لهم في العراق والشام؛ أيام الفتح الإسلامي. ثم علل استقرار الأمر في تلك الديار المشرقية؛ بكون حامية الدولة فيها ـ آنئذ ـ كانت من الفرس والروم. أما بقية السكان؛ فكانوا كما ذكر: ((**دهماء وأهل مدن وأمصار**)). وواصل ـ بعد ذلك ـ شرح فكرته بقوله: ((**والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى؛ وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة؛ عادت الأخرى مكانها وإلى دينها؛ من الخلاف والردة. فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب**)).[1] وبعد الشرح والتعليل تطرق إلى ما ذكره بعض المؤرخين والنسابين؛ بخصوص ما قيل عن ارتداد سكان المغرب اثنتي عشر مرة. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل.. عما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الأقوال؟

فما يمكن استنتاجه هنا.. هو أن للعصبية أثرا كبيرا؛ على نشأة الدول وسقوطها في هذه الديار.

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 647.

والدليل على ذلك يظهر من خلال ما واجه المسلمين من أحداث؛ على الرغم من قوتهم، وتعدد جيوشهم، وصدق دعوتهم. حيث واجهتهم ـ في بلاد المغرب ـ صعوبات كثيرة؛ عرقلت مساعيهم؛ قصد ترسيخ سلطانهم، وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية. وربما استعصى عليهم تحقيق ذلك الأمر؛ ولم يتمكنوا من تمهيد البلاد إلا في عهد موسى بن نصير؛ كما ذكر ابن خلدون. أما عبد الله المالكي، والرقيق القيرواني؛[1] فيجمعان على استقامة الأوضاع بإفريقية في عهد حسان بن النعمان. ومع هذا يبدو أن استتباب الأمر لم يدم طويلا؛ حيث عادت الفتن، والحروب من جديد؛ ودون توقف. ويرجع السبب في ذلك إلى العصبية المهيمنة، والطابع القبلي؛ الذي يتميز بهما المغرب. هذا بالإضافة إلى ظاهرة البداوة؛ المتفشية في تلك الربوع؛ نظرا لكون الأمازيغ يعتبرون من أهل العصبيات والأنساب؛ كما يقول ابن خلدون ضمن **"فصل في أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة".**[2]

وإذا كانت للبيزنطيين أثار بارزة ـ لا ينبغي نكرانها ـ في تغذية المقاومة، وتحريض القبائل الأمازيغية ضد المسلمين؛ خلال فتحهم لإفريقية

---

[1] رياض النفوس، ج: 1، ص: 57. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 64.

[2] ((وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر؛ لأنهم أعرق في البداوة. والصنائع من توابع الحضارة؛ وإنما تتم المباني بها؛ فلا بد من الحذق في تعلمها؛ فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني؛ فضلا عن المدن. وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب؛ لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ـ 990.

والمغرب. فإن هذا لا ينفي – في الحقيقة – جوهر المقاومة؛ الذي اقتضته طبيعة الأحداث؛ لأن الأمازيغ – في تلك الفترة – لم يتعرفوا على الإسلام، والمسلمين؛ ومن جهل شيئا عاداه طبعا. وعليه فقد لعبت العصبية الأمازيغية دورا خطيرا؛ كقوة متصدية للمسلمين؛ في بلاد المغرب. وما نكث كسيلة، وثورته على المسلمين؛ سوى نعرة من نعرات العصبية. وربما دخلت في هذا الاعتبار؛ مقاومة الكاهنة، وقومها جراوة للفاتحين أيضا.

ومع ذلك.. فقد استتب الأمر للمسلمين؛ بعض الوقت؛ بفضل حنكة عدد من الولاة وحسن سياستهم؛ مثل: أبي المهاجر، وحسان، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. غير أن ذلك الاستقرار انقطع؛ ولم يدم طويلا. إذ كانت العصبية القبلية أهم عوامل الهدم، والتفريق. فهي التي أشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة. حيث انقسمت هذه الديار؛ إلى عصبيات عديدة؛ متضادة. فنشأ صراع بين العرب الموالين للأمويين من جهة، وبين الأمازيغ من جهة أخرى. ثم انقسم العرب – أيضا – إلى عرب القيروان، والعرب المستجدين من الوافدين إلى إفريقية حديثا. هذا بالإضافة إلى انقسام الفاتحين العرب أيضا إلى عصبيتين هما: القيسية، والكلبية. أي (العدنانية والقحطانية أو المضرية واليمنية).[1]

---

[1] لم يكن تقسيم العرب إلى قيسية ويمنية معروفا قبل الإسلام. حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقة؛ لا تتجاوز القبيلة أو البطن؛ ولم تتسع ظاهرة العصبية بحيث تشمل الشعب أو الجذم. ويبدو أن موضوع=

وهكذا.. كان المغرب — في تلك الفترة — تتقاذفه صراعات لا نهاية لها. ومن أخطرها ذلك الفيض من الفتن والصراعات، التي نشبت بين الأمازيغ والأمويين؛ ومعظم تلك الأحداث كانت عبارة عن ردود أفعال ضد تعسف بعض ولاة الدولة الأموية، وسوء سياستهم، وتعصبهم؛ كيزيد بن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب.[1] الأمر الذي ساعد على نمو الأحزاب وترعرع الفرق المعارضة لطبيعة الحكم الأموي، ثم الحكم العباسي من بعده. ومن بين تلك الفرق: الخوارج والشيعة.[2] بالإضافة إلى برغواطة؛ المرتدين عن الإسلام كليا.

هذا وقد ساعد العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المتحجر على استفحال روح العصبية، واتساع نطاقها. والأمر الذي ضاعف في نمو هذه الظاهرة السلبية وازدهارها؛ أنها كانت مهيمنة حتى على قلوب فئة كبيرة من الفاتحين أنفسهم. فانغمسوا في مستنقعها الموبوء بعاهات العُبِّية والنعرة الجاهلية؛ التي بقيت عالقة بنفوسهم.

=القيسية، واليمنية من المبتكرات التي ظهرت في ظل الدولة الأموية. أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص ص: 493 — 494. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 141 — 144.

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 99 — 101. 107 — 111. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 48. 51 — 54. وفجر الأندلس، ص: 145. والمغرب الإسلامي، ص ص: 104. 155 — 157.

[2] لمعرفة هذه الفرق أنظر كتاب الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 — 138. 146 — 198. وكتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل، ج: 4، ص ص: 179 — 192. وكتاب المغرب الإسلامي، ص ص: 147 — 166. وكتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص: 193 — 209.

فأضحى المغرب الإسلامي ـ نتيجة لذلك كله ـ مسرحا واسعا للصراعات القبلية، ومرتعا خصبا للعصبية الفياضة بالنزوات والشطحات. وعليه فقد انقسم الفاتحون بين عصبية قيسية متعالية، وعصبية كلبية متعنتة. على أن الغلبة تكون ـ طبعا ـ للعصبية التي ينتمي إليها الوالي المعين على إفريقية والمغرب؛ من قبل الخليفة الأموي.

ومن هنا.. تتضح الكيفية التي انتقلت بها عدوى عصبية القيسيين واليمينيين؛ إلى إفريقية والمغرب.. إذ انطلقت هذه الظاهرة الخطيرة من مكمنها؛ بتحريك وإثارة من قمة الدولة الأموية نفسها. وذلك أنه إذا كان بعض الفاتحين موبوءا بها دون وعي بمخاطرها؛ فإن خلفاء بني أمية؛ مثل: يزيد بن عبد الملك ـ حكم من 101هـ(719م) إلى 105هـ(723م) ـ وهشام ابن عبد الملك ـ حكم من 105هـ إلى 125هـ(742م). ساعدا على استفحال هذا الوباء؛ بتشجيعهما للعصبية، والتكتلات القبلية.

ولمّا كان المغرب الإسلامي ـ منذ البداية ـ يعج بأهل اليمن؛ فقد أضحى القادمون الجدد؛ من أهل الشام، وشمال شبه الجزيرة؛ غير مرغوب فيهم. وبذلك تبادل الولاة ـ من الطرفين ـ اضطهاد الرعية التي لا تنحدر من سلسلة نسبهم؛ ولا تجمعهم وإياهم عصبية واحدة. وقد يكون بشر بن صفوان الكلبي هو أول الولاة المنحازين إلى عصبيتهم. حيث أحاط نفسه بهم، وأبعد غيرهم.

ولكنه عزل بعد موت يزيد بن عبد الملك. ولما تولى هشام بن عبد الملك الحكم؛ عين قيسيا متعصبا على إفريقية والمغرب، **(وهو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي)**. فاضطهد أهل اليمن؛ من الكلبيين؛ الأمر الذي جعل أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي[1] يسارع في إرسال أبيات شعرية من نظمه إلى الخليفة هشام؛ ذكره فيها بمواقف الكلبيين من بني أمية. وفيها يقول:[2]

أَفَأْتُمْ بَنِي مَرْوَانَ قَيْساً دِمَاءَنَا ... وَفِي اللهِ إِنْ لَمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ

كَأَنَّكُمْ لَمْ تَشْهَدُوا مَرْجَ رَاهِطٍ ... وَلَمْ تَعْلَمُوا مَنْ كَانَ ثَمَّ لَهُ الفَضْلُ

تَعَامَيْتُمُ عَنَّا بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ ... وَأَنْتُمْ كَذَا مَا قَدْ عَلِمْنَا لَنَا فِعْلُ

فاغتاظ الخليفة هشام من الوالي عبيدة بن عبد الرحمن؛ فعزله من منصبه؛ ولكنه عين قيسيا آخر؛ **(وهو عبيدة الله بن الحبحاب)**. فتمادى – هو الآخر– في لعبة العصبية الخطيرة؛ التي انجر عنها – في عهده – أحداث خطيرة للغاية؛ إذ نشبت ثورة الخوارج الكبرى؛ التي قادها ميسرة المطغري؛ تلك الثورة التي كادت أن تطيح الحكم

[1] أسندت إليه فيما بعد إمارة الأندلس؛ فاظهر فيها تعصبا شديدا لأهل عصبيته اليمنية. مما أودى به إلى التهلكة؛ بعد أن أشعل بلاد الأندلس بالفتن والحروب.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 50.

العربي نهائيا في بلاد المغرب؛ كل ذلك جراء النزعة المتطرفة للعصبية، والنعرة المتشددة للقبلية.

وهكذا فمن يحلو له اللعب بالنار؛ يتعرض للاحتراق أحيانا.. حيث استفحلت ظاهرة العصبية القبلية، وأخذت تنخر كيان الدولة الأموية نفسها. فانحدرت بها تلك الظاهرة السلبية إلى مهاوي السقوط والاندثار.[1] لأن خلفاء تلك الدولة استهوتهم اللعبة، فغفلوا عن الأخطار التي يمكن للعصبية أن تفرزها، إذا ما استهين بمفعولها العكسي، وتأثيرها على استقرار دولتهم وسلامتها؛ فلم يكتشفوا جوانبها السلبية؛ وانساقوا خلف إغرائها العابر، وطمعوا في بعض الفوائد الظرفية الزائفة. وشاءت الأقدار أن تتسبب ظاهرة العصبية في تفكك الدولة؛ عندما تمردت بعض القبائل، والعصبيات؛ في الأطراف النائية؛ حيث أنشأت دولا، وإمارات خاصة بها. من ذلك ما حدث في المغرب الإسلامي مثلا؛ إذ تمكن زعماء بعض القبائل، والأحزاب من إقامة كيانات، ودول مستقلة؛ عن الدولتين: الأموية، ثم العباسية بعدها؛ وتبعا لما تفرضه المجتمعات القبلية؛ فقد كانت تلك الكيانات تستند ـ بدورها ـ إلى عصبية القبائل الأمازيغية.

لقد كان الأمازيغ في بلاد المغرب يعيشون ضمن قبائل وشعوب عديدة؛ منتشرة في تلك

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص 495. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص: 243. وفجر الأندلس، ص: 142. والمغرب الإسلامي، ص: 119.

الربوع. ويرأس هذه القبائل والشعوب بعض الشيوخ الذين لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب. وسبق أن حدثت بعض المحاولات ـ منذ البداية ـ قصد تأليف دول وإمارات ـ هنا وهناك ـ ولكنها فشلت؛ بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى؛ وعليه فقد عجزت تلك الكيانات عن الوصول إلى مرتبة الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد؛ الذين يتصفان بضعف الحكم وهشاشة السلطة. إذ يكون الوازع أو الحاكم ـ في هذه الحال ـ متبوعا؛ دون أن تكون له سلطة قاهرة.

وهذه الصفة تصدق على الكيانات الأولى التي أقامتها الصفرية والإباضية. ولا تدخل في هذا الاعتبار دولة بني مدرار، ولا الدولة الرستمية؛ لأنهما توصلتا إلى مرتبة الملك المتغلب. بينما يصدق ذلك على الكيانات القبلية الأولى؛ التي ظهرت أثناء الفتح وبعده؛ مثل: إمارة أوربة البرنسية؛ بزعامة كسيلة، وإمارة جراوة البترية البدوية؛ برئاسة الكاهنة. فهاتان الإمارتان لم تتوصلا إلى مرتبة الملك الغالب والقاهر. كما أن أهم عوامل فشلهما ـ على ما يبدو ـ هو العامل الديني؛ الذي كان في صف الفاتحين.

وفي هذا السياق تتولى نظرية ابن خلدون تعزيز هذا الاعتقاد؛ وذلك من خلال ما عرضه ضمن بعض الفصول من مقدمته مثل: "**فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية؛ من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم؛ من الدين على الجملة**". و"**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء؛ العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة؛ على قوة العصبية؛ التي كانت لها؛ من عددها**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] وعليه فقد فشلت تلك الكيانات جميعها؛ في إنشاء ملك مستقل وقاهر. وتوقف الحال بها كلها في طور المشيخة والرئاسة؛ ذات السلطات المحدودة. غير أنه حصل لبعض القبائل الأخرى أنها تمكنت من إقامة دول مستقلة عن الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. ويعود السبب في ذلك إلى ما أصاب عصبية بني أمية من وهن؛ أدى إلى تلاشي ظلها عن بلاد المغرب. كما أن توافر بعض الشروط الفعالة؛ ساعدت هي الأخرى القبائل على إقامة دول مستقلة. من بينها العامل الديني أو المذهبي؛ الذي تمكنت بعض القبائل من تحقيقه؛ الأمر الذي ساعد على تعزيز دور العصبية التي تنتمي إليها.

ولما كانت الدولة العباسية قد ورثت الأوضاع المتردية في بلاد المغرب ـ بعد سقوط الدولة

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 626، 636 ـــ 642.

الأموية ــ فقد تعذر عليها إعادة الكرة؛ وإخضاع الدول التي استقلت عن الخلافة من قبل. وهذا ــ طبعا ــ يعود إلى حداثة الدولة العباسية، وبداية عهدها من جهة؛ وإلى شدة العصبية الفياضة؛ التي تتميز بها القبائل المغربية؛ تلك العصبية التي جعلت منها قوة لا يستهان بها. هذا بالإضافة إلى العامل الديني؛ الذي أضحى يشد أفراد القبائل بعضهم إلى بعض. كما أن للعامل الجغرافي كلمته التي لا شك فيها في هذا الباب.

۞۞۞

دول الخوارج

هذه التسمية (**الخوارج**) لم يطلقها أصحابها على أنفسهم؛ بل سماهم بها خصومهم. لذلك نجد الإباضيين في بلاد المغرب يستنكرون إطلاق هذه التسمية عليهم.[1] وتعود بداية ظهور المذهب الخارجي إلى عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وبالتحديد أثناء وقعة صفين؛ أي حين رفضت فئة من المتقاتلين نتيجة التحكيم؛ فخرجوا عن صف علي، وفارقوا صفوف أنصاره؛ معلنين العصيان، ثم دعوا الناس إلى خلعه هو ومعاوية معا. فاعتبرهم أهل السنة ـ بسبب ذلك ـ خارجين عن الصف؛ وأسموهم الخوارج.[2]

---

[1] أنظر: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، للدرجيني، ج: 2، الصفحات: 201 وما يليها. وكتاب مختصر تاريخ الإباضية لسليمان الباروني، ص ص: 17 ـــ 33. وكتاب الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية، ص ص: 21 ـــ 23. وكتاب تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص ص: 337 ـــ 400.

[2] أما الشهرستاني فيقول: ((كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا؛ سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان... اعلم أن أول من خرج على أمير المؤمنين علي ﷺ جماعة ممن كان معه في حرب صفين؛ وأشدهم خروجا عليه ومروقا في الدين الأشعث بن قيس الكندي، ومسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي؛ حين قالوا: "القوم يدعوننا إلى كتاب الله، وأنت تدعونا إلى السيف" حتى قال:=

ويتميز المذهب الخارجي بسماته السياسية؛ وإن مزج بصبغة دينية. وتدور أصوله حول فكرة الإمامة، ونظرية الحكم في الإسلام؛ حيث شكك أصحابه في صحة الحديث القائل: ((**الأئمة من قريش**))؛ وقالوا بشرعية الإمامة لكل مسلم صالح؛ على أن يتم اختياره بحرية مطلقة؛ لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود. واستندوا في ذلك إلى الحديث الشريف: ((**اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة**)). هذا وتباعدت – بمرور الوقت – الآراء والمعتقدات بينهم، فظهرت اختلافات أساسية في الأفكار المتداولة في أوساطهم؛ وذلك نتيجة لتنوع التأويلات وتشتت المبادئ وتباين المصالح؛ فتوالدت فرقهم وانشقت صفوفهم فانبثقت بينهم فرق جديدة؛ فتنتهم إلى فروع متباينة؛ قد تصل إلى العشرين فرقة تقريبا؛[1] أشهرها:

=«أنا أعلم ما في كتاب الله! انفروا إلى بقية الأحزاب! انفروا إلى من يقول: كذب الله ورسوله، وأنتم تقولون: صدق الله ورسوله)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 114. للمزيد من الشرح أنظر: كتاب الكامل للمبرد، ج: ص ص: 76 ـــ 251. وكتاب العبر، مج: 3، ص ص: 303 ـــ 364. وكتاب الخوارج والشيعة للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ص ص: 3 ـــ 145. وكتاب الفرق الإسلامية للمستشرق الفرنسي آلفرد بل، ص ص: 140 ـــ 150. وكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، ص ص: 256 ـــ 265.

[1] ذكر الشهرستاني منها: المحكمة الأولى؛ وهم الذين خرجوا عند التحكيم. والأزارقة؛ وهم الذين خرجوا مع نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهوال. والنجدات العاذرية؛ وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. والبيهسية؛ وهم أصحاب بيهس الهيصم بن جابر. والعجاردة؛ وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. والثعالبة؛ وهم أصحاب ثعلبة بن عامر. والإباضية؛ وهم أصحاب عبد الله بن إباض. والصفرية؛ وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وتفرع ـــ فيما بعد ـــ عن هذه الفرق الثمانية فرق أخرى كثيرة منها: العوفية (العونية)، الصلتية، الميمونية، الحمزية، الخلفية، الأطرافية، الشعيبية، الحازمية، الأخنسية، المعبدية، الرشيدية، الشيبانية، المكرمية، المعلومية والمجهولية،=

الأزارقة؛ نسبة إلى نافع بن الأزرق؛ وهم من غلاة الخوارج. ثم النجدات؛ أتباع نجدة بن عامر. ثم الإباضية؛ أتباع عبد الله بن إباض التميمي؛ وهم أقرب الفئات المذكورة من المذاهب السنية؛ فلم يكونوا متطرفين، ولا مغالين في أحكامهم تجاه المخالفين لمعتقدهم من المسلمين. ثم الصفرية؛ أصحاب زياد ابن الأصفر، ويقتربون من الإباضية في أحكامهم ومواقفهم.[1]

وترجع بداية ظهور المذهب الخارجي؛ في بلاد المغرب إلى أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة. حيث انتقل من المشرق بواسطة الخوارج الهاربين من قمع الأمويين بالمشرق؛ إذ وجدوا في ديار المغرب النائية ملجأ آمنا لهم؛ ومنهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ ذلك الداعية الإباضي اليمني الأصل.[2] وربما كان من أولئك الخوارج أيضا من كان مندسا في صفوف جيوش الخلافة الزاحفة إلى بلاد المغرب؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال عكاشة بن أيوب الفزاري؛ الذي كان ضمن جيش عبيد الله بن

=البدعية، الحفصية، الحارثية، اليزيدية. أنظر الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ــ 138.

[1] يبدو أن الصفرية في بلاد المغرب كانوا أشد تطرفا من صفرية المشرق. مع استثناء واحد يتمثل في دولة سجلماسة التي تميزت بالتسامح؛ وإن كان ذلك التسامح بدأت بوادره انطلاقا من حكم مدرار؛ الذي أخذ في التقرب من بني رستم ومذهبهم الإباضي.

[2] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 22. الفرق الإسلامية لآلفرد بل، ص: 170. تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 3.

الحبحاب.[1] كما يمكن إضافة الدور الهام الذي قام به عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس؛ ذلك العالم التابعي الأمازيغي الأصل؛ الذي تقول المصادر أنه كان يعتنق المذهب الخارجي؛ بل الصفري بالتحديد.[2] ولما كانت لعكرمة اتصالات مع بعض رؤساء القبائل الأمازيغية؛ سواء عندما زار إفريقية،[3] أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة. فقد تمكن من نشر أفكاره بينهم. وهذا ما اتضح من اجتماع سمغون (سمكو) بن واسول به بإفريقية عندما زار عكرمة تلك الديار للدعوة لمذهبه؛ أو بالمدينة كما ذكر ابن خلدون.[4] وكما

---

[1] يقول الرقيق القيرواني: ((وكان صفريا يعبد الله؛ وهو الذي قدم على طليعة أهل الشام؛ مع عبيد الله بن الحبحاب)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 114. أنظر ايضا فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ــ 299. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 58 ــ 59.

[2] ذكره الشهرستاني بين رجال الخوارج؛ دون أن يحدد أي فرقة منهم. الملل والنحل، ج:1، ص: 137. وكذلك ابن خلكان الذي قال فيه: ((وقد تكلم الناس فيه؛ لأنه يرى رأي الخوارج)). وفيات الأعيان، ج: 3، ص: 265.

[3] قال المالكي: ((دخل عكرمة إفريقة وأقام بالقيروان، وبث بها العلم؛ وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة)). رياض النفوس، ج: 1، ص: 146. وجاء في التعليق 8 من الصفحة نفسها بالمصدر نفسه: ((اورد الذهبي في تاريخ الإسلام (3: 160) نصا مهما عن صلة عكرمة بالمغرب؛ ويزيد في أهميته أن سنده إفريقي: "حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي عن خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم؛ فقال عكرمة: وددت أن بيدي حربة اعترض بها من شهد الموسم. قال فرفضه أهل إفريقية")). وإن صح هذا النص ربما دل على نزعة العنف عند عكرمة. أنظر أيضا طبقات علماء إفريقية لأبي العرب. ص ص: 82 ــ 83.

[4] قال البكري: ((وكان فيه أبو القاسم سمجوا [سمغون] بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة؛ فاجتمع إليه قوم من الصفرية ؛ فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود، وولوه أمرهم؛ فشرعوا في بنيان سجلماسة؛ وذلك سنة أربع ومائة)). المغرب، ص: 149. أما ابن خلدون فيقول أن اللقاء حدث في المدينة: ((كان أبوه سمقو [سمغون] من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين، وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. ذكره عريب بن=

هو معروف كان هو كبير مكناسة؛ تلك القبيلة التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. هذا وانتشر المذهب الخارجي ببلاد المغرب بين الأمازيغ بسرعة قياسية مدهشة؛ إذ اعتنقه السواد الأعظم منهم؛ منبهرين بتعاليمه الداعية إلى ما يعرف اليوم بالديمقراطية والمساواة والحرية. وقد ساعد على سرعة انتشار هذا المذهب، وازدياد أنصاره؛ ما كان بيديه بعض ولاة الدولتين: الأموية والعباسية من سلوك اتسم بسوء السياسة، والجشع المادي، والعصبية العمياء. وقد استفحل أمر هذا المذهب ـ منذ البداية ـ في ظل ثورات الأمازيغ؛ ضد الحكم الأموي. وكانت أولى الثورات الخطيرة هي الثورة التي قادها ميسرة المطغري سنة 122هـ(739م)؛ ذلك الثائر الذي حاول إنشاء إمارة؛ بل خلافة؛ بعد أن عقد البيعة لنفسه بالخلافة. ولكنه لم يدم في مركزه طويلا؛ إذ ثار عليه أتباعه، وقتلوه؛ بسبب بعض المآخذ التي حسبوها عليه؛ منها سوء القيادة، وفساد سياسته.

ثم أجمعت القبائل الثائرة ـ بعد مقتل ميسرة ـ على إسناد أمرها إلى خالد بن حميد الزناتي؛ ذلك القائد الذي تصدى لجيوش بني أمية، وأشعل البلاد حربا ضارية ضدهم؛ كادت أن تزيل حكم الأمويين من بلاد المغرب كافة. ومع هذا لم تنجح هذه الإمارة في البقاء طويلا؛ بسبب تباين

=حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته)). العبر، مج: 6، ص ص: 210. 267 ـــ 268.

أهواء قبائلها، وافتقارها للعصبية المتجانسة؛ ذات النفوذ والكثرة والفاعلية والغلبة.[1] وذلك أن أتباع هذه الإمارة وأنصارها كانوا – منذ البداية – خليطا من مختلف القبائل الأمازيغية المتساوية في العدد والسطوة وشدة العصبية؛ وكان الحلف بينها هشا وظرفيا؛ فاستظلوا – سطحيا – بمظلة المذهب الصفري بعض الوقت. غير أن العصبية القبلية – وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين – فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم – في ذلك الوقت – بالضعف وعدم الوضوح؛ وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر الكافي؛ مما أضعف دوره في مساعدة العصبيات المتحالفة على تحقيق التلاحم المطلوب.

وحتى يسهل تفسير تلك الأحداث؛ يستحسن مراجعة نظرية ابن خلدون؛ التي تقول بضرورة تحقيق شروط التركيب والمزج الصحيحين؛ لكي يتحقق الالتحام الفعال بين العصبيات المراد توحيدها؛ **((لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون؛ لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)).**[2] ولما كانت القبائل

---

[1] أنظر كيف تخلى وأتباع أبي قرة عن حلفائهم الخوارج بمجرد إغرائهم بأربعين ألف درهم؛ خلال حصارهم لعمر بن حفص بطبنة حاضرة الزاب. العبر، مج: 7، ص ص: 24 — 25. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 49 — 51.

[2] المقدمة ، ج: 2، ص: 599.

الأمازيغية المتحالفة متساوية في قوة العصبية؛ فقد تعذر عليهم تحقيق الوحدة والمزج والتلاحم؛ خاصة وأنهم لم يمتلكوا زمام الدعوة المذهبية على أفضل وجه. وطبعا هذا شرط آخر يضعه ابن خلدون في نظريته؛ إلى جانب شرط المزج والتركيب السابق الذكر.[1] وقد ثبت عجز تلك القبائل المتحالفة تحت قيادة خالد بن حميد الزناتي عن إنشاء ملك أو دولة ما. وكل ما ورد في المصادر عنها؛ هو إمكانية انقسامها إلى فئتين اثنتين؛ يجمعهما ما اصطلح على تسميته بفرق المذهب الخارجي؛ وهي: الصفرية، والإباضية.

ويبدو أن أولئك الثائرين من أبناء القبائل الأمازيغية لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم للتأمل الدقيق في الجوهر الذي يفصل بين الصفرية والإباضية. وكل ما كان يشدهم إليهما هو المبدأ الديمقراطي الذي يجمعهما.[2] أما سبب تصنيفهما إلى

---

[1] يقول ابن خلدون: ((أن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية... واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف [أي يزيد] عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة... واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى [أي أشد بداوة] من المصامدة وأشد توحشا؛ وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي؛ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها؛ فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم؛ وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم)). نفسه، ص ص: 637 ـــ 638.

[2] أنظر تاريخ مسلي أسبانيا، لدوزي، ص : 146 ـــ 147. والفرق الإسلامية لبل، ص: 146.

صفرية وإباضية فربما رجع إلى المؤرخين الإسلاميين؛ أكثر من رجوعه إلى المعنيين أنفسهم؛ لذا فإن النزعة القبلية كانت هي الأقوى بروزا؛ واتباع رئيس القبيلة هو الأهم لديهم. وما كان يجمع الناس آنئذ هو سخطهم وعداوتهم للحكم الأموي الظالم. ويبدو أنهم وجدوا في الانتساب لتلك الفرق الخارجية مخرجا يقيهم من التسلط الأموي؛ دون أن يجبروا على مخالفة الدين الإسلامي الحنيف. وربما جاء تصنيف المؤرخين للقبائل الأمازيغية الثائرة إلى صفرية وإباضية؛ تبعا لملاحظة سلوك كل فئة في القتال أمام خصومهم من المسلمين؛ ومدى ما يحرمونه على أنفسهم وما يحللونه.

وهكذا فبواسطة هاتين الفرقتين انتشرت ـ بعد ذلك ـ الثورات الطاحنة؛ عبر بلاد المغرب كلها. ثورات ظاهرها مذهبي وديني؛ أما مضمونها فيتميز بالعصبية والنزعة القبلية. وقد تمكن المذهبان المذكوران من تقسيم البلاد بينهما تقريبا؛ فانحازت قبائل: غمارة ومكناسة وبرغواطة وبنو يفرن ومغيلة وورفجومة، وبعض بطون صنهاجة، وبطون من زناتة؛ إلى الصفرية. أما: هوارة ونفوسة ولماية ولواتة، وبطون أخرى من زناتة؛ فقد انضمت إلى المذهب الإباضي.[1]

هذا وقد انجر عن تلك الانتماءات المذهبية قيام دول خارجية مستقلة في أقاصي البلاد؛ ترتكز

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 223 ـــ 227. 246 ـــ 248. 255 ـــ 267. 286 ـــ 287. 428 ـــ 438.

على النظام القبلي، والروح المذهبية. منها: دولة برغواطة؛ التي نشأت في بدايتها ضمن الغطاء المذهبي الصفري، ثم دولة بني مدرار الصفرية، ثم دولة بني رستم الإباضية. وقد استطاعت هذه الدول الثلاث البقاء والصمود؛ أمام كل الاضطرابات التي اجتاحت المغرب الإسلامي آنذاك؛ متحدية ــ بذلك ــ سطوة الخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية بعدها. كما استطاعت أيضا إضفاء طابع مذهبي وديني على مؤسساتها؛ مع شيء من التفاوت فيما بينها.

غير أنه من الضروري ــ هنا ــ التذكير؛ بكون الدول الثلاث كان يغلب عليها الطابع القبلي؛ مصبوغا بسمات البداوة المحض؛ معززة بمبادئ مذهبية، وعقائدية؛ منحتها نفحة دينية متميزة. علما بأن دولة بني رستم تفوقت على أختيها؛ في نظمها وفي سيادتها وفي نفوذها. إذ كانت تتمتع باستقلالية أوسع منهما. حيث كانت دولة برغواطة تعلن ولاءها للدولة الأموية بالأندلس.[1] أما إمارة بني مدرار؛ فقد صرحت بالدعوة لخلفاء بني العباس ببغداد.[2] ومع هذا فقد ظل ذلك الولاء شكليا؛ لا يؤثر ولا يتأثر. فالهدف منه هو كسب نوع من الشرعية؛ قد تساعد على الثبات والاستقرار. والذي يحث على تخصيص فقرات

---

[1] المغرب، 135. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص: 183. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 224. والعبر، مج: 6، ص: 130.

[2] العبر، مج: 6، ص: 268. وصبح الأعشى، ج: 5، ص: 165.

للحديث عن تلك الدول؛ في هذا المجال؛ هو ما عرف عن منعتها، وتحديها للدول الكبرى آنئذ. غير أن المعلومات الضئيلة التي أوردها المؤرخون عنها لا تفي بالحاجة المطلوبة. وسيبقى أمرها مغلفا بالغموض؛ ما دامت النصوص التاريخية الكافية مفقودة.

وجملة القول؛ فهذه الدول نشأت في أعقاب الفشل الذي لحق بالقبائل الصفرية والإباضية؛ أمام ولاة إفريقية والمغرب؛ طوال الفترة الزمنية الممتدة من عام 124هـ(741م) إلى عام 144هـ(761م)؛ حيث تفرقت - نتيجة لذلك الفشل - القبائل الأمازيغية (الصفرية والإباضية) في ربوع المغربين: الأقصى والأوسط؛ أين تحصنوا في المناطق النائية، وشيدوا دولهم الخاصة بهم.



1)ـ الدولة البرغواطية:

انجر عن الفشل الذي لحق بالصفرية والإباضية ببلاد المغرب؛ قيام الدولة الصفرية الأولى في أقصى البلاد؛ ممثلة ببرغواطة سنة 127هـ(744م). وذلك عندما لجأ طريف الصفري إلى إقليم تامسنا (بمنطقة الدار البيضاء حاليا)؛ حيث ترأس بعض القبائل ـ هناك ـ من: مصمودة وزواغة وزناتة، وقبائل أخرى.[1] وبعد موته خلفه ابنه صالح؛ الذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. وبذلك يكون طريف وابنه صالح قد وصلا إلى مرتبة الرئاسة والسؤدد في قبائل متعددة؛ مع أنهما لا ينتميان إلى عصبيتهما. فكيف حصل ذلك؟

الإجابة على هذا توجد عند ابن خلدون؛ الذي ذكرها ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[2] والمقصود هنا؛ هي عصبية صاحب النصاب؛ الذي يلجأ إلى عصبية أخرى؛ عندما يفقد عصبيته الخاصة. ويرى ابن خلدون في هذا الفصل أن

---

[1] وكانوا أحياء من قبائل كثيرة؛ ذكرهم البكري بقوله: ((وأن قبائل برغواطة الذين يدينون لهم؛ وهم على ملتهم: جراوة، وزواغة، والبرانس، وبنو أبي ناصر، ومنجصة، وبنو أبي نوح، وبنو واغمر، ومطغرة، وبنو يورغ، وبنو دمر، ومطماطة، وبنو وزكسينت؛ وعددهم ينتهي أزيد من عشرة آلاف فارس. وممن يدين لهم من المسلمين، وينضاف إلى مملكتهم زناتة الجبل، وبنو يليت، ونمالتة، وبنو واسينت، وبنو يفرن، وبنو وناغيت، وبنو النعمان، وبنو إفلوسة، وبنو كونة، وبنو يسكر، وأصادة، وركانة، وإيزمين، ومنادة، وماسينة، ورصانة، وترارتة؛ ومبلغ عددهم اثني عشر ألف فارس)). المغرب، ص ص: 140 ـ 141.

[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.

معرفة الناس بصاحب النصاب اللاجئ إليهم، وتقديرهم منزلته السابقة وتعظيمها؛ يكفيان لقبول رئاسته، وسلطانه عليهم. وهكذا يستعين بعصبية أخرى؛ غير عصبيته؛ فيؤسس بواسطتها دولته المستحدثة. وقد حدث هذا ـ أيضا ـ في دولتي: الأدارسة، والفاطميين فيما بعد.

ـ حكومة صالح بن طريف البرغواطي:

ولما كان طريف وزيرا وقائدا سابقا لميسرة المطغري؛[1] فقد اعتبرته القبائل الأمازيغية ـ المتواجدة بمنطقة تامسنا ـ أحد الذين يدخلون ضمن أهل النصاب الملكي؛ فسهل انقيادهم إليه؛ تسليما منهم بمكانته، ومركزه السابق. وثمة أقوال أخرى تنسب إلى طريف هذا جزيرة طريف بالعدوة الأندلسية[2]؛ وإذا صح هذا الخبر؛ يكون هذا الرجل هو ذلك القائد الأمازيغي الذي قام بغزو بلاد الأندلس في حملة استطلاعية سنة 91هـ(709م) قبل أن يغزوها طارق بن زياد.[3] وعليه يكون طريف هذا من أبرز القادة والأمراء الأمازيغ. أضف إلى ذلك كله ما للعامل الديني من أثر على الأوضاع؛

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 181.

[2] المغرب، ص: 135.

[3] قال ابن عذاري: ((فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلا من البربر، يسمى طريفا ويكنى أبا زُرَعة؛ في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في أربعة مراكب؛ حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس؛ فيما يحاذي طنجة؛ وهو المعروف اليوم بجزيرة طريف؛ سميت باسمه لنزوله هنالك؛ فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيا ومالا كثيرا؛ ورجع سالما. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة 91هـ)). البيان المغرب، ج: 2، ص: 5.

حيث كان للمذهب الصفري دوره في تعزيز اللحمة وشحن النفوس بالغيرة وروح التضحية. ذلك لأن الدين يزيل خلق التكبر والحسد والتنافس. وبمرور الوقت نسيت قبائل تامسنا نسب طريف الأول، وخفيت عن التابعين الكيفية التي وصل بها إلى الحكم. وهكذا أصبح منسوبا إليهم وفي عدادهم.

هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى ثمة من لا يضع الدولة البرغواطية في عداد الدول الصفرية أصلا؛ نظرا لكونها انحرفت عن تعاليم المذهب الصفري الخارجي نفسه؛ بل هناك من يتهم أمراءها بالارتداد عن الدين الإسلامي أيضا؛ حيث أجمعت المصادر التاريخية على ذلك تقريبا؛ تبعا لما يدعيه البرغواطيون من النبوة، وزعمهم بنزول الوحي على رابع أمرائهم (يونس)؛ الذي يقال أنه ابتدع النحلة البرغواطية، وألف ما أسماه قرآنا.[1] على أن بعض المؤرخين ينسبون ادعاء النبوة إلى جده صالح؛ ويقولون أنه هو الذي ابتكر هذه النحلة. أما يونس فقد أظهرها للعلن؛ بعد أن كانت تمارس في الخفاء.[2] وهذا طبعا يخرجه – مع أتباعه – من صفوف المذهب الصفري الخارجي الإسلامي. غير أن نشأة الدولة البرغواطية في بداية عهدها الأول – كما تشير مصادر عديدة – كانت صفرية المذهب؛ ولم يظهر على أصحابها انحراف

---

[1] المغرب، ص ص: 134 – 141. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 223 – 227. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 182 – 187. والعبر، مج: 6، ص ص: 428 – 435.

[2] المغرب، ص: 135.

ما عن جوهر الدين الإسلامي؛ وما حدث من انحراف لم يتم إلا في عهد أمير الدولة الرابع. لذلك وجدت هذه الدولة مكانا لها في هذا المجال.

والذي يهم هنا؛ هو أنه لا سبيل إلى الشك في أن عامل العقيدة – الممثل بالمذهب الصفري – قد لعب دورا هاما في تعزيز التحالف القبلي، وفي التلاحم بين أعضائه في بداية الأمر؛ مما ساعد على تشييد إمارة برغواطة. لكن هذا لا ينفي ما للعصبية الأمازيغية أيضا من تأثير في تقوية اللحمة وتماسكها بين القبائل. بحيث انبثق الأمر على شكل من أشكال الرفض والمقاومة للعصبية العربية؛ الممثلة بالأمويين أولا، ثم العباسيين بعدهم. هذا كله حث بعض العشائر والقبائل الأمازيغية، وحفزها على التحالف فيما بينها؛ ضمن عصبية واحدة؛ لمواجهة التحدي الذي كانوا يعتقدون أنه يهددهم.

وظهور النحلة البرغواطية – فيما بعد – بين قبائل لا تعرف من تعاليم الإسلام الصحيحة إلا القليل منها؛ ساعد على تكتلها ضمن عصبية موحدة وقوية؛ شحنت بمفاهيم خرافية وطقوس مضللة، خاطئة. كما أن تلك النحلة ليست بريئة من النزعة الشعوبية؛ التي متنت اللحمة بين العشائر الأمازيغية، وزادتها ارتباطا. ودلائل ذلك؛ تتجلى فيما ورد من نصوص تخص نحلتهم؛ تلك

النصوص والطقوس الوثنية الناطقة بالأمازيغية.[1] الأمر الذي كان يمدهم بشحنات من الزهو والافتخار الشعوبي. وبذلك اشتدت عصبيتهم واستفحلت؛ محققة لدولتهم البقاء، والاستمرار إلى عهد المرابطين؛ المشكلين من قبائل لمتونة ومسوفة؛ الذين تمكنوا من إسقاط الدولة البرغواطية تماما سنة 450هـ(1058م)؛ بفضل تفوقهم وامتيازهم في شدة العصبية وتماسكها؛ إلى جانب صدق وعنفوان التعاليم الدينية المهيمنة على النفوس.

وثمة بعض الكتاب والمؤرخين الأندلسيين والمغاربة – مثل ابن أبي زرع وابن الخطيب – ينسبون طريفا وابنه صالحا إلى أصول يهودية؛ وتقول مصادرهم بأن صالحا – أو طريفا وربما يونس في أقوال أخرى – قد قدم إلى بلاد المغرب من بلدة شذونة؛ المتواجدة بوادي برباط بالجنوب الغربي من بلاد الأندلس؛ و على ذلك فقد سمي كل من أتبعه – في بداية الأمر – برباطي؛ ومع الوقت حرفت التسمية تبعا لنطق الناس آنذاك؛ فقالوا في كل من أتبع مذهب صالح الصفري برغواطي.[2] غير أن عددا من المؤرخين يخالفون

---

[1] انظر ما أورده البكري في كتابه المغرب، ص ص: 139 – 140. وابن عذاري في البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 226 – 227.

[2] وعن صالح ونحلته يقول ابن أبي زرع: ((وكان أصله – لعنه الله – من بَرباط من عمل شذونة من بلاد الأندلس؛ فكان يقال من تبعه ودخل في ديانته برباطي؛ فعربته العرب، وقالوا برغواطي؛ فسموا برغواطة. وكان صالح بن طريف الذي ادعى فيهم النبوة رجلا خبيثا يهودي الأصل؛ من ولد شمعون بن يعقوب ﷺ ؛ نشأ ببرباط من بلاد الأندلس، ثم رحل إلى المشرق؛ فقرأ على عبيد الله المعتزلي القَدَري، واشتغل بالسحر؛ فجمع منه فنونا كثيرة. وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا؛ فوجد بها قبائل من=

هذا الرأي؛ من بينهم عبد الرحمن بن خلدون الذي يكذب الأخبار التي تنسب صالحا هذا إلى اليهود، أو ترجع موطنه الأول إلى بلدة بربساط، أو تقول أنه ذهب إلى المشرق؛ أين تعلم السحر، أو تزعم أنه قرأ على عبيد الله المعتزلي؛ ثم عودته إلى المغرب؛ أين وجد قوما من زناتة جهلة... إلخ. ثم ينتهي إلى القول: **((ذكر ذلك كله صاحب كتاب نظم الجوهر وغيره من النسابين للبربر. وهو من الأغاليط البينة. وليس القوم من زناتة؛ ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة. وأما صالح بن طريف فمعروف منهم؛ وليس من غيرهم؛ ولا يتم التغلب على النواحي**

=البربر هالا؛ فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع؛ فأخذ بعقولهم، واستمالهم بسحره ولسانه؛ وأراهم من نوارجه [أي نميمته] وتمويهاته؛ فاستهواهم بذلك، وأقروا بفضله، واعترفوا بولايته؛ فقدموه على أنفسهم، وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم، ووقفوا عند أمره ونهيه؛ فادعى النبوة، وتسمى بصالح المؤمنين. وقال لهم أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمدﷺ؛ وشرع لهم الديانة التي أخذوها عنه وذلك في سنة خمس وعشرين ومائة... وأنهم يصومون شهر رجب، ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات: خمسا بالليل، وخمسا بالنهار؛ وإن الأضحية واجبة على كل مسلم في الحادي والعشرين من المحرم. وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين. وصلاتهم إيماء؛ لا سجود فيها، ويسجدون في آخر ركعة خمس سجدات. ويقولون عند الطعام والشراب: باسم "ياكس"؛ وزعم أن تفسيره باسم الله. وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار. وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء؛ ولا يتزوج من بنات عمه؛ ويطلقون ويرجعون ألف مرة في اليوم. فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك. وأمرهم بقتل السارق حيث وجد؛ وزعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف. وأمرهم بالدية من البقر. وحرم عليهم رأس كل حيوان؛ والدجاجة مكروه أكلها؛ وقد وقتهم في الأوقات الديكة؛ وحرم عليهم ذبحها وأكلها؛ ومن ذبح ديكا وأكله أعتق رقبة... ووضع لهم قرآنا يقرؤونه في صلواتهم)). الأنيس المطرب، ص: 83. كما تكلم البكري أيضا عن بعض التفاصيل الأخرى تخص هذه النحلة. المغرب، ص ص: 135 ــ 140. وقد أشار إليها أيضا ابن عذاري وابن الخطيب. البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 225 ــ 227. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص : 182 ــ 183.

والقبائل لمنقطع جذمه، دخيل في نسبه. سنة الله في عباده؛ وإنما الرجل في برغواطة؛ وهم شعب من شعوب المصامدة معروف)).[1] ومع ذلك فما قاله ابن خلدون في هذا الأمر يحتاج إلى تمحيص وفحص؛ فهو عندما نسب برغواطة إلى المصامدة. وحين أرجع مصدر تلك الأخبار – المرفوضة لديه – إلى صاحب كتاب نظم الجوهر وآخرين؛ لم يقدم دليلا أو حجة مقنعة تساند رأيه الرافض لما ذكره غيره؛ سوى تعليله للأمر بوحدة الموطن وعامل الجوار؛ علما بأن المنطقة التي تغلبت عليها برغواطة؛ تعتبر عند كثير من المؤرخين موطنا لقبائل عديدة ومتنوعة الأنساب ومختلفة العصبيات؛ وليست خاصة بالمصامدة فقط؛ بل هي من مواطن زناتة حسبما ذكر البكري.[2] كما أن خبر برغواطة لم يأت عن طريق كتاب نظم الجوهر والنسابة الأمازيغ فحسب؛ بل جاء أيضا بواسطة الرواية التي أوردها البكري صاحب كتاب المغرب – وهو قديم العهد بالمقارنة مع زمن ابن خلدون – وقد استعان ابن خلدون نفسه بخبر البكري.[3] وفي هذا يقول البكري أنه نقل خبر برغواطة عن الرواية المنسوبة إلى المدعو زمور بن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي؛ صاحب صلاتهم، وسفير آخر أمرائهم أبي منصور عيسى ابن أبي الأنصار. حدث ذلك عندما قدم

[1] العبر، مج: 6، ص: 435.
[2] المغرب، ص: 135.
[3] العبر، مج: 6، ص ص: 428 ـــ 432.

رسولا إلى الخليفة المستنصر، من قبل أميره عيسى بن أبي الأنصار البرغواطي. وكان وصوله إلى قرطبة في 352هـ(963م).

وجملة القول؛ فإن ما قاله البكري لا يختلف كثيرا عما ذكره آخرون؛ ومنهم ابن أبي زرع وابن الخطيب وابن عذاري؛ الذين يجمعون على أن برغواطة عبارة عن تجمع لقبائل أمازيغية متحالفة. ثم كيف يستبعد ابن خلدون أن تقبل قبائل تامسنا بطريف كأمير عليهم؟! مع أنه هو صاحب النظرية التي تقول بإمكان الاستعانة بعصبية أخرى؛ غير عصبية صاحب النصاب؛ بحيث تعوضه العصبية البديلة عن غياب عصبيته؛ وهذا ما نص عليه ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1] وكما هو معلوم فطريف هذا يدخل في عداد أهل النصاب؛ إذ كان وزيرا وقائدا في جيش ميسرة. بل كان عاملا لميسرة في تامسنا نفسها؛ كما ذكر ابن خلدون بالذات.[2] وإذا صحت الرواية التي تسند إلى طريف هذا قيادة الحملة العسكرية الاستطلاعية إلى أرض الأندلس؛ تلك الحملة التي سبقت غزوة طارق بن زياد؛ فإنه عندئذ يكون من أبرز القادة الأمازيغ في تلك الأيام. وعليه فإنه يكون قد انفرد بالأمر في تامسنا النائية؛ حيث انضم إليه ــ حسبما يبدو ــ جماعات من الصفرية

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـــ 636.
[2] العبر، مج: 6، ص: 428.

الذين سبق لهم أن ثاروا معه ومع ميسرة؛ وبهم تشكلت النواة الأولى للدولة البرغواطية. وبعد مماته خلفه في الحكم ابنه صالح؛ الذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. ويقول ابن خلدون أن أول ظهور له كان في عهد هشام بن عبد الملك.

أما ما راج من مزاعم تنسب طريفا أو صالحا إلى اليهود؛ يظهر أنها لم تكن سوى شكل من أشكال النبز والشتيمة.. والذي عزز تلك الافتراضات ـ حسبما يظهر ـ هي أسماء أجدادهما مثل: شمعون ويعقوب وإسحاق؛ ثم بعض الإشارات الأخرى التي تنبعث من معتقداتهم وأساطيرهم؛ التي وردت في قرآنهم المزعوم. وحتى إن صح نسبهم لليهود؛ فقد يكون ذلك حصل قبل الفتح؛ إذ يحتمل أن يكون طريف قد انحدر من أسرة كانت تعتنق ديانة يهودية؛ قبل أن يدخل الإسلام إلى ديار المغرب. وهذا أمر كان موجودا في تلك الربوع؛ إذ ذكرت مصادر تاريخية عديدة اعتناق بعض القبائل الأمازيغية للديانة اليهودية، إلى جانب المسيحية في بلاد الغرب قبل الفتح الإسلامي. وطبعا فما المانع من التسليم بدخول من كان يهوديا أو نصرانيا إلى الإسلام؛ ضمن الأفواج التي دخلت فيه من أتباع الديانات الأخرى؟

ـ <u>حكومة إلياس بن صالح البرغواطي:</u>

وتقول بعض المصادر أن صالحا استخلف ابنه إلياس، ثم سافر إلى المشرق سنة 128هـ(745م). وذلك بعد أن أوصاه بإخفاء ديانتهم؛ حتى يقوى

شأنهم؛ فيتسنى له ـ عندئذ ـ قتل المخالفين. كما أوصاه بأن يلتزم بموالاة ملوك بني أمية في الأندلس. وتقول بعض الروايات أيضا أنه أخبره بموعد عودته المقبلة؛ التي حددها بحلول عهد الملك السابع من ملوكهم؛ حيث قال أنه سيظهر لهم في شخص المهدي؛ الذي يقتل الدجال، ويملأ الأرض عدلا بعد أن تكون قد ملئت جورا. ثم قال له: إن عيسى بن مريم عليه السلام سيكون من بين جنوده؛ إذ يصلي خلفه. ومن خلال ما جاء في بعض الروايات؛ تكون مدة حكم صالح قد دامت نحو ست سنين. ولما انتصب إلياس ملكا على قبائل برغواطة عمل بوصية والده؛ فلم يظهر شيئا من نحلة برغواطة؛ وتقول المصادر أنه كتمها ولم يخض في شأنها؛ وبالمقابل كان يظهر الإسلام، ويتحلى بالعفاف والصلاح. وبقي في الحكم ما يقارب الخمسين سنة.

ـ حكومة يونس بن إلياس البرغواطي:

وبعد موت إلياس سنة 176هـ(792م) خلفه ولده يونس. فاتخذ **شالة** حاضرة لملكه. وهو أول من أظهر ديانتهم المزعومة؛ في أرجح الأقوال. وتم ذلك بعد عودته من رحلة الحج.[1] غير أن بعضهم

---

[1] قال ابن خلدون: ((ورحل يونس إلى المشرق وحج؛ ولم يحج أحد من أهل بيته قبله أو بعده؛ وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه)). العبر، مج: 6، ص: 430.

ينسب إليه تأسيس النحلة دون جده صالح.[1] وكان يونس هذا شديدا وفاتكا؛ إذ أشعل تلك الجهات الغربية حربا وتدميرا وتشريدا للسكان؛ مجبرا الناس على إتباع نحلة جده.[2] ودام حكمه تسع وعشرة سنة؛ إذ توفي في عام 195هـ(810م). وهذا الرأي يخالف ما ذكره ابن خلدون؛ الذي يرى أنه حكم زهاء 44 سنة.

- حكومة أبي غفير معاذ بن يونس البرغواطي:

وبعد موت يونس تربع على سدة الحكم في دولة برغواطة ولده أبو غفير معاذ بن يونس؛ فكانت وطأته على الناس شديدة؛ حيث تابع نهج

---

[1] نقل البكري قائلا: (("قال أبو العباس فضل بن مفضّل المذحجي؛ أن يونس القايم بدين برغواطة أصله من شذونة؛ من وادي بَرِبَط. وكان قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عباس بن ناصح، ويزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية، وبرغوث بن سعيد التراري، وجدّ بني عبد الرزاق (ويعرفون ببني وكيل الصفرية)، ومناد صاحب المنادية (المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة)، وآخر ذهب عني اسمه. فأربعة منهم فقهوا في الدين؛ وادعى ثلاثة منهم النبوة؛ منهم يونس صاحب برغواطة". قال: "وكان يونس شرب دواء الحفظ؛ فلقن كل ما سمع وحفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجانّ، ونظر في الكلام والجدال؛ وأخذ ذلك عن غيلان؛ ثم انصرف يريد الأندلس؛ فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة؛ فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم. وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها؛ مما تدل عليه النجوم عندهم؛ فتكون على ما يقول أو قريبا منه؛ فعظم عندهم. فلما رأى ذلك منهم، وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر ديانته، ودعا إلى نبوته؛ وسمى من اتبعه بربطي؛ لما كان من بربط؛ ثم أحالوه بألسنتهم وردّوه إلى لغتهم؛ فقالوا برغواطي)). المغرب، ص ص: 137 ـــ 138.

[2] وفي هذا يقول البكري: ((فتولى الأمر بعد أبيه؛ فاظهر ديانتهم، ودعا إليها، وقتل من لم يدخل فيها؛ حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة؛ حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه؛ وقتل منهم بموضع يقال له تَامْلُوكَافْ ـــ وهو حجر نابت عالي في وسط السوق ـــ سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا. وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد؛ والوغد عندهم المنفرد الوحيد؛ الذي لا أخ له ولا ابن عم)). المغرب، ص: 136.

أبيه في إبادة الخارجين عن ديانة أجداده. وقد شن حملات إبادة جماعية على الخارجين عن سلطانه والرافضين لنحلته؛ وأهم تلك الوقائع والحملات: موقعة مدينة **تيمغيسن**؛ وكانت من كبريات المدن؛ فهجم عليها هجمة إبادة ذات أبعاد وحشية؛ دامت رحاها ثمانية أيام كاملة؛ حيث بدأت بيوم الخميس؛ ولم تتوقف إلا في الخميس الموالي؛ وجاء في الأخبار أن أزقة المدينة ودورها أضحت مليئة بالدماء. وشن أيضا حملة أخرى في موضع يقال له **بَهْت**؛ فأحدث فيه من القتل والتمثيل ما لا حصر له. وكانت له كذلك حروب عظيمة مع الأدارسة؛[1] وقد خسر في تلك الحروب كثيرا من أتباعه وأراضيه؛ حتى **شالة** ـ عاصمة دولته نفسها ـ سقطت في أيدي إدريس بن إدريس؛ بالإضافة إلى مناطق واسعة من تامسنا.[2]

---

[1] أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 186. دولة الأدارسة، ص: 280.

[2] وأبو غُفَيْر هذا هو الذي جاء ذكره في القصيدة التي قالها سعيد بن هشام المصمودي؛ يهجو فيها برغواطة؛ منها:

قِفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ فَأخْبِرِينَا
وقُولِي وَاخْبِرِي خَبَرًا مُبِينَا
هُمُومَ بَرَابِرٍ خَسِرُوا وَضَلُّوا
وخَابُوا لاَ سُقُوا مَاءً مَعِينَا
يَقُولُونَ: النَّبِيُّ أَبُو غُفَيْرٍ
فَأَخْزَى اللَّهُ أمَّ الكَاذِبِينَا
ألَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ تَرَ يَوْمَ بَهْتٍ
عَلَى آثَارِ خَيْلِهِمُ رَنِينَا
رَنِينَ البَاكِيَاتِ بِهِمْ ثَكَالَى
وَعَاوِيَةٍ وَمُسْقِطَةٍ جَنِينَا
هُنَالِكَ يُونُسٍ وَبَنُو أبِيهِ
يُوَالُونَ البَوَارَ مُعَظَّمِينَا
فَلَيْسَ اليَوْمَ رِدَّتُكُمْ وَلَكِنْ
لَيَالِي كُنْتُمُ مُسْتَيْسِرِينَا

(يقصد بكلمة مستيسرين أنهم كانوا من أتباع ميسرة المطغري)

وبقي أبو غفير في الحكم زهاء خمس وثلاثين سنة؛ إذ توفي في حدود عام 230هـ(844م) كما ذكر ابن الخطيب. أما ابن خلدون فيقول أنه حكم حوالي 29 سنة؛ إذ توفي في أواخر المائة الثالثة. وتقول الأخبار أن له أربع وأربعين زوجة؛ ومن البنين مثلهن وأزيد.[1]

- حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع البرغواطي:

وبموت أبي غفير معاذ خلفه بعض الأمراء من بينهم: أبو الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ هذا وقد أثنت المصادر التاريخية عليه، واعترفت بحسن سياسته، وابتعاده عن سفك الدماء. وتقول أنه لا يعتم إلا في وقت الحرب؛ وفي دولته لا يعتم إلا الغرباء؛ وكان لباسه الملاحف والسراويل؛ ولا يلبس القميص. ومن سياسته في الحرب؛ أنه يبدي — في كل عام — أنه ينوي الغزو؛ فيشرع في حشد الحشود؛ موهما القبائل الأخرى بأنه سيغزوها؛ فتسارع إلى تقديم الهدايا إليه؛ وبذلك يتخلى عن

[1] من هنا بدأت أخبار المؤرخين عن برغواطة تغيب وتضطرب؛ فابن الخطيب هنا يقول: ((وولي بعده [أي بعد أبي غفير] ولده أبو حفص [عمر]. واستمرت دولة عمر بن معاذ إلى أن توفي؛ وولي ولده اليسع بن إسماعيل [هكذا يصبح عمر إسماعيلا]؛ فقام بديانتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح؛ إذ كان سابع الأمراء من بنيه. واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وظهر أمر اللمتونيين ودعوتهم إلى أساس من فقه ودين؛ فجعلوهم جهادا قريبا وغزاهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني؛ فقتلهم قتلا ذريعا؛ حتى أسلموا إسلاما جديدا. وكان آخر ملوكهم عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ وانقرض ملكهم. وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف؛ لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 186 — 187.

نواياه المزعومة. وهكذا يتخذ مبدأ الردع سياسة؛ بدلا من الحرب. هذا وقد ملك أبو الأنصار زهاء اثنين وأربعين سنة. ولم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته

ـ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله البرغواطي:

ولما توفي أبو الأنصار خلفه ابنه أبو منصور عيسى. وهذا الملك هو الذي أرسل سفيره زمورا إلى المستنصر بقرطبة سنة 352هـ(963م).[1] كما أنه هو سابع الأمراء

---

[1] يقول البكري: ((أخبر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن واريزن البرغواطي ـــ وكان صاحب صلاتهم حين قدم رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى ابن أبي الأنصار عبد الله ابن أبي غُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـــ وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية ـــ وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي ـــ من أهل شلة. مسلم، من بيت خيرون بن خير. فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق؛ وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري ـــ المعروف بالحقير ـــ ومغرور ابن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه؛ احتل طريف ببلد تامسنى ـــ وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة ـــ فقدمه البربر على أنفسهم؛ وولي أمرهم؛ وكان على ديانة الإسلام؛ إلى أن هلك هنالك؛ وتخلف من الولد أربعة؛ فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور: "وكان موت صالح بعد موت النبيﷺ بماية عام سوا". قال: "وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير". قال: "وكان من أهل العلم والخير؛ فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم؛ وادعى أنه نزل عليه قرءانهم الذي يقرؤونه إلى اليوم". قال زمور: "وهو صالح المؤمنين الذي ذكره الله عز وجل في قرءان محمد ﷺ في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرايعه، وفقهه في دينه؛ وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن؛ فإنه يدعوا إلى ملته؛ ويقتل حينئذ من خالفه. وأمره بموالاة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق؛ ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم؛ وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال؛ وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه؛ وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا...)). المغرب، ص ص: 134 ـــ 136.

البرغواطيين، وعليه فقد يكون أطال الانتظار؛ طمعا في تحقيق نبوءة جده صالح المزعومة؛ ولكن جده لم يف بوعده؛ ولم يعد كما زعم وأوهم أحفاده وأتباعه.. غير أن قادما آخر ظهر في الأفق؛ وهذا الوافد هو الذي تولى مهمة القضاء على دولة برغواطة نفسها؛ ثم إزالة نحلتهم الشاذة الغريبة نهائيا. وذلك القادم لم يكن سوى أبي بكر بن عمر اللمتوني أمير المرابطين؛ الذي سحق مملكة برغواطة، وحاربهم كما يحارب الوثنيين والكفار؛ وهكذا؛ لم يبق لهم شأن يذكر؛ بعد سنة 450هـ(1058م). وما بقي من شتاتهم وجيوبهم المتفرقة؛ أكمل حصاد رؤوسهم المهدي بن تومرت. أما وفاة أبي منصور عيسى فقد حدثت قبل ظهور المرابطين في بلاده؛ إذ قتل في سنة 368هـ(978م) في غزوة شنها على برغواطة بلكين بن زيري.

وجملة القول تتلخص في أن هذه الدولة لم تهنأ بالأمن والاستقرار طوال حياتها الطويلة؛ إذ تعرضت ـ منذ نشأتها ـ إلى هجمات وغزوات عديدة؛ من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها؛ وإذا خفت الضغوط عليها قامت هي بالهجوم على القبائل المجاورة لها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها. وهذا هو ـ بالطبع ـ شأن الكيانات القبلية؛ التي تنبذ السكون وتمل الاستقرار على حال واحدة. ومن بين الدول التي ناصبت البرغواطيين العداء، وناوشتهم بالقتال: الدولة الإدريسية بفاس؛ التي تمكنت من انتزاع مقاطعات

شاسعة منهم في إقليم تامسنا؛ وطردتهم حتى من عاصمتهم مدينة شالة. ثم الدولة الأموية بالأندلس؛ وذلك عندما قام جعفر بن علي – في عهد المنصور ابن أبي عامر – بالزحف لقتال برغواطة في سنة 366هـ(976م)؛ ولكنه هزم في تلك المعركة. ثم في عام 389هـ(998م)؛ حينما قاد واضح مولى المنصور بن أبي عامر جيشا لغزوهم؛ فبالغ في قتلهم وسبيهم. كما غزاهم بلكين بن زيري سنة 368هـ(978م)؛ فاكتسح برغواطة وأثخن فيهم، وشتت شملهم؛ وقتل ملكهم أبا منصور عيسى ابن أبي الأنصار، وبعث سبيهم إلى القيروان. ثم شن عليهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة 420هـ(1029م) حربا كاسحة؛ فانتزع منهم تامسنا وأنهكهم بالقتل والسبي والتشريد. وبعدها انتهى أمر دولتهم نهائيا بواسطة المرابطين؛ بقيادة أبي بكر بن عمر سنة 450هـ(1058م)؛ وذلك بإسقاطها، وقتل ملكهم؛ وسماه ابن خلدون بأبي حفص عبد الله البرغواطي؛ وهو من ولد أبي المنصور عيسى بن الأنصار.[1]

❁❁❁

– الحضارة والحركة الثقافية:

ويبدو أن دولة برغواطة هذه ظلت على طابعها البدوي الساذج؛ لأنها لم تخلف وراءها أية

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 432 ـــ 434.

مآثر حضارية وثقافية تستحق الذكر. ولم يعرف من آدابهم سوى ذلك المنتوج الشفوي المتمثل فيما ابتكره صالح ـ أو يونس ـ من نصوص؛ أوهم أتباعه بأنها وحيا أو قرآنا نزل عليه. ويقال أن تلك النصوص تقدر بثمانين سورة كما سموها؛ منها: سورة الديك، وسورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة العجل، وسورة الحنش الذي يمشي على ثمانية أرجل، وسورة آدم، وسورة نوح، وسورة يونس، وسورة أيوب، وسورة طالوت، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وسورة الدجال، وسورة فرعون، وسورة قارون، وسورة هامان، وسورة ياجوج وماجوج، وسورة نمرود؛ بالإضافة إلى ما كانوا يشتغلون به من طقوس سحرية، وما كانوا يجيدونه من تنجيم ومعرفة بالنجوم..[1] وقد أورد البكري نصا مترجما من السورة المسماة بسورة أيوب؛ وقال أنها استفتاح كتابهم؛ وهي طويلة. جاء فيها: **((بسم الله الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس؛ وهو الذي بين لهم به أخباره. قالوا علم إبليس القضية أبى الله ليس يطيق إبليس؛ كما يعلم الله سل أي شيء؛ يغلب الألسن في الأقولة، ليس يغلب الألسن في الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق. أنظر محمدا (وعبارة ذلك بلسانهم أيمني مامت؛ فمامت محمد). كان حين**

[1] المغرب، ص: 140. والعبر، مج: 6، ص: 429.

عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه؛ حتى مات ففسد الناس. كذب من يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله)).[1] ومن خلال ما ورد من أسماء لتلك السور وما توحي إليه؛ يمكن استشفاف تأثير التراث اليهودي في ذلك كله. وقد يكون هذا من بين العوامل التي أثارت الشكوك في يهوديتهم.

المهم أن هذه الدولة كانت منغلقة على نفسها؛ لا تترك للتيارات الثقافية والحضارية الأخرى مجالا للتسلل إليها. ويعود ذلك إلى عزلتها وانطوائها ضمن النظم القبلية المتحجرة، وإلى الجهل المتحكم في أبنائها، وإلى رفض حكامها كل العوامل الثقافية الخارجة عن نطاقهم وكل ابتكار حضاري متطور يرد إليهم. وعليه فقد بقيت هذه الدولة ـ طيلة القرون التي عاشتها ـ تستند إلى النظام القبلي إلى أن جاء يوم سقوطها.

ويبدو ـ من جهة أخرى ـ أن انعدام الإنجازات الحضارية، وغياب الصلات الثقافية مع غيرهم؛ كان بمثابة التحصين والوقاية لأصحاب هذه الدولة؛ الأمر الذي ساعد على إبعادهم عن أسباب الترف والبذخ والاستسلام للسكينة والفتور. والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت الدولة البرغواطية البدوية؛ على البقاء حتى عهد المرابطين؛ أي من الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة. وخلال تلك الفترة الطويلة بقي أبناؤها على حال من الشدة والقوة والإقدام؛ حيث كانت

---

[1] المغرب، ص: 140.

أهم الصفات التي يتحلون بها، ويحرصون على التمسك بها هي الصفات العسكرية؛ ذات الطابع القتالي. وعليه فقد صح فيهم حكم ابن خلدون؛ حين تناول هذا الموضوع في مقدمته ضمن: "**فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر**". و"**فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها**".[1]

ولكي نستكمل الصورة التي تخص قبيلة برغواطة؛ لابد من الإشارة هنا ـ ولو بإيجاز ـ إلى إمارة برغواطية أخرى؛ هي إمارة سقوط البرغواطي. نشأت هذه الامارة فجأة واختفت دون ضجيج كبير، أو اعتناء كافي من طرف المؤرخين؛ وتم قيام هذه الإمارة ضمن محيط مختلف ـ بعض الشيء ـ عما كانت عليه الإمارات البرغواطية السابقة. ويعتبر أهم عامل تختلف فيه دولة ((سقوط)) عن الإمارات السالفة الذكر؛ هو أن أمراء هذه الدولة لا يؤمنون بالنحلة الإلحادية البرغواطية. وربما كانوا يتبعون المذهب السني؛ بحكم الولاء والتبعية لسادتهم من الأدارسة الحموديين؛ الذين يدينون بالمذهب السني. ومع هذا لا بد من الإشارة إلى عبارة خاطفة أوردها ابن بسام نقلا عن ابن حيان؛ حين قارن بين المعتضد بن عباد وسقوط؛ فقال: ((**من هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن حمود**)). وهذه العبارة توحي للقارئ باحتمال اعتناق سقوط للمذهب

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـــ 589. 607 ـــ 609.

الخارجي. غير أن قول ابن حيان هذا قد يكون من قبيل التشنيع بسقوط؛ وتذكير الناس بأسلافه الصفرية. المهم أن سقوط وابنه ـ حسبما جاء في المصادر ـ لا علاقة لهما ببدع الامارات البرغواطية الأولى؛ وكل مايربطهما ببرغواطة هو أنهما ينحدران من أصول برغواطية؛ كما أن جيشهما مكون ـ في معظمه ـ من شتات قبيلة برغواطة.

ـ حكومة سقوط البرغواطي:

تجمع المصادر على أن هذه الإمارة نشأت في سبتة وطنجة؛ بقيادة سقوط أو (سكوت) بن محمد البرغواطي، وبمساعدة زميله أبي العطاف رزق الله البرغواطي أيضا؛ والذي كان في طنجة. وربما تكون هذه الإمارة قد بدأت في الظهور لأول مرة؛ في شكل ولاية من ولايات الدولة الإدريسية الحمودية التي كانت قائمة بمالقة؛ ويرجح أن ذلك حصل بعد مقتل الفتى الصقلبي نجا في سنة 434هـ(1042م)؛ الأمر الذي أبقى سبتة خالية من شخص قوي يتولاها. ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي أصبح فيه سقوط هذا واليا عليها.[1] وكل ما

---

[1] لقد تضاربت الأقوال حول التاريخ الذي ولي فيه سقوط بسبتة. وقد ذكر ابن بسام أن يحيى بن علي بن حمود هو الذي ولى سقوط على سبتة؛ (المجلد الثاني من القسم الثاني، ص: 657. أنظر إلى ما جاء في التعليق بالصفحة الموالية). بينما الخبر المؤكد الذي ذكره ابن بسام نفسه؛ نقلا عن ابن حيان؛ واتفق فيه مع كثير من المؤرخين (أنظر المجلد الأول من القسم الأول، ص: 481.) أن يحيى المعتلي أسند ولاية سبتة ـ عندما جاز للأندلس ـ إلى أخيه إدريس بن علي؛ الذي كان ـ في عهد أبيهما ـ واليا على مالقة. ولما قتل يحيى بن علي؛ خلفه أخوه إدريس المتأيد؛ الذي ولى الحسن بن يحيى بسبتة؛ تحت وصاية الفتى نجا. (الكامل، ج: 7،=

عرف هو أن الذي ولي على سبتة وطنجة ـ بعد إدريس بن علي بن حمود ـ هو الحسن بن يحيى بن علي؛ رفقة الوصي عليه المسمى نجا الصقلبي. لذا يمكن إرجاع بداية أمر هذين البرغواطيين إلى الفترة الزمنية التي تلت مقتل الفتى نجا؛ ذلك المملوك الصقلبي الذي طمع في اغتصاب عرش الحموديين؛ فاغتاله بعض جنوده؛ الذين ينتمون أصلا إلى برغواطة؛ وهم كما قيل: أخوال الأمير حسن بن يحيى بن علي بن حمود.[1]

وحسبما يظهر فمنذ تلك الحادثة رجحت كفة سقوط مولى يحيى بن علي بن حمود؛ ذلك المملوك الذي تركه يحيى في سبتة لأمر ما؛ عندما قرر التوجه إلى مالقة.[2] ومرت فترة من

=ص: 288. والمعجب، ص: 61). ولما تولى الحسن بن يحيى مقاليد الخلافة بمالقة؛ ترك أمر سبتة في يد الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 63). وعليه قد يعود ظهور سقوط إلى هذه الفترة بالذات؛ خاصة بعد مقتل نجا.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.

[2] يقول ابن عذاري: ((وكان سوَّجَّات [سقوط] مولى ليحيى بن علي بن حمود؛ اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة وهو دون البلوغ؛ فحظي عنده؛ فلما سار يحيى إلى الأندلس وخلف سوَّجْات مولاه بسبتة؛ وجعل معه ناصرا عليه مولاه رزق الله)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250. وهذا الخبر يكون قد اقتبسه ابن عذاري عن ابن بسام الذي قال: ((ولما أفضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها؛ يحيى بن علي ـــ المتقدم الذكر ـــ ألقى بمقاليد سبتة إلى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية؛ سقوت المذكور؛ [أنظر التعليق السابق؛ ففيه ما يعارض هذا] فأقام به عمودها، وأطمعه قائمها وحصيدها؛ وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شنونه ليسير ويسري؛ وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف؛ أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران؛ فاقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها؛ إلى أن وقع من مقتله؛ سنة سبع وعشرين [وأربعمائة] ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره. ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه [العالي] إدريس ابن يحيى بن علي؛ سما سقوت بن محمد؛ فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق؛ وأول ما بدأ به=

الوقت لا يعرف الدور الذي كان يلعبه سقوط هذا في سبتة؛ خاصة في ولاية إدريس بن علي بسبتة، ثم ولاية الحسن بن يحيى. والراجح أن مركزه قد تعزز خلال الفوضى التي سادت مالقة؛ بعد اجتياحها من طرف الخادم نجا؛ الأمر الذي أوصله إلى القتل بيد جنوده الأمازيغ البرغواطيين. وهنا يمكن للقارئ تخيل الحركة التي تكون قد حدثت بعد مقتل نجا؛ وعودة الجيش إلى سبتة؛ ذلك الجيش المشكل من الأمازيغ؛ ومن برغواطة بالخصوص. والأمر المؤكد – بعد ذلك – أن المصادر أصبحت تتكلم عن سقوط البرغواطي كوال على سبتة؛ وفي طاعة الخليفة الحمودي العالي إدريس بن يحيى بمالقة. ثم أخذ نفوذ سقوط يتوسع، وتزداد قبضته إمساكا وتحكما في الأمر؛ حتى استبد نهائيا؛ بعد انحلال الدولة الحمودية واندثارها. ويمكن تفسير حدوث ذلك؛ طبقا لما قرره ابن خلدون ضمن فصل: "**فصل في حدوث الدولة وتجددها؛ كيف يقع؟**".[1]

=من ذلك الفتك بشريكه الخاسر؛ بحيلة خفية.. فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل؛ وتسمى – لأول وقته يومئذ – من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 657 – 658. ويقول ابن خلدون في حديثه عن العالي أيضا: ((ولقب العالي؛ وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه)). العبر، مج: 4، ص: 334.

[1] وفيه يقول: ((بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية؛ عندما يتقلص ظلها عنهم؛ فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه؛ يرثه عنه أبناؤه أو مواليه؛ ويستفحل لهم الملك بالتدرج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به؛ ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزع ما في يده)). المقدمة، ج: 2، ص: 872.

ولما زالت دولة بني حمود نهائيا انبرى سقوط لضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله؛ الذي كان واليا على تلك المدينة. وتم له ذلك ـ بالفعل ـ سنة 453هـ(1061م)[1] حيث تغلب على طنجة وقتل واليها رزق الله. وهنا تطلع إلى مرتبة أسمى من التي كان يحتلها؛ إذ تسمى بلقب المنصور المعان؛ واستقل نهائيا بدولته. وأورد ابن حيان خبر الخصومة التي حدثت بين سقوط والمعتضد بن عباد؛ الذي أصبحت الجزيرة الخضراء ضمن مملكته؛ وقد تصاعد خلافهما حتى وصل إلى الاقتتال في البحر سنة 457هـ(1064م).[2] وكان يشد أزره ابنه يحيى؛ الذي يقوم مقام وزيره، إذ هو المتصرف في شئون الدولة؛ خاصة بعد أن كبر سقوط، وبعد أن أثقلته السنون. وظهر هذا من خلال معارضته لأبيه؛ حين أراد مساعدة المرابطين ضد قبائل غمارة [وعند ابن بسام زناتة]؛ فأقنعه

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

[2] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((كان سبب ذلك باعتقال عباد لرجل من تجار سبتة؛ في شيء حضره بحضرته؛ فاعتدى عليه سقوت؛ فاعتقل له عدة تجار؛ فنشأت لذلك بينهما وحشة سنة سبع وخمسين [وأربعمائة]؛ فامتطيا لها ظهر اللجج؛ على ما بينهما من التطام اللجج؛ فتهافتا على القطيعة، واجتمعا على عقد البحر بينهما؛ فتلفت فيه رؤوس وأموال، وهلكت من أجلها نفوس رجال؛ يطول في صفتها المقال؛ إلى أن أكمل عباد من أسطول أنشاه نحوا من ثمانين قطعة؛ فأجراها إلى سبتة؛ فخرج عليها أسطول لسقوت؛ فكان الظهور لابن عباد؛ ثم افترقت الأساطيل؛ بعد حروب وسفك دماء؛ وانقطع بحر الزقاق بينهما مدة استهما اجترار منافعه فيها. ثم يضيف ابن بسام قائلا: ثم غلظ أمر سقوت؛ حتى أخاف القريب والنازح، واقتاد الحرون والجامح، وانبثت سراياه في البحر والبر؛ فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 659 ـــ 660.

بالعدول عن ذلك الأمر.[1] المهم أن جيش لمتونة ـ بعد انتهائه من موقعة الدمنة ـ تحول إلى قتال سقوط؛ وذلك لما شعروا منه من بوادر العصيان، نظرا لرفضه الانضمام إليهم. ولما علم سقوط بزحف المرابطين إليه خرج وهو يقسم: ((**ألاّ يسمع قرع طبله في ملكه**)).[2] وكان سقوط هذا قد امتد حكمه حتى بلغ من العمر عتيا؛ إذ ناهز التسعين سنة كما يقال. وقدر له أن تكون نهايته في سنة 471هـ(1078م)؛ خلال المعركة التي تقابل فيها مع جيش المرابطين الزاحف إلى طنجة؛ بقيادة صالح بن عمران. حيث ختمت الواقعة بمقتل سقوط؛ ودخول المرابطين إلى طنجة.

---

[1] يقول ابن بسام ((ودارت النوبة على سقوت بن محمد؛ فتطرف أمير المسلمين ـــ رحمه الله ـــ بلده للفراغ ممن شذ عنه من زناتة؛ وقد التفوا بأحد محاش الفتنة، ووألوا إلى موضع يعرف بالدمنة؛ فنزل بساحتهم أمير المسلمين؛ سنة إحدى وسبعين [وأربعمائة]؛ على مقربة من بلاد سقوت؛ فهم بالانحياش إليه؛ فقد كان آل وآيل عليه؛ فنهاه حزبه الذميم السعي، وثناه ابنه الفائل الرأي)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 660. وقال أحمد الناصري: ((إلى أن استقل [سقوط] بالأمر، واقتعد كرسي عملهم [عمل الحموديين] بطنجة وسبتة؛ وأطاعته قبائل غمارة؛ واتصلت أيام ولايته إلى أن كانت دولة المرابطين؛ وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب؛ ونازل بلاد غمارة؛ فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم؛ فهم بالاجلاب معه، ومظاهرته على عدوه؛ ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة، وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت)).الاستقصاء، ج: 2، ص ص: 30 ـــ 31.

[2] مفاخر البربر، ص: 55. وقال أحمد الناصري أيضا: ((فلما قربوا [المرابطون] من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه ـــ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ـــ وقال: "والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبدا". فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة؛ والتحم القتال؛ فقتل سكوت، وفضت جموعه، وسار المرابطون إلى طنجة؛ فدخلوها واستولوا عليها. ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة؛ فاعتصم بها)). الاستقصاء، ج: 2، ص: 31.

- حكومة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقوط:

لما سقطت طنجة - بعد مقتل سقوط - سارع ابنه يحيى إلى التحصن خلف أسوار سبتة؛ تلك المدينة المنيعة. وجدد فيها ملك أبيه؛ حيث لقب بالحاجب العز؛ كما تسمى أيضا بلقب مشرقي وهو ضياء الدولة. هذا وقد استمر هذا الأمير في حكم مدينة سبتة لبضع سنين؛ بعد أن استعصى أمره على المرابطين. ويظهر مما كتبه ابن بسام؛ أن ضياء الدولة العز بن سقوط هذا يكون قد أشعل محيطه بالفتن والحروب الخاطفة؛ خاصة في البحر؛ حيث قال: ((**لا سيما البحر ؛ فإنه أضرم لججه نارا، ولقي ريحه إعصارا؛ أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا؛ فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء**)).[1] ولما صعب أمر العز؛ وتعذر اقتحام سبتة من البر؛ طلب ابن تاشفين من ابن عباد مده بسفينة في غاية الإتقان؛ جاءت إلى طنجة للميرة؛ لكي يستعملها في حصار سبتة من البحر؛ فاستجاب له ابن عباد ووضعها تحت تصرفه؛ وبذلك تقدم أسطول المرابطين في البحر محاصرا سبتة؛ بينما شدد الخناق عليها - أيضا - من البر.[2] ومع هذا كاد المرابطون أن يخسروا المعركة

---

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 662. ومفاخر البربر، ص ص: 55 - 56.

[2] قال ابن بسام في فتح سبتة: ((فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين [وأربعمائة] قدّم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما؛ رجم به مردة عفاريتها رجما؛ ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول؛ طالما أوسع البلاد شرا، وملأ قلوب أهلها ذعرا. فكان - لأول ذلك اليوم - ظهور على أسطول المرابطين؛ حتى أخذ منه قطعة جليلة=

في بداية الأمر؛ وذلك عندما استولى العز بن سقوط على أهم سفينة لديهم؛ فبعث هذا فيهم هلعا واستياء؛ ومع ذلك استطاعوا ضبط الأمور، واستعانوا بالصبر على المصاب؛ ثم عاودوا الكرة – مرة أخرى – بعزيمة أشد وأقوى؛ فانهار لها دفاع جيش يحيى بن سقوط؛ فانهزم جله؛ لما تأكد يحيى بن سقوط من فشل دفاعه؛ حاول الهروب عبر البحر؛ ولكنه استدرك وتراجع عن اختيار الهروب؛ فقبض عليه بعد مقاومة دامت ليلة بكاملها. ويقول صاحب مفاخر البربر: أنه لما مثل أمام المعز بن يوسف بن تاشفين ((**فطلب منه المال؛ فقال له: "ألخازن أبيك كنت نجمع المال؟" فحلله الحسام، وحكم فيه الحمام**)).[1] وانتهى بذلك أمر ضياء الدولة العز بن سقوط؛ إذ قتل في

=المقدار؛ ظاهرة الحماة والأنصار؛ فكان من إذلال الله للعز بن سقوت — يومئذ — أن بخل على آخذيها؛ وتكلم كلام أنكر عليه فيه. وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة؛ حتى هموا بالإحجام؛ وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين –رحمه الله – إحدى غضباته؛ فكانت إياها؛ وفغرت المنايا على سبتة فاها؛ وتقدمت تلك السفينة حتى اطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها؛ ليلة الجمعة من صفر المؤرخ. ولجأ العز بن سقوت في نُفَيْر من أصحابه إلى البحر؛ فهم بركوبه؛ فأعوزه الفرار؛ ودفع في صدره المقدار؛ وكر راجعا؛ فدخل دارا تعرف بدار تنوير؛ وبدر به جماعة من المرابطين؛ فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد؛ حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه أصحابه. ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رؤوس حماته. فبلغني أنه عثر عليها؛ وَوُجِدَ فيها جوهرٌ كثيرٌ، ونشب من نشب الملوك خطير؛ وَوُجِدَ في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر؛ فلقيه المعز ابن أمير المسلمين — رحمهما الله — فجلله الحسام، وحكم فيه الحمام)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 663 — 664.

[1] مفاخر البربر، ص ص: 56 — 57.

ربيع الآخر من سنة 477هـ(1084م). وبذلك انتهت دولة سقوط البرغواطي نهائيا.

۞۞۞

- الحضارة والحركة الثقافية:

يبدو أن سبتة في عهد سقوط البرغواطي لم تكن في مستوى يؤهلها للقيام بدور ثقافي معين بين سكانها. وعلى الرغم من أنها كانت كرسيا لحكم بعض الأدارسة من الحموديين؛ إلا أنها لم تظهر أي دور ثقافي وعلمي يستحق التنويه. وإن كان البكري - الذي عاصر سقوطا - يقول عن سبتة: **((ولم تزل دار علم))**.[1] ومع هذا فلا بد أن يكون للأندلس بعض الأثر في الحركة الثقافية بتلك المدينة، خاصة في بعض المنجزات الحضارية والعمرانية كالمساجد والحمامات. غير أنه سجل في الزمن الذي تلا عصر سقوط هذا؛ ازدهار علمي ملحوظ في سبتة؛ تلك المدينة التي أضحت مركز علم وثقافة مرموق في المغرب والأندلس.[2] أما عصر سقوط فيمكن أن يعبر عنه خطابه لابن جهور أمير قرطبة؛ الذي يقال أنه طلب فيه منه أن يرسل إليه قارئا للقرآن. وربما دل هذا على ندرة القراء في سبتة في تلك الأثناء.[3] كما أن الإشارة الساخرة التي أطلقها أبو الوليد الشقندي في

---

[1] المغرب، ص: 103.

[2] للتوسع في هذا الأمر يمكن الرجوع إلى كتاب المقري أزهار الرياض في أخبار عياض؛ ففيه ما يفيد.

[3] أورد ابن عذاري خبرا قال فيه: ((وذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه قال: "وردت علي من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية= يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات [سقوط] صاحب سبتة يطلب قارئا يقرأ القرآن". فوجه من طلبة قرطبة رجلا يعرف بعون الله بن نوح. وعجب أبو الوليد من ذلك وقال: "جاهل يطلب قارئا، وعلماء يطلبون الأباطيل")). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

رسالته التي يفاخر فيها ببلاد الأندلس والأندلسيين؛ تبرز صورة سقوط التي كانت في ذهن المثقفين آنئذ؛ وذلك حين قال لأبي يحيى ابن المعلم الطنجي: ((**وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية** [يقصد دعوة الموحدين] **أبسقوط الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي؟**)).[1] ومع هذا لا سبيل إلى نكران أن بلاط ضياء الدولة يحيى بن سقوط بسبتة احتضن ـ يوما ما ـ شاعرا مثل علي بن عبد الغني الحصري الضرير؛[2] صاحب القصيدة الذائعة الصيت التي يقول فيها:

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ   أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقد اتصل هذا الشاعر الفحل ـ أثناء مقامه بسبتة وطنجة ـ بضياء الدولة يحيى بن سقوط البرغواطي؛ حيث كانت له حظوة عنده؛ وهذا ما سجله ابن بسام حين قال: ((**وأفضت الدولة البرغواطية إلى الحاجب المعز ابنه** [أي ابن سقوط] **شهاب أفلاكها، وخيرة أملاكها. هبَّ الأدب ريحا، ونفخت دولته في أهله روحا. أعرض به الشعراء**

---

[1] نفح الطيب، ج: 3، ص: 191.
[2] ذكره ابن بشكوال فقال: ((ذكره الحميدي وقال: " شاعر أديب رخّم الشعر؛ دخل الأندلس ولقي ملوكها؛ وشعره كثير، وأدبه موفور. وكان عالما بالقراءات وطرقها؛ وأقرأ الناس بالقرآن بسبتة وغيرها. أخبرنا عنه أبو القاسم ابن صواب بقصيدته التي نظمها في قراء نافع؛ وهي مائتا بيت وتسعة أبيات. قال لقيته بمرسية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وتوفي بطنجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة)). كتاب الصلة، ج: 2، ص ص: 432 ــ 433.

وأطالوا، ووجدوا به السبيل إلى المقال فقالوا. وممن خيم في ذراه، ونال من الحظ الجسيم من دنياه؛ الحصري الضرير؛ فإن له فيه ما اذهل الناظر عن الرقاد، وأغنى المسافر عن الزاد؛ والحاجب يكحل عينيه بزينة دنياه، ويفتق لهاته بمواهبه ولهاه. وكان [يحيى] سهل الجانب للقصاد، طلق اليد بالمواهب الأفراد)).[1] لذا فلا يستبعد أن يكون بلاط سقوط ــ وخاصة ابنه ضياء الدولة ــ قد عرف حركة ثقافية ــ ولو متواضعة ــ إذ يكونان قد أرادا بذلك تقليد ملوك الأندلس والمغرب.

۞۞۞

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص.ص: 661 ــ 662. أنظر أيضا مفاخر البربر، ص: 55.

2)ـ **دولة بني مدرار:**

تنسب هذه الدولة ـ أيضا ـ إلى مدينة سجلماسة ذات الموقع القريب من مدينة تافيلالت الحالية. ويبدو أن هذه الدولة نشأت قبل تشييد مدينة سجلماسة[1] المنسوبة إليها أصلا؛ إذ كانت عبارة عن إمارة قبلية؛ ذات طابع بدوي. وقد سميت ـ أيضا ـ بدولة بني واسول؛ وهو أحد أجداد بني مدرار. هذا وقد تباينت الأخبار ـ بعض الشيء ـ حول بدء قيامها؛ غير أن المهم ـ هنا ـ هو أن هذه الدولة تأسست في عام 140هـ(757م)؛[2] بعد أن تجمعت فئات من قبيلة مكناسة البترية؛[3] في تلك الربوع؛ التي هي ـ في حقيقة الأمر ـ تدخل ضمن مواطن مكناسة. وذلك بعد أن التأم شعثهم في ذلك الخلاء؛ أين كانوا يرعون الأغنام وينشغلون بتتبع الكلأ خلف

---

[1] أنظر رأي ابن خلدون في الكيفية التي يحدث بها ذلك النشوء؛ ضمن "فصل في أن الدول أقدم من المدن والأمصار؛ وأنها إنما توجد ثانية عن الملك" إذ يقول: ((وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف، والدعة كما قدمناه؛ وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة، وبناء كبير؛ وهي موضوعة للعموم، لا للخصوص؛ فتحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون؛ وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى؛ حتى يكون نزوعهم إليها اضطرارا؛ بل لا بد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطرين بعصا الملك؛ أو مرغبين في الثواب والأجر؛ الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلا بد في تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ـــ 966.

[2] أما البكري فقال أنهم شرعوا في بناء سجلماسة في عام 104هـ؛ وهذا لا يتطابق مع ما أجمعت عليه بقية المصادر. لذا فالراجح أن يكون ما ورد في المغرب تحريفا في النسخ. المغرب، ص: 149.

[3] ذكر البكري أنه لما وصل عددهم أربعين رجلا؛ قدموا على أنفسهم إماما؛ وهو عيسى ابن مزيد (يزيد) الأسود. غير أن ابن الخطيب قدر عددهم بأربعة آلاف.

حيواناتهم. وعليه فقد كانت معيشتهم معيشة بداوة وانتجاع. وكانت تلك الفئات المكناسية المجتمعة صفرية المذهب. والظاهر أنهم كانوا من فلول وبقايا الصفرية؛ الثائرين مع ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الزناتي؛ فلما عادوا إلى موطنهم؛ سعوا إلى تأسيس دولة تجمع شتاتهم، وتحافظ على مذهبهم. وعند تحقيق ذلك شرعوا في بناء مدينة سجلماسة؛ بعد أن نصبوا عليهم إماما؛ وهو المدعو عيسى بن يزيد بن سعد؛ المعروف بالأسود.[1] ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شر قتلة.[2] وهكذا نرى كيف يتكرر بطش الصفرية بأمرائهم؛ فبعد قتل أمير الصفرية الأول (ميسرة)؛ بتدبير من أصحابه؛ يقتل أمير ثان ــ مرة أخرى ــ بواسطة أتباعه من الصفرية بسلجماسة.[3]

---

[1] نسبه ابن الخطيب إلى مكناسة؛ في خبر مضطرب؛ لا يتفق مع ما ورد في جل المصادر. (أنظر، أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140). بينما يتجاهل ابن خلدون والبكري ذكر انتسابه لمكناسة بشكل صريح. قال ابن خلدون: ((فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم؛ نقضوا طاعة الخلفاء؛ وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج)). العبر، مج: 6، ص: 267.

[2] وصف ابن الخطيب كيفية مقتله بقوله: ((ثم إن الصفرية غدروه سنة 167هـ؛ فقبضوا عليه، وشدوه وثاقا إلى أصل شجرة في أصل الجبل؛ بعد أن طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل؛ فسمي ذلك الجبل جبل عيسى؛ وولوا بعده أبا الخطاب الصفري)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140.

[3] للتوسع في موضوع دولة مكناسة بسجلماسة يستحسن الرجوع إلى: كتاب المغرب، ص ص: 148 ــ 152. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 156 ــ 157. والعبر، مج: 6، ص ص: 267 ــ 273. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 149.

ـ حكومة أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي:

وبعد أن قتل الصفرية إمامهم عيسى بن يزيد؛ ولوا عليهم بدلا منه أبا القاسم سمغون بن واسول بن يزلان بن يزول المكناسي.[1] ويقول ابن خلدون أن أبا القاسم سمغون[2] هذا هو الذي حمل قومه على تنصيب عيسى بن يزيد إماما. ولما ثاروا عليه وقتلوه عادوا إليه؛ فبايعوه بالإمامة.[3] أما ابن الخطيب فيرى أنهم بايعوا ـ بعد عيسى بن يزيد ـ شخصا غامضا يسمى أبا الخطاب الصفري؛ إذ حكمهم مدة أربع وعشرين سنة؛ ومات سنة 191هـ(806م).[4] وهذا الأخير أشار إليه البكري باقتضاب؛ إذ قال أنه هو الذي حرض الصفرية على قتل عيسى؛ ولكنه لم يقل ببيعته وإمامته.[5]

---

[1] وذكر ابن الخطيب أن أبا القاسم هذا هو الملقب بالمدرار. دخل جده الأندلس مع طارق ابن زياد. كما قال أنه كان حدادا من أهل الربض بقرطبة؛ فلجأ إلى سجلماسة؛ حيث تقرب من أبي الخطاب الصفري رئيس الصفرية فيها بسلاح صنعه بنفسه؛ فاستحسنه أبو الخطاب وقربه وقدمه على غيره. ولما توفي أبو الخطاب سنة 191هـ ولي مكانه.

[2] عرف ابن خلدون بأبي القاسم هذا بقوله: ((واجتمعوا بعده [أي بعد عيسى بن يزيد الأسود] على كبيرهم أبي القاسم سمغون بن مصلات بن أبي يزول؛ كان أبوه سمغون من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين؛ وأخذ عن عكرمة مولى بن عباس؛ ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية؛ وهو [أبو القاسم] الذي بايع لعيسى بن يزيد؛ وحمل قومه على طاعته؛ فبايعوه من بعده)). العبر، مج: 6، ص ص: 267ـ268. أما البكري فيرى أن أبا القاسم هو الذي لقي عكرمة بإفريقية وسمع منه. المغرب، ص: 149.

[3] قد يكون للعصبية دور في ذلك؛ خاصة إذا ما كان الوازع الديني ضعيف؛ ولا يرقى إلى ما كانت عليه العصبية من شدة وتأثير على الناس. وجاء في قول ابن خلدون أن عيسى هذا كان من موالي العرب؛ وهذا يبعث على الاعتقاد أن وجوده بين المكناسيين فرضته ظروف الصفرية؛ بعد هروبهم في أقصى البلاد.

[4] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140.

[5] يفهم من قول البكري أنهم تسرعوا في الحكم على عيسى؛ بالفعال عجيب؛ إذ يقول: ((فأول من وليها عيسى بن مزيد (يزيد) ثم أنكر أصحابه=

والغريب أن آلفرد بل يقول جازما بأنه عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ الأمير الإباضي الذي تغلب على طرابلس والقيروان فيما بعد. غير أن آلفرد بل لم يذكر كيف استنتج هذا ؟ ولا ذكر المصدر الذي استند إليه.[1] المهم أن سمغون عندما تربع على سرير الحكم أعلن بالدعوة للمنصور والمهدي العباسيَّيْن؛ مع أنه صفري المذهب. وقد بقي أبو القاسم في الحكم حتى توفي أثناء صلاة العشاء، وفي آخر ركعة منها؛ وذلك سنة 168هـ(784م). أما ابن الخطيب فيقول بأنه توفي في آخر ذي القعدة سنة 199هـ(814م). كما قال أنه هو الذي أمر ببناء السور الذي يحيط بمزارع النخيل.

- حكومة أبي المنتصر اليسع بن سمغون المكناسي:

ولما توفي أبو القاسم سمغون خلفه ولده أبو الوزير إلياس؛ ولكن حكمه لم يدم طويلا؛ إذ قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع؛ فخلعه وانتصب في مكانه سنة 174هـ(790م) في رواية، أو سنة 200هـ(815م) في رواية أخرى. وكان حكم أبي المنتصر اليسع متميزا عما سبقه؛ ذلك أن هذا

=الصفرية عليه أشياء. فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه في مجلس عيسى: "السودان كلهم سراق حتى هذا؛ وأشار إلى عيسى؛ فأخذوه، وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض؛ فسمي الجبل جبل عيسى إلى اليوم. ووليهم خمسة عشر عاما؛ ثم ولوا أبا القاسم سمغوا)). المغرب، ص: 149.

[1] الفرق الإسلامية، ص: 170.

الأمير اتصف بشدة الوطأة، وبميل إلى العناد، وحدة الطبع، والحرص على ملكه؛ وكان شغوفا بالضبط والقهر، جبارا في سلوكه. فتمكن بحزمه وعزمه من فرض الخمس على معادن درعة، وفتك بمن حوله من القبائل الأمازيغية. ومن أهم إنجازاته العمرانية بناء سور سجلماسة؛ الذي كان والده قد بدأه؛ ولكنه حرص أن يدخل عليه تحسينات جديدة؛ إذ أمر العاملين بأن يبنوا أساس السور بالحجارة، ثم يكملوا الجزء العلوي بطوب اللبن. وبعدها قسم مدينة سجلماسة أحياء بين القبائل المتواجدة بها.[1]

ـ حكومة مدرار المنتصر بن اليسع المكناسي:

وعندما توفي اليسع سنة 208هـ(823م)؛ خلفه ابنه المنتصر الملقب بمدرار. وقد حاز من الشهرة والصيت؛ إلى الحد الذي أصبحت هذه الدولة الصفرية تنسب إليه أصلا. كما يبدو أن تحولا مذهبيا حدث في عهد هذا الأمير المكناسي؛ حيث أضحى مذهبها الصفري يميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال؛ وبالتحديد يميل إلى المذهب الإباضي. ويبدو أن ذلك قد تعزز أيضا بعد أن تزوج مدرار بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم. وفي حياة هذا

---

[1] وعن هذا الأمير يقول ابن خلدون: ((فلم يزل أميرا عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان إباضيا صفريا. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي أتم بناءها وتشييدها؛ واختط بها المصانع والقصور؛ وانتقل إليها آخر المائة الثانية؛ ودوخ بلاد الصحراء، وأخذ الخمس من معادن درعة؛ وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها)). العبر، مج: 6، ص: 268.

الأمير حدث خلاف ونزاع بين ولديه اللذين يسمى كل واحد منهما باسم ميمون. لذا فلا يمكن التميز بينهما إلا بإضافة نسبهما إلى الأم. فأحدهما هو ميمون بن تقية المعروف بالأمير؛ والآخر هو ميمون بن أروى الرستمية؛ ويرى ابن خلدون أن هذا الأخير يسمى أيضا عبد الرحمن. ودامت الفتنة بينهما على الحكم وولاية العهد مدة ثلاث سنين؛ وكان مدرار يميل إلى ابن أروى؛ الذي تمكن من إخراج أخيه ونفيه إلى درعة. ولكنه لم يحسن رد الجميل؛ فاختار سبيل العقوق ونكران الجميل؛ إذ عمل على عزل أبيه؛ طمعا في تولي سدة الحكم بدلا منه. ولكن الرعية ثارت عليه وخلعته؛ ثم استقدموا ابن تقية؛ المدعو (الأمير) من درعة لاستلام الحكم؛ ولكنه رفض القيام بذلك في حياة أبيه؛ لذا فقد اضطروا إلى إرجاع مدرار من جديد. والغريب أن مدرارا أراد – للمرة الثانية – إعادة ولده ابن أروى من منفاه بدرعة؛ فكررت الرعية ثورتها؛ وقاموا بخلعه مرة أخرى؛ ونصبوا ولده ميمون بن تقية؛ الذي اقتنع هذه المرة بوجوب ذلك المسلك؛ لقطع الطريق أمام أطماع أخيه. هذا ولا يعرف – بالضبط – سبب ذلك الخلاف بين الأخوين. كما لا يعرف إن كان ميل الرعية إلى ابن تقية مبعثه إلى صلاحه وتقواه، أم إلى سبب آخر؛ ربما تعلق بالعصبية القبلية التي ترى في أروى بنت عبد الرحمن بن رستم أنها من أسرة ليست مكناسية منهم. هذا ولم يطل

الزمن بمدرار بعد تلك الأحداث حتى مات سنة 253هـ(866م)؛ وقد دام ملكه كله زهاء خمس وأربعين سنة. أما ولده ميمون بن تقية فقد بقي في الحكم حتى توفي سنة 263هـ(876م).

- **حكومة محمد بن ميمون المكناسي:**

وبموت ميمون بن تقية تولى الحكم من بعده ولده محمد الذي - كما قال ابن خلدون - كان متمذهبا بالإباضية. وهنا تبرز إشارة لما يمكن أنه حدث من تحول مذهبي في عهد الأمير مدرار. ويقول ابن الخطيب أن محمدا هذا غزا أرض القبلة - أي الجنوب - حيث تغلب على **"تافلبالت" [ربما كانت تابلبالت الحالية القريبة من بشار]**. هذا وقد توفي محمد بن ميمون في سنة 270هـ(883م). ومع ذلك فقد كانت أخبار عهد محمد هذا شحيحة، وغير كافية لتحديد صورة واضحة لها.

- **حكومة اليسع بن مدرار المنتصر المكناسي:**

وبعد محمد تولى مهام الحكم عمه اليسع بن مدرار المنتصر. وفي عهده ظهر عبيد الله الشيعي؛ حيث لجأ - مع ابنه أبي القاسم - إلى سجلماسة. ولما تدخل الخليفة العباسي المعتضد لدى اليسع - الذي كان معلنا بطاعة العباسيين مثل آبائه - فقد لبى طلب المعتضد وقبض عليهما وحبسهما. وكان هذا التصرف هو الحافز المباشر للداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي لكي يقوم بغزو

سجلماسة، قصد إنقاذ سيده من محبسه؛ فتم له ذلك؛ بعد أن أطاح بحكم اليسع وقتله؛ وذلك في سنة 296هـ(908م). وقد دام حكم اليسع زهاء سبع وعشرين سنة. وعلى الرغم من طول مدة حكم اليسع؛ فإن عهده – بدوره – يكتنفه غموض كثيف.

– حكومة واسول الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار المكناسي:

وقبل أن يخرج عبيد الله المهدي من سجلماسة نصب عليها واليا من قبله؛ وهو إبراهيم بن غالب المزاتي؛ فظل مدة خمسين يوما ثم ثار عليه سكان سجلماسة سنة 298هـ(910م)؛ وقتلوه هو ومن معه من قبيلة كتامة. وبعدها نصبوا الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار؛ وميمون هذا كما يعتقد ابن خلدون: ليس هو ابن تقية المشار إليه سابقا. وكان يلقب بواسول؛ وسماه آخرون باسم رسول؛ إن لم يكن ذلك تحريفا. ويقول ابن خلدون أنه كان إباضيا. وبقي في سدة الحكم حتى وفاته سنة 300هـ(912م).

– حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار المكناسي:

بعد وفاة واسول تولى الأمر أخوه أبو العباس أحمد. وفي عهد هذا الأمير تغلب على سجلماسة القائد الفاطمي مصالة بن حبوس

المكناسي؛ القادم إليها في جيش من كتامة ومكناسة معا. فاحتل المدينة، وقتل أميرها أحمد سنة 309هـ(921م). وهذه الحادثة تكشف ما أصاب عصبية مكناسة من خلل؛ إذ يتقاتل أبناء القبيلة الواحدة؛ لمصلحة جهة غريبة عنهم. وبالطبع لا يكون ذلك إلا في حال تغلب قوة معنوية أخرى على قوة العصبية المهزومة. ولم يتحقق ذلك سوى بالمذهب الفاطمي ذي التأثير الخطير؛ إلى جانب العصبية الكتامية المتغلبة على العصبيات الأخرى. ولم يجد المذهب الخارجي الصفري أو الإباضي نفعا لمكناسة؛ إذ لابد من العصبية القوية معه؛ لتحقيق شرط القوة والغلبة؛ وذلك ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] حيث احتج بحديث الرسول ﷺ القائل: ((**ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه**)). ثم يضيف: ((**وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد؛ فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية**)).[2] ثم أشار إلى بعض الشواهد والأمثلة في البلاد الإسلامية؛ التي فشل فيها الدعاة ورجال الدين في تحقيق أغراضهم؛ بسبب افتقارهم للعصبية النافذة المساندة لهم.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ــ 642.

[2] المقدمة، ج: 2، ص: 638.

ـ عهد التبعية للفاطميين:

وعلى الرغم مما حدث؛ عندما تغلب الفاطميون على سجلماسة؛ بواسطة جيشهم الذي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي؛ فقد بقيت بذور من العصبية دفينة في صدر ذلك القائد الفاطمي من حيث المعتقد، والمكناسي من حيث العصبية والانتماء؛ وذلك أنه ـ قبل عودته إلى إفريقية ـ أسند شئون الحكم إلى رجل آخر من العائلة المالكة المكناسية نفسها؛ إذ نصب على سجلماسة المعتز بن محمد بن بسّاور أو (ساور) بن مدرار. وقد علل ابن الخطيب ذلك التصرف بقوله: **((واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة رجلا من بني مدرار ليأمن شغبهم؛ فولى عليها المعتز بن محمد))**.[1] وحتى إن كان هذا التعليل صحيحا؛ فلا يمنع أن اختيار مكناسيا؛ من البيت المالك في سجلماسة يكون قد أراحه نفسيا. هذا وقد بقي المعتز في الحكم إلى أن توفي في عام 321هـ(933م). ثم تلاه بعد مماته ولده محمد بن المعتز الذي توفي بدوره في سنة 331هـ(942م). ثم خلفه ولده الصبي المنتصر سمغون؛ فتولت جدته تدبير شئونه؛ ولكن ابن عمه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر ثار ضده، وأخرجه من سجلماسة سنة 332هـ(943م).

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 146.

- **حكومة الشاكر محمد بن الفتح المكناسي:**

انتقل محمد الشاكر - هذا - نقلة مخالفة تماما لما كان عليه أسلافه؛ إذ دعا إلى نفسه في المنابر؛ ثم تسمى بالشاكر، وتلقب بأمير المؤمنين؛ ثم سك سكة عرفت بالدراهم الشاكرية. ومع هذا فقد أبقى على الدعوة لبني العباس بغرض التمويه؛ كما يعتقد ابن خلدون؛ وأهم نقلة انتقلها هي تخليه عن المذهب الخارجي؛ حيث أخذ بالمذهب المالكي السني.[1] وتجمع المصادر أنه عرف بالعدل والصلاح؛ وذكر ابن حزم أنه: **((كان غاية في إظهار العدل، وتسمى الشاكر لله، وإليه تنسب المثاقيل الشاكرية)).**[2] ويعتبر موقف الشاكر هذا كافيا لاستثارة الفاطميين؛ الذين شغلتهم - في البداية - فتن بني أبي العافية، وأبي يزيد مخلد بن كيداد. ولما استتب الأمر للدولة أرسل المعز لدين الله الفاطمي جيشا من كتامة وصنهاجة إلى سجلماسة؛ ووضع على رأس ذلك الجيش جوهر الكاتب (الصقلي)؛ فتغلب عليها. وقد تمكن الشاكر - في بداية الأمر - من الإفلات واللجوء إلى حصن قريب من سجلماسة يسمى تاسكرات؛ ولكن سوء حظه أوقعه في قبضة الفاطميين؛ عندما دخل سجلماسة متنكرا؛ فعرفه رجل من قبيلة مطغرة؛ فأخبر الفاطميين عنه؛ الأمر الذي سهل القبض عليه؛ حيث نقله جوهر معه إلى القيروان في سنة 347هـ(958م). أين حبس

[1] المغرب، ص: 151. والعبر، مج: 6، ص: 270. أنظر كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، ((رسائل ابن حزم الأندلسي) ج: 2، ص: 85.

[2] رسالة فقط العروس في تواريخ الخلفاء، ((رسائل ابن حزم الأندلسي))، ج:2، ص:85.

في رقادة حتى مات في سجنه سنة 354هـ(965م).
أما سجلماسة فقد أسند جوهر الكاتب ولايتها إلى مبادر بن زيري.

ـ حكومة ولدي الشاكر: المنتصر والمعتز:

ولما ضعف حال الفاطميين بالمغرب الأوسط، ومالت الكفة إلى فائدة بني أمية؛ ثار في سجلماسة أحد أبناء الشاكر؛ وتلقب بالمنتصر بالله؛ ولكن أخاه أبا محمد لم يمهله طويلا؛ إذ انتفض عليه وقتله سنة 352هـ(963م)؛ ثم استولى على الحكم وتلقب بالمعتز بالله.[1] وبقي في الحكم مدة من الزمن؛ حتى زحف إليه أمير مغراوة الزناتية خزرون بن فلفول سنة 366هـ(976م)؛ تبعا لتطور الأوضاع التي استفحل فيها أمر زناتة في المغربين الأوسط والأقصى؛ بحكم ما أصبحت عليه هذه القبيلة من قوة ونفوذ؛ بعد حلفها مع الدولة الأموية بالأندلس. وانتهت المعركة التي دارت أمام سجلماسة بين صاحبها المعتز وخزرون المغراوي بمقتل الأول واحتلال البلدة من طرف المغراويين؛ وبذلك سقطت دولة بني مدرار نهائيا؛ وغدت

---

[1] يختتم ابن خلدون حديثه عن دولة مكناسة بسجلماسة فيقول: ((وأقام على ذلك مدة [يقصد بقوله هذا أبا محمد المعتز آخر أمرائهم] وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال؛ وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم؛ إلى أن زحف خزرون بن فلفول؛ من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة 366 هـ؛ وبرز إليه أبو محمد المعتز؛ فهزمه خزرون، وقتله، واستولى على بلده وذخيرته؛ وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح... وعقد لخزرون على سجلماسة؛ فأقام دعوة هشام بأنحائها؛ فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى. وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع؛ وأديل منهم بمغراوة وبني يفرن)). العبر، مج: 6، ص ص: 271 ــ 272.

سجلماسة تحت حكم المغراويين؛ الداعين إلى بني أمية.

وجملة القول؛ فالشيخوخة بدأت تغزو دولة سجلماسة؛ نتيجة لما ظهر عليها من وهن؛ بعد فساد عصبية مكناسة في تلك الديار؛ حيث أخذت الخلافات تدب بين أفراد البيت المالك؛ طمعا في السلطة وتطلعا إلى مجدها. وكان لهذا السلوك مفعوله الخطير؛ الذي أضعف الدولة، وجعلها عرضة للاعتداءات؛ فسقطت أولا لقمة سائغة بين أنياب قبائل: كتامة؛ بقيادة أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م)؛ فكانت تلك الغزوة صدمة شديدة أثرت على قوة الدولة المكناسية الصفرية. ثم جاءت الضربة الثانية من قبل أبناء العم؛ أي من قوم ينتمون إلى مكناسة نفسها؛ ولكنهم في خدمة الشيعة الكتاميين؛ فزحفوا معهم إلى مركز عصبيتهم بسجلماسة؛ وكانوا جميعا تحت قيادة مصالة بن حبوس المكناسي؛ وذلك سنة 309هـ(921م). وهنا ظهر التفكك الذي حل بعصبية مكناسة؛ إذ أضحت بعض فئاتهم تحارب إلى جانب كتامة؛ ضد أهل عصبيتها؛ أصحاب سجلماسة.

ومع هذا فثمة بعض الإيجابيات لهذه الدولة الصفرية؛ التي لا بد من ذكرها؛ من ذلك أنها استطاعت ـ قبل هرمها ـ تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي؛ بحكم تواجدها في الطريق التجاري الرابط بين غانة وشمال المغرب؛ نظرا لتوغلها جنوبا في الصحراء. وعلى الرغم من

كونها صفرية المذهب، خارجية النزعة؛ فإنها ـ كسابقتها دولة برغواطة ـ كانت دولة تتبع في نظامها السياسي؛ نظاما ملكيا وراثيا. وهذا يخالف المعتقد الصفري الخارجي. أضف إلى ذلك؛ سلوك أمراء الدولة؛ الذين كانوا يخطبون على منابرهم لبني العباس، ويجاهرون بدعوتهم تلك. وهذا الأمر مخالف ـ أيضا ـ لمبادئ الصفرية، والخوارج بصفة عامة.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به هذه الدولة؛ فإنها لم تتمكن من تطوير نظمها؛ إذ عجزت عن التخلص من هيمنة النظام القبلي المتشبع بروح البداوة الساذجة. ويبدو أن العصبية المكناسية لعبت ـ بعنفوانها ـ دورا هاما؛ في نشأة هذه الإمارة، كما حافظت على استمرار بقائها مدة من الزمن. وما المذهب الصفري سوى عامل إضافي؛ عزز العصبية المكناسية، ومتن روابطها. ومن هنا نستخلص بأن هذه الإمارة الصفرية؛ تمكنت فعلا من تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي؛ ولكنها بقيت دولة بدوية؛ ذات حضارة محدودة. وربما وقف نظامها القبلي حجر عثرة أمام تطورها الحضاري.

ومع هذا لا تخلو هذه الدولة من بعض السمات؛ التي يمكن وضعها في سياق الحركة الحضارية والثقافية. فمثلا كان لها طابعها العمراني المتأثر بالذوق البدوي. وقد ذكر البكري أن البناءين

بسجلماسة كانوا من اليهود.[1] ولما توطدت العلاقات بين هذه الدولة الصفرية والدولة الرستمية ـ بدءا بعهد مدرار ـ أضحى المظهر الحضاري والثقافي في سجلماسة أكثر شبها وقربا من تلك الدولة الإباضية القائمة في تيهرت. كما شرع بعض العلماء والأدباء الإباضيين يترددون على سجلماسة؛ بغرض نشر العلم، وبث الدعوة الإباضية. وإلى جانب ذلك كان بعض الطلبة ـ المتعطشين للعلم ـ ينتقلون من إفريقية إلى سجلماسة للتعلم فيها على مشاهير العلماء الإباضيين المقيمين بها.[2] من ذلك ما أشار إليه أبو زكرياء حين ترجم لأبي الربيع سليمان بن زرقون؛ فقال أنه تعلم ـ مع أبي يزيد بن كيداد ـ في سجلماسة؛ على عالم مشرقي اسمه ابن الجمع؛ قال عنه أنه من أهل الدعوة، وينتحل جميع الفرق؛ ويتمتع بعلم غزير ومعرفة وافرة. وقال أنه قدم إلى بلاد المغرب كتاجر؛ فلازمه ابن زرقون؛ الذي رافقه في رحلته إلى سجلماسة؛ وبقي معه حتى مات؛ فأوصى بكتبه إلى ابن زرقون.[3] ويدل خبر كهذا ـ طبعا ـ على وجود حركة علمية في سجلماسة؛ استقطبت بعض طلاب العلم من بعض جهات بالمغرب.

۞۞۞

[1] المغرب، ص ص: 149 ــ 150.
[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء، ص: 193 وما بعدها. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني، ج: 1، ص ص: 109 ــ 113. ج: 2، ص: 502.
[3] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 193. أنظر الخبر نفسه ــ أيضا ــ في طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 109 ــ 110.

3)ـ الدولة الرستمية:

تأسست هذه الدولة في أعقاب الاضطرابات التي حدثت بين قبائل الصفرية والإباضية من جهة؛ وبين ولاة القيروان من جهة أخرى. حيث التأمت القبائل الصفرية، والإباضية متجمعة؛ ضمن حلف واحد. ولكنها تفرقت ـ بعد ذلك ـ تبعا لتناقض المصالح القبلية الضيقة. فأخذت كل فرقة منها تعمل منفردة؛ ساعية لإقامة كيان ما؛ في شكل دولة أو إمارة صغيرة. وهذا ما سعت إليه القبائل الصفرية؛ بالمغرب الأقصى والأوسط؛ كبني يفرن بتلمسان، وبرغواطة بتامسنا، ومكناسة بسجلماسة. أما القبائل الإباضية؛ كـ: هوارة ونفوسة وزناتة ولواتة ولماية ومزاتة؛ فقد تمكنت هي الأخرى من إنشاء إمارة في طرابلس سنة 140هـ(757م)؛ لكنها سقطت عام 144هـ(761م)؛ تحت ضربات الجيش العباسي؛ بقيادة محمد ابن الأشعث. والعلة التي عجلت بسقوط هذه الإمارة؛ هي العصبية القبلية بتناقضاتها؛ أي بعد نشوب خلافات بين قبيلتي: هوارة وزناتة. حيث اتهمت هذه الأخيرة الأمير أبا الخطاب بالتحيز لقبيلة هوارة؛ فانسحب الزناتيون من الميدان.[1] وهكذا سقطت تلك الإمارة الفتية؛ نتيجة لقوة أعدائها؛ من جهة، وعبث العصبية، والنخوة القبلية؛ من جهة أخرى.

---

[1] البيان المغرب، ج: ، 1، ص: 72.

ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم:

وبعد فشل الإباضيين في السيطرة على القيروان، والاحتفاظ بإمارتهم في طرابلس؛ توجهوا صوب البلاد الداخلية؛ بعيدا عن نفوذ ولاة القيروان؛ فانتهى بهم المطاف عند جبل كزول؛ موطن قبيلة لماية البترية؛[1] وهناك شرعوا في وضع خطة لبناء مدينة تيهرت من جديد (تنطق تاهرت أيضا)؛ لأن مدينة تيهرت كانت منذ القدم؛ ويرجع تاريخها الأول إلى العهد الروماني؛ ولكنها اندثرت.[2] وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى تقع إلى الغرب منها؛ وتعرف بتاقدمت؛ ويفسر هذا

---

[1] يقول البكري: ((في صفر سنة أربع وأربعين وماية هرب عبد الرحمن بأهله، وما خف من ماله؛ وترك القيروان؛ فاجتمعت الإباضية، واتفقوا على تقديمه، وبنيان مدينة تجمعهم. فنزلوا موضع تاهرت اليوم؛ وهو غيضة أشبة؛ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لاشعراء فيه؛ فقال البربر نزل تاقدمت؛ تفسيره الدف؛ شبهوه بالدف لتربيعه)). المغرب، ص: 68.

[2] يقول ابن عذاري في تيهرت: ((وكانت حولَ تيهرت بساتينُ من ألواع الثمار، كثيرة الأشجار. وهي شديدة البَرْدِ، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظُّرَفاء من أهلها: "كم الشِّتَاءُ عندكم من شهر في السنة؟" قال: "ثلاثة عشر شهرا!". وقال بعضُ شعراء تيهرت من قصيدة أولها (طويل):

فَرَاغُ الهَوَى شُغْلٌ وَمَحْيَا الهَوَى قَتْلُ
وَيَوْمُ الهَوَى حَوْلٌ وَبَعْضُ الهَوَى كُلُّ
وَجُودُ الهَوَى بُخْلٌ وَرُسْلُ الهَوَى عِدَى
وَقُرْبُ الهَوَى بُعْدٌ وَسَبْقُ الهَوَى مَطْلُ
سَقَى اللهُ تِيهَرْتَ المُنَا وَسُوَيْقَةً
بِسَاحَتِهَا غَيْثاً يَطِيبُ بِهِ المَحْلُ
كَأنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّارُ جَامِعَةٌ لَنَا
وَلَمْ يَجْتَمِعْ وَصْلٌ لَنَا لاَ وَلاَ شَمْلُ
فَلَمَّا تَمَادَى العَيْشُ وَانْشَقَّتِ العَصَى
تَدَاعَتْ أَهَاضِيبُ النَّوَى وَهْيَ تَنْهَلُّ
سَلاَمٌ عَلَى مَنْ لَمْ نُطِقْ يَوْمَ بَيْنِنَا
سَلاَمًا وَلَكِنْ فَارَقَتْ وَبِهَا ثُكْلُ
وَمَا هِيَ آمَاقٌ تَفِيضُ دُمُوعُهَا
وَلَكِنَّهَا الأَرْوَاحُ تَجْرِي وَتَنْسَلُّ)).

البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 198 ــ 199.

الاسم الصفة التي كان عليه موقعها الجغرافي؛ الذي يظهر في شكل مربع. وقد يكون بناؤها ـ حسب بعض الروايات ـ بدأ بعد قيام الدولة الرستمية.[1] حيث ترعرعت الدولة الرستمية الإباضية ونمت شيئا فشيئا داخلها. وقد كانت هذه الإمارة هي الدولة المستقلة الأولى في ربوع المغرب الأوسط. غير أنها لم تظهر في ثوبها الكامل سوى في سنة 160هـ(776م).[2] كما كانت تتمتع بنفوذ معنوي واسع في بلاد المغرب؛ إذ تخضع لها مقاطعات شاسعة في برقة وإفريقية والمغرب الأوسط؛ حيث كانت معظم القبائل الأمازيغية آنئذ تدين بالمذهب الإباضي؛ وعليه فقد أبدوا طاعة ـ ولو شكلية ـ لإمام الدولة الرستمية. ومنذ نشأة هذه الدولة تولى الإمامة فيها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام.

---

[1] ويصف البكري هذه المدينة بقوله: ((ومدينة تيهرت مسورة؛ لها ثلاثة أبواب: باب الصبا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها [عدّ أربعة أبواب بدلا من ثلاثة]. وهي في سفح جبل يقال له جزُول؛ ولها قصبة مشرفة على السوق؛ تسمى المعصومة؛ وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة؛ يسمى مينا؛ وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتُش؛ ومن تاتش شُرب أهلها، وبساتينها؛ وهو في شرقيها. وفيها جميع الثمار؛ وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما مشما؛ وسفرجلها يسمى بالفارس. وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج... ونظر رجل من أهل تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز؛ فقال احرقي ما شئت؛ فوالله أنك بتاهرت لذليلة. وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة أميال منها تاهرت القديمة؛ وهي حصن لبرقجانة؛ وهو في شرقي الحديثة... وبقبليها لواتة وهوارة في قرارات، وبغربيها زواغة، وبجوفها مطماطة وزناتة ومكناسة؛ وقد ذكرنا أن بشرقيها حصن لبرقجانة؛ وهو تاهرت القديمة)). المغرب، ص ص: 66 ـ 67.

[2] ثمة من يرى أن بناء المدينة تم في سنة 161هـ تقريبا. أما قيام الدولة فقد حدث بعد شغور منصب الإمامة الإباضية؛ أي بعد مقتل أبي حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي؛ الذي كان إماما لهم؛ وذلك سنة154هـ. ومع هذا فقد بقي تاريخ قيام هذه الدولة يكتنفه بعض الغموض. أنظر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 29 ـ 30.

وكان فارسيّ الأصل، وهو من موالي عثمان بن عفان؛ وينحدر من أسرة تتصل بملوك الفرس الأكاسرة. ويقال أنه ولد في العراق؛ وقدم إلى القيروان رفقة أمه التي تزوجت ـ بعد أن مات بعلها في الحج ـ من رجل يسكن القيروان. وهكذا يكون هذا الأمير الآباضي من المشارقة الوافدين إلى المغرب؛ مثله مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح؛ مع فارق السن. وبقيام هذه الدولة ـ قبل تشييد عاصمتها تيهرت ـ تكون قد توافقت مع نظرية ابن خلدون السابقة الذكر؛ والتي يرى فيها أن قيام الدولة يحدث قبل تشييد مدينتها.[1]

ومن الضروري التنبيه ـ هنا ـ إلى وجود فوارق واضحة بين دولة تيهرت الإباضية، وبين الدولتين السابقتين (دولة برغواطة، ودولة بني مدرار)؛ من حيث نظمها وسيادتها وسعة رقعتها وإنجازاتها الحضارية. فدولة بني رستم كانت متينة الأسس، ديمقراطية النظام والتسيير، سيدة القرار والتنفيذ، واسعة الأطراف والأقاليم، ذات إنجازات حضارية وثقافية متميزة؛ يرأسها إمام؛ يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى؛ أعضاؤه هم أهل الحل والعقد. وكان العامل الديني سائدا، ومهيمنا على الحياة في تلك الدولة. وينسجم هذا مع ما قرره ابن خلدون في مقدمته؛ من أن "**الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**أن الدعوة الدينية تزيد**

---

[1] المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ـــ 968.

الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية؛ التي كانت لها من عددها".[1]

ومع هذا لا يسع المتأمل في تاريخ الدولة الرستمية سوى الاعتراف بما للعصبية من أثر لا ينكر في نشأتها. فعلى الرغم من العامل الديني؛ الذي هذب أخلاق ونفوس الذين أنشئوا هذه الدولة؛ إلا أنها لم تكن تخلوا من تأثيرات العصبية. إذ أن اختيار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي لمنصب الإمامة فيها؛ جاء نتيجة لما كانوا يعرفونه عن نسبه وفضله؛ فدخل ـ بهذا الاعتبار ـ في إطار أصحاب النصاب الملكي؛ لأنه منسوب إلى الأكاسرة، وكان عاملا لأبي الخطاب على القيروان في الدولة الإباضية الأولى. كما أن القبائل المتعددة العصبيات ـ التي شاركت في تشييد هذه الدولة ـ تكون قد اختارته؛ لكي تتجنب الصراع على السلطة فيما بينها؛ وخوفا من تأثير النزوات الهوجاء للعصبية الغاشمة. هذا بالإضافة إلى تأثير المذهب الإباضي؛ الذي يستوجب اختيار الأمير من أهل الصلاح والفضيلة؛ دون اعتبار لعروبته أو قريشيته.[2] وبذلك

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 636 ـــ 638.

[2] ويمكن استشفاف ذلك كله من خلال النص الذي سجله أحد علمائهم وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر؛ في كتابه سير الأئمة وأخبارهم؛ إذ قال: ((أن جماعة من المسلمين ـــ من أهل النظر منهم ـــ وجدوا في أنفسهم قوة، وأنسوا طاقة؛ فأرادوا التولية؛ فنظروا في عامة القبائل؛ فوجدوا في كل قبيلة رأسا أو رأسين؛ كل يصلح للإمارة؛ فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم: "إن عبد الرحمن بن رستم الفارسي ﷺ؛ ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد الخمسة الحاملين للعلم، وعامل الإمام أبي الخطاب ﷺ. وقد عرض عليه المسلمون الإمامة؛ قبل تولية أبي الخطاب؛ فأعرض عنها،=

يمكن القول أن دولة بني رستم تأسست بفضل العصبية التي تمثلها قبائل: لماية ولواتة ومزاتة وهوارة وزناتة؛ تلك القبائل التي تحالفت، وعززت عصبيتها بالتعاليم الدينية؛ التي ألفت بين القلوب، وأنارت العقول، ووحدت الصفوف، وأزالت علة التنافس، والحسد بين الناس؛ فهذبت بذلك طيش العصبية، وكبحت جموحها؛ فامتلكت قوة وقدرة؛ حققت بهما استقلالها، وضمنت امتداد رقعتها، واكتسبت هيبة واحترام خصومها.

كان إمام الإباضيين عبد الرحمن بن رستم في غاية الصلاح والزهد وفي قمة المعرفة والعلم. وله بعض المؤلفات منها: تفسير للقرآن الكريم، وديوان خطب، ورسائل إخوانيات. ومن علامات زهده وفضله وتواضعه؛ أنه كان يقوم ببناء داره بنفسه، وبمعونة عبد له. كما أوردت المصادر أنه لما وصلته — في بداية الدولة — ثلاثة أحمال من المال؛ بعث بها الإباضيون في المشرق؛ استشار أصحابه في أمرها؛ فأشاروا بقبولها؛ لحاجة الدولة والرعية إليها أنئذ. فعمل بمشورتهم وقبلها، ثم فرقها أمام الوفد المشرقي على فقراء المسلمين، وفي شراء الأسلحة الضرورية. ولما وصلته عشرة أحمال أخرى من المال — بعد فترة — مع وفد آخر؛ شاور أصحابه أيضا؛ فتركوا القرار له. عندها أرجع الأحمال إلى أصحابها؛ بحجة أن

=ودفعها عن نفسه، ولم يردها؛ ولا سيما وأنه ليست له قبيلة تمنعه إذا تغير وتبدل)). ص: 82. أنظر أيضا طبقات المشائخ بالمغرب؛ للدرجيني، ج: 1، ص: 42.

أصحابها أحوج إليها من الدولة؛ نظرا لاستغنائها وما وصلت إليه من قوة.[1]

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله؛ انتخب سبعة من الأعيان؛ ثم عرضهم على الناس لاختيار خليفته منهم. وبذلك يكون قد اتبع سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهؤلاء السبعة هم: مسعود الأندلسي؛ وكان فقيها من أهل الفضل والعلم والورع، ثم عمران بن مروان الأندلسي، ثم أبو الموفق بغدوس بن عطية، ثم سكر بن صالح الكتامي، ثم مصعب بن سدمان، ثم أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني، ثم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم. وتبعا لقانون **العصبية**، وطبيعة مفعولها في الأنظمة القبلية، أو الشبيهة بالقبلية؛ فإن الفرز الحقيقي اقتصر على اثنين من السبعة؛ لما لهم من نفوذ على العصبيات الممثلة في تيهرت. وكانت المنافسة الفعالة بين ابن فندين اليفرني الزناتي؛ الذي انحازت إليه قبيلته، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ الذي اختارته القبائل الأخرى؛ كما انضم إلى صفه جماعة من الفرس؛ بحكم العصبية أيضا. وانتهى الأمر بتفوق عبد الوهاب؛ بحكم نصابه الملكي، والتنافس الخفي بين القبائل الأخرى؛ كما أن أم عبد الوهاب كانت من قبيلة بني يفرن الزناتية أيضا. وثمة رواية أخرى تقول أن الاختيار انحصر ـــ في

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 83 ـــ 84. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 45.

الأول – بين مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب؛ ولكن مسعود الأندلسي رفض وبايع عبد الوهاب. ولما تيقن ابن فنذين من إصرار الناس على عبد الوهاب قال: ((**هو أقرب منا رحما من غيره؛ ولعل ذلك أن يعطفه علينا**)).[1] وهكذا تنطق العصبية، وتعبر عن ذاتها؛ دون أن يشعر ابن فنذين بتناقضه مع المذهب الذي يتبعه. فقد رضي بعبد الوهاب لأن أمه من بني يفرن، وطمعا في أن يؤثرهم على غيرهم.[2] وهكذا فلما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ(787م)؛ خلفه ولده عبد الوهاب.

– <u>حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم</u>:

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن متبحرا في علوم الشريعة الإسلامية، والفقه الإباضي؛ وله كتاب جمع تحت عنوان نوازل نفوسة. وكان يقضي وقته في تدبير شئون الدولة، والمطالعة وتدريس العلوم في المسجد. ولما ذهب إلى جبل نفوسة بقي به زهاء السبع سنين في التدريس بالمسجد لعامة الناس. وقد عرف بالدهاء، والحنكة البالغة، وشدة الشكيمة، والحزم، والثروة الزاخرة. وقد اختلفت الروايات حول مدة حكمه فمن قائل بأنها دامت نحو أربعين سنة؛ أي أنه تولى الحكم سنة 168هـ(784م) ومات سنة 208هـ(823م)، وقائل

---

[1] السير، ص: 86. والطبقات، ج: 1، ص: 47.
[2] السير، ص: 86. والطبقات، ج:، 1، ص ص: 46 ـــ 47.

أنها لم تتجاوز التسعة عشر سنة. غير أن سليمان الباروني يقول أنه حكم من عام 171هـ إلى عام 190هـ(805م) سنة وفاته.

وفي عهد الإمام عبد الوهاب بدأت **العصبية** تتململ وتتحرك؛ استجابة لمقتضى طبيعتها المتصفة بالأنانية والغضب. وعلى الرغم من انتماء أم عبد الوهاب إلى القبيلة بني يفرن الزناتية؛ تلك القبيلة القوية النافذة؛ فإنه لم يستطع كسب ولاء كل عشائرها؛ إذ وقف في طريقه يزيد بن فندين اليفرني؛ ذلك الخصم العنيد، المتعصب لنفسه ولقبيلته. ونتيجة لهذا حدث ما يعرف لدى الإباضيين بالافتراق الأول بين الإباضيين. وقد تطور الخلاف بين الطرفين حتى وصل إلى استعمال السلاح، وسفك الدماء. وتكررت الفتن بينهما حتى اختتمت بمقتل يزيد بن فندين؛ في موقعة قتل فيها ما لا يقل عن اثني عشر ألفا. وعرفت الجماعة المخالفة بعدة ألقاب منها: العمرية أو العمرانية؛ نسبة إلى عيسى بن عمير، والنجوية؛ لأنهم كانوا يتناجون بالإثم والعدوان، والنكارة؛ لإنكارهم إمامة عبد الوهاب، والشغبية؛ بسبب شغبهم، والملحدة؛ لإلحادهم في أسماء الله الحسنى، والنكاث؛ لنكثهم البيعة بغير حجة شرعية.[1]

ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة في عهد الإمام عبد الوهاب؛ بل ثارت عليه أيضا فئة أخرى من قبيلة زناتة. وعلى الرغم من تبعيتهم

---

[1] السير، ص ص: 88 ــ 100. والطبقات، ج: 1 ص ص: 47 ــ 56.

للدولة الإباضية؛ إلا أنهم كانوا يتمذهبون بالواصلية (وهم أتباع طائفة من المعتزلة؛ ممن اعتنق مذهب واصل بن عطاء الغزال).[1] كما وضع أبو زكرياء في كتابه فصلا خصصه لهذه الفرقة؛ ولدورها في إثارة الفتنة وسط دولة بني رستم؛ وسرد الكيفية التي استطاعت بها هذه الفئة من زناتة الزج بالدولة في دوامة من الاضطرابات والفتن ــ مدة طويلة ــ قبل أن تتمكن من التغلب عليهم؛ بمساعدة جماعة من نفوسة.[2] والقصة طويلة؛ ولكن خلاصتها في النهاية؛ انتهت بهزيمة الواصلية في مجالات الحرب، والمجادلات الكلامية. وعندها اختار أصحابها مهادنة الدولة. وثمة من يعتقد بأن محرك هذه الجماعة هو شيخ أوربة

[1] وقد أشار البكري لهذه الفئة من الواصلية؛ المتواجدة بالقرب من تيهرت فقال: ((وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت؛ وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا؛ في بيوت كبيوت الأعراب؛ يحملونها)). المغرب، ص: 67. أنظر أيضا معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة تاهرت: 2، ص: 8.

[2] وعن هذا يقول أبو زكرياء: ((وهم قوم من البربر؛ أكثرهم من قبائل زناتة؛ وذلك حين أحسوا ببعض الفرقة في الإباضية؛ وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة؛ فبلغ الإمام ذلك؛ فاعتذر إليهم مرة بعد مرة؛ وقد نشأ إذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع، عظيم، بطل لا يقاوم له شيء؛ وهو ابن سيدهم، وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة؛ يذب من مذهبه؛ وقد جرت بينه وبين الإمام مناظرات كثيرة؛ وكان شديد المعارضة، حديد العارضة. فتكاثفت كلمة الواصلية، واجتمعوا من كل نقب، وجازوا من كل أوب؛ فانحازوا عن تاهرت، وأخذوا جبالها؛ وهم أصحاب العمود؛ وأظهروا مخالفة الإمام ــ رضي الله عنه ــ فاعتذر إليهم؛ وخرج إليهم بعساكر كثيرة؛ فقاتلهم مرة بعد مرة. وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة؛ لا يدرك أحدا إلا قتله... فلما رأى الإمام ــ رضي الله عنه ــ ذلك، وأن حربهم جد؛ أرسل إلى جبل نفوسة يستمدهم؛ أن يبعثوا إليه جيشا نجيبا؛ يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة... واتفق رأيهم على أن يبعثوا له بأربعة نفر: أحدهم مهدي [النفوسي الويغوي]، والآخر أيوب بن عباس، والثالث محمد بن يانس، والرابع لم يبلغنا اسمه؛ وقد قيل أن اسمه أبو محمد فارس...)). السير، ص:102.

بأوليلي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي؛ المبايع لإدريس بن عبد الله؛ وكان ـ كما قال البكري ـ معتزليا. ومن جهة أخرى فقد ذكر الشهرستاني ـ في فصل الواصلية ـ أن فئة منهم متواجدة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني.[1] وإذا صح هذا فمعناه أن الواصلية تكون قد انتشرت انتشارا واسعا في المغرب الأوسط؛ ووصلت إلى أجزاء من المغرب الأقصى.

ولم تكن هزيمة ابن فندين اليفرني والزناتيين التابعين للواصلية ـ من بعده ـ هي خاتمة الثورات؛ بل انتفضت قبيلة هوارة إثرهما؛ بفعل الغيرة والنخوة وتأثير العصبية؛ إذ استفزهم تصرف الإمام عبد الوهاب؛ من أجل ابنة شيخ قبيلة لواتة؛ التي تقدم إلى خطبتها أحد شيوخ هوارة؛ فخاف الإمام عبد الوهاب عاقبة تمتين أواصر القربى بين القبيلتين: (هوارة ولواتة) فسارع إلى مزاحمة شيخ هوارة؛ وعرض نفسه بديلا وخطيبا منافسا.[2] وبالطبع دخلت في الاعتبار المغريات المالية، والوعود الملوكية؛ فانتهت المنافسة بزواج الأمير عبد الوهاب من الفتاة. وكان هذا بمثابة إعلان حرب بين هوارة والإمام عبد الوهاب. وحدثت أيضا في عهد هذا الإمام فتن أخرى؛ قامت بها

---

[1] الملل والنحل، ج: 1، ص: 46.

[2] سيرة الأئمة الرستميين، ص: 22. الأزهار الرياضية، ج: 2، ص: 137. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ـ 421. 430 ـ 431. 491. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

بعض العشائر البدوية من مزاتة وسدراتة وعشائر أخرى. والسبب ـ على ما يبدو ـ أنهم طالبوا الإمام بعزل بعض الموظفين؛ كالقاضي، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة؛ فأبى عليهم ذلك ـ في قصة طويلة ـ فثاروا عليه؛ فما كان منه إلا أنه جرد قوة لتأديبهم وإخضاعهم؛ وتم له ذلك بعد جهد.[1]

ـ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:

وبعد وفاة الإمام عبد الوهاب خلفه ولده أفلح بن عبد الوهاب؛ الذي احتل مركزا ممتازا بين أئمة الإباضيين. وقد دام حكمه ما يقارب الخمسين سنة في قول، وستين سنة؛ في قول آخر. وسبب هذا الاختلاف يعود ـ كما يبدو ـ إلى ما ظهر من اضطراب حول السنة التي توفي فيها والده الإمام عبد الوهاب. وبهذا تكون السنة الذي تولى فيها الأمير أفلح غير محققة. ربما حدثت في سنة 188هـ(803م) أو 190هـ(805م) أو 208هـ(823م). ومع ذلك فقد اتفقت المصادر كلها على أن سنة وفاة الإمام أفلح هي 240هـ(854م). ولما تولى هذا الإمام الحكم كانت ثورة خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى؛ التي اندلعت في نواحي طرابلس؛ أيام حكم والده ما زالت مشتعلة؛ فواصل جهود والده لإخمادها. هذا وقد وصفت

[1] تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ـــ 421. 431. 491 ـــ 495. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

المصادر أفلح بالشجاعة والنجدة والعدل وحب العلم والتبحر فيه؛ وله بعض المؤلفات والرسائل في: الأجوبة والنصائح والمواعظ. وكانت له مشاركة في الآداب ونظم الشعر. وفي عهده ازدهر النشاط الاقتصادي والتجاري في تيهرت، وتوسعت التجارة مع بلاد السودان؛ خاصة مملكة **كوكو**؛ التي يقدر بعدها عن تيهرت بثلاثة أشهر سيرا بالقوافل؛ عبر وارجلان؛ كما كانت لهذه الدولة علاقات طيبة مع الدولة الأموية بالأندلس.

ويبدو أن الإمام عبد الوهاب استطاع بدهائه وحنكته تمهيد الدولة، وتيسير أمر انتقال الحكم فيها إلى أبنائه؛ دون حدوث مشاكل؛ مثلما حدث عند توليه الحكم بعد أبيه عبد الرحمن؛ وعليه لم تتكلم المصادر الإباضية ـ بدقة ـ عن الطريقة التي تمت بها بيعة ولده أفلح. مما يبعث على الاعتقاد أنها حدثت كما كان يحدث في الممالك السنية الأخرى؛ إذ رسخت لدى الرعية فكرة أحقية الإرث الملكي للأسرة المالكة؛ كما أقروا بصحة العمل بمبدأ ولاية العهد. ومع هذا فقد نشبت في عهد الإمام أفلح بعض التيارات المعارضة؛ مثل: الحركة التي سماها الإباضيون بالافتراق الثالث؛ وهي ـ في الحقيقة ـ معارضة مذهبية سلمية؛ قادها نفاث بن نصر النفوسي؛ وإن كانت المصادر الإباضية ترجع أسبابها إلى عوامل سياسية؛ وإلى الغيرة

والحسد نتيجة لاستحواذ بعضهم على المناصب في الدولة دون الآخرين.[1]

ـ حكومة أبي بكر بن أفلح:

وبعد وفاة الإمام أفلح سنة 140هـ تولى ولده أبو بكر الإمامة. وكانت مدة ولايته قصيرة جدا؛ إذ لم يكمل حكمه السنتين. وفي عهد هذا الإمام عرفت دولة بني رستم تحولا ملحوظا في مسارها السياسي. إذ أصبحت الدولة في قمة الثراء والازدهار؛ مما ساق أصحابها إلى الدخول في عهد جديد يتميز بالترف الفائض والنعيم الواسع. ومن الأمثلة على ذلك الثراء الذي كان متفشيا بين رعايا الدولة أن أحدهم؛ وهو يبيب بن زغلين المزاتي كان يمتلك من الإبل ثلاثين ألفا، ومن الغنم ثلاثمائة ألفا، ومن الحمير اثني عشر ألفا. أما ثروة الإمام أبي بكر بن أفلح فلا حصر لها. وعليه فقد أصيبت الدولة بالأعراض الطبيعية للترف والنعيم الفائضين عن الضروري؛ لذا فقد ابتلي الإمام أبو بكر بالداء الذي ينتج عن الترف وتوابعه؛ وهكذا فقد ركن إلى الدعة والسكون؛ وترك شئون الدولة في يد صهره محمد بن عرفة؛ وهو من أعيان البلد ذوي النفوذ والسمعة الطيبة؛ وينتمي إلى أسرة عربية؛ ولكنه مال إلى الاستبداد بالأمر؛ مما أغضب أهل البيت المالك؛ فأوغروا

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 138 ـــ 146. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 77 ـــ 82.

صدر أبي بكر ضد صهره؛ فقتله غيلة؛ الأمر الذي أشعل في المدينة ثورة أكلت الأخضر واليابس. وما حدث هنا لا يخرج عن المفهوم الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته ضمن: "**فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون**". و"**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[1]

وهذا هو الذي حصل للرستميين؛ إذ وصل مؤسس دولتهم عبد الرحمن بن رستم إلى إقامة دولته بالكدّ والجهد والمطالبة المضنية؛ فاقتصر ـ في حياته إذ ذاك ـ على الضروري من العيش. ولم

---

[1] ففي المثال الأول يقول ابن خلدون: ((وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك؛ وإذا حصلت الغلبة انقضى السعي إليها... فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه؛ وآثروا الراحة والسكون والدعة؛ ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس؛ فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب)). أما المثال الثاني فيقول فيه: ((اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة؛ ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور؛ لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغلب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية... فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد، وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية... الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته... الطور الثالث: طور الفراغ والدَّعَة؛ لتحصيل ثمرات الملك؛ مما تَنْـزع طباع البشر إليه؛ من تحصل المال، وتخليد الآثار، وبعد الصيت... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بَنى أوّلُوه، سلما لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدا للماضين من سلفه... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أوّلُوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم، ويستولي عليها المرض المزمن؛ الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه بُرءٌ؛ إلى أن تنقرض)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 651. 663 ـــ 666.

يهنأ له بال، ولا استسلم للراحة ولا للدعة أو السكينة؛ حتى حقق أهدافه. ولما خلفه ابنه عبد الوهاب ضبط أمره، وحافظ على توازن ملكه؛ على الرغم من الثراء الذي بدأ يظهر عليه؛ ونظرا لكونه قد عاش في عهد والده؛ وعرف قيمة الجهود التي بذلها أبوه للوصول إلى ما هم عليه؛ فقد توازنت حياته، ولم يترك لنفسه العنان. ولما تولى ابنه أفلح بدأت بوادر الترف تدخل بيته؛ وإن كان ــ هو في ذاته ــ بقي متمسكا ببعض عادات أبيه؛ غير أن ذلك كان نسبيا. أما ولده أبو بكر فقد بعد به الزمن عن مبدأ قيام الدولة، ولم يعرف للتقشف طريقا؛ ولم يعايش حال الأولين؛ لذا فقد طغت عليه طبيعة الملك؛ المتميزة برخاء العيش؛ فانساق وراء الترف والملذات والمغريات؛ تاركا معاناة الحكم، ومشاق السياسة إلى وزيره ابن عرفة؛ فحدث ــ نتيجة لذلك ــ شرط الاستبداد عليه؛ من طرف صهره ابن عرفة؛ ولكن عصبية البيت المالك أبت عليه تراخيه، وعابت عليه تَرْك شئون الدولة بين يدي وزير من قبيلة أخرى؛ ليس بينهم وبينها روابط؛ سوى روابط المصاهرة؛ لذا فقد استعملوا سلاح الفتنة والخداع للتفريق بينهما؛ فكانت النتيجة هي ما حدث من مآسي وسفك للدماء. وما تلاها من انتفاضات للعامة، وثورات قام بها: بنو مسالة الهواريين أصحاب قلعة تاسفدالت، وفئة من الفرس المناوئين لبني رستم. ويبدو أنه تم ــ وفي عهد أبي

بكر هذا – إلحاق بعض الجماعات من الفرس والعرب بالدولة الرستمية؛ وقد قدم هؤلاء الفرس والعرب من المشرق مباشرة، أو من القيروان.[1] ويدل هذا طبعا على التوجه الجديد للدولة الرستمية – في أواخرها – نحو استخدام المصطنعين من الجند والموظفين؛ لتعويض فئات أخرى من القبائل؛ التي قامت الدولة على كاهل أبنائها. وهذا كما سبق شرحه يفسر ظاهرة الشيخوخة التي ابتليت بها الدولة في هذا الطور من حياتها.

وجملة القول فقد شرعت الدولة الرستمية – بدءا بعهد أبي بكر هذا – في الانزلاق عبر منحدرات السقوط والاندثار. وانتهى الأمر بإمامها أبي بكر إلى أسلوب في الحكم لم تعهده الدولة من قبل؛ إذ انغمس في مستنقع الشهوات، تاركا شئون الدولة في يد وزيره؛ الأمر الذي شجعه على الاستبداد؛ وهنا استيقظت في أبي بكر غرائز الغيرة والانتقام؛ فاغتال وزيره ووضع دولته على حافة الهاوية. وكاد الأمر أن يخرج تماما من أيدي بني رستم؛ لولا ظهور أبي اليقظان بن أفلح؛ محفوفا بأنصاره من النفوسيين سنة 241هـ(855م).

– حكومة أبي اليقظان محمد بن أفلح:

بويع أبو اليقظان بالإمامة سنة 241هـ خارج تيهرت؛ أثناء الفتنة التي تسبب فيها أخوه أبو

---

[1] وفي هذا يقول ابن الصغير: ((وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم)). سيرة الأئمة الرستميين، ص: 26.

بكر. حدث ذلك بعد لجوئه إلى حصن لواتة المحاذي لتسلونت؛ أين ينبع نهر مينا. ولما ولي شئون الدولة عمل من فوره إلى إخماد الفتنة، وعقد صلحا مع بني مسالة الهواريين الذين تغلبوا على تيهرت. هذا وقد لعبت نفوسة دورا هاما في إعادة المياه إلى مجاريها، وتمهيد الأمر لعودة الدولة بقيادة أبي اليقظان. وبالفعل دخل إمام الإباضية من جديد إلى تيهرت؛ بغرض إصلاح ما تصدع، وعلاج ما أفسده الدهر والعباد.

ومع ذلك لم تجد إصلاحات أبي اليقظان في إنعاش هذه الدولة؛ لأن الداء أصبح مزمنا والعلاج مستحيلا. خاصة عندما اتضح أن العامل الديني ـ هو بدوره ـ أخذ مفعوله يتلاشى ويضعف في حياة تلك الدولة. كما أصبحت عصبية البيت المالك فاقدة لتلاحمها وفاعليتها. عندئذ برز الوجه الآخر للعصبية؛ كاشفا عن العيوب، والسلبيات التي كبحها الدين وضبط مفعولها ومؤثراتها من قبل. غير أن بوادر هذا الأمر السلبي بدأت ـ في الحقيقة ـ تظهر منذ عهد الأمير الثاني؛ ولكن الدولة كانت مازالت قوية بعصبيتها، وبمذهبها الديني. ولما حل عهد أبي بكر أخذ التنافس، والتحاسد يهيمنان على كيان التحالف القبلي المساند للدولة. وأضحت الخلافات والمؤامرات تحجب ضوء الشمس؛ في سماء الدولة الرستمية؛ وشرع أفراد العائلة المالكة في حبك المؤامرات ضد بعضهم بعضا. ووصل بهم

الحال إلى سفك دماء قرابتهم وأهاليهم. وبذلك كتب لهذه الدولة صك فنائها واندثارها.

ـ حكومة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان:

لما توفي أبو اليقظان سنة 281هـ(894م) ولي بعده في منصب الإمامة ولده أبو حاتم يوسف. وكان ـ حين توفي والده ـ خارج تيهرت في مهمة أسندت إليه مع جماعة من قبيلة زناتة؛ تهدف إلى حماية القوافل التجارية. وعلى الرغم من غيابه فقد خرجت العامة في شوارع تيهرت هاتفة باسمه؛ نظرا لما تخصه به من حب وإجلال. ولكنه لم يبق في منصبه أكثر من عام حتى بدأت المصاعب تظهر بوجهها القبيح؛ إذ تحركت بعض المؤامرات التي حاكها جماعة من أصحاب المصالح؛ حيث حرضوا عليه عمه يعقوب بن أفلح. فأغروه بالملك وواعدوه بالوقوف إلى جانبه إن هو ثار على ابن أخيه. وبالفعل تحرك يعقوب محاولا الاستيلاء على سدة الحكم. وظل الصراع بينهما يتصاعد؛ وكان النجاح سجالا بينهما؛ إلى أن قتل أبي حاتم غيلة بأيدي طرف ثالث في الأسرة المالكة؛ وهم أبناء اليقظان أخيه من الأب في سنة 294هـ(1003م). وبعد أن قتلوه ولوا مكانه أخا لهم اسمه اليقظان أيضا. وهكذا أصبحت حال الأسرة الرستمية؛ حيث انحدرت في مهاوي الصراعات والمؤامرات الدنيئة؛ وذلك من علامات فساد عصبيتهم، وانهيار قيمهم.

- **حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:**

غدت الدولة الرستمية بعد مقتل أبي حاتم في مهب الريح؛ فلم يعد حاكمها يحظى بالاحترام والتقدير الذي تحلى به الأسلاف. وهكذا بقي اليقظان في الحكم زهاء العامين؛ إلى أن حانت ساعة سقطته المحتومة على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م). والذي سهل في الإطاحة بهذه الدولة هو ذلك الانقسام الحاصل بين أبناء الأسرة المالكة. وقد ظهر هذا من خلال تحريض الأميرة الرستمية؛ دواسر أو (دوسرة) بنت أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان؛ أبو عبد الله الشيعي على قتل اليقظان واخوته؛ ثأرا لأبيها الإمام الرستمي الذين اغتالوه في سنة 294هـ.[1]

۞۞۞

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 169 ـــ 170. مختصر تاريخ الإباضية، ص ص: 44 ـــ 45. 47 ـــ 49. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 562 ـــ 568. 609. 615. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 66 67.

- **الحضارة والحركة الثقافية:**

هذا عن الأوضاع السياسية لهذه الدولة أما بخصوص إنجازاتها الحضارية والثقافية؛ فهي ـ خلافا للدولتين السابقتين ـ قد تميزت بالمآثر الحضارية، والإنجازات الثقافية والعمرانية؛ التي عرفت تطورا ملحوظا؛ بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي. وقد نافست تيهرت ـ في عهدها ـ حاضرة القيروان؛ في ميدان العلوم والعمران. حيث كانت ـ في ذلك الوقت ـ مركز إشعاع ثقافي، وحضاري انتشر نوره في ربوع المغرب كلها. ووصل أثره إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى؛ كبغداد، وقرطبة.[1] وقد برز في تربة تيهرت علماء وأدباء أجلاء؛ منهم من بقي فيها ومنهم من هاجر إلى القيروان وقرطبة؛ مثل: عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي

---

[1] وفي هذا يقول ألفرد بل: ((وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية؛ وفقا لمذهب الخوارج الإباضية. وبفضل تسامح الأئمة استطاع علماء أهل السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في مسائل العقيدة والشريعة؛ وربما راود هؤلاء الأخيرين الأمل في أن يقنعوا علماء أهل السنة باعتناق نحلة الإباضية. ومن هذه الناحية كانت تاهرت ـ شأنها شأن القيروان وتونس، حاضرتي العلم على مذهب أهل السنة ـ مدرسة لشحذ روح الجدل وحب المناقشة والتدقيقات. وأخذ شيوخ البربر في تلقي العلم بحماسة، وأسسوا مدرسة هم بدورهم. هنالك صارت تيهرت ـ بفضل حسن موقعها من الناحية الاقتصادية، وبفضل تسامح أئمتها ـ مدينة مزدهرة. وبفضل الزراعة، والتبادل التجاري خصوصا؛ صارت من أكبر أسواق المغرب... ووسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم؛ لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم؛ وهو ابن رستم وأهملوا العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم. ولهذا انهارت هذه في سنة 909م؛ حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي)). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ص: 149 ـ 150.

التاهرتي؛ فقيه سني في تيهرت أيام الدولة الرستمية؛ وهو والد الفقيه المحدث قاسم الذي هاجر مع ابنه إلى الأندلس. ثم ولده الفقيه قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ وهو من فقهاء السنة في تيهرت؛ كان قد أخذ عن بكر بن حماد؛ وهاجر إلى الأندلس مع ابنه سنة 317هـ(929م). ثم ولده الفقيه المحدث أبي الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بالبزاز؛ الذي ولد في تيهرت سنة 309هـ(921م)، وهاجر مع أبيه إلى الأندلس، حيث توفي بقرطبة سنة 396هـ(1005م). ثم الأديب الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي؛ وهو الذي وفد إلى أبي العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس في بصرة، ومدحه بقصيدة ذكرنا بعض أبياتها عند التطرق للحضارة والحركة الثقافية بدولة الأدارسة. ثم الفقيه المتكلم عبد الله بن اللمطي التاهرتي، صنفه الشماخي من بين علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، وقال فيه: ((**كان غاية في علم الكلام، يرد على الفرق، وينقض كلام المبتدعة، وألف كتبا في ذلك**)). ثم الفقيه الإباضي محمود بن بكر التاهرتي؛ الذي كان من المقربين من أبي اليقظان محمد بن أفلح؛ وكان بدوره من المهتمين بعلم الكلام، وله فيه تآليف. ثم يهوذا بن قريش التاهرتي؛ عاش في القرن الرابع الهجري بتيهرت؛ وهو لغوي مدقق؛ تعمق في المقارنة بين

اللغات: العربية، والعبرية، والآرامية، والبربرية؛ وقد ألف في ذلك كتابا توجد مخطوطة منه في مكتبة "أوكسفورد" البريطانية؛ وقد اعتبر يهوذا بن قريش بهذا العمل أول من وضع أساس النحو التنظيري. ثم المؤرخ ابن الصغير المالكي؛ ذلك المثقف السني الذي وضع كتابا عن تاريخ الدولة الرستمية. ثم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (أو سهر) الزناتي التاهرتي. ويعتبر هذا الأخير من كبار العلماء والمحدثين السنيين، ومن فحول الشعراء والأدباء الممتازين. وقد عاش في عهد أبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان؛ وهو القائل له معتذرا على ما بدر منه خلال الثورة التي قامت ضده؛ وما كان منه عندما انساق وراء المخالفين والثائرين على أبي حاتم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها
وغصن شبابي في الغصون نضير
فقلت كما قال النواسي قبلها
((عزيز علينا أن نراك تسير))
فقلت جفاني يوسف بن محمد
فطال علي الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة
ولكن أتت بعد الأمور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم
فداريتهم، والدائرات تدور
وأكرم عفو يؤثر الناس أمره
إذا ما عفا الإنسان وهو قدير

كما قال له لما مثل بين يديه:

مَاذَا يُدَبِّرُ رَبُّنَا فِي أَمْرِهِ
سُبْحَانَهُ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ
رَدَّ المُلُوكَ إِلَى مَحَلِّ قَرَارِهِمْ
مُسْتَبْشِرِينَ بِفَضْلِهِ وَعَطَائِهِ
فَتَبَارَكَ اللهُ اللَّطِيفُ بِصُنْعِهِ
مَا أَغْفَلَ الثَّقَلَيْنِ عَنْ نِعْمَائِهِ
رَفَعَ السَّمَاءَ بِلاَ عِمَادٍ بَيِّن
وَالبَحْرِ أَمْسَكَهُ عَلَى أَرْجَائِهِ
لَوْلاَهُ فَاضَ عَلَى العِبَادِ بِمَوْجِهِ
وَعَلَى الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ بِمَائِهِ
أَخَذَ البِلاَدَ بِسَيْفِهِ فَاسْتَسْلَمَتْ
وَبِعَدْلِهِ وَبِفَضْلِهِ وَسَخَائِهِ

ومن شعر أبي عبد الرحمن بكر بن حماد الزناتي في وصف البرد بتاهرت قوله:

مَا أَخْشَنَ البَرْدَ وَرَيْعَانَهُ
وَأَطْرَفَ الشَّمْسَ بِتَاهَرْتِ
تَبْدُو مِنَ الغَيْمِ إِذَا مَا بَدَتْ
كَأَنَّهَا تُنْشَرُ مِن تَخْتِ
نَحْنُ فِي بَحْرٍ بَلاَ لُجَّةٍ
تَجْرِي بِنَا الرِّيحُ عَلَى السَّمْتِ
نَفْرَحُ بِالشَّمْسِ إِذَا مَا بَدَتْ
كَفَرْحَةِ الذِّمِّيِّ بِالسَّبْتِ

ويقول في تيهرت بعد تخريبها من طرف الفاطميين سنة 296هـ(908م)؛ وهي السنة نفسها التي توفي فيها ابن حماد. فقال:

زُرنــــا مَـنــازِلَ قــوْمٍ لـــمْ يَـــزُورُونـــا
إنـــا لــفِـي غـفـلــةٍ عَـمـا يُـقـاسـونـــا
لــو يَـنـطِـقـونَ لـقـالـوا: الـزَّاد وَيـحَـكـمُ
حَـلَّ الـرَّحِـيـلُ فـمَـا يَـرْجُـو الـمُـقِـيـمِـيـنـا
الـمـوْتُ أجْـحَـفَ بـالـدُّنـيـا فـخـرَّبـهَـا
وَفِـعْـلـنـا فِـعْـلَ قـوْمٍ لاَ يَـمُـوتـونـا
فـالآنَ فـابـكـوا فـقـدْ حَـقَّ الـبُـكـاءُ لـكـمْ
فـالـحـامِـلـونَ لـعَـرشِ الـلـهِ بـاكـونـا
مَـاذَا عَـسَى تـنـفـعُ الـدُّنـيَـا مُـجَـمِّـعِـهَـا
لـوْ كـانَ جَـمـعَ فِـيـهَـا كـنـزَ قـارُونـا

ثم ولده أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد؛ قال فيه ابن الفرضي: ((**عبد الرحمن بن بكر بن حماد التيهرتي الشاعر؛ من أهل القيروان؛ يكنى أبا زيد؛ قدم الأندلس. حدث عن أبيه، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه وحديثه**)).[1] ويقول ابن الفرضي أنه توفي بقرطبة؛ بينما تذكر مصادر أخرى بأنه توفي سنة 296هـ(908م)؛ أثناء عودته مع والده إلى تيهرت؛ في كمين نصبه لهما بعض اللصوص الأشرار. وقد رثاه والده بكر بن حماد بقصيدة جاء فيها:

بَـكـيْـتُ عَـلـى الأحِـبـةِ إذْ تـوَلـوْا
وَلـوْ أنـي هَـلـكـتُ بَـكـوْا عَـلـيـا
فـيـا نـسْـلـي بَـقـاؤُكَ كـانَ ذُخـراً
وَفـقـدِكَ قـدْ كـوَى الأكـبـادَ كـيـا

[1] تاريخ علماء الأندلس، ص: 268.

كَفَى حُزناً بِأَنِّي مِنكَ خِلْوٌ
وَأَنكَ مَيتٌ وَبَقِيتُ حيا
وَلَمْ أكُ آيساً فَيئستُ لَمَّا
رَمَيتُ التُرَابَ فَوقَكَ مِنْ يَدَيا
فَليْتَ الخلْقَ إذْ خلِقوا أطاعُوا
وَليتكَ لمْ تكُ يَا بَكرُ شيا
تَسُرُّ بأشهرٍ تمْضِي سِرَاعاً
وَتَطْوِي فِي لَيَالِيهِنَّ طيا
فَلاَ تَفرَحْ بدنيا ليسَ تَبقَى
وَلاَ تأسفْ عَليهَا يَا بُنيا
فَقدْ قَطَعَ البَقاءَ غُرُوبَ شمس
وَمَطلعهَا عَلِيٌّ يَا أخَيا
وَليسَ الهمُّ يجلوهُ نهارٌ
تَدُورُ لهُ الفرَاقِدُ وَالثرَيَا

ورثاه بقصيدة أخرى أيضا فقال:

وَهوَّنَ وَجدِي أنني بكَ لاَحِقٌ
وَأَنَّ بَقائِي فِي الحياةِ قَليلُ
وَأنْ ليسَ يَبقَى لِلحَبيبِ حَبيبهُ
وَليسَ بباقٍ لِلخَليلِ خَلِيلُ

وَلَوْ أنَّ طولَ الحزْنِ مِمَّا يَرُدُّهُ
لَلازَمَنِي حزْنٌ عليهِ طويلُ
بلى رُبَّما دارَتْ عَلَى القلبِ لوْعَةٌ
فيرجعُها صَبرٌ هناكَ جميلُ
تبدَّدَ مَا قدْ كانَ مِنكَ مُجمعاً
وَجلَّلهُ رَمْلٌ عليكَ مهيلُ
فلاَ علمٌ يُنبيكَ أينَ مَحلهُ
وَلاَ جَدَثٌ يُشفَى عليهِ غليلُ
خلاَ أعْظمٍ قدْ بدِّدَتْ وَمَفاصِلِ
تميلُ بِها الأرْياحُ حَيثُ تَميلُ

وممن ينسب – أيضا – إلى تيهرت من العلماء والأدباء: أبو العباس الفضل بن نصر التاهرتي؛ وكان من علماء الشافعية؛ وتوفي بالقيروان سنة 344هـ(955م)؛ وهو من الشعراء كذلك؛ ومن شعره:

بلغَ الوُشاةُ عَليَّ حَيثُ أرادُوا
وَاللهُ يَسْألُهمْ وَمَا قدْ كادُوا
وَاللهُ يَعلمُ أنني مَا قلتُ مَا
قالَ الوُشاةُ تأفكاً وَأعادُوا
فهبِ الوُشاةُ أتوْا بأمرٍ بَينٍ
أينَ الكِرَامُ أبدَّلوا أمْ بادُوا
عفوُ الملوكِ عَنِ الذُّنوبِ مدائحٌ
مَدَحوا نفوسَهمُ بِها فأجادُوا

ولما وصل إليه خبر ـ غير مؤكد ـ بوفاة ابنه في جزيرة شقر؛ قال:

فلوْ كافتقادِ الناس قبلِي بَيْنهمْ
أتِيحَ لهُ مُوْتٌ وَأضمَرَهُ قبرُ
إذَنْ لصَبَرْتُ النفسَ ثمَّ احتسبتهُ
ليَعظمَ لِي مِنْ بَعدِ ميتتِهِ الأجرُ
ولَكِنْ طَوَتْ عنّي المَقاديرُ أمرَهُ
فمالِي بهِ مِنذُ انتآى شخصُهُ خبرُ
فرَحْمتكَ اللهمَّ قدْ بَلغَ الأسَى
نِهايةَ مَجهودِي وَقدْ غلِبَ الصَّبرُ

كما كان جل أئمة الدولة ـ أنفسهم ـ من العلماء والأدباء. فمؤسس الدولة عبد الرحمن بن رستم؛ يعتبر من كبار علماء الإباضية، كما كان ولوعا بأشغال العمارة، ويباشرها بنفسه؛ وإن اعتبر ما ينجزه منها بسيط المظهر. أما ولده عبد الوهاب فقد عرف بتبحره في العلوم، وولعه الشديد بالكتب؛ إذ تقول المصادر أنه بعث إلى المشرق ألف دينار لشراء الكتب؛ فأرسلت إليه الكتب التي قدرت بأربعين حملا. ويقال أنه كان ضليعا في العلوم الشرعية وعلم الفرائض والتنجيم. أما ولده الإمام أبو سعيد أفلح فكان ـ بدوره ـ عالما جليلا في علوم وفنون شتى؛ ومن شعره قصيدة في مدح العلم تصل أبياتها إلى الأربعين؛ منها:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حي وإن مات ذو علم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة
كميِّت قد ثوى في الرمس أعصارا
لله عصبة أهل العلم إن لهم
فضلا على الناس غيابا وحضارا

وتقول المصادر أنه كان بتيهرت الرستمية مكتبة أسمها المعصومة؛ تشتمل على أزيد من ثلاثمائة ألف مجلد؛ انتهى مصيرها إلى النار التي أشعلها في معظم مجلداتها عبد الله الشيعي؛ عندما افتتح تيهرت؛ ولم يأخذ منها سوى ما يناسب مذهبه؛ وما وجد بها من كتب الرياضة والصنائع والفنون.[1] ولو بقيت هذه المكتبة لقدمت للباحثين معلومات وافية عن هذه الدولة الإباضية.

[1] وعن الآثار العمرانية لدى الرستميين؛ يقول شارل أندريه جوليان: ((واقتصر الباحثون ـــ زمنا طويلا عند تقييم فن بني رستم المعماري ـــ على آثار سدراتة (قرب ورقلة) وهي المدينة التي التجأ إليها أهل تاهرت عندما استولى الفاطميون على عاصمتهم سنة 911م. وتدلنا هذه الآثار على أن فنها المعماري متصل بفن إفريقية، وأن زخرفها ينتسب إلى زخرف أديرة الأقباط، وان لها عناصر معمارية متأثرة بالمباني المصرية المعاصرة لها؛ وربما بقصور العراق. وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصغير معجبا بها. وفي سنة 1941م قام جورج مارسي ودوسي لامار بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت، وأجريا تنقيبا على آثارها. والذي زاد في صعوبة مهمتهما هو أن الأمير عبد القادر نزل في سنتي: 1835 و 1841م بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالا بعد رحيله. ورغم هذا فإنهما تمكنا من أن يكشفا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء؛ وبقايا من الفخار؛ كما أنهما ضبطا موقع القصبة؛ مقر أمراء بني رستم؛ وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة، مهيأة للصمود عند الحصار الطويل؛ وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن. ومن جهة أخرى فإن ما=

وإلى جانب كل هذا لا بد من الإشارة أيضا إلى إمارتين إباضيتين صغيرتين؛ كانتا ـ حسبما يبدو ـ في طاعة الدولة الرستمية؛ ولم تصل بهما الأهمية إلى البروز كدولتين مستقلتين. وهاتان الإمارتان هما: أولا: إمارة بني دمر: وهم بطن من قبيلة زناتة. وهذه الإمارة ـ في الحقيقة ـ لا تعدو أن تكون مجرد إمارة قبلية بدوية؛ كانت تنتجع في السهول الجنوبية لمتيجة؛ وبالتحديد في الجهة الغربية من بلدة **هاز** وفي الجنوب الشرقي من **سوق كرام**. وقد أشار إليهم البكري حين ذكر بأن جماعة من بني دمر؛ وهم من الإباضيين؛ كانوا يقيمون بحصن **تامغيلت** الرابض في الطريق بين المسيلة وتيهرت. ويستدل من خلال النصوص أن هؤلاء الدمريين لا علاقة لهم ـ مذهبيا ـ ببني نوح الدمريين؛ أصحاب الدولة بموروز في الأندلس؛ لأن هؤلاء الأخيرين كانوا ـ كما يبدو ـ من أهل السنة. وسيأتي الكلام عن دولتهم ضمن دول زناتة.

أما الإمارة الإباضية الثانية فهي إمارة بني مسالة الهواريين: وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن الإمام عبد الوهاب؛ وكيف حاربوه لأنه نافس أميرهم في الزواج من فتاة لواتية. كما ورد الكلام عنهم ـ أيضا ـ عند الحديث عن الفتنة

=وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الزخرف بتاهرت كان بدائيا بسيطا)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 2، ص ص: 43 ـــ 44.

التي وقعت في أواخر عهد أبي بكر؛ حيث احتل أمير مسالة محمد بن مسالة الهواري مدينة تيهرت بعض الوقت. وكان بنو مسالة هؤلاء متمركزين في قلعتهم المحاذية لنهر سيرات والرابضة في الجنوب الغربي من مدينة مستغانم؛ وهي المعروفة في هذه الأيام ــ بالقرب من يلل ــ بقلعة هوارة. وقد تكلم البكري عنها حين أشار إلى قلعة هوارة المسماة **تسقدالت** أو تاسفدالت. بالطبع فلا ترقى هاتان الإمارتان إلى مصاف الدول وإن كانت تتمتع بشيء من الاستقلال في حدود تلك القبيلة الصغير. وبقي الآن الكلام عن دولة بني برزال؛ التي لم يتمكن أصحابها من إقامة دولتهم في مواطنهم الأولى بالقرب من المسيلة؛ بينما ساعدتهم الظروف على إقامتها ببلاد الأندلس؛ خلال الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية.

۞۞۞

4)ـ دولة بني برزال:

قامت هذه الدولة في بلاد الأندلس؛ وذلك بعد أن أعلن البرزاليون قيامها في بلدة **قرمونة**؛ التي اتخذوها عاصمة لهم. هذا وقد نشأت هذه الإمارة الأمازيغية ـ ذات المذهب الخارجي ـ بعد انهيار الدولة الأموية، وانقسام بلاد الأندلس بين شلة من الأمراء، وبعض القبائل العربية والأمازيغية، وجماعات مختلفة من المولي والمماليك؛ وذلك في الفترة المعروفة بعصر الطوائف. وكانت هذه الدولة إباضية المذهب؛ حسبما ذكر كل من: ابن حيان وابن الخطيب.

ويرجع وجود بني برزال في بلاد الأندلس إلى عهد المستنصر الحكم بن عبد الرحمن الأموي ـ تولى من عام 350هـ(961م) إلى عام 366هـ(976م) ـ. وحدث ذلك بسبب وساطة قام بها حليفهم؛ عامل الفاطميين على المسيلة جعفر بن علي بن حمدون؛ بعد تمرده وهروبه إلى الأندلس؛ فاستأذن لهم من الخليفة الأموي في الانتقال إلى الأندلس؛ فأذن لهم مرحبا بمقدمهم؛ بغرض الاستعانة بهم في حروبه. ويبدو أن السبب الرئيسي في ترحيب المستنصر بهم؛ هو ما عرف عنهم من عداوة وبغضاء يكنانها للشيعة الفاطميين. وكما هو معروف؛ فهؤلاء الفاطميين هم أخطر المنافسين وأشدهم شراسة للدولة الأموية في تلك الأنحاء. ومنذ ذلك التاريخ أضحى البرزاليون جندا في خدمة الدولة الأموية. بل أصبحوا من أقرب

المقربين إلى الخليفة؛ إذ كانت لهم حظوة خاصة، نظرا للثقة التي خصهم بها. ولما استبد المنصور بن أبي عامر على الخليفة هشام؛ بالغ في تكريم البرزاليين مع الوافدين من أمراء القبائل الأمازيغية الأخرى؛ إذ قربهم إليه وخصهم بالإقطاعيات والقيادات.[1] وفي هذه الأثناء أسند ولاية قرمونة إلى إسحاق البرزالي[2] وهو أحد أمرائهم الأول في الأندلس. وظل البرزاليون ـ بعدئذ ـ محتفظين بولايتهم على قرمونة؛ في عهد أبناء المنصور بن أبي عامر أيضا.

ويبدو أن المصادر التاريخية تجاهلت ذكر ما حدث في ولاية البرزاليين؛ طوال الفترة الممتدة ما بين عهد المنصور بن أبي عامر، إلى عهد المستعين بالله سليمان بن الحكم. على أنهم

---

[1] يقول ابن خلدون: ((ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على الخليفة هشام؛ وتوقع النكير من رجالات الدولة، وموالي الحكم؛ استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض عليهم الإحسان؛ فاعتز أمره واشتد أزره؛ حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه... فأضحوا له عصبة؛ وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن...؛ فولاه قرمونة وأعمالها؛ فلم يزل واليا عليها أيام بني أبي عامر. وجدد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة؛ ووليها من بعده ابنه عبد الله)). العبر، مج: 7 ص: 112.

[2] ورد الاسم في العبر هكذا: ((إسحاق بن)). وربما يكون الناسخون قد أسقطوا اسم الأب. وهنا لابد من الإشارة إلى أن جل المؤرخين أكثروا من الخلط في أسماء أمراء بني برزال؛ وترتيبها زمنيا؛ حسب الفترات التاريخية التي مرت بهم في الأندلس. فحين الحديث عنهم مثلا أيام المستعين سليمان بن الحكم؛ يذكرون أحيانا اسم عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي. كما أن اسم إسحاق ورد في كثير من المصادر كحفيد لعبد الله البرزالي؛ بينما يذكر ابن خلدون هذا الاسم كجد للأمراء البرزاليين؛ يكون قد عاش في عهد المنصور بن أبي عامر. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 202. 203 . 206: 235. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـــ 238. والعبر، 4، ص ص: 324. 327. 337. 338. مج: 7، ص ص: 112 ـــ 113.

شرعوا في الحديث عن عبد الله البرزالي في بعض المصادر، أو محمد بن عبد الله البرزالي؛ في مصادر أخرى في أيام المستعين بالله؛ وبالتحديد في سنة 403هـ(1012م)؛ إذ كان الأمير البرزالي طرفا هاما وخطير في إشعال الفتنة الكبرى؛ التي كانت سببا في إزالة الدولة الأموية نهائيا من الأندلس. ويقال أن المستعين بالله عقد في سنة 403هـ لستة من أمراء العرب والأمازيغ على مقاطعات عديدة بالأندلس.[1] فكان نصيب عبد الله البرزالي في قول، أو محمد بن عبد الله البرزالي في قول أخر؛ هو تثبيته والإقرار له بإمارته السابقة؛ وبذلك ترك له ما كان في يده من مقاطعات من قبل. وهي المقاطعات التي سبق أن عين ابن أبي عامر عليها آباءه منذ مدة.

ولما استفحلت الفتنة داخل الدولة الأموية، ومال حالها إلى السقوط والانهيار؛ بادر بنو برزال إلى الاستبداد بما كان في حوزتهم أصلا. متبعين نهج غيرهم ممن استبد على الدولة من القبائل والطوائف المختلفة الأخرى. وعليه يكون البرزاليون قد أعلنوا ــ منذ تلك الفترة ــ قيام إمارتهم في

---

[1] قال ابن الخطيب: ((وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية؛ [تكلم ابن الخطيب هنا أيضا عن رؤساء من غير الأمازيغ] وكانوا ستة: فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد إلبيرة؛ وأعطى مغراوة جوفي البلاد؛ ومنذر بن يحيى سرقسطة؛ وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها؛ والمغاربة من دمر وأزداجة شذونة ومورور. وولى علي ابن حمود على سبتة، والقاسم بن حمود على مدينة طنجة وأصيلا والخضراء)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 119. أنظر ذلك أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ـــ 114. وهذا الخبر منقول عن ابن حمادة؛ كما أشار ابن عذاري.

كل من: **قرمونة وأستجة وحصن المدور**؛ أين تحصنوا في تلك الديار مستقلين بها؛ أسوة ببني جلدتهم: كـ: بني زيري وبني يفرن وبني دمر وبني ذي النون وبني خزرون.

هذا حال بني برزال يوم ظهورهم بالأندلس. أما فيما يخص أصولهم؛ فالمصادر تتفق كلها على أنهم بطن من بطون بني دمر الزناتيين. وكانت مواطنهم الأولى في جبل سالات؛ بجهات المسيلة حاضرة الزاب آنئذ. وكانت أعدادهم وافرة، وسطوتهم قاطعة؛ ونفوذهم واسعا في تلك الجهات. كما كانوا ـ كما يقول ابن خلدون ـ نكارية من الخوارج. ومن أتباع أبي يزيد مخلد بن كيداد؛ حيث ناصروه وحموه حين ثار على الدولة الفاطمية. ولما ضاقت به الحال هرب إليهم في جبل سالات؛ فوفروا له المأوى والحماية بعض الوقت. ولكنهم عادوا إلى طاعة الدولة الفاطمية عندما فشلت مقاومتهم، ويئسوا من جدوى المدافعة؛ خاصة بعد موت أبي يزيد. ومنذ ذلك التاريخ أضحوا في خدمة جعفر بن علي والي المسيلة. ولما ساءت علاقة جعفر بالدولة الفاطمية سنة 360هـ(970م) انحاز بنو برزال إليه وحالفوه. لذلك تكلم في أمرهم إلى الحكم المستنصر؛ فوافق على استدعائهم إلى بلاد الأندلس؛ أين ألحقهم بجنده؛ مثلهم مثل بقية القبائل الأمازيغية التي التحقت بالدولة الأموية.

وقد اشتهر من أمراء دولة بني برزال بالأندلس محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي.[1] ثم خلفه ـ في بعض الأقوال ـ ابنه إسحاق؛ الذي يقال أنه كان عظيم الشأن، عزيز الجانب، شديد الدهاء، حاد الذكاء.[2] أما تاريخ نشأة هذه الإمارة واستبداد أمرائها ـ بصفة نهائية ـ فيعود حسب جل المصادر إلى سنة 404هـ(1013م)؛ إذ تم ذلك بفضل العزيمة التي كان يتحلى بها كل فرد من قبيلة بني برزال؛ الذين ظلوا طوال مدة إقامتهم ببلاد الأندلس؛ متضامنين ومتجمعين ضمن كتلتهم القبلية المتماسكة والمتلاحمة مع بعضها بعضا. أما إدراج إمارتهم ـ في سياق هذا الفصل المخصص لدول الخوارج ـ فيرجع لما أشيع عن بقائهم على مذهبهم الخارجي في مدة إقامتهم بالأندلس.

---

[1] وفيه أقوال كما سبق ذكره. أما ابن الخطيب فيقوا: ((وكان هذا الرئيس يلي باديس ـ من ملوك البرابرة ـ في جلالة الشأن، وقوة السلطان؛ بقية أمراء البرابر المسلطين في هذه الفتنة، وأعظم شأنا في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جاشا على الخطوب المقلقة. وكان مشهورا بذخيرة عتيدة من صامت المال؛ لم يزل يجمعها؛ حائطا لها بالبخل الشديد، واستظهارا بها على الخطب العتيد... وتوفي رئيسهم [رئيس بني برزال] محمد بن عبد الله عن جمع ضخم من قبيل نجيب، وخزين من الطعام؛ لم يجمعه أمير قبله في الفتنة. وصار أمره إلى ولده إسحاق)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـ 237.

[2] وهو كما يقول ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان: ((ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه؛ وهو في حد الكهولة. كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية؛ يتحلى بشعبة من شعب الكتابة، ويضبط شيئا من الحساب، ويقرأ الدفاتر القريبة. وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة، وأذهَبُ منه في فرط العصبية. وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة، والبعد عن آفات الملوك الشائنة؛ مع اشتهارهما بالنكوب عن الجماعة، واعتقادهما بمذهب النكاريين من فرق الإباضية الخوارج؛ يستأثران بذلك هما وقومهما من بني برزال؛ أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 237. وللتوسع أنظر أيضا البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 237 ـ 239. ودول الطوائف، ص ص: 146 ـ 149.

وكانت لهذه الإمارة أيام وفتن كثيرة مع القبائل والإمارات المجاورة كـ: بني دمر في مورور، والأدارسة بمالقة أحيانا، وبني عباد في إشبيلية. وثالث أمراء الدولة البرزالية المستبدين هو العزيز بن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي.[1] إذ يقال أنه عرض على بن ذي النون أن يتنازل له عن قرمونة؛ في مقابل تعويضه بمقاطعة في بلاد ذي النون الجوفية؛ وذلك نكاية في عدوه المعتضد بن عباد؛ المتكالب عليه.[2] وثمة قول آخر يقولون فيه أنه تنازل عن قرمونة إلى ابن عباد نفسه.[3] ومن ذلك التاريخ المحدد بـ459هـ(1066م)؛ انقرض ملك بني برزال من الأندلس. كما زال ذكرهم ـ كقبيلة ـ نهائيا في المغرب الأوسط. وبذلك يكون سقوط هذه الإمارة قد تم بفعل التطاحن بين القبائل، والطوائف المتكالبة على السلطان والملك في بلاد الأندلس. حيث ظل أمراء هذه الدولة في حروب وفتن؛ دارت بينهم وبين أبناء عمومتهم الأمازيغ وغيرهم؛ من

---

[1] يقول ابن خلدون أن العزيز هو ابن محمد وليس ابن إسحاق؛ لأنه يرى في إسحاق جدا لهم، وأبا لعبد الله البرزالي. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 112 ـــ 113.

[2] يقول ابن الخطيب: ((ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور، والمعتضد بن عباد؛ إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة؛ واضطروا؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق؛ في خبر طويل؛ إلى ابن دنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها؛ على أن يعطيه المأمون بن دنون عوضا في بلاده الجوفية. فاتفقا على ذلك؛ وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور؛ وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 237 ـــ 238.

[3] العبر، مج: 7، ص: 113.

المنافسين والطامعين؛ كـ: بني دمر في مورور، وبني عباد بإشبيلية؛ وبني حمود بمالقة، وبني الأفطس ببطليوس.

وجملة القول فقد جاءت نهاية الدولة البرزالية؛ كما تحل نهاية أي كيان اعتمد في حياته على المغامرات، والفتن، والمؤامرات. وهكذا انتهت بعد حروب ومعاناة وتقلبات. هذا وقد اندثرت تلك الإمارة دون أن تخلف وراءها أية مآثر حضارية تذكر؛ ولم تترك من التراث الثقافي ما يمكن نقله أو الحديث عنه. وعلى الرغم من وجود هذه الإمارة في بيئة تزخر بالمآثر الثقافية، والإنجازات الحضارية؛ فقد شحت تربتها من ثمرات الحضارة. لأنها لم تكن سوى إمارة قبلية؛ ذات طابع عسكري بحت. ودامت على ذلك الحال حتى سقطت.

هذا ما أمكن ذكره عن الدول الإباضية؛ بدءا بالدولة الرستمية العظيمة؛ التي كانت متفوقة بقيمها الإنسانية، ومزدهرة بعلومها الدينية والدنيوية، ومتقدمة بتسامحها وتفتحها. كما تم التطرق – هنا – إلى بعض الإمارات القبلية الإباضية الصغرى المنضوية تحت مظلة الدولة الرستمية. بالإضافة إلى ذلك تم الحديث عن دولة بني برزال الإباضية بالأندلس. وهكذا.. فما بقي الآن سوى الانتقال إلى موضوع آخر تابع لهذا السياق مع بعض الاختلاف؛ وذلك بالإشارة – في إيجاز – للكيانات الخارجية الأخرى؛ التي لم ترق إلى

مستـوى الدولـة ذات المؤسسـات. وإن كانـت تشكـل شكـلا مـن أشكـال الإمـارات ذات طابـع القبـلي حـربي.



أمراء الحرب والثورة من الخوارج

لا بد من الإشارة – في هذا المجال؛ ولو باقتضاب – إلى الكيانات الصفرية التي ترأسها بعض القادة الصفرية الثائرين؛ منهم: ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الهتوري الزناتي، وعكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى، وأبو قرة اليفرني، وعاصم بن جميل الورفجومي، وثابت بن وزيدون الصنهاجي، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي؛ وغيرهم. ثم الحديث – أيضا – عن الكيانات الإباضية برئاسة: عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، وإسماعيل بن زياد النفوسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري، وأبي حاتم الملزوزي وآخرين. بالإضافة إلى الكيان الذي تزعمه أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ المنحرف عن المذهب الإباضي.

على أنه من الضروري الإفادة بأن تلك الكيانات لا تخرج عن كونها تجمعات قبلية ذات توجهات مذهبية؛ يرأسها بعض الشيوخ والرؤساء؛

الذين توصلوا إلى مرتبة الرئاسة ضمن كتل قبلية – بعض الوقت – بحكم الحلف المعقود بينها في إطار مذهب معين؛ بغرض مواجهة ولاة القيروان أتباع الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. وعلى هذا فتلك الكيانات الخارجية؛ لم تكن سوى هياكل ظرفية لأحلاف قبلية أمازيغية؛ انتهجت سبيل المذهب الخارجي. وبذلك لا يمكن وضعها في مصاف الدول؛ ذات المؤسسات الدائمة والمستقرة؛ لأنها – كما يبدو – لم تتوصل إلى مرتبة الدولة وشروطها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فلا يمكن اعتبار تلك التجمعات القبلية تجمعات زناتية أو هوارية أو صنهاجية لا غير؛ لأنها كانت تشتمل على خليط متنوع من الانتماءات القبلية؛ وحتى زعماء تلك الأحلاف لم يكونوا – بالضرورة – من الأمازيغ؛ إذ كان فيهم من هو عربي النسب.

هذا وتعود أسباب ظهور تلك الأحلاف القبلية الثائرة ضد الحكم الأموي؛ إلى الانحرافات التي بدأت تميز سلوك ولاة المغرب. وقد انطلقت البوادر الأولى للثورة خلال ولاية يزيد بن مسلم؛ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وصاحب شرطته؛ الذي كان موصوفا بالظلم والطغيان؛ لذا فقد حاول تقليد سيده، وتطبيق سياسته في بلاد المغرب.[1] إذ أنه

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما تولى يزيد بن عبد الملك؛ ولى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه؛ فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم؛ تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق؛ فقتله البربر لشهر من ولايته)). العبر، مج: 4، ص: 403.

كان إلى جانب احتقاره لحراسه من الأمازيغ ـ الذين كانوا؛ كما يقول ابن عبد الحكم: ((**من البتر خاصة؛ وليس فيهم من البرانس أحد**))[1] كما حاول أيضا أن يفرض الجزية على السكان الأصليين؛ على الرغم من دخولهم في الإسلام. ونتيجة لسياسته الجائرة؛ ثار عليه حراسه البتر وقتلوه. فلم يجد الخليفة الأموي ـ يزيد بن عبد الملك ـ بُدّا من تجاوز الأمر، والسكوت عن الحادث.[2] ونتيجة لذلك استقام الحال ـ بعض الوقت ـ وانطفأت جذوة الثورة في النفوس. غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ إذ كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. حيث اندلعت ـ بعد ذاك ـ ثورة أمازيغية عظيمة؛ كادت أن تقضي على حكم

---

[1] قال ابن عذاري: ((وفي سنة 102هـ قدم على إفريقية ـ واليا عليها ـ يزيد بن أبي مسلم. وكان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا؛ فقال: "إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره ((حرسي))؛ ليعرفوا بذلك بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد؛ أسرع لما أمرت به". فلما سمعوا ذلك منه ـ أعني حرسه ـ اتفقوا على قتله؛ وقالوا: "جعلنا بمنزلة النصارى!"؛ فلما خرج من داره إلى المسجد ـ لصلاة الصبح ـ قتلوه في مصلاه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 48. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص: 289. وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص ص: 99 ـ 100.

[2] قال الطبري: ((وكان سبب ذلك أنه كان ـ فيما ذكر ـ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج ابن يوسف في أهل العراق؛ ممن ردهم إلى قراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم؛ على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم؛ فلما عزم على ذلك؛ تآمروا في أمره؛ فاجمع رأيهم فيما ذكر على قتله؛ فقتلوه؛ وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار؛ وكان في جيش يزيد ابن أبي مسلم. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة؛ ولكن يزيد ابن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى [به] الله والمسلمون؛ فقتلناه، وأعدنا عاملك". فكتب إليهم يزيد ابن عبد الملك: "إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم؛ وأقر محمد بن يزيد على إفريقية")). تاريخ الأمم والملوك، ج: 8، ص: 167.

الأمويين – نهائيا – في بلاد المغرب. حدث ذلك خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب – الذي ولي على إفريقية سنة 116هـ(734م) – حدث ذلك تبعا لسوء تدبير عامله على طنجة؛ عمر بن عبد الله المرادي؛ الذي اتسم حكمه بالتعسف والتعصب واحتقار السكان من الأمازيغ؛ الأمر الذي أغراه باتخاذ قرار مخالف للشرع؛ إذ فرض الجزية على المسلمين من الأمازيغ؛ مما تسبب في تفجير ما بالنفوس من ضغائن مكبوتة، وضغوط مكتومة؛ فانفلت ما كانت تنطوي عليه صدور سكان المغرب من شحنات مدمرة.[1] ويبدو أن الأوضاع العامة كانت جاهزة للانفجار؛ ولم يبق سوى الشرارة التي ستشعل الفتيل.[2]

ونتيجة لهذا فقد دخلت بلاد المغرب عهدا جديدا قاتما؛ سادت فيه الثورات، التي تسببت في

---

[1] وفيه يقول ابن عذاري: ((ثم إن عمر بن عبد الله المرادي — عامل طنجة وما والاها — أساء السيرة، وتعدى في الصدقات والعشر؛ وأراد تخميس البربر. وزعم أنهم فيء المسلمين؛ وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله؛ وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام. فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد. نعوذ بالله من الظلم؛ الذي هو وبال على أهله)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 51 — 52. أنظر عن هذا — أيضا — تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 100. والكامل لابن الأثير، ج: 4، ص: 222. والعبر، مج: 4، ص: 405.

[2] وقد أشار ابن خلدون إلى بعض الأسباب التي شحنت النفوس، وأغضبت الناس من ولاة الدولة الأموية؛ إذ قال: ((ولما ولي عبيد الله بن الحبحاب على إفريقية؛ من قبل هشام ابن عبد الملك... استعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، وابنه إسماعيل على السوس وما وراءه. واتصل أمر ولايتهم، وساءت سيرتهم في البربر، ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات، والأفرية العسلية الألوان، وأنواع طرف المغرب؛ فكانوا يتغالون في جمعهم ذلك وانتحاله. حتى كانت الصرمة من الغنم تستهلك في الذبح؛ لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها؛ ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه. فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 239 — 240.

تقلص نفوذ الخلافة الأموية، وتراجعه. وأصبحت البلاد – منذ ذلك التاريخ – مقسمة بين القبائل الأمازيغية المختلفة؛ التي استطاعت – في ظل الوضع المتردي – الخروج عن نفوذ الدولة الأم؛ وحتى إن قامت بعض الدول والإمارات في تلك الربوع؛ فقد كانت خاضعة لسلطان العصبيات والقبائل المتباينة والمتنافرة بهذه الديار. وهكذا غدت بلاد المغرب مسرحا واسعا ترتع فيه كيانات فوضوية؛ لا هدف لها سوى المكاسب المؤقتة؛ التي تأتي عن طريق المغامرات الجنونية، والفتن المدمرة. وعليه فقد انتشرت ثورات الصفرية بشكل واسع؛ بقيادة بعض الثائرين؛ الذين ترأسوا ما يمكن تسميته – مجازا – إمارة مثل:

– <u>إمارة ميسرة الخفير المطغري الصفري</u>: يعود ظهور ميسرة المطغري في مسرح الأحداث؛ كنتيجة حتمية لما أبداه ولاة الدولة الأموية من نهب وعسف واستهانة بأهل البلاد من المسلمين[1]. فبسبب كل ذلك انطلقت ثورة عارمة في سنة 122هـ(739م) بدءا بطنجة؛ حيث قتل فيها عمر بن عبد الله المرادي؛ العامل الذي عينه ابن الحبحاب فيها؛ ثم انتشر لهيب الثورة – بعد

---

[1] قال ابن عذاري: ((وكان السبب في ثورة البربر بالمغرب، وقيام ميسرة؛ أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا. وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب؛ مناهم بالكثير، وتكلف لهم — أو كلفوه — أكثر مما كان. فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة؛ فحينئذ عدت البرابر على عاملهم؛ فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 52.

ذلك – إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب. وكانت الفكرة السائدة التي فجرت هذه الثورة مستمدة من عقيدة خارجية، وصفرية بالذات كما يقال.

وانتصب ميسرة المطغري الصفري قائدا للقبائل الأمازيغية الثائرة؛ بل يقال أنه بويع بالخلافة؛ ولكن أنصاره انتفضوا عليه، ثم قتلوه بعد فترة قصيرة؛ ربما حدث له ذلك العزل، ثم القتل؛ بسبب خروجه عن الضوابط المتفق عليها في تسيير شئونهم؛ أو لعجزه وضعف كفاءته الحربية؛ خاصة وأن انسحابه أمام جيش القيروان بالقرب من طنجة؛ دون سبب مقنع؛ قد يجيز ما تعرض له من عزل. أما ما تذكره المصادر التاريخية – دون تفسير أيضا – عن قتل الصفرية لميسرة؛ فربما حدث ذلك بسبب رفضه ترك منصب القيادة. ويبدو أن ضعف موقفه – أيضا – جاء من كون قبيلته مطغرة؛ لم تكن تمثل القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الحلف القبلي الصفري. وهذا يتفق مع نظرية ابن خلدون التي فسرها ضمن: "**فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية**".[1]

[1] ويقول فيها: ((أعلم أن كل حي أو بطن من القبائل — وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام لهم — ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم... والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم؛ ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب؛ ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لأهلها... ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه؛ لما قلناه من سر الغلب؛ لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين.=

_ إمارة خالد بن حميد الهتوري الزناتي الصفري:

وبعد أن قتل ثوار الصفرية قائدهم ميسرة المطغري في سنة 122هـ(739م)؛ أسندوا قيادتهم إلى خالد بن حميد الزناتي؛ الذي ينتمي إلى بطن من زناتة يسمى هتورة. فتولى أمرهم بجدارة واقتدار؛ إذ قادهم في معارك ضد الأمويين؛ برهن فيها على قدرات عسكرية كبيرة. افتتح انتصاراته بالهزيمة التي ألحقها بجيش الأمويين في الموقعة المسماة غزوة الأشراف.[1] وكانت تلك الهزيمة ضربة شديدة المفعول؛ بحيث هزت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأغضبته إلى أبعد الحدود؛ فلم يتمالك نفسه حين قال بعصبية عربية واضحة: ((**والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي. ثم لا تركت حصنَ بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي**)).[2] وهكذا لا تخلو قولته هذه _ طبعا من عاطفة

=فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 _ 599.

[1] قال ابن الأثير في ذلك: ((ثم التقى خالد بن حميد [الزناتي] _ ومعه البربر _ خالد بن حبيب [الفهري] _ ومعه العرب وعسكر هشام _ وكان بينهم قتال شديد صبرت فيه العرب؛ وظهر عليهم كمين من البربر؛ فانهزموا؛ وكره خالد بن حبيب [الفهري] أن ينهزم من البربر؛ فصبروا معه؛ فقتلوا جميعهم؛ وقتل في هذه الوقعة حماة العرب وفرسانها؛ فسميت وقعة الأشراف؛ فانتقضت البلاد، ومرج أمر الناس؛ وبلغ أهل الأندلس الخبر؛ فثاروا بأميرهم عقبة بن الحجاج؛ فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن؛ فاختلطت الأمور على ابن الحبحاب)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب للقيرواني، ص ص: 100 _ 101.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 111. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 54.

ونزعة مفعمة برواسب العصبية العربية المعهودة في بني أمية:

وكانت معركة الأشراف إشارة خطيرة لبني أمية؛ كان من المفروض تداركها بعلاج سليم يسمح بلأم الجراح وشفاء النفوس العليلة؛ ولكن غضب الخليفة لم يترك له مجالا لإصلاح ما فسد. وعليه فيمكن اعتبار ردود أفعال الخليفة هشام بمثابة الخطوة الخطيرة؛ التي أدت إلى خروج مناطق كثيرة من بلاد المغرب ـ الأقصى والأوسط ـ عن النفوذ الأموي نهائيا. هذا بالإضافة إلى ما حدث من عصيان في بلاد الأندلس. تلك الديار التي ثار بها ـ أيضا ـ جمع من الأمازيغ ومن العرب كذلك؛ أولئك العرب الذين كانت تتقاذفهم الصراعات القبلية؛ بين يمنية وقيسية. الأمر الذي حال دون أن تتمكن أي عصبية من التغلب على العصبيات والقبائل الأخرى المنتشرة في ربوع الأندلس الواسعة. وهذا يؤكد ما فسره ابن خلدون في الفقرات السابقة؛ التي تتكلم عن ضرورة تغلب أحد العناصر على بقية العناصر لكي يتحقق المزاج في المتكون.[1]

وحتى الجيش الذي بعث به الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ـ بقيادة كلثوم بن عياض القشيري ـ سنة 123هـ(740م)؛ بهدف تأديب الأمازيغ؛ أضحى ـ في حد ذاته ـ عامل فرقة لصفوف العرب؛ أكثر من أن يكون عامل وحدة

[1] انظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 ـ 599.

والتحام. إذ بمجرد وصول طليعة ذلك الجيش العربي ـ التي كان على رأسها بلج بن بشر القشيري (ابن عم الوالي الجديد كلثوم بن عياض القشيري) ـــ إلى القيروان؛ حتى انقسم الناس بين عرب استوطنوا القيروان من قبل؛ وعرب وفدوا إليها حديثا. فها هو بلج بن بشر يستفز الناس بعنجهيته، وبعصبيته القيسية الحمقاء؛ حين أراد ـ بكل صفاقة وغرور ـ إنزال عساكره في منازل أهل المدينة. حيث تفوه بكلام أغضبهم ـ كما جاء في المصادر ـ فبعثوا شكواهم إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري؛ الذي كان مرابطا في مواجهة الأمازيغ بتلمسان. فكتب إلى كلثوم بن عياض يقول له: ((**إن ابن عمك السفيه قال كذا وكذا. فارحل بعسكرك عنهم؛ وإلا حولنا أعنة الخيل إليك**)).[1] فسارع كلثوم بن عياض إلى الاعتذار لحبيب؛ وضرب له موعدا في شلف. غير أن كلثوم بن عياض تمادى في سلوكه الخاطئ؛ إذ أن سكوته عن حماقة بلج؛ شجعه على معاودة تهوره؛ حين اشتبك ـ أيضا ـ مع حبيب عند التقائهما بشلف.[2] هذه هي العصبية عندما تصبح

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 54. أنظر أيضا الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 123. والعبر، مج: 4، ص: 406.

[2] وقد أورد ابن عذاري نصا مهما يشرح ما دار بين الطرفين. وهذا النص التاريخي يفسر الحال المزرية؛ التي أضحى عليها العرب في ديار المغرب. فمما قاله: ((فاستخلف كلثوم على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ وسار حتى وصل عسكر حبيب فرفضه، واستهان به؛ وسب بلج بن بشر لحبيب وتنقصه؛ وقال: "هذا الذي يحول أعنة الخيل إلينا"؟ فقام إليه عبد الرحمن بن حبيب؛ وقال: "يا بلج! هذا حبيب! فإذا شئت؛ فأعرض له للمقابلة!" وصاح الناس: "السلاح! السلاح!" فمال أهل إفريقية إلى ناحية،=

قاتلة ومدمرة. إذ انتهى الحال بالعرب إلى هزيمة أفظع من الأولى؛ حيث كان الخلاف بينهم شديدا، والشنآن يقسم صفوفهم؛ فلا يتفقون عل خطة، ولا يجتمعون على رأي سليم.[1] وكانت النتيجة هي قتل كلثوم وأكثر قادة جيشه وفرسانه؛ بينما فر بلج بن بشر ومن لحق به من أهل الشام إلى سبتة؛ حيث بقي بها محاصرا إلى سنة 124هـ(741م)؛ أين تمكن مع أتباعه من الالتحاق بأرض الأندلس.

وغدا ـ بعد ذاك ـ المغرب كله مسرحا واسعا ترتع فيه مختلف القبائل والفرق الخارجية: من صفرية وإباضية. وقد يعتبر هذا التاريخ؛ هو نهاية العهد الذي كانت فيه الخلافة العربية ـ في الشام ثم بغداد بعدئذ ـ هي السلطة المركزية؛ المهيمنة بنفوذها وسلطانها على تلك الأنحاء؛ إذ غدت ديار المغرب ـ منذئذ ـ أقطارا خارجة عن حكم الخلافة؛ تلك الخلافة التي لم يبق لها سوى ربوع إفريقية بقاعدتها القيروان. وحتى هذه الأخيرة أصبحت في أيدي بعض الولاة المستبدين بالبلاد دونها.

=ومعهم أهل مصر. ثم سعى بينهم في الصلح. فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم؛ مع سوء رأي كلثوم وبلج)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 54 ـ 55. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 113.

[1] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((وتقدم إليهم البربر من طنجة؛ فقال لهم حبيب: "اجعلوا الرجالة للرجالة، والخيالة للخيالة؛ فلم يقبلوا منه؛ وتقدم كلثوم بالخيل؛ فقاتله رجالة البربر فهزموه؛ فعاد كلثوم منهزما؛ ووهن الناس ذلك؛ ونشب القتال، وانكشفت خيالة البربر، وثبتت رجالتها؛ واشتد القتال، وكثر البربر عليهم؛ فقتل كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، ووجوه العرب؛ وانهزمت العرب وتفرقوا؛ فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر، وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223.

وبهذا أصبح العرب منشغلين بحماية القيروان نفسها؛ ضد هجمات الأمازيغ؛ سواء كانوا من أتباع المذهب الصفري، أو من أصحاب المذهب الإباضي. ولم تعد الغزوات البعيدة تستهويهم؛ بسبب تغلب الخوارج ـ من صفرية وإباضية ـ على تلك المناطق النائية. وهكذا.. فقد أذهلتهم الهزيمة الأخيرة؛ التي لحقت بالجيش العربي؛ وانكشف للناس ما أضحى عليه العرب من ضعف وتفكك بسبب العصبية الهوجاء. كما ظهرت لهم عيوب الوالي الجديد كلثوم بن عياض؛ الذي لا رأي له ولا حكمة. وعليه فقد وجدوا أنفسهم ـ فجأة ـ بدون قائد عام؛ ينسق بين القيادات، ويرعى شئون العامة.

ـ <u>إمارة عكاشة بن أيوب الفزاري الصفري</u>: ينتسب هذا الثائر الصفري إلى قبيلة عربية[1] ـ كما يظهر من اسمه ـ وهي قبيلة فزارة العدنانية القيسية. وكان في البداية أحد القادة الفرسان في جيش عبيد الله بن الحبحاب؛ إذ قدم معه إلى المغرب؛ ضمن جند الشام.[2] ولكنه انضم ـ رفقة أخيه ـ إلى الصفرية، ولا يعرف حتى الآن متى اعتنق مذهبهم؛ هل حدث ذلك بعد وصوله إلى إفريقية؛ أم جاء من المشرق بقناعاته الخارجية. المهم أنه أصبح بسهولة ـ في ظروف غامضة ـ قائدا وزعيما لفئة من الثوار الأمازيغ الصفرية. ومع هذا يبدو أنه

---

[1] أخطأ كثير من المؤرخين المحدثين حين نسبوه إلى زناتة؛ نظرا لقيادته لجماعة من زناتة.

[2] أنظر تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص: 114.

كان أضعف من بقية الثوار الأمازيغ. وربما رجع السبب إلى ما تفرضه سنن العصبية؛ التي لا يستهويها سوى الانتساب المطلق إليها؛[1] ولما كان عكاشة من المنتسبين إلى العرب فقد قل أنصاره، وضعفت شوكته. غير أن عاملي: الدين والمذهب ساعداه ـ شيئا ما ـ في جمع بعض الفئات الزناتية الساخطة على الحكم الأموي. ومع ذلك لا يكفي العامل الديني والمذهبي وحده؛ إذ لا بد من توفر شرط العصبية؛ كما قال ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[2] المهم أنه انطلق بثورته في جهات قابس؛ منتهزا فرصة خروج كلثوم ابن عياض بالجند إلى طنجة. وكان كلثوم قد استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وعقد لمسلمة بن سوادة القرشي لواء الحرب فيها. فبدأ عكاشة حركته بإرسال أخيه إلى (صبرة) قصد تعبئة عشائر زناتة ـ في تلك الجهات ـ والعمل على التغلب عليها.

وبالفعل تمكن أخو عكاشة من جمع أعداد كبيرة من الزناتيين؛ الذين حاصر (صبرة) بهم؛ إلا أن عامل طرابلس صفوان بن مالك تفطن للخطر المداهم؛ فسارع إلى الخروج إليه؛ أين تمكن من

---

[1] يقول ابن خلدون ضمن: "فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم" ((والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب؛ إنما هو ملصق لزيق؛ وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجب له غلبا عليهم ألبته)). المقدمة، ج: 2، ص: 599.

[2] أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـــ 642.

التغلب عليه؛ وأجبره على الانهزام إلى حيث أخيه في جهات قابس. وكرد فعل غير مدروس خرج مسلمة بن سوادة في جيش من القيروان؛ قصد تأديب عكاشة الفزاري في قابس؛ ولما التقى الجمعان حلت الهزيمة بمسلمة بن سوادة؛ حيث قتل من أتباعه عدد كبير؛ فعاد إلى القيروان منهزما؛ وهناك عزله عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وكلف بدلا منه سعيد بن بجرة الغساني؛ فاختاروا التحصن خلف أسوار القيروان خوفا من عكاشة.[1]

وبقيت الحال ـ بين عكاشة وعمال الدولة الأموية في القيروان وطرابلس ـ متشنجة ومضطربة؛ اضطر فيها عكاشة إلى شن حرب عصابات عليهم ـ انتصر فيها حينا وانهزم حينا آخر ـ ومن نتائجها قتل عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ الذي وجهه لقتال عكاشة والي إفريقية الجديد حنظلة بن صفوان الكلبي؛ الذي قدم إليها في سنة 124هـ(741م).[2] وكان حنظلة ابن صفوان يختلف كثيرا عن سابقه كلثوم بن عياض؛ حيث اتصف بالحنكة والذكاء والدهاء. وفي خضم هذه الأحداث؛ ظهر ـ في الأفق ـ قائد صفري آخر؛ وهو عبد الواحد بن يزيد الهواري ـ سيأتي الحديث عنه لاحقا ـ حيث اتفق معه عكاشة على التعاون

---

[1] فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـ 295.

[2] نفسه، ص: 298.

والتنسيق بهدف احتلال القيروان؛ فزحف عكاشة من جنوبها؛ بينما أتاها عبد الواحد من الشمال.

ويبدو أن منافسة خفية كانت بين القائدين الصفريين؛ فعلى الرغم من مظهر التنسيق بينهما؛ إلا أن عكاشة تسرع في زحفه نحو القيروان قبل وصول عبد الواحد إليها.[1] وقد يكون ذلك تعبيرا عما في نفسه من أطماع؛ أغرته بمحاولة احتلال القيروان قبل وصول حليفه عبد الواحد الهواري. الأمر الذي سيعزز مركزه أمامه. وبالفعل فقد التقى عكاشة مع الوالي الجديد ـ حنظلة بن صفوان ـ في موضع قريب من القيروان يسمى (القرن)؛ وانتهت المعركة بهزيمة كاسحة لجيش عكاشة؛ الذي فر؛ ولكن أدركه من ساقه أسيرا إلى حنظلة؛ حيث أمر بقتله في سنة 125هـ(742م).[2] وهكذا ارتكب عكاشة خطأ فادحا؛ بمخالفته الخطة التي اتفق عليها مع حليفه عبد الواحد بن يزيد؛ إذ تعجل في القدوم إلى مشارف القيروان؛ قبل أن يصل إليه جيش عبد الواحد؛ الأمر الذي جعل

---

[1] قال في هذا ابن عبد الحكم: ((ثم مضى عبد الواحد بن يزيد، فاخذ تونس واستولى عليها؛ وسلم عليه بالخلافة، ثم تقدم إلى القيروان؛ وانتبذ الفزاري بعسكره ناحية؛ وكلاهما يريد القيروان؛ يتبادران إليها؛ أيهما يسبق صاحبه فيغنم)). فتوح مصر والمغرب، ص ص: 298 ـــ 299.

[2] اختلفت رواية ابن عبد الحكم عن روايات: الرقيق القيرواني، وابن الأثير وابن عذاري؛ حيث ذكر ابن عبد الحكم أن أول من التقى به جيش حنظلة هو عبد الواحد؛ ثم توجه بعده إلى عكاشة. بينما يخالفه في ذلك الرقيق وابن الأثير وابن عذاري الذي يقول: ((فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة؛ قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بـ(القرن)؛ وكان بينهم قتال شديد. فهزم الله عكاشة ومن معه؛ وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والكامل، ج: 4، ص: 223.

حنظلة بن صفوان يسارع إلى انتهاز الفرصة؛ قبل اجتماع الجيشين عليه؛ فبدأ بالهجوم على عكاشة؛ الذي ظهر لحنظلة أنه يشكل الطرف الضعيف بين خصميه. وهكذا استغل والي القيروان المحنك هذا النصر في رفع معنويات جنوده، وشحذ هممهم؛ استعدادا للمعركة القادمة.

ـ إمارة عبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري:

كان ظهوره الأول في شرق طرابلس؛ حيث استنجد به عكاشة؛ في قتاله ضد عبد الرحمن بن عقبة. ولما انتصرا في الموقعة التي قتل فيها عبد الرحمن؛ اتفق الاثنان على الذهاب إلى المغرب الأوسط؛ لكي يبحثا عن أنصار جدد، ويحرضا الصفرية فيه على احتلال مركز الولاية الأموية بالقيروان. وبالفعل تمكن الاثنان من جمع أعداد كبيرة من المتحمسين للقضاء على الحكم الأموي وإزالته من ديار المغرب. وقبل انطلاق المتحالفين من منطلقهم في ناحية من نواحي الزاب؛ وضعوا خطة محكمة؛ ربما كانت كفيلة بنجاح مسعاهم ـ لو طبقت بدقة ـ إذ تقتضي الخطة أن يزحف جيشان إلى القيروان: الأول بقيادة عكاشة؛ من جهة الجنوب؛ والثاني بقيادة عبد الواحد؛ من الشمال؛ على أن يلتقيا في وقت واحد حول القيروان؛ وبذلك يكونان كماشة تنقض على عدوهما؛ فيعجز عن المقاومة ويسقط فريسة بين أيديهم.

وبالفعل انطلق عكاشة عبر السهول الممتدة جنوب الأوراس؛ في اتجاه تبسة وباجة ثم القيروان.

أما عبد الواحد فقد زحف من الشمال؛ عبر المناطق الجبلية[1] الصعبة؛ التي كانت كفيلة بتعطيل حركته؛ كما أنه ـ بسعيه لجمع متطوعين جدد من القبائل الأمازيغية ـ زاد في ثقل حركته وبطء سيره. ولكنه استفاد إذ حقق نجاحات معتبرة؛ عندما التحق به عدد كبير من أبناء تلك القبائل. وقد ـ تمكن في خط سيره ـ من احتلال مدينة باجة؛ أين اشتبك ـ هناك ـ مع جيش القيروان مرات عديدة؛ حالف النصر فيها عبد الواحد. وبعدها انتقل عبد الواحد إلى تونس فدخلها منتصرا. وفي الأخير زحف إلى القيروان؛ حيث وصله خبر هزيمة حليفه عكاشة؛ بعد أن خالف الخطة المتفق عليها؛ إذ انتهز فرصة تعطل عبد الواحد؛ فسولت له نفسه الانفراد باحتلال القيروان؛ الأمر الذي سيساعده على التفوق عليه؛ وبذلك يمكنه تعديل الكفة؛ التي مالت إلى صالح حليفه ومنافسه عبد الواحد؛ بحكم امتلاكه لعامل العصبية الأمازيغية؛ تلك العصبية التي يفتقر إليها عكاشة.

وبعد سماع عبد الواحد بهزيمة عكاشة، والتأكد من مقتله؛ اضطر إلى خوض المعركة بجيشه منفردا. وبالفعل حدثت المعركة الكبرى الفاصلة؛ في موضع يبعد عن القيروان بثلاثة أميال تقريبا؛ يسمى (الأصنام). وكانت معركة مهولة؛ حالف النصر فيها حنظلة بن صفوان؛ حيث تمكن

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 58.

جيشه من قتل آلاف من الصفرية؛ بما فيهم عبد الواحد بن يزيد نفسه؛ وذلك في سنة 125هـ(742م).

هذا وتجدر الإشارة أن أهل القيروان تمكنوا من النصر؛ بفضل شعورهم بوحدة المصير، وبفضل المجهودات التي بذلها علماء المدينة؛ حيث كثفوا نشاطهم في الدعوة إلى القتال، وحث الناس على المقاومة، إذ حذروهم من مغبة الفرقة أو التهاون والخذلان؛ كما ذكروهم بما قد يلحق بهم وبنسائهم من طرف الصفرية؛ الذين يستحلون سبي المسلمات، ويجيزون استعباد الأبناء؛ كما يبيحون سفك دماء المسلمين من أطفال وشيوخ. وبالفعل حققت دعوتهم نجاحات كبيرة؛ إذ حميت همم الناس؛ فكسروا أجفان سيوفهم؛ وخرجوا للقتال ومعهم نساؤهم يحرضنهم ويشحذن هممهم. ونتيجة لتلك العوامل النفسية؛ تمكنوا[1] من التغلب على الصفرية؛ وفتكوا بهم فتكا عظيما؛ على الرغم من قلة عددهم؛ وكثرة أعداد أعدائهم.

ـ <u>إمارة ثابت بن وازيدون الصنهاجي الصفري</u>: لا يعرف عن هذا الرجل ما يمكن به تكوين فكرة واضحة عنه؛ إذ يكتنف أخباره غموض كثيف؛ ويبدو أنه كان من أتباع عبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري؛ ولم تذكر المصادر التاريخية عنه سوى خبر ثورته في باجة، وتغلبه عليها سنة 130هـ(747م)؛ في أيام عبد الرحمن بن حبيب الفهري ـ الذي عزل حنظلة وافتك منه القيروان ـ

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 119 ـــ 122.

وبعدها صمتت المصادر – نهائيا – عن الحديث في شأن ثابت الصنهاجي هذا؛ ولم تشر إن كان قد فر حيا أم قتل.

– <u>إمارة عاصم بن جميل الورفجومي الولهاصي الصفري</u>: لقد ترك هذا الرجل – وأخوه المدعو مكرم – أثرا سيئا في تاريخ إفريقية والمغرب؛ نتيجة للفظائع وللوحشية التي ارتكبها هو وأتباعه من صفرية ورفجومة في القيروان سنة 138هـ(755م). ويقول فيه ابن الأثير: ((**وكان مقدم ورفجومة رجلا اسمه عاصم بن جميل؛ وكان قد ادعى النبوة والكهانة؛ فبدل الدين، وزاد الصلاة، وأسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان... ودخل عاصم ومن معه القيروان. فاستحلت ورفجومة المحرمات؛ وسبوا النساء والصبيان؛ وربطوا دوابهم في الجامع وأفسدوا فيه**)).[1] وذكر ابن خلدون؛ اسم رجل آخر كان بين المرافقين لعاصم بن جميل – في زحفه إلى القيروان. وقال أنه: يزيد بن سكوم الولهاصي.

– **أمير ولهاصة يزيد بن سكوم الولهاصي النفزاوي**. ولا يوجد ما يفيد عن هذا الرجل؛ سوى ما ذكره ابن خلدون؛ إذ قال أنه كان

[1] الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 280. أما القيرواني فيقول: ((ودخلت ورفجومة القيروان؛ فاستحلوا المحارم، وارتكبوا العظائم؛ نزل عاصم – بعسكره – في الموضع الذي يسمى (مصلى روح) واستخلف على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد النفزي... ولما حكمت ورفجومة على القيروان؛ قتلوا من كان بها من قريش، وساموهم العذاب؛ وربطوا دوابهم في المسجد الجامع)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 141.

يرافق رئيس ورفجومة عاصم بن جميل؛ حين غزا القيروان سنة 138هـ.

- **إمارة عبد الملك بن أبي الجعد النفزي الصفري:** قدم هذا الرجل مع عاصم بن جميل إلى القيروان أيضا في سنة 138هـ؛ حيث ولاه عليها؛ عند خروجه لمطاردة أعدائه. ولما قتل عاصم أصبح أمر ورفجومة بين يدي عبد الملك بن أبي الجعد؛ فحكم القيروان بيد من نار وحديد؛ وسار على نهج عاصم في العيث والفساد وارتكاب المحرمات. وكانت نهايته بواسطة أبي الخطاب عبد الأعلى الإباضي؛ الذي استاء مما سمعه عن عيث ورفجومة؛ وما قامت به من فساد في القيروان؛ فزحف إليها، حيث تغلب على القيروان، وأخرج ورفجومة منها؛ بعد أن قتل عبد الملك بن الجعد، وفتك بأتباعه؛ من تلك الفئة الباغية سنة 140هـ(757م).

- **إمارة عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري:** هكذا سماه ابن عذاري؛ ولا يعرف عن هذا القائد الصفري؛ سوى أنه كان يقود ألفين من الصفرية؛ خلال حصارهم - ضمن الحلف الصفري الإباضي - لعمر بن حفص بن قبيصة والي إفريقية؛ بمدينة طبنة حاضرة الزاب في سنة 153هـ(770م). غير أن ابن خلدون سماه عبد الله بن سكرديد؛ وقال أنه أحد أمراء الصفرية الصنهاجيين؛ ومن أتباع ثابت بن وازيدون الصنهاجي المذكور آنفا.

- **إمارة أبي قرة بن دوناس اليفرني الصفري:**
ينسبه بعضهم إلى مغيلة؛ غير أن المحققين من المؤرخين ينسبونه إلى بني يفرن.[1] وكان أول ظهور لهذا الرجل – في مسرح الأحداث بشكل واضح – أثناء زحف عبد الواحد بن يزيد الهوري إلى القيروان؛ حيث ذكرت الأخبار أن عبد الواحد جعله على رأس مقدمة جيشه.[2] وإن كان – في الحقيقة – من بين زعماء الصفرية؛ المتحالفين في السابق مع ميسرة المطغري؛ إلا أنه لم يلفت نظر المؤرخين. ولما قدم عبد الواحد بن يزيد الهواري – مع عكاشة – إلى المغرب الأوسط طالبين المؤازرة والدعم؛ بغرض الهجوم على القيروان؛ كان أبو قرة هذا من الملبين لدعوتهما. فانضم إلى عبد الواحد؛ حيث تولى أمر مقدمة جيشه.

ولما حلت الهزيمة بالصفرية، وقتل قائدهم عبد الواحد بن يزيد؛ عاد أبو قرة إلى المغرب الأوسط؛ حيث لعب – مرة أخرى – دور المشاغب في سنة 150هـ(767م)؛ خلال ولاية الأغلب بن سالم التميمي على القيروان. إذ عمل على استفزاز الأغلب في جهات طبنة؛ وتظاهر بالانسحاب والتراجع إلى داخل البلاد؛ محاولا استدراج الأغلب، وإبعاده عن مركز قيادته في القيروان؛ إلا أن بعض القادة في جيش القيروان؛ تخوفوا من تلك المغامرة؛ وتفرقوا عن الأغلب؛ عائدين إلى القيروان؛ فعاد

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 24.
[2] فتوح مصر والمغرب، ص: 299. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 58.

ـ عند ذلك ـ عما كان قد عزم عليه. وتقول المصادر التاريخية أن أبا قرة بويع بالإمامة ـ أو الخلافة ـ من طرف أنصاره من الصفرية. وقد دامت قيادته عليهم أربعين سنة كما يقال.

كما كانت لأبي قرة بن دوناس ـ بجيشه المقدر بأربعين ألفا ـ مشاركة رئيسية في حصار والي إفريقية عمر بن حفص ابن قبيصة؛ بين جدران حاضرة الزاب طبنة سنة 153هـ(770م)؛ ولكن أخاه أفشل حصار الصفرية والاباضية؛[1] بعد أن استسلم لأطماعه؛ عندما عرض عليه عمر بن حفص ـ بوساطة إسماعيل بن يعقوب المكناسي ـ مبلغا من المال قدر بأربعين ألف درهم؛ على أن يسعى لفك الحصار، وانفضاض جموع الثوار عن طبنة. وبالفعل تمكن من ذلك؛ حينما أغرى قادة جيش أخيه ـ أبي قرة ـ بالعودة إلى ديارهم في جهات تلمسان؛ إذ تقول المصادر أن أبا قرة لم يشعر إلا وجموع جيشه تعمل على الرحيل؛ فاضطر إلى مسايرتهم. وهكذا تكون سلطة رؤساء القبائل؛ التي تفتقد لشروط سلطة ملك الدولة؛ تلك السلطة التي تتطلب حكما قاهرا متغلبا؛ حسبما ذكره ابن خلدون ضمن:

---

[1] اتفق القيرواني، وابن خلدون على أنه ابن أبي قرة؛ بينما اتفق ابن الأثير وابن عذاري على انه أخوه. أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143. والعبر، مج: 6، ص: 226. ومج: 7، ص: 25. ثم الكامل في التاريخ، م: 5، ص: 32. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

"فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك".[1]

ومع هذا ذكرت المصادر التاريخية ـ أيضا ـ بأن أبا قرة عاد إلى مواصلة الحصار بمن تبقى معه من الأنصار ـ بعد خروج عمر بن حفص من طبنة ـ بهدف ابتزاز عامل عمر بن حفص على طبنة؛ المهنأ بن مخارق بن عفان الطائي؛[2] ولكنه هزم مدحورا. ومنذ تاريخ هذه الموقعة لم تعد جل المصادر التاريخية تذكر أباقرة شيئ؛ ما عدا الإشارة الخاطفة التي ذكرها الطبري؛[3] ـ ثم نقلها عنه ابن عذاري ـ مع ما فيها من خلط. إذ يبدو أنه التبس عليه الأمر؛ وخلط بين ما حدث في حصار طبنة؛ وما يمكن أن يكون حصل

---

[1] إذ يقول: ((وقدمنا أن الآدميين ـــ بالطبيعة الإنسانية ـــ يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية؛ وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك؛ وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هي سؤدد وصاحبه متبوع؛ وليس له عليهم قهر في أحكامه؛ ،وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)). المقدمة، ج: 2، ص 609.

[2] إذ يقول القيرواني: ((فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص؛ أقبل في جمع كثير حتى حصر المهنأ؛ فارسل إلى أبي قرة يسأله الانصراف عنه؛ فأرسل أبو قرة إليه:"نصيبي منك ومن قبلك أحرار؛ ولكن لا سبيل إلى ترك غنيمة المسلمين". فلما قال له ذلك تحمّلوا عليه؛ فانهزم أبو قرة، واستباحوا عسكره)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143.

[3] حين قال: ((وفي هذه السنة [أي سنة 153هـ] قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو عادٍ [أبو قادم كما يبدو لأنه لقب أبي حاتم]، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا؛ الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا؛ ومعهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا؛ وكان يسلم عليه ـــ قبل ذلك ـــ بالخلافة أربعين يوما. [ربما قصد أربعين سنة. وهي الفترة الزمنية التي أجمعت المصادر أنها مدة حكمه])). تاريخ الأمم والملوك، ج: 9، ص: 284.

في القيروان. لأن أبا قرة ـ كما يبدو ـ قد اضطرته الظروف للعودة إلى نواحي تلمسان؛ بعد حصار طبنة.

ـ **إمارة جرير بن مسعود المديوني الصفري**:[1] كان ظهوره الأول في سنة 153هـ(770م)؛ أثناء الحصار المضروب على عمر بن حفص بطبنة. ولما انفضت الجيوش المحاصرة لطبنة؛ انضم إلى صفوف أبي حاتم الملزوزي؛ في حربه ضد والي إفريقية بالقيروان. وعلى هذا ظهر من جديد في أيام أبي حاتم الملزوزي الإباضي؛ حيث استعان به هذا الأخير في مطاردة بعض القادة الثائرين ضد الإباضيين المتغلبين على القيروان؛ منهم: عمر بن عثمان والمخارق بن غفار الطائي. وكان أولئك الهاربون قد التحقوا بجيجل؛ حيث احتموا ببعض العشائر من كتامة. فانتصروا لهم؛ وتصدوا لجرير بن مسعود الصفري؛ فهزموه وقتلوه في سنة 154هـ(770م).

ـ **إمارة أبو زرجونة الورفجومي الصفري**: ظهر في عهد والي إفرقية يزيد بن حاتم بن المهلب؛ حيث ثار مع عشيرته ورفجومة ضد السلطة المركزية؛ فأرسل إليهم يزيد بن حاتم ـ والي إفريقية ـ قوة بقيادة ابن مجزأ المهلبي؛

[1] سماه الرقيق القيرواني: حريز بن مسعود المديوني. تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 148. أما ابن الأثير فسماه: مسعود الزناتي الإباضي. الكامل في التاريخ، ج" 5، ص: 32. أما ابن خلدون فسماه جرير بن مسعود؛ العبر، مج: 6، ص: 226. وفي موضع آخر قال: ((وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود؛ كان أميرا عليهم؛ وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 256.

ففشل في مواجهتهم؛ وقتل في المعركة عدد من جند القيروان. فعاود يزيد ابن المهلب ــ في سنة 156هـ(772م) ــ إرسال قوة أخرى؛ على رأسها ولده المهلب، ويزيد بن العلاء بن سعيد بن مروان المهلبي؛ فتغلب على ورفجومة واجتثهم، وطارد مقاتليهم في كل جهة.[1] هذا ولم يعرف مصير أبي زرجونة الورفجومي بعد هذه الموقعة.

ــ <u>إمارة عبد الرزاق الفهري الخارجي الصفري</u>:

ظهر هذا الرجل في جبال ويلان بعمالة فاس؛ في العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة. وبذلك تكون الصفرية قد حولت ثوراتها وحروبها من إفريقية والقيروان؛ إلى ديار المغرب الأقصى؛ حيث توجد الدولة الإدريسية. ولم تأت المصادر بما يفيد عن هذا الثائر شيئا كافيا؛ أكثر من اسمه المقتضب، ومنطلق ثورته. حيث اكتفت معظم المصادر بالقول عنها: أنها انطلقت من جبل مديونة.[2] ويبدو أن الذي توسع في الحديث عنه ــ ولو باحتشام ــ هو علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي؛ حيث ذكر بأن اسمه هو عبد الرزاق الفهري ــ الأمر الذي يفهم منه أنه ينحدر عن أسرة الفهريين؛ إن لم يكن قد اكتسب هذا الاسم بواسطة الولاء ــ ثم قال إنه من مدينة وشقة بالأندلس؛ قدم إلى العدوة المغربية؛ حيث ثار

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ــ 162.

[2] أنظر المغرب، ض: 125. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص:47 ــ48. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 212. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 208 ــ209. والعبر، مج: 4، ص: 30.

في جبال ويلان؛ التي تبعد عن مدينة فاس بمسافة تقدر بمسيرة يوم ونصف يوم. وهناك التحق به عدد كبير من الأمازيغ؛ التابعين لقبائل عديدة؛ منها: مديونة وغياثة وغيرهم. وقام عبد الرزاق هذا ببناء قلعة حصينة في جبل سلا ـ بنواحي مديونة ـ سماها وشقة؛ تيمنا بمدينته في الأندلس.

ويقول ابن زرع أنه اتجه نحو قرية صفراو؛ حيث دخلها، وبايعه فيها الصفرية من الأمازيغ بكاملهم؛ فانطلق بهم جميعا إلى مدينة فاس ـ عاصمة الدولة الإدريسية آنذاك ـ فتصدى له سلطان الدولة الإدريسية علي بن عمر بن إدريس الحسني؛ إذ حدثت بينهم حرب عظيمة؛ انتهت بتغلب عبد الرزاق الخارجي؛ وانهزام علي بن عمر وتقهقره إلى بلاد أوربة. ولما انهزم سلطان الأدارسة تمكن عبد الرزاق من دخول عدوة الأندلسيين من فاس؛ بينما امتنعت عنه عدوة القرويين. وبقي على ذلك إلى أن قدم يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني؛ الذي زحف نحو فاس من الريف؛ أين اشتبك مع جيش عبد الرزاق؛ وأخرجه من عدوة الأندلسيين وطرده منها. وهنا توقف ابن أبي زرع عن مواصلة الحديث عن كل ما كان يعرفه عن هذا الثائر الخارجي الصفري. وحتى ابن عذاري فقد تعمد الإشارة إليه بجملتين خاطفتين؛ مع أنه يعترف بأن خبر تلك الحوادث

كان طويلا.[1] وكما هو واضح من النص الذي كتبناه؛ لم نتمكن من تحديد تاريخ ظهور عبد الرزاق هذا بدقة؛ نظرا للغموض الذي غلف أحداث تلك الفترة بمدينة فاس.

المهم هنا؛ أنه يمكن اعتبار ثورة عبد الرزاق الصفري؛ هي آخر ثورة هامة لهذه الفئة المتطرفة؛ من الخوارج بإفريقية وبلاد المغرب: الأوسط والأقصى. حيث لوحظ – بعد ذلك – انتقال مركز القوة إلى فئة أخرى؛ صنفها المؤرخون السنيون ضمن الخوارج. وتلك الفئة الصاعدة كانت تتشكل من الإباضيين؛ الذين استطاعوا – باعتدالهم وثباتهم – استقطاب عدد كبير من الأتباع والأنصار؛ المنتمين إلى مختلف القبائل في تلك الجهات. الأمر الذي ساعدهم على تحقيق شروط الاستمرار والدوام؛ بفضل بساطة مذهبهم الديني والسياسي، وبفضل ما يدعوا إليه من مساواة بين الناس كافة؛ سواء كانوا من العرب أو من الأمازيغ أو أجناس أخرى. وعليه فقد أضحت المناطق الجنوبية من إفريقية والمغرب الأوسط؛ مناطق نفوذ للإباضيين؛ حيث خضعت – فيما بعد – لنفوذ الدولة الإباضية التي قامت بتيهرت؛ نتيجة لثورات الإباضيين المتتالية. وقد تحقق ذلك

---

[1] قال ابن عذاري: ((ثم قام عليه [أي علي بن عمر الحسيني] عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة؛ فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة؛ إلى أن هزمه الخارجي)). ((ثم ملك [أي يحيى بن القاسم] بعد ذلك عدوة الأندلسيين؛ وأخرج منها عبد الرزاق؛ في خبر طويل)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 212.

كله بجهود متواصلة شارك فيها عدد من القادة الإباضيين، ومن رؤسائهم الثوار. وتم ذلك خلال فترة زمنية بدأت بالعقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وحتى سنة 160هـ(776م) سنة قيام الدولة الرستمية.

۞۞۞

ـ إمارة عبد الله بن مسعود التجيبي الإباضي:

ظهر ـ لأول مرة ـ اسم هذا الرجل في مسرح الأحداث بالمغرب؛ خلال الفترة التي اغتصب فيها عبد الرحمن بن حبيب ولاية القيروان؛ بعد انقلابه على والي إفريقية حنظلة بن صفوان سنة 126هـ(743م). وتم ذلك عندما بايع الإباضيون من قبيلة هوارة بطرابلس عبد الله بن مسعود هذا إماما عليهم؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب لم يمهله طويلا؛ إذ سارع إلى إرسال أخيه إلياس؛ لاجتثاث بوادر الثورة والانفصال. وبالفعل فقد قضى إلياس على تلك الحركة بعنف شديد؛ ثم قبض على عبد الله بن مسعود التجيبي وقتله. والمعلومات عن شخصية هذا الرجل شحيحة للغاية، وغير كافية تماما. وكل ما يستحق الذكر أن ابن عبد الحكم هو أول من ذكره؛ إذ سماه بهذا الاسم منسوبا إلى تجيب اليمنية؛[1] بينما تجاهل ذكره كل

[1] إذ قال: ((ثم بعث عبد الرحمن أخاه ابن حبيب عاملا على أطرابلس؛ فأخذ عبد الله بن مسعود التُجيبي؛ وكان إباضيا ورئيسا فيهم؛ فضرب عنقه؛ واجتمعت الإباضية بأطرابلس)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301.

من: القيرواني وابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون. وحتى المراجع الإباضية تجنبت الحديث عنه في غالب الأحيان.[1] بينما ذكره علي يحيى معمر في سياق رده على الطاهر الزاوي؛ بما يفهم أنه أمازيغي الأصل.[2] فإن كان عبد الله بن مسعود التجيبي هذا حقيقة أمازيغيا؛ يمكن في هذه الحال اعتباره من بين الذين نسبوا إلى قبيلة تُجيب الحضرموتية اليمنية بواسطة الولاء والالتحاق.

- إمارة الحارث بن تليد الحضرمي الإباضي:[3]

أقامه الإباضيون من هوارة في طرابلس إماما عليهم؛ بعد مقتل عبد الله بن مسعود. هذا وقد شاركه في شئون الحكم **عبد الجبار بن قيس المرادي**؛ الذي كان بمثابة الوزير أو القاضي داخل هذا الكيان الإباضي؛ غير أن ابن عبد الحكم جعل عبد الجبار بن قيس المرادي هو الإمام؛ بينما وضع الحارث بن تليد الحضرمي في مرتبة المساعد له. وقد خالفته المراجع الإباضية في هذا الرأي.[4] أما القيرواني وابن الأثير وابن خلدون

---

[1] لم يتكلم عنه أبو زكرياء صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم، كما تجاهل أمره الدرجيني في طبقات المشائخ بالمغرب، وكذلك سليمان الباروني صاحب كتاب مختصر تاريخ الإباضية؛ بينما أشار إليه بسطحية وغموض محمد علي دبوز.

[2] الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية القسم الأول)، ص: 33.

[3] يكتفي ابن الأثير وابن خلدون باسم مفرد له؛ وهو الحرث بدون الألف بعد الحاء.

[4] إذ يقول: ((وكان على الإباضية ـــ حين اجتمعت ـــ عبد الجبار بن قيس المرادي؛ ومعه الحارث بن تليد الحضرمي... واستولى عبد الجبار على=

فيفهم من رواياتهم أن الحارث وعبد الجبار كانا يحكمان الناس حكما جماعيا. ومع هذا فهم يقدمون اسم الحارث على اسم عبد الجبار؛ إذ يكتبون في سياق الحديث: ((**الحارث وعبد الجبار**)).

أما نسبهما فيكتنفه بعض الغموض أيضا؛ لأن كلمتي: حضرمي، ومرادي؛ لا تعنيان ــ بالضرورة ــ الانتساب إلى حضرموت أو لقبيلة مراد اليمنية؛ إذ ربما كانت الكلمتان ترميان إلى الانتماء بالولاء لقبيلة من قبائل حضرموت أو لقبيلة مراد. المهم أن القيرواني يصرح بأنهما من الأمازيغ؛[1] ويسايره في ذلك ابن خلدون الذي يقول أنهما من هوارة.[2] أما سليمان الباروني فيقول: ((**والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه. وهما إخوان لأم أو أبنا خالة؛ وقبيلتهما هوارة**)).[3]

=زناتة وأرضها)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301. وفي هذا يقول سليمان الباروني: ((والظاهر ان عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه)). مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33. ويقول علي يحيى معمر معلقا على رأي طاهر الزاوي: ((بويع الحارث بن تليد إماما؛ وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادي قاضيا؛ خلافا لما ضنه الزاوي)). الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة الثانية ــ القسم الأول)، ص: 34. ويؤكد هذا أيضا محمد علي دبوز حين قال: ((وبايعوا الحارث؛ فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم. وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي، ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي)).تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 411.

[1] يقول القيرواني: ((وخرج بناحية طرابلس رجلان؛ يقال لأحدهما عبد الجبار، والآخر الحارث؛ وهما من البربر؛ يدينان بدين الخوارج)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 128.

[2] يقول: ((وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث؛ من هوارة؛ وكانا يدينان برأي الإباضية... ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين [ومائة] فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). العبر، مج: 6، ص: 223.

[3] مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

ويتفق ـ أيضا ـ القيرواني وابن خلدون حول رواية مقتلهما؛ إذ يقولان أن عبد الرحمن بن حبيب هو الذي قتلهما في سنة 131هـ(748م)؛ دون شرح للكيفية التي تم بها القتل.[1] وهذا الرأي يخالف رواية ابن عبد الحكم الذي يرى أنهما اقتتلا؛ فقتل بعضهما بعضا؛ بعد الفتنة التي نشبت بينهما.[2] أما بعض المراجع الإباضية؛ فتشير إلى دسيسة؛ قد يكون حبكها عبد الرحمن بن حبيب؛ فنجح فيها بتمكنه من قتل الأميرين غيلة.[3] ويبدو أن هذا الرأي يمكن تأييده؛ خاصة إذا اعتمد على ما أورده ابن عبد الحكم؛ حين ذكر أن عبد الرحمن بن حبيب أرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى قبيلة هوارة؛ لكسب أنصار في القبيلة التي ينتمي إليها؛ طمعا في تحريك سنن العصبية فيهم؛ ولكنه ـ كما يقول ابن عبد الحكم ـ فشل؛ حيث طردته هوارة؛ بعد أن أقام بينهم أشهرا عديدة.

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 128 ـــ 129. والعبر، مج: 6، ص: 223.

[2] يقول ابن عبد الحكم: ((واستفحل أمر عبد الجبار والحارث؛ ثم اختلف أمرهما؛ وتفاقم ما بينهما؛ فاقتتلا؛ فقتل عبد الجبار والحارث جميعا)). فتوح مصر والمغرب، ص: 302. أنظر أيضا كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

[3] إذ يقول محمد علي دبوز: ((وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ترقب الحارث وعبد الجبار، وتتحين الفرصة فيهما؛ حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم؛ والمكان خال؛ فتظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات؛ فدخلوا عليهما فقتلوهما؛ ثم أدخلوا في كل واحد منهما سيفا، وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر؛ ليتوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا؛ فقتل كل منهما صاحبه)). تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 413. وقد اورد الرواية نفسها صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة: 2، القسم: 1). ص ص: 46 ـــ 47.

وهنا يمكن التساؤل: ألا يكون قتل الحارث وعبد الجبار حدث بتدبير من مجاهد بن مسلم هذا؟ خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الفشل الذي لحق بحملات عبد الرحمن بن حبيب العسكرية؛ ضد الحارث وعبد الجبار. إذ يقول ابن عبد الحكم أنهما تصديا لقوة يقودها محمد بن مقرون، مرفوقا بعامل طرابلس يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلم الهواري؛ وكانت النهاية هي مقتل محمد بن مفروق ويزيد بن صفوان؛ بينما انهزم مجاهد مع من بقي معه من الأحياء. ولما أعاد عبد الرحمن الكرة؛ بإرسال عمر بن عثمان؛ انهزم هو أيضا أمامهما في طرابلس. وعاود المحاولة عمر بن عثمان مرفوقا بمجاهد بن مسلم الهواري في دَغوغا؛ ولكنهما هزما، وجرح عمر بن عثمان.[1]

ـ <u>إمارة إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي</u>: ذكره ابن عبد الحكم وابن خلدون؛ بينما تجاهل ذكره القيرواني وابن الأثير وابن عذاري. وحتى بعض المصادر والمراجع الإباضية أغفلت ـ هي الأخرى ـ أمر هذا الأمير الثائر. لعل سبب ذلك يكمن في قصر الفترة الزمنية التي تولى فيها. المهم فقد ولي الإمامة في سنة 132هـ(749م)؛ أي بعد مقتل الحارث وعبد الجبار. ولم يمهله عبد الرحمن بن حبيب؛ حيث زحف نحوه؛ فالتقيا بجهات قابس؛ أين جرت موقعة بين إسماعيل بن زياد النفوسي؛ وجيش القيروان بقيادة شعيب بن

[1] أنظر فتوح مصر والمغرب، ص ص: 301 ـــ 302.

عثمان؛[1] وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وهزيمة أنصاره الإباضيين. كان ذلك في سنة 132هـ؛ حيث لم تتجاوز فترة حكم إسماعيل بن زياد النفوسي أشهرا قليلة. وبعد ذلك تحول عبد الرحمن بن حبيب نحو سكان طرابلس؛ ففتك بهم، وسلط عليهم آلة القتل والانتقام بشكل فظيع.[2]

- إمارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الإباضي: ينسب هذا الرجل إلى قبيلة معافر الكهلانية اليمنية. نشأ في المشرق وكان من دعاة الإباضية بالشام قبل مجيئه إلى المغرب.[3] وقد كان من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين بعثوا في سنة 132هـ(749م)؛ من طرف الإباضيين في بلاد المغرب؛ بغرض تلقي العلم في البصرة؛ على يد شيخ الإباضية في المشرق أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة.[4] ولما عادوا في سنة 139هـ(756م)؛ محملين بعلوم المذهب الإباضي؛ بادروا بإنشاء دولتهم

---

[1] قال ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن بقي في المعسكر ولم يشهد الموقعة. فتوح مصر والمغرب، ص: 302.

[2] وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة؛ وتغلب على قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنه إحدى وثلاثين؛ فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). أما القيرواني فتكلم عن فتك عبد الرحمن بالخوارج دون ذكر إسماعيل بن زياد؛ حيث قال: ((وأوعب عبد الرحمن في قتل البربر؛ وامتحن الناس بهم وابتلاهم بقتل الرجال صبرا: يؤتى بالأسير من البربر؛ فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله. فابتلى جماعة من الناس؛ فما سلم منهم غير عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم؛ أبى ذلك؛ وعصمه الله منه)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 129. وقد أشار ابن عذاري لهذه المجزرة؛ بأسلوب القيرواني نفسه، البيان المغرب، ج: 1، ص: 61.

[3] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. والفرق الإسلامية لآلفرد بل، ص: 170.

[4] طلبة العلم الخمسة هم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصم السدراتي، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي النفزاوي.

الإباضية؛ حيث بايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى إماما على الإباضيين في ديار المغرب. وكان الإعلان عن هذه الدولة في سنة 140هـ(757م)؛ خارج طرابلس ــ في بداية الأمر ــ[1] في موضع غربي طرابلس يقال له (صياد). وقد أشاعوا أنهم ينظرون في خلاف بين جماعتين على قطعة أرض. ويبدو ــ من كلام الرقيق القيرواني وابن الأثير ــ أن منشأ هذه الدولة تم أيام احتلال ورفجومة للقيروان.[2]

وقد تمكن هذا الأمير الإباضي من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إفريقية وبرقة؛ ثم امتد سلطانه جنوبا حتى فزان. وأهم إنجاز حققه لدولته هو احتلال القيروان؛ التي كانت تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله؛ ولو كان ذلك بصورة نظرية؛ وذلك على الرغم مما كان يحدث من تقلص نفوذها

---

[1] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج:، 1، ص ص: 22 ــ 23. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

[2] وقد كان نص ابن الأثير أكثر وضوحا إذ قال: ((فاتفق أن رجلا من الإباضية دخل القيروان؛ لحاجة له؛ فرأى ناسا من الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهرا ــ والناس ينظرون ــ فأدخلوها الجامع. فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك؛ فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "بيتك اللهم بيتك"؛ فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم. وسير إليهم عبد الملك ــ مقدم ورفجومة ــ جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان؛ فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال؛ فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة وخذلوهم؛ فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم؛ وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم؛ وعاد إلى طرابلس؛ واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي؛ وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281.

بين الحين والآخر. كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين؛ من قبل المسلمين كافة؛ نتيجة لما قام به من تطهير للقيروان، وما حققه في القضاء على فساد وعيث الصفرية من قبيلة ورفجومة. وقد اشتهر عن أبي الخطاب تدينه وورعه وصلاح حكمه.

ومع هذا لم يهنأ بشيء من الاستقرار والأمن؛ إذ تعرض مرارا عديدة لهجمات العباسيين القادمين من مصر. وكان النصر حليفه في كل مرة؛ حتى حلول عام 144هـ(761م)؛ العام الذي اشتبك فيه مع جيش العباسيين بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي. وكانت هذه المعركة هي الفاصلة؛ حيث تمكن ابن الأشعث ـ بفضل خدعة بارعة ـ من إيهام الإباضيين بأنه امتثل لأمر الخليفة العباسي بالعودة إلى مصر؛ فعاد؛ ولكنه بقي على مسافة أيام؛ ثم رجع مسرعا إلى جيش أبي الخطاب؛ الذي تفرق عنه عدد كبير من أنصاره. وكانت المعركة النهائية في صالح العباسيين؛ حيث قتل فيها أمير الإباضيين أبو الخطاب، وانكسر جيشه، وتشتت أنصاره.

حدث ذلك جراء العقلية القبلية البدوية، وتبعا لسلبيات العصبية القبلية المميتة؛ إذ تقول المصادر أن فئة كبيرة من جيش أبي الخطاب تفرقت عنه قبل وصول ابن الأشعث إلى برقة؛ وذلك عندما حل وقت حصاد الزرع؛ إذ فضل هؤلاء المقاتلون حصاد زرعهم على البقاء في الميدان؛ منتظرين

موعد المعركة.[1] وثمة فئة أخرى انفضت وانسحبت من الميدان بفعل النعرة الهوجاء والعصبية القبلية؛ وذلك عندما اختلفت قبيلة زناتة مع قبيلة هوارة؛ بسبب قتيل سقط بينهما. فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالتحيز لهوارة؛ فانفضوا عنه. ولم يبق مع أبي الخطاب العدد الكافي من المقاتلين؛ كي يتصدى بهم للجيش العباسي؛ فكانت الهزيمة الكبرى التي أسقطت إمارة الإباضيين بطرابلس والقيروان نهائيا.[2] ولما وصل خبر الهزيمة إلى عبد الرحمن بن رستم — وهو بالقيروان — سارع إلى الخروج؛ طلبا

---

[1] يقول الدرجيني: ((فلما وصلت عيون أبي الخطاب إليه من عسكر ابن الأشعث تخبره برجوعه — وقد اجتمع على أبي الخطاب زهاء تسعين ألفا — ابتدرت الناس إلى مواطنهم؛ وذلك في زمان الحصاد؛ فقال لهم أبو الخطاب: يا قوم إن العرب أهل مكر وغدر؛ فلا تتفرقوا عن ملككم؛ حتى تستيقنوا برجوع القوم؛ وغلبت عليه العامة؛ فأذن لهم باللحاق بأهليهم؛ فساروا وتفرقوا عنه)). طبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 33. أنظر — أيضا — كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 68.

[2] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((ثم إن جماعة كثيرة من المسودة سيرهم محمد بن الأشعث الخزاعي — أمير مصر للمنصور — إلى طرابلس؛ لقتال أبي الخطاب؛ وعليهم أبو الأحوص عمر بن الأحوص العجلي؛ فخرج إليهم أبو الخطاب، وقاتلهم وهزمهم سنة اثنين وأربعين؛ فعادوا إلى مصر؛ واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية. فسير إليه= =المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي أميرا على إفريقية؛ فسار من مصر سنة ثلاث وأربعين؛ فوصل إليها في خمسين ألفا؛ ووجه معه الأغلب بن سالم التميمي. وبلغ أبا الخطاب مسيره؛ فجمع أصحابه من كل ناحية؛ فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه؛ فتنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة؛ فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم؛ ففارقه جماعة منهم؛ فقوي جنان ابن الأشعث، وسار سيرا رويدا؛ ثم أظهر أن المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى ورائه ثلاثة أيام سيرا بطيئا؛ فوصلت عيون أبي الخطاب؛ وأخبرته بعوده؛ فتفرق عنه كثير من أصحابه، وأمن الباقون؛ فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجدا؛ فصبح أبا الخطاب وهو غير متأهب للحرب؛ فوضعوا السيف في الخوارج؛ واشتد القتال؛ فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. ويتفق ابن عذاري مع ابن الأثير في هذه الرواية، أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 71 — 73.

للنجاة.[1] وقد نتج عن حركته هذه قيام الدولة الإباضية الثانية بالمغرب؛ وهي الدولة الرستمية.

- <u>إمارة عاصم السدراتي الإباضي</u>: وهو من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين أرسلهم إباضيو المغرب إلى البصرة؛ لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم. وقد ذكره ابن عذاري ضمن قادة الجيوش الصفرية والإباضية؛ الذين حاصروا عمر بن حفص في طبنة سنة 153هـ(770م)؛ حيث قال أنه كان يقود زهاء ستة آلاف مقاتل.[2] مع العلم أن بقية المصادر لم تذكره في هذا الحصار. وبهذا يفهم أنه يكون قد انضم إلى صفوف أبي حاتم. ومما يؤكد الالتباس الذي وقع فيه ابن عذاري؛ أن المصادر الإباضية تقول أنه توفي مسموما بقثاء؛ أثناء حصار الإباضيين للقيروان؛ بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح في سنة 140هـ(757م). فإذا كان ما ذكرته تلك المصادر صحيحا؛ فكيف – إذن – يكون من بين قادة الإباضية الذين حاصروا عمر بن حفص سنة 153هـ(770م)؟[3]

---

[1] تقول رواية أخرى لبعض الإباضيين؛ أن عبد الرحمن بن رستم عندما سمع بقدوم ابن الأشعث؛ خرج في قوة عسكرية لدعم أبي الخطاب؛ ولما وصل إلى قابس علم بمقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه؛ فافترقت عنه القوة التي جاءت معه؛ فقرر العودة إلى القيروان؛ ولكنه فوجئ بثورة أهل القيروان عليه؛ فخرج منها خائفا مع ابنه عبد الوهاب وعبد لهما. انظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 70. وطبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 35.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 75.

[3] قال أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: ((ثم إن عاصما السدراتي مرض مرضا شديدا؛ وكان من خيار العسكر؛ وهو أحد الخمسة الحملة للعلم؛ وأشد شوكة على أهل القيروان. فسمع أهل القيروان بمرضه؛ وأنه اشتهى قثاة؛ فبعث أهل القيروان رجلا بياعا يبيع القثاء؛ فسموا منها قثاة، وأمروه أن لا يبيعها إلا لعاصم السدراتي... واشترى لعاصم أصحابه القثاة المسمومة وأتوه=

- **إمارة أبي هريرة الزناتي الإباضي**: هكذا ورد اسمه دون تفصيل. ويبدو أنه كان زعيما لبطن من بطون زناتة في جهات طرابلس؛ ولما قتل أبي الخطاب؛ انتهز غفلة من ابن الأشعث؛ وهجم عليه؛ في ستة عشر ألفا؛ ولكن ابن الأشعث تدارك الأمر؛ وتمكن من صد هذه القوة، وقتل قائدها أبي هريرة الزناتي. وتم ذلك في السنة التي قتل فيها أبي الخطاب؛ وهي سنة 144هـ(761م). والذي يلفت النظر ـ هنا ـ أن المصادر الإباضية أغفلت ذكر أخبار أبي هريرة؛ ولم يشر إليه سوى محمد علي دبوز في جملة مقتضبة.[1] وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخين السنيين؛ إذ تجاهل ذكره أكثرهم؛ ولم يتكلم عنه سوى: ابن الأثير، وابن عذاري؛ في جملة قصيرة أيضا.[2]وقد يكون هذا القائد من بين الزناتيين الذين انسحبوا غاضبين على أبي الخطاب من قبل؛ ولما سمعوا بهجوم أبي الأشعث عادوا إلى المعركة؛ فوجدوا أن المبادرة خرجت من أيديهم.

- **إمارة عبد الله بن حيان الزويلي الإباضي**: وهو ـ كما يبدو ـ هواري النسب. وكان في زمن أبي الخطاب رئيسا في زويلة؛ فبعث ابن الأشعث جيشا إلى تلك الجهات سنة 145هـ(762م)؛ حيث

=بها فأكلها، فقطعه السم فمات،؛ وهرب البياع حين باعها لهم)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 62.

[1] تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 19.

[2] الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 72.

افتتح ودان وزويلة؛ أين قتل من بهما من الإباضيين؛ ومن جملتهم عبد الله بن حيان هذا.

- **إمارة المسور بن هانئ الزناتي الإباضي**[1]: ذكره بعض المؤرخين ضمن جيوش الصفرية والإباضية؛ الذين كانوا محاصرين لعمر بن حفص بطبنة في سنة 153هـ(770م)؛ إذ قالوا أنه كان يقود عشرة آلاف مقاتل من زناتة؛ قدموا معه من شمال تيهرت. وما عدا هذا؛ لا يوجد ما يمكن إضافته من أخباره.

- **إمارة أبي حاتم يعقوب بن حبيب بن مُدين بن يطوفت الملزوزي المغيلي المعروف بأبي قادم**:[2]هكذا سماه ابن خلدون؛ إذ نسبه إلى قبيلة ملزوزة المنحدرة عن قبيلة مغيلة. أما المصادر الأخرى فقد اكتفت بالقليل عند سرد اسمه؛ على أن بعضهم ينسبه - بالولاء - إلى قبيلة كندة العربية.[3] ويقول محمد علي دبوز أن أباه - أو أحد أجداده - انتقل إلى طرابلس؛ فانتسب إلى قبيلة هوارة بالالتحاق. المهم أن بعض الآراء تقول أن أبا حاتم

[1] سماه ابن عذاري: المصور - بالصاد - الزناتي؛ دون الإشارة إلى مذهبه هل هو صفري أم إباضي. البيان المغرب، ج: 1، ص: 75. أما ابن خلدون فقد سماه المسور - بالسين - الزناتي؛ ثم ذكر أنه إباضي المذهب. العبر، مج: 4، ص: 413. أما في مج: 4، ص: 226؛ فسماه المسور بن هانئ.

[2] سماه أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي. كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 73. أما الدرجيني فسماه: أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي الهواري، ج: 1، ص: 36. أما سليمان الباروني فسماه: أبا حاتم يعقوب بن حبيب، مختصر تاريخ الإباضية، ص: 34.

[3] الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 32. والعبر، مج: 4، ص: 412.

هذا تولى أمر الإباضيين في سنة 145هـ(762م).[1] أي بعد فترة من مقتل أبي الخطاب. إذ كان يجمع الصدقات، ويبعث بها إلى عبد الرحمن بن رستم؛ قبل أن يتولى ولاية الظهور؛ أي الولاية المعلنة للملأ. وهذا يبعث على الاعتقاد أنه قد ولي أمر الإباضيين سرا في سنة 151هـ(768م) أو قبلها.

هذا وقد سمى أبو زكرياء ولاية أبي حاتم بولاية الدفاع. وذكر أنه بويع خارج طرابلس؛ بالطريقة السرية ذاتها؛ التي تمت في بيعة أبي الخطاب من قبل. إذ تظاهروا أنهم مجتمعون من أجل إصلاح بين زوج وامرأته؛ بينما هم – في الحقيقة – يأتمرون فيما بينهم لإعلان الإمامة، والبيعة للإمام. ولكن عيون عامل طرابلس كشفت أمرهم؛ فحاول إفساد ما اجتمعوا عليه؛ عندها لم يجدوا أمامهم بدا من إعلان العصيان؛ وانطلقوا إلى طرابلس فاحتلوها وقتلوا من بها من الجند. ثم أمر أبو حاتم أتباعه بالزحف نحو إفريقية؛ وفي الطريق التقوا بجيش القيروان؛ زاحفا في اتجاههم؛ فاشتبكوا معه وهزموه.

وحسب ما يبدو فهذا الأمر يكون قد تم بعد سنوات من التاريخ الذي اتفق فيه الإباضيون على إمامة أبي حاتم. لأن ظهوره بشكل علني ربما حدث في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي تحرك فيها لحصار القيروان؛ منتهزا فرصة غياب الجند

[1] كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 73. وفي كتاب طبقات المشائخ بالمغرب: ولي سنة 154هـ. وفي مختصر تاريخ الإباضية في سنة 154هـ.

عنهـــا؛ أي عندمـــا لاحـــظ أنهـــم خرجـــوا مـــع والي إفريقيـــة عمـــر ابـــن حفـــص؛ بهـــدف بنـــاء وتحصيـــن عاصمـــة الـــزاب طبنـــة. ويظهـــر أن الفتـــرة الزمنيـــة الفاصلـــة بيـــن مقتـــل أبي الخطـــاب، ومقتـــل أبي حاتـــم يكتنفهـــا غمـــوض كثيـــف. وهـــذا مـــا جعـــل المؤرخيـــن يخلطـــون في السنـــوات الـــتي تـــؤرخ للأحـــداث. وقـــد اعتـــرف ابـــن عـــذاري بالخلـــل الحاصـــل في التحقـــق مـــن الأحـــداث.[1]

والواقـــع أن الفتـــرة الممتـــدة مـــن 144هـــ(761م) إلى 154هـــ(770م)؛ كلهـــا تحمـــل أخبـــارا مضطربـــة ومتناقضـــة. فـــهـــذا عـــلى سبيـــل المثـــال صاحـــب كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم ــ حيـــن تكلـــم عـــن بـــدء ولايـــة أبي حاتـــم ــ يقـــول أنهـــا تمـــت في رجـــب مـــن سنـــة 145هـــ(762م)؛ ثـــم يضيـــف أن أبـــا حاتـــم بـــقي في طرابلـــس أربـــع سنيـــن؛ وبعدهـــا سكـــت عـــن ذكـــر التواريـــخ؛ حـــتى أن مقتـــل أبي حاتـــم لـــم يذكـــر تاريخـــه. أمـــا صاحـــب كتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب فقـــد اختلـــف مـــع أبي زكريـــاء في تاريـــخ بـــدء الولايـــة؛ الـــذي قـــال أنهـــا تمـــت في رجـــب مـــن سنـــة 154هـــ(770م). أمـــا بـــاقي الأخبـــار فيبـــدو أنـــه نقلهـــا عنـــه؛ دون إضافـــة شـــيء جديـــد. أمـــا سليمـــان البـــاروني فيجعـــل تاريـــخ بـــدء الولايـــة في سنـــة 154هـــ؛ ثـــم يحـــدد وفـــاة أبي حاتـــم بسنـــة 155هـــ(771م). ولكنـــه يعـــود فيشكـــك في

---

[1] إذ قـــال: ((ولـــم يعـــط الحـــال تفصيـــل هـــذه السنيـــن مـــن سنـــة 151 إلى 153 بعدهـــا سنـــة سنـــة: فأجملـــت أمرهـــا هنـــا إجمـــالا مختصـــرا؛ يغـــني عـــن إعادتهـــا في كـــل واحـــدة منهـــا)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 76.

صحة ما أورده.[1] ومع هذا يمكن اعتبار إعلان خبر ولاية أبي حاتم، وخروجه من العمل السري؛ قد تم في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي استفحل فيها أمره. حيث ذكرت المصادر خبر مشاركته مع الإباضيين والصفريين؛ في حصار عمر بن حفص بطبنة في هذه السنة بالذات. وإن كان بعض المؤرخين يخلطون ـ أيضا ـ في السنة التي حدث فيها الحصار. حيث يقرون ببدء ولاية عمر بن حفص لإفريقية في سنة 151هـ(768م)؛ ثم يذكرون أنه تمتع بفترة من السكينة والهدوء؛ تقدر بثلاث سنين؛ ظل فيها في القيروان لا يبرحها؛ ومن جهة أخرى يجعلون تاريخ حصاره بطبنة سنة 151هـ(768م).[2] فكيف يكون ذلك؟

وجملة القول هي أن أبا حاتم هذا تولى شئون الإباضيين بمرتبة إمام عليهم؛ في الوقت الذي بايعت فيه الصفرية أبا قرة خليفة عليهم ببلاد المغرب. ويبدو أنهما كانا يتنافسان على قيادة الفرق المصنفة ضمن المذهب الخارجي؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تصرفهما؛ حينما التقيا في

---

[1] إذ يضيف: ((فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط. والظاهر أن الواقع غير هذا؛ بل الصحيح لا بد أن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا؛ لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين؛ فكيف يتصور هذا؛ مع أن المؤرخين فضلا ـــ عن ذلك ـــ ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا؛ كان له النصر فيها حليفا؛ وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الألوف من المشاة، وعشرات الألوف من الفرسان. ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها ـــ من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالأمر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائل النقل السريعة)).

[2] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـــ 33. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 75 ـــ 78. والعبر، مج: 4، ص ص: 412 ـــ 413. ومج: 6، ص: 226.

خلف واحد؛ غير متجانس على أبواب طبنة. ويبدو أن أبا حاتم تمكن من حصار القيروان مدة تجاوزت السنة.[1] وفي الأخير تحقق له اجتياح عاصمة ولاية إفريقية العباسية، وإلحاقها بطرابلس. إلا أن الأمر لم يطل به كثيرا؛ حيث قدم يزيد بن حاتم المهلبي من المشرق؛ فأعاد السيطرة على القيروان وإفريقية كلها؛ بعد أن قتل أبا حاتم، وهزم جيشه، وفرق شمل الإباضيين. وتم ذلك

---

[1] ذكرت مصادر عديدة خبر حصار أبي حاتم للقيروان؛ وأهم خبر هو ما ذكره ابن الأثير؛ حين قال: ((فقدم القيروان [أي عمر بن حفص] في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس؛ فاجتمع وجوه البلد؛ فوصلهم وأحسن إليهم. وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين؛ فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة؛ بأمر المنصور؛ واستخلف على القيروان حبيب ابن حبيب المهلبي؛ فخلت إفريقية من الجند؛ فثار بها البربر؛ فخرج إليهم حبيب فقتل. واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي ـــ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ـــ وكان عامل عمر على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي؛ وكتب إلى عمر يستمده فأمده بعسكر؛ فالتقوا وقاتلوا أبا حاتم الإباضي فهزمهم؛ فساروا إلى قابس؛ وحصرهم أبو حاتم ـــ وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة ـــ وانتفضت إفريقية من كل ناحية. ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا؛ منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، وأبو حاتم في عسكر كثير... فلما سارت الصفرية... فضعف أمر الإباضية عن مقاومة عمر؛ فساروا عن طبنة إلى القيروان؛ فحصرها أبو حاتم وعمر بطبنة يصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج. فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها... وأما أبو حاتم فإنه لما حصر القيروان كثر جمعه، ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرائها شيء من الطعام؛ فدام الحصار ثمانية أشهر... حتى جهدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم؛ ولحق كثير من أهلها بالبربر؛ ولم يبق غير دخول الخوارج إليها. فأتاهم الخبر بوصول عمر ابن حفص من طبنة؛ فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس؛ فزحف الخوارج إليه بأجمعهم وتركوا القيروان؛ فلما فارقوها سار عمر إلى تونس؛ فتبعه البربر؛ فعاد إلى القيروان مجدا، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك. ووصل أبو حاتم والبربر إليه؛ فحصروه؛ فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم... فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه... وخرج وقاتل فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـــ 32.

حسبما ذكرت بعض المصادر في سنة 154هـ(770م).

ـ **إمارة أبو يحيى بن قرياس الهواري الإباضي:** ذكره ابن عذاري بهذا الاسم؛[1] حين نسب إليه الثورة التي يكون قد قام بها في طرابلس سنة 156هـ(772م)؛ في عهد يزيد بن حاتم؛ فتصدى له عبد الله بن السمط الكندي؛ قائد طرابلس من طرف يزيد بن حاتم؛ فهزم الإباضيين وفرق جمعهم. ولكن ابن عذاري سكت عن الحديث في مصير هذا الثائر الإباضي؛ ولم يذكر إن كان قتل أم لا. وحتى ابن الأثير لم يشر إلى مصيره النهائي.

ـ **إمارة صالح بن نصير النفزي الإباضي:**[2] وكان من رؤساء نفزاوة الإباضيين؛ إذ ثار مع قبيلته سنة 161هـ(777م) على والي إفريقية بالقيروان؛ داود بن يزيد بن حاتم ـ في حياة والده يزيد الذي أقعده المرض ـ فأرسل داود إليهم قوة لتأديبهم؛ بقيادة سليمان بن الصمة بن يزيد بن حبيب بن المهلب؛ في عشرة آلاف من الجند؛ ففتك بهم، وفرق جمعهم؛ غير أن صالح بن نصير ـ كما يبدو ـ استطاع الإفلات؛[3] ولم يعرف مصيره بعدئذ.

ـ **إمارة أيوب الهواري:** أورد خبره ـ باقتضاب شديد ـ ابن الأثير؛ إذ قال أنه ثار مع قبيلة

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 79. أما ابن الأثير فسماه: أبا يحيى فانوس الهواري، الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 40.

[2] سماه ابن عذاري: نصير بن صالح الإباضي. البيان المغرب، ج: 1، ص: 83.

[3] أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 169. والعبر مج: 6، ص: 228.

ورفجومة في الزاب سنة 164هـ(780م)؛ خلال عهد يزيد بن حاتم؛ الذي سير إليهم عسكرا كثيرا؛ بقيادة يزيد بن مجزأ المهلبي؛ حيث قتل في تلك الأحداث، وانهزم جيشه؛ كما قتل فيها أيضا المخارق عامل الزاب. فاسند يزيد بن المهلب القيادة إلى العلا بن سعيد المهلبي؛ فتمكن من دحر ورفجومة واستلحمهم؛ حيث تتبعهم في كل مكان؛ حتى قضى عليهم[1]. ولم يذكر ابن الأثير مذهب هذا الرجل؛ هل هو صفري أم إباضي.؟ وكالعادة بقي مصير هذا القائد الثائر غير معروف.

وخلاصة القول ـ هنا ـ أنه حصل ـ كما يبدو ـ بعض الالتباس؛ إذ أورد هذه الرواية ـ الرقيق القيروان ـ الذي نسب أفعالها إلى ثائر صفري يسمى أبا زرجونة الورفجومي؛ على أن الأحداث وقعت في سنة 156هـ(772م).[2] ولا يعرف إن كانت ثورة أبي أيوب ـ هذه ـ هي ثورة أبي زرجونة نفسه؛ أم يتعلق الأمر بثورتين مختلفتين؛ قادهما شخصان متباينان.

وبحلول الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة؛ أصبح الوضع السياسي في بلاد المغرب غير ما كان عليه في السابق. حيث شهدت هذه الربوع بعض التحولات الجوهرية؛ صبغت ثورات الخوارج ضد حكم العباسيين بالمغرب؛ بمفاهيم جديدة أعطت شرعية لشكل من أشكال الاستقلال

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 33.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ــ 162.

للخوارج؛ حيث قامت دولة للصفرية في أقصى المغرب، ودولة للإباضية في المغرب الأوسط. (بالإضافة إلى دولة برغواطة المنحرفة). وعليه فلم يبق للخلافة في بغداد إلا القليل القليل؛ المتمثل في الدعاء على المنابر؛ لحفظ ماء الوجه لا غير. ومنذ هذا التاريخ أصبحت المواجهات المسلحة تتم بين دول خارجية في هذه الديار، وبين ولاية إفريقية في القيروان؛ التابعة شكليا إلى الخلافة العباسية ببغداد.

ولما سقطت الدول التي كانت سائدة في بلاد المغرب مثل: الدولة الأغلبية السنية في القيروان، والدولة السنية الإدريسية بفاس، والدولة الرستمية الإباضية في تيهرت، والدولة المدرارية الصفرية بسجلماسة. وبعد أن التهمت تلك الدول كلها دولة جديدة صاعدة؛ تتمثل في الدولة الشيعية الفاطمية؛ لم يجد الخوارج أمامهم سوى الثورة ـ من جديد ـ في ظل قيادة ثائرة أخرى؛ يمكنها أن تحقق آمالهم؛ في عودة دولتهم الخارجية وبروزها إلى الوجود. وهكذا ظهر رجل خارجي؛ في ثورة أقلقت الدولة الشيعية وزعزعت أركانها.

۞۞۞

ـ **إمارة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الملقب بصاحب الحمار**: ظهر هذا الرجل في بلاد قسطيلية بالنواحي الجنوبية من إفريقية؛ بعد سقوط

الدولة الرستمية الإباضية؛ وبعد أن التهمها الفاطميون. وتتلمذ هذا الثائر الخارجي – في صغره ببلاد قسطيلية – على بعض النكارية؛ منهم عبد الحميد بن عبد الله الحميدي الحجري؛ الملقب بأبي عمار الأعمى؛ الذي قال عنه محمد الصنهاجي أنه كان مقدما في الإباضية، وقال فيه ابن خلدون أنه رأس النكارية.[1] كما تذكر مصادر الإباضيين أنه درس على بعض العلماء في سجلماسة. ونظرا لفقر أبي يزيد، وشدة حاجته؛ فقد عمل في تعليم القرآن للصبيان؛ فكانت فرصة له؛ كي يبث فيهم مذهب النكارية.

وتقول المصادر التاريخية أنه ذهب إلى الحج، وعاد في سنة 325هـ(926م)؛ حيث أخذ – بعد عودته – في التشويش والمشاغبة وتأليب العامة على الحكام. فقبض عليه ابن فركان – مقدم توزر – وأودعه السجن؛ بتهمة ما كان يدعو إليه من تكفير المسلمين، وسبٍّ على كرم الله وجهه؛ وما كان يصرح به من وجوب الخروج عن السلطان. على أن أبا يزيد استطاع التخلص من سجنه؛ إما بتقديم بعض الأعذار؛ كما جاء في قول؛ وإما بالقوة والتمرد؛ حين تمكن من الهرب من سجنه؛ بمساعدة شيخه أبي عمار؛ وجماعة من قبيلة زناتة؛ في قول آخر ذكره ابن خلدون.[2] عندها اتجه أبو يزيد – أولا – إلى وركلا، ثم التجأ

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30. والعبر، مج: 7، ص: 27.
[2] العبر، مج: 7، ص: 27.

ـ بعد ذلك ـ إلى جبل أوراس عند عشيرة بني كملان وهم من هوارة؛ وكانوا على مذهبه.[1] ومنها أخذ يتردد مرة على بني برزال جنوب المسيلة، ومرة أخرى على بني زنداك المغراويين. وفي تلك الأثناء أخذ له أبو عمار البيعة من القبائل المنضوية تحت طاعته؛ فتلقب بشيخ المؤمنين.[2]

ولما أحس بقوة أنصاره وصدق طاعتهم وانصياعهم لأوامره؛ أعلن الثورة على الفاطميين؛ في عهد ثاني ملوكهم أبي القاسم محمد بن عبيد الله. وتمكن ـ في البداية ـ من جمع كتلة قبلية هامة حوله؛ وقد تمكن من تحقيق ذلك نظرا لما كان يظهره ـ في البداية ـ من تدين وورع وانسجام مع المذاهب الأخرى ـ سنية أم خارجية ـ تلك المذاهب المعادية للمذهب الفاطمي.[3] ومن جهة أخرى فقد استغل كراهية فئة عريضة من القبائل

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 217. والعبر، مج: 7، ص: 28.

[3] قال ابن عذاري: ((قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنده؛ وقام المسلمون معه. وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه"؛ وسماهم ابن سعدون في كتابه رَجُلاً رَجُلاً. "فركبوا معه؛ ونهضوا إلى القيروان؛ فدخلوها في صفر العام، [يقصد عام 332هـ] واظهر لأهلها خيرا؛ وترحم على أبي بكر وعمر ـــ رضي الله عنهما ـــ ودعا الناس إلى جهاد الشيعة؛ وأمرهم بقراءة مذهب مالك. فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبي ﷺ وعلى أصحابه وأزواجه؛ حتى ركزوا بنودهم عند الجامع؛ فلما كان يوم الجمعة؛ اجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح؛ ومعهم البنود والطبول... فلما اجتمع الناس، وحضر الإمام، وطلع إلى المنبر؛ خطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على جهاد الشيعة، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب؛ ثم لعن عبيد الله الشيعي وابنه؛ ثم نزل فخرج، وخرج الناس معه لقتال الشيعة الفجار؛ فلم يزل قاهرا لهم، غالبا عليهم، قاتلا لجنودهم؛ حتى لم يبق لهم من بلاد إفريقية إلا اليسير)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 217 ـــ 218.

والعشائر في بلاد المغرب لحكام الدولة الفاطمية. أضف إلى ذلك كله؛ أن علماء المذاهب السنية في هذه الديار أشاعوا على الفاطميين صفات كريهة؛ وضعتهم في مصاف المخالفين لشرع الله، واتهمتهم بانتحال البدع والأكاذيب؛ بل اتهمتهم بالكفر أحيانا؛ كما كذبوا رواية انتسابهم إلى فاطمة البتول رضي الله عنها.[1]

وبفضل ذلك كله، وبسبب عوامل أخرى كثيرة؛ تمكن أبو يزيد من استقطاب أهم تجمع قبلي ثائر على الدولة الفاطمية؛ حيث كانت قبائل زناتة فيه هي الركيزة الكبرى ـ بحكم أنها قبيلته التي انحدر منها أبوه ـ بالإضافة إلى هوارة ـ وهي قبيلة أمه ـ ثم القبائل ذات المعتقد الإباضي مثل: مزاتة ونفزة ونفوسة؛ وقبائل أخرى كانت ساخطة على الحكم الفاطمي. ولكن الإباضيين ما فتئوا ـ بعد فترة ـ حتى اكتشفوا مخالفته للمذهب الإباضي الوهبي؛[2] الذي لا يكفر بقية المسلمين من أهل

---

[1] أورد ابن عذاري بعض التهم التي وجهت إلى الفاطميين؛ منها نحلة التشريق الإلحادية؛ التي زعم أعداؤهم أنها صدرت عنهم وعن أنصارهم. وأورد أيضا موجزا لما خطه محمد ابن سعدون بن علي في كتابه "تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان؛ من هيجان الفتن، وتقلب الأزمان" وكان هذا الكتاب مشحونا بالتهم والأوصاف الكريهة للفاطميين؛ الذين يسميهم العبيديين؛ وينكر نسبهم للرسول محمد ﷺ. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 185 ، 281 ــ 287.

[2] أورد أبو زكرياء حوارا دار بين فقيه الإباضية أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ورجل من الإباضيين؛ فقال: ((فسأل رجل أبا الربيع؛ فقال له: "ما تقول في النكارة يا شيخ.؟" فقال: "هم كفار")). وقد أورد أبو زكرياء أيضا حوارا دار بين أبي الربيع وأبي يزيد مخلد بن كيداد؛ أثناء جولة لهما في نواحي سجلماسة؛ التي كانا يتعلمان فيها على يد عالم الإباضية ابن الجمع. فمرا ببعض الوهبية؛ فلم يضيفوهما كما تمنيا؛ ومرا بجماعة أخرى من النكارة فأكرموهما وضيفوهما؛ فقال أبو يزيد لأبي=

المذاهب الأخرى، ولا يبيح سفك دمائهم، ولا يسمح بسلب أموالهم وسبي نسائهم وذريتهم. وهذا الأمر كله كان يخالفه أبو يزيد؛ إذ يجيز تكفير أهل الملة، ويستبيح الغنائم والسبي فيهم.[1] وعليه فقد أعتبره الإباضيون الوهبيون نكاريا ومخالفا لمذهبهم.[2] وصنفوه ضمن فئات الخوارج المتطرفين. ومع هذا فقد كان يرى في نفسه الوارث الشرعي للدعوة الإباضية؛ بعد سقوط الدولة الرستمية. لذا فقد حاول استعادة مجد الإباضيين، والنهوض بدولتهم من جديد؛ ولكنه فشل في الأخير.[3] وانتهت حركته

=الربيع: (("يا أبا الربيع؛ ألا ترى ما بين الرجال والرجال؛ فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم" فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا؛ ولو كانت مرادي؛ إذاً لنلتها بعلمي". قال: فافترقا؛ فرجع أبو يزيد نكاريا؛ وثبت أبو الربيع على مذهب الحق)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 195.

[1] أجمعت المصادر التاريخية كلها على سماح أبي يزيد بسفك دماء المسلمين المنتمين لغير مذهبه؛ كما أجمعت على استباحته للمحرمات، وتحريضه على سلب أموال المسلمين، وسبي نسائهم واستعباد أطفالهم. وهذا نص ـــ كعينة ـــ كتبه أبو زكرياء ـــ وهو أحد العلماء الإباضيين ـــ يصف فيه أبا يزيد بصفات تضعه في مصاف الكفرة؛ إذ قال: ((ثم إن عدو الله [يقصد أبا يزيد] سار يريد القاسم بالقيروان؛ وكل قرية ومدينة مر بها ـــ في طريقه ـــ خربها، وسبا ذريتها، وغنم أموالها؛ كفعل نافع بن الأزرق وغيره من الخوارج؛ بل قد زاد عليهم وأربى... وذكروا أنه بلغ عدة ما خرب على يده ـ في إفريقية ـ ثلاثون ألف قرية؛ لم تعمر إلى يومنا هذا. وفعل في إفريقية من الفسوق والمعاصي والفجور ما لم يبلغنا مثله عن الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والجبابرة... وبلغنا أنه نزل بالساحل؛ فاخذ أهل عسكره صبيتين؛ فجاءته أمهما تشكو إليه؛ فقالت له: "يا شيخ؛ إن العزابة سبوا لي ابنتين؛ وهما حرتان؛ وغصبوهما"؛ فلم يجبها عدو الله بجواب؛ غير أنه قال: "هل في إفريقية حرة". فخافت المرأة على نفسها؛ فهربت ونجت بنفسها)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 180 ـــ 182.

[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ـــ 187. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ـــ 104. فكلها تتبرأ منه، وتخرجه من المذهب الإباضي الوهبي.

[3] وهذا ما جعل أبا القاسم بن عبيد الله يقول: ((لقد فتح فيهم [أي في الإباضيين] بابا؛ إلا أنه لم يحسن السيرة)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم؛ ص: 181.

بانتهاء حياته؛ إذ قتل مسلوخا، وممثلا به في سنة 335هـ(949م) بالمهدية.

وقد تمكن هذا الثائر الخارجي من زعزعة أركان الدولة الفاطمية ـ بعض الوقت ـ حيث شغلها بالفتن مدة من الزمن؛ وكاد أن يطيح بأركانها ويسقطها نهائيا؛ لولا معاكسة الأقدار له.[1] وقد استند أبو يزيد ـ في بدية أمره ـ إلى روح العصبية الموغلة في نفوس أبناء القبائل الزناتية؛ ذات الطابع البدوي. كما استطاع ـ بواسطة الدعوة الدينية ـ أن يحقق التلاحم بين القبائل السائرة خلفه؛ تبعا للقاعدة التي تنص على تزايد قوة العصبية؛ عندما تعتمد على الدعوة الدينية.[2] غير أنه عجز عن المحافظة على مكتسباته؛ بسبب ما كان يصدر عنه من نزوات؛ لم يتمكن من كبتها.[3]

---

[1] أنظر قصة أبي يزيد في كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ـ 187. وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 29 ـ 47. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 302 ـ 311. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ـ 104. وكتاب البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ـ 220. وكتاب العبر، مج: 7، ص ص: 26 ـ 35. وكتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 109 ـ 125.

[2] يقول ابن خلدون في هذا: ((إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية؛ وتـُفـرّد الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم؛ وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها ـ وإن كانوا أضعافهم ـ فأغراضهم متباينة بالباطل؛ وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم؛ وإن كانوا أكثر منهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 337.

[3] فمما قاله محمد الصنهاجي: ((وكان أبو يزيد في أول أمره يلبس خشن الثياب، ويمسك العصا، ويسمى شيخ المسلمين؛ ثم انتقل عن ذلك، وركب عتاق الخيل، ولبس الديباج؛ وكان يرى الجمع بين الأختين بملك اليمين، ويستبيح نساء المسلمين ممن خالفه، ويسفك الدماء. وكان أصحابه البربر يقتلون كل من ظفروا به من الناس؛ كائنا من كان؛ عيثا وعبثا؛ خاصة من خرج من المهدية عند حصارهم إياها؛ فرارا من الجوع والحصار؛ ويشقون بطونهم أحيانا فتشا عن المال؛ توهما منهم أنهم ابتلعوه)). أخبار=

حيث أدى الشك في صدق دعوته إلى نكسة؛ أثرت على حركته؛ فأخذ العامل الديني يتلاشى؛ بفعل الشكوك التي غزت بعض أنصاره؛ فضعف تماسكهم، وانحلت وحدتهم؛ بفساد العصبية المناصرة له وتفككها[1]، وافتراق القبائل المتحالفة معه؛ حيث عادت إلى سابق عهدها؛ عصبيات عديدة؛ تفرقها الأهواء والأطماع.[2]

وهنا تظهر الحاجة إلى العصبية، والدعوة الدينية معا. فغياب إحداهما؛ يخل باستقرار الأخرى. وهكذا أخمدت ثورة أبي يزيد؛ بواسطة عصبية أقوى من عصبيته؛ كانت هي الأخرى معززة بدعوة دينية تتمتع بفعالية وقدرة على تحقيق أهدافها. وربما عاد سبب فشله ــ في تحقيق هدفه ــ إلى ما لاقاه من خذلان، وتنكر من قبل حلفائه قبائل زناتة؛ وذلك بعد تخليهم عن مناصرته ومساندته؛ في أشد الظروف التي مرت به؛ حيث تركوه فريسة سهلة؛ بين براثن أعدائه.

=ملوك بني عبيد، ص: 31. وقال أيضا ابن خلدون: ((واستخف أبو يزيد بالناس؛ بعد قتل ميسور؛ فلبس الحرير، وركب الفاره؛ ونكر عليه أصحابه ذلك، وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد... وعذله أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا؛ فتاب وأقلع؛ وعاود لبس الصوف والتقشف)). العبر، مج: 7، ص ص: 30 ــ 31.

[1] ويشرح ابن خلدون الكيفية التي تنكسر فيها العصبية؛ تبعا لضعف الصبغة الدينية؛ يقوله: ((واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها؛ دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها؛ ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة)). المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[2] أنظر أخبار بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 31. 33. 34. 38 ــ 41. والكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 309 ــ 310. واتعاظ الحنفا، ص ص: 115. 116. والعبر، مج: 7، ص ص: 31. 32 ــ 33

هذه هي العصبية القبلية؛ حين تظهر في زيها السلبي البشع.

فثورة أبي يزيد كانت – في الظاهر– ثورة خارجية المذهب؛ نشبت – بضراوة – ضد دولة شيعية المذهب؛ ومع هذا فتلك الثورة لا تخلو من نفحات العصبية القبلية ونزواتها؛ حيث كانت تلك الثورة تتغذى بشحنات من العصبية الأمازيغية الزناتية والهوارية؛ تلك العصبية المناهضة لتسلط قبائل كتامة، وقبائل صنهاجة؛ التي تستتر تحت ستار المذهب الشيعي. لأن الفكرة المذهبية – في الحقيقة – أخفت ظاهرة العصبية، وغلفتها بالوشاح الديني. وقد أكدت هذا التفسير الأحداث التي وقعت بعد موت أبي يزيد؛ إذ ظلت بعض القبائل الأوراسية التي كانت ثائرة معه من قبل – كقبيلة هوارة – في عصيانها مشاغباتها؛ حتى عهد المعز لدين الله؛ إذ تقول المصادر أنه شن عليها حملات تصفية وتطهير في نواحي الأوراس سنة 342هـ(953م).[1]

والمهم هنا هو أن إخماد ثورة أبي يزيد؛ تم – في الظاهر – بواسطة عصبية مناوئة للعصبية الزناتية؛ وهي عصبية كل من: كتامة وصنهاجة؛ ولكن من الواجب الاعتراف – أيضا – بأن خذلان أبي يزيد من طرف القبائل الزناتية؛ لعب دورا حاسما في إمالة الكفة لصالح الشيعة. ويمكن التحقق

[1] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 48 – 49. والعبر، مج: 4، ص: 95. واتعاظ الحنفا، ص: 134.

من ذلك؛ بالإطلاع على الكيفية التي انفضت بها عصبيته؛ أثناء حصاره للمهدية سنة 334هـ(945م)، والكيفية التي تنكر بها أمير مغراوة الزناتية لأبي يزيد؛ مما أدى إلى انفضاض قبيلة مغراوة عنه. إن هذا الأمر كله أضعف العصبية الزناتية وأفسدها؛ وعزز – بالمقابل – موقف الشيعة، والعصبية: الكتامية والصنهاجية. وهكذا تبددت أحلام زناتة؛ في إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب الإسلامي؛ بزعامة أبي يزيد. وبهذا بقي الحديث عن ثورة أبي يزيد في حدود الكيان الثائر، المتمرد؛ الذي لم يصل إلى مرتبة الدولة؛ لأنه – حتى وإن كاد أبو يزيد أن يقضي على الدولة الفاطمية – لا يمكن وضع كيانه في مصاف الدول؛ إذ لم يكن سوى ثائر؛ حالفه الحظ أحيانا، وخانه أحيانا أخرى.

– <u>إمارة أبي خزر يغلي بن زلتاف الوسياني الإباضي</u>: وهو من علماء الإباضية الوهبيين المعتدلين. وقد قام هذا الرجل – مع رفيقه وصنوه في العلم – **أبي نوح سعيد بن زنغيل الوسياني** – بثورة مضادة للدولة الفاطمية؛ وذلك في بلاد قسطيلية أيضا سنة 358هـ(968م). أي بعد ثلاث وعشرين سنة – تقريبا – من مقتل أبي يزيد مخلد بن كيداد. وتقول المصادر أن السبب في تلك الثورة كان بدافع الثأر؛ وليس بحافز عقائدي أو سياسي. وحدث ذلك بعد إعدام أحد علماء الإباضية الأعيان – ظلما كما يقال – من طرف سلطان الدولة الفاطمية – آنذاك – المعز لدين الله

تميم بن إسماعيل. وهذه الحركة الإباضية ـ في الحقيقة ـ لم تصل إلى درجة الثورة العارمة؛ إذ كانت عبارة عن عصيان وسخط على سلطان الدولة الفاطمية؛ الذي قتل ـ كما يعتقدون ـ ظلما أحد علمائهم؛ وهو أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني.[1]

والجدير بالملاحظة هنا؛ أن جل المصادر التاريخية السنية صمتت عن هذه الحركة، ولم تشر إليها؛ وقد يكون ذلك بسبب عدم أهميتها، ونظرا لقلة تأثيرها على الدولة الفاطمية. ولم تتكلم عنها سوى المصادر الإباضية؛ التي أضفت عليها ـ بدورها ـ صفة العصيان القبلي؛ احتجاجا على قتل أحد الأعيان المبجلين في: قسطيلية، وبلاد ريغ، ومنطقة الزاب. لذا فقد نهض الساخطون في تلك الجهات؛ وطالبوا بالثأر لأبي القاسم. ويقال أن الذين اجتمعوا للقتال؛ من مزاتة وحدها اثنا عشر ألف فارس؛ باستثناء الراجلين؛ الذين كان عددهم أكثر من ذلك.[2] ويقول أبو زكرياء أن جموع الثائرين عقدوا لأبي

---

[1] يقول أبو زكرياء في هذا الموضوع: ((ذكر أبو الربيع سليمان بن يخلف ﷺ ؛ أن أبا القاسم ﷺ تحدث مع يهودي؛ فجرى بينهما كلام في أمر أبي تميم [المعز لدين الله] فقال له أبو القاسم ﷺ ليس بيننا وبينه إلا يسيرا؛ فنقوم عليه؛ ونخرجه من تلك المدينة ـ إن شاء الله ـ يعني مدينة القيروان. فلما افترقا قام اليهودي مبادرا؛ فبلغ قوله لأبي تميم. وبلغ المشائخ ما قاله أبو القاسم لليهودي؛ فأتوه وعاتبوه على ذلك ولاموه. وقالوا له: "لو كنت على ذلك؛ فمثلك لا يفشي سره، ولا يهتك ستره؛ أحسن الله عزاءنا فيك")). سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 210 ـ 211. وذكر الدرجيني الرواية نفسها في طبقات المشائخ بالمغرب؛ ج: 1، ص: 124.

[2] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216. وطبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 124.

خزر ولاية الدفاع؛ بهدف المطالبة بدم أبي القاسم. على أن يعقدوا له ـ بعد تحقيق هدفهم الأول ـ ولاية الظهور؛[1] أي الولاية المعلنة صراحة.

ويبدو أن أبا خزر لم يكن على درجة من الحنكة العسكرية. ذلك لأنه تسرع في زحفه نحو باغاي. ويقول أبو زكرياء أنه لم ينتظر إمدادات أصحابه كلهم؛ الممثلين في جموع أهل الزاب وورجلان.[2] وعليه فلم يكن في وسعه الصمود أمام قوة الأعداء؛ إذ أنه بعد أن حاصر باغاي ـ بعض الوقت ـ بقوة من قبيلة مزاتة؛ تلك القوة التي كانت في معظمها تتشكل من طلبة العلم؛ انتهى الأمر بهم جميعا إلى الهزيمة والهرب. على أنه من الجدير التنبيه والإشارة لما فعلته الأطماع، والأهواء الذاتية في ضعضعة موقف الثائرين، وإحباط نفوسهم. لقد انجر عن العصبية القبلية الضيقة ـ التي فعلت فعلها السيئ في صفوف مناصري أبي خزر من بني يليان ـ أن شرخا خطيرا حدث في صفوف الثوار. وبذلك انبثقت في وسطهم ـ فجأة ـ علة عاتية؛ تشخص ما في العصبية من عيوب ومفاسد؛ حيث تسببت ـ بفعل عواملها السلبية ـ في هزيمة جيش الإباضيين؛ وفي تشتت أفراده في

---

[1] قال أبو زكرياء: ((ثم إن الشيخ أبا خزر ﷺ عقدوا له الولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ ﷺ فإن أدركوا حاجتهم عقدوا له ولاية الظهور)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216.

[2] يقول أبو زكرياء: ((لما استنفر أهل الزاب وأريغ وورجلان؛ خرجوا في جموع عظيمة؛ فخرج خزرون بن فلفول؛ فلما وصل خزرون ـ ومن معه ـ إلى الموضع الذي يقال له أفودان تطلا (أو أفوداد لكلا)؛ كان بينه وبين باغاي مسافة قصيرة ـ فيما قيل والله أعلم ـ سمع بخبر الهزيمة فرجع)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 218.

الآفـــاق.[1] عندهـــا لـــم يجـــد قائـــد الثـــورة أبـــو خـــزر وصاحبـــه أبـــو نـــوح أمامهمـــا مـــن وسيلـــة؛ إلا الهـــرب والاختفـــاء ؛ متنكريـــن في الصحـــراء وجبـــل نفوســـة؛ انتظـــارا وطمعـــا في عفـــو السلطـــان؛ الـــذي عفـــا عنهمـــا فيمـــا بعـــد.

وبهـــذا القـــدر مـــن المعلومـــات ــ حـــول دور العصبيـــة القبليـــة في تشييـــد دول الخـــوارج، وتحريـــك كياناتهـــم الثائـــرة ببـــلاد المـــغـــرب والأنـــدلـــس ــ يـــمـــكـــن إنـــهـــاء هـــذا الـــفـــصـــل؛ عـــلى أن يـــتـــبـــعـــه ــ لاحـــقـــا ــ فصـــل آخـــر، يعالـــج موضـــوع نشـــأة الدول العلويـــة بتأثيـــر العصبيـــة القبليـــة بهـــذه الديـــار أيضـــا.

۞۞۞

[1] قـال أبـو زكريـاء واصفـا مـا جـرى في باغـاي: ((وبلغنـا أن أهـل باغـاي جاعلـوا ناسـا مـن مزاتـة؛ يقـال لهـم بنـو بليـان؛ عـلى أن يجعلـوا في أنفسهـم الهزيمـة ـــ فكـان بينهـم وبيـن (بدنـة) [أو يدبـة] ضغائـن ودحـول [أي مخادعـات] وثـارات ـــ فلمـا التحـم القتـال؛ تنحـت بنـو بليـان، وانحـازوا إلى ناحيـة، وألقـوا في مسامـع العسكـر أن بـني بدنـة تخلفـت لهـم لتستـولي عـلى أموالهـم وأنعامهـم ومواشيهـم وأحيائهـم؛ وجعلـوا في أنفسهـم الهزيمـة؛ وانهـزم العسكـر)). سيـر الأئمـة وأخبارهـم، ص: 217. وقـد أورد القصـة الدرجيـني بأسلـوب واضـح ومفصـل، أنظـر طبقـات المشائـخ بالمغـرب، ج: 1، ص ص: 129 ـــ 130.

الدول العلوية

المقصود بالدول العلوية هي تلك الدول التي أنشأها أحفاد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أو المنتسبون إليه من أهل الشيعة. وقد يحدث أن تكون الدولة علوية النسب؛ ولكنها سنية المذهب. وهذا هو الخط الفاصل بينها وبين الدولة الشيعية؛ ذات المذهب المخالف للمذاهب السنية؛ في الجوانب الكلامية والفقهية. أما الجانب السياسي؛ الذي ينص على وجوب إسناد الإمامة إلى عائلة علي بن أبي طالب ﷺ؛ فهو متفق عليه؛ بين أنصار النموذجين من هذه الدول. ولا يدخل في هذا المجال الدول الشيعية التي يحكمها أمراء من غير العلويين؛ مثل: بني زيري أمراء إفريقية والمغرب، وبني أبي الحسين أمراء صقلية.

بدأت الخلافات السياسية تظهر، وتنمو بين المسلمين؛ منذ اليوم الأول لوفاة رسول الله ﷺ. وكان منطلقها؛ اختلافهم في اختيار خليفة له. فأهل يثرب قالوا بأنهم أجدر الناس بمنصب الخلافة؛ لكونهم أنصار محمد ﷺ. ولكن المهاجرين تصدوا لهم؛ وأعطوا لأنفسهم الحق في الخلافة؛ كونهم أهل

رسول الله، وأسبق الخلق إسلاما. ولما توصل الطرفان إلى الاتفاق؛ على أن تكون الخلافة في قريش؛ ظهر فريق ثالث ينادي بأحقية علي بن أبي طالب بمنصب الخلافة؛ نظرا لكونه ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين. ثم شرعت كل جماعة في نشر آرائها خفية وجهارا. وانجر عن ذلك كله حدوث بعض الفتن بين المسلمين؛ بدءا بالفتنة التي قتل خلالها عثمان بن عفان ﷺ؛ ثم الفتن الدامية الأخرى؛ المشتعلة بين علي بن أبي طالب وخصومه؛ في وقعة الجمل، ووقعة صفين وغيرهما.

وبعد تمام الغلبة للأمويين؛ لم يستسلم العلويون، ولا شيعتهم؛ بل ظلوا في صف المعارضة؛ حتى سقوط الدولة الأموية؛ تحت ضربات الهاشميين، وحلفائهم. ولكن خلافا جديدا ظهر بين أهل البيت؛ وذلك عندما استبد بنو العباس بالسلطة، وانفردوا بها دون بقية الهاشميين؛ من أبناء علي بن أبي طالب. وعليه فقد ثار – نتيجة لذلك – العلويون وشيعتهم – مرات عديدة – بسبب إحساسهم بالظلم والغبن.[1]

---

[1] وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر في مقدمته؛ طبقا لنظريته عن العصبية؛ فقال: ((وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب؛ بعصبية بني عبد مناف... ثم تلاشت عصبية بني أمية؛ بما أصابهم من الترف؛ فانقرضوا. وجاء بنو العباس؛ فغضوا أعِنَّة بني هاشم، وقتلوا الطالبيين، وشردوهم؛ فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم؛ فاستبد عليهم أهل القاصية؛ مثل: بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس، وغيرهم؛ وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب. وقام البربر بأمرهم؛ إذعانًا= =للعصبية التي لهم، وأمنًا أن تصلهم مقاتلة، أو حامية للدولة المقدمة، ج: 2، ص: 865.

ونتج عما لحق ببني علي بن أبي طالب ـ من شتات وتشرد في الآفاق ـ أنهم انتشروا في الأقطار النائية؛ حيث تمكن بعضهم من إقامة إمارات خاصة بهم في مشرق البلاد ومغربها؛ بعيدا عن مركز الخلافة العباسية. وقد عُرفت هذه الإمارات بالدول العلوية. وإذا كان مصير بعضها انتهى بالسقوط السريع؛ فإن بعضها الآخر تميز بالصمود والمقاومة؛ إذ استطاعت ـ بإصرار أصحابها، وبصبرهم ـ مزاحمة الدولة العباسية، ومنافستها في ميادين عديدة. وسيقتصر الحديث في هذا السياق على الدول العلوية ببلاد المغرب والأندلس؛ وأهم تلك الدول:

۞۞۞

1)ـ الدولة الإدريسية:

نشأت الدولة الإدريسية بواسطة إدريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي كرم الله وجهه.[1] وذلك سنة 172هـ (788م) ببلدة وليلي في المغرب الأقصى؛ حيث تم ذلك في حماية قبيلة أوربة البرنسية. ولما كان إدريس من أهل النصاب الملكي؛ فقد انقادت إليه هذه القبيلة الأمازيغية بسهولة ويسر؛ وذلك حينما قبل أعضاؤها بتوليه الحكم فيهم؛ ملكا

---

[1] أنظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص: 49.

وإماما. وقد تعزز انقيادهم وتحقق قبولهم به نظرا لأنه حفيد لرسول الله محمد ﷺ.

وهكذا تحقق ـ أيضا ـ ما قرره ابن خلدون؛ من أنه يحدث لأهل النصاب الملكي؛ أن يقيم أحدهم دولة؛ بفضل عصبية أخرى؛ غريبة عنه؛ فتغنيه عن الحاجة إلى عصبيته الخاصة.[1] وهكذا.. فقيام الدولة الإدريسية ببلاد المغرب جاء ـ إذن ـ كنتيجة طبيعية لما وصلت إليه عصبية بني هاشم المركبة؛ من ضعف وانقسام؛ الأمر الذي استدعى اللجوء إلى عصبية أخرى؛ يمكنها تعويض العصبية المفككة؛ التي تسرب الوهن والانحلال إليها.

وحتى تتعمم الفائدة أذكر ـ هنا ـ بما تضمنه كتابي المعنون بـ: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية؛ من شروح وافية تخص نظرية ابن خلدون بخصوص الكيفية التي تسقط بها الدول؛ حينما يتسرب الخلل إليها؛ وذلك بعد أن يتنكر حاكم الدولة لأهل عصبيته؛ فيسعى لتأديبهم، ويتمادى في إذلالهم؛ لذا يلجئون إلى أقصى البلاد؛ هاربين من بطشه؛ حيث يتطلعون ـ في تلك الجهات ـ إلى إنشاء دول خاصة بهم؛ بمؤازرة قبائل خارجة عن سلطان الدولة الأم القائمة. وهذا هو الذي حدث

[1] وذلك بقوله: ((لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية، وابتعدوا عن مقر الخلافة، وسَمَوْا إلى طلبها من أيدي بني العباس؛ بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف. لبني أمية أولا، ثم لبني هاشم؛ من بعدهم. فخرجوا بقاصية المغرب، ودَعَوْا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة؛ مرة بعد أخرى؛ فاورية، ومغيلة؛ للأدارسة. وكتامة، وصنهاجة، وهوارة؛ للعبيديين. فشيدوا دولهم، ومهدوا بعصائبهم أمرهم. واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله، ثم إفريقية)). نفسه، ص: 635.

ـ بالفعل ـ للعلويين الذين انفصلوا عن عصبيتهم المركبة؛ التي تشمل بني هاشم كافة.[1]

ـ حكومة إدريس بن عبد الله:

يقول البكري بخصوص إدريس بن عبد الله؛ حينما وصل إلى المغرب الأقصى: أنه وجد شيخا على رأس قبيلة أوربة ـ عندما نزل عليهم ـ يسمى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ وكان على مذهب المعتزلة.[2] وكما يقول البكري فإن إدريسا يكون قد تابعه في اعتقاده، وأظهر اعتناقه

[1] يقول ابن عذاري: ((أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضهم ـ فروا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور؛ وهي وقعة فخ؛ وكانوا ست اخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، و يحيى. أما محمد فخرج بالحجاز؛ وقتل. وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق؛ فقتل في أيام المنصور. وأما يحيى فقام في الديلم ـ في خلافة الرشيد ـ وهبط على الأمان، ثم سُم ومات. وأما إدريس ففر إلى المغرب؛ ودخل إليه ـ في أيامه ـ من الطالبيين: أخوه سليمان؛ فاحتل بتلمسان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب؛ ثم رجع داود إلى المشرق؛ وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالغرب سنة 170هـ؛ واستوطن وليلي ـ وكانت أزلية ـ وكان وصوله مع مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة 172هـ؛ فقدمه قبائل المغرب وأطاعوه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 210.

[2] المعتزلة فرقة من الكلاميين ذات اتجاهات دينية خالصة. وقد انبثق هذا المذهب بين تلاميذ الحسن البصري؛ ومنهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وهذا الأخير تنسب إليه الجماعة المسماة بالواصلية؛ وهم طبعا من المعتزلة؛ وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني: ((الواصلية؛ أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ. كان تلميذا للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار. وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني؛ الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 46. وكان قد أشار إلى الواصلية هؤلاء البكري عندما تكلم عن مدينة تيهرت؛ في كتابه المغرب، ص: 67. كما تكلم عنهم أيضا أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، ص: 102. ويبدو أن ياقوت الحموي اقتبس قول البكري حين أشار إلى الواصلية؛ في كتاب معجم البلدان، ج: 2، ص: 8.

لهذا المذهب.[1] فقام ذلك الشيخ بعقد البيعة لإدريس؛ معلنا إمامته للمؤمنين. فأجمعت أحياء قبيلة أوربة كلها على طاعته. وعندما سمعت به عشائر من: زناتة وزواغة ولواتة ولماية وسدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة؛ أوفدت إليه الوفود، وبايعته طوعا؛ على السمع والطاعة؛ اعترافا منها بفضله، وتبركا بنسبه الشريف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو أنها وجدت فيه عاملا هاما؛ يساعدها في كبح أطماع ولاة القيروان.

هذا ولم يبق إدريس في موقف المنتظر بعد إعلان البيعة له؛ بل نهض إلى الغزو والجهاد بمجرد إحساسه باكتمال قوته. فزحف على بقايا اليهود والنصارى والوثنيين؛ في: قندلاوة وبهلوانة وفازاز وتامسنا وشالة وتادلة. ولما أخضع تلك الديار بقبائلها؛ اتجه شرقا؛ حيث فتح تلمسان صلحا؛ بعد أن خرج إليه محمد بن خزر بن صولات المغراوي؛ طالبا الأمان، ومقدما بيعته، وبيعة أعيان قبيله، ووجوه تلمسان.[2]

وهكذا أصبحت الدولة الإدريسية قوة يحسب حسابها. فأحس الخليفة العباسي ـ هارون الرشيد ـ بالخطر الذي يمثله إدريس؛ بوجوده على رأس تلك الدولة النائية؛ والتي تزداد قوة وثراء كلما مر الزمن. كما تشتد صلابة وحصانة مع مرور الأيام؛ بفضل تلك القبائل الأمازيغية الملتفة حولها،

---

[1] المغرب، ص: 118.

[2] الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 7 ـــ 8. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 191 ـــ 192. والعبر، مج: 4، ص: 24.

والحارسة على أمنها وأمن عدوه. ولما شعر بهول الموقف؛ قرر من فوره اللجوء إلى الأسلوب المتاح لديه؛ والأكثر أمانا له ولجيوشه. ويتمثل ذلك الأسلوب في الخديعة والاغتيال. لأنه بعد أن تأكد هارون الرشيد من صعوبة القيام بأي عمل ذي طابع عسكري؛ ورأى استحالة نجاح ذلك العمل المكلف؛ ذي الأبعاد الخطيرة. خاصة عندما يتخيل وجوب حدوث ذلك العمل في مناطق اعتبرت ـ منذ أيام الدولة الأموية ـ مناطق مستقلة عن الخلافة؛ ولا تخضع لنفوذها المباشر. لذا فإنه لم يكن أمامه سوى التحرك بسرعة ـ بمعاونة مساعديه ـ قصد وضع خطة لقتل إدريس بن عبد الله. وبالفعل استطاع هارون تحقيق ذلك؛ بتدبير وزيره يحيى بن خالد؛ وبتنفيذ أحد أتباع الدولة العباسية؛ اسمه سليمان ابن حريز الجزري، وسماه آخرون الشماخ اليمني. وكان هذا الرجل من القائلين بمذهب الزيدية؛ بل من المتكلمين المدافعين عن هذا المذهب الشيعي.[1]

---

[1] ثمة روايات عديدة عن اغتيال إدريس؛ منها هذه الرواية التي ذكرها البكري؛ فقال: ((حتى انتهى إلى الرشيد خبره [أي خبر إدريس] فكربه، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد؛ فقال: "أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين". فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزري؛ وهو رجل من ربيعة، وكان متكلما؛ ممن يرى رأي الزيدية؛ وكان حلوا شجاعا؛ أحد شياطين الأنس. وكانت له إمامة في الزيدية؛ إذ كان متكلمهم؛ وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم؛ حين ناظره في الإمامة. فأرغبه يحيى بن خالد في مال، ووعده ــ عن نفسه وعن الخليفة ــ بمواعد عظيمة؛ ودعاه إلى قتل إدريس، والتلطف في ذلك؛ فأجابه؛ فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته. ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة [والغالية هي خليط من السم]؛ فانطلق مع صاحبه؛ فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس. وكان إدريس عالما بسليمان ورياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال: "إنما جيتك وحملت نفسي على ما حملته عليه؛ لمذهبي الذي تعرفني به؛ وإن السلطان طلبني=

وتم ـ بالفعل ـ ما خطط له يحيى بن خالد؛ إذ قام حريز الجزري هذا ـ بفضل ما كان يتمتع به من دهاء ومكر ـ بتنفيذ الخطة بدقة ودهاء؛ حيث سافر إلى أقصى المغرب؛ ومثل أمام إديس في وليلي؛ مقدما نفسه كنصير للعلويين، ومظهرا تشيعه لأهل البيت. ولما كان إدريس ـ كما تقول بعض المصادر ـ يعرف عنه بعض الأخبار التي تفيد بأنه زيدي المذهب؛ فقد سهل أمر اقترابه منه؛ دون حذر أو شك فيه. وبذلك تمكن من اغتيال إدريس بن عبد الله؛ بعد أن كسب ثقته التامة. إذ يقال أنه ناوله سما؛ زعم

=هذا لمحبتي في الخروج معكم أهل البيت. فجيتك لآمن في ناحيتك وأنصرك بنفسي"؛ فسره قوله، وقبله وأحسن مثواه، وأكرم نزله، وأنس به. وكان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله ﷺ ويحتج لأهل هذه المقالة؛ كاحتجاجه بالعراق. فاعجب ذلك إدريس منه؛ فمكث عنده مدة؛ وهو يطلب غرته، ويرصد الفرصة في أمره، ويرمق باب الحيلة عليه؛ حتى غاب راشد مولاه؛ غيبه في بعض أموره؛ فدخل عليه ومعه القارورة؛ فلما انبسط إليه وخلا وجهه؛ فقال: "جعلني الله فداك؛ في هذه القارورة غالية؛ حملتها معي؛ وليس ببلدك من الطيب ما يتخذ هذا منه؛ فجيتك بها لتطيب بما فيها". ووضعها بين يديه؛ ففتحها إدريس؛ وتغلف منها، وشمها. وانصرف سليمان إلى صاحبه ـ وقد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين ـ فركباهما وخرجا مركضين؛ يطلبان النجاة؛ فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان في خياشيمه؛ سقط مغشيا عليه؛ لا يعقل ولا يدري من يختص به ما شأنه؛ فبعثوا إلى راشد؛ فجاء مسرعا؛ وتشاغل بمعالجته، والتخبر في أمره ـ وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا في مدة ذلك ـ وأقام إدريس في غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب؛ ثم مات. وتبين راشد أمر سليمان ابن حريز؛ فركب في طلبه ـ في جماعة من أصحابه ـ فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه، ويتخلفون لشدة السير، وحث الطلب؛ حتى لحقه راشد؛ فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه؛ فخبطه راشد بالسيف فكنع يده، وضربه على وجهه ورأسه ثلاث ضربات؛ كل ذلك لا يصيب مقتلا؛ مع دفع سليمان عن نفسه؛ وما كان عليه من الجنة؛ وقام فرس راشد لشدة حمله عليه؛ ونجا سليمان بحشاشة نفسه؛ وصاحبه قد خذله؛ فلم يغن عنه شيئا؛ ولم يكن عنده إلا الهرب)). المغرب، ص ص: 120 ـ 121. أنظر القصة مفصلة أيضا في كتاب الأنيس المطرب، ص ص: 8 ـ 10. وكتاب أعلام الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 192 ـ 194.

أنه دواء ناجع لألم الأسنان. وربما يكون ما قدمه إليه هي زجاجة من الطيب المسموم؛ كما جاء في رواية ثانية. وثمة أيضا أقوال كثيرة أخرى لا تهم هنا. والخلاصة هي أن وفاة إدريس الأول حدثت بوليلي سنة 175هـ (791م)؛ بعد أن حكم الدولة ثلاثة أعوام ونصف. ولما مات إدريس؛ نصب رؤساء القبائل الفاعلة في الدولة راشدا وصيا على العرش. في انتظار اليوم الذي تلد فيه زوجة إدريس التي كانت حاملا آنئذ؛ حيث سيعرف عندئذ جنس المولود المنتظر؛ وعندها يقررون مصير الدولة بصفة نهائية.[1]

– حكومة إدريس الثاني:

هذا ولم يحقق هارون الرشيد هدفه الأساسي؛ على الرغم من كل ما حشده؛ من تحرشات ومؤامرات؛ بغرض القضاء على الدولة الإدريسية،

[1] في هذا يقول ابن زرع: ((لم يكن لإدريس — حين وفاته — ولد؛ إلا وليدة تركها حبلى. — قال عبد الملك بن محمود الوراق — في كتاب المقباس — والبكري، والبرنوسي وغيرهم ممن عني بتاريخ أيام الأدارسة: " أن الإمام إدريس بن عبد الله — لما توفي — لم يترك ولدا؛ مولودا؛ إلا أنه ترك جارية له — مولدة من تاليد البربر اسمها كنزة — حاملا منه؛ في الشهر السابع من حملها. فجمع راشد رؤساء القبائل، ووجوه الناس — بعد فراغه من دفن إدريس — فأخبرهم أن إدريس لم يترك ولدا؛ إلا حملا بجاريته كنزة؛ وهي في الشهر السابع من حملها؛ فإن رأيتم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها؛ فإن كان ذكرا ربيناه؛ فإذا بلغ مبلغ الرجال؛ بايعناه تبركا بأهل البيت، وذرية رسول الله ﷺ؛ وإن كانت جارية؛ نظرتم لأنفسكم من ترونه أهلا لذلك. فقالوا له: " أيها الشيخ المبارك؛ مالنا رأي إلا ما رأيت؛ فإنك عندنا عوض من إدريس... حتى تضع هذه الجارية)). الأنيس المطرب، ص: 10. أنظر أيضا: المغرب، ص: 122. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 195.

والإطاحة بها؛ خاصة بعد مقتل أميرها ومؤسسها إدريس بن عبد الله. إذ أنها تمكنت من البقاء والاستمرار في الوجود؛ خاصة بعد ميلاد ولي العهد الذي سمي – أيضا – إدريسا؛ تيمنا بأبيه وإحياء لذكراه. بل ظهر – كذلك – أن هذه الدولة تعزز شأنها، وشاع ذكرها، وقوي ملكها، واستفحل أمرها في عهد إدريس بن إدريس؛ خاصة عندما أضحى عاهل الدولة – هذه المرة – يجمع بين عصبيتين: الهاشمية والأمازيغية. إذ أصبح له فضل أبيه؛ بنسبه الشريف، إلى جانب ما له من لحمة وانتساب للأمازيغ؛ بحكم نسب أمه؛ التي ينسبها بعضهم إلى قبيلة نفزة البترية؛ أو قبيلة أوربة البرنسية كما يرى آخرون. هذا وقد سهر الوصي على إدريس وعلى ملكه – مولاه راشد – في تربيته تربية مكتملة وسديدة؛ أعده بها للقيام بأعباء الدولة أحسن قيام؛ حيث مكنه من حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره؛ كما أشرف على تدريسه علوم: الحديث والفقه واللغة والنحو؛ وسهر على ضمان استيعابه لفنون الأدب والشعر؛ بالإضافة إلى تدريبه على ركوب الخيل، وفنون القتال؛ حتى قيل: أنه استوعب هذه العلوم والفنون كلها حينما وصل سنه إلى الحادية عشر.

وهكذا باءت محاولات الدولة العباسية كلها بالفشل. حتى المؤامرات التي نفذت بواسطة أتباعها – ولاة القيروان – والتي ذهب ضحيتها مولى إدريس راشد؛ (الوصي على إدريس الثاني وعلى

عرشه) لم تحقق أهدافها. حيث انتصب وصي آخر؛ هو أبو خالد يزيد ابن إلياس العبدي؛ فواصل نهج راشد، وتابع طريقه الصالح في بناء مؤسسات الدولة الإدريسية؛ حتى اشتد ساعد الأمير وكبر. وقد عقدت البيعة لإدريس الثاني سنة 186هـ (802م) في قول؛ بينما جعلها آخرون في سنة 187هـ أو 188هـ (803م).

ولما خابت مساعي العباسيين؛ التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإدريسية نهائياً – بعد قتل إدريس بن عبد الله، ثم تلاه اغتيال الوصي راشد – شرعوا في حوك مؤامرات جديدة ترمي – أيضا – إلى تصفية إدريس الثاني جسديا.[1] وبعد أن فشل العباسيون في مساعيهم السابقة؛ تحولوا إلى تطبيق خطة أخرى؛ مفادها: بث الفوضى داخل صفوف القبائل المناصرة للدولة الإدريسية؛ وعليه فقد أخذوا – مرة أخرى – يسعون لضرب السبب الأساسي الذي جمع شمل تلك القبائل؛ والعمل على إزالته. لذا فقد استماتوا في سبيل تفكيك التركيبة القبلية القوية؛ التي اجتمعت خلف الإمام إدريس. وهكذا لم يجدوا وسيلة أكثر فعالية من استثارة سلبيات العصبية القبلية داخلهم؛ وبث روح الفرقة بين القبائل المساندة لإدريس؛ وزرع

---

[1] وهذا هو الذي صرح به والي القيروان إبراهيم بن الأغلب؛ في رسالة بعث بها إلى هارون الرشيد؛ ضمنها هذه الأبيات:

أَلَمْ تَرَنِي بِالكَيْدِ أَرْدَيْتُ رَاشِداً ... وَإِنِّي بِأُخْرَى لابْنِ إِدْرِيسَ رَاصِدُ

تَنَاوَلَهُ عَزْمِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ ... بِمَخْتُومَةٍ قَدْ هَيَّأَتْهَا المَكَايِدُ

وَتَاهَ أَخُو عَكٍّ بِمُهْلِكِ رَاشِدٍ ... وَقَدْ كُنْتُ فِيهِ سَاهِراً وَهْوَ رَاقِدُ

التناقضات بين مصالح كل منهم؛ بهدف تفكيك لحمتهم، وتشتيت شملهم. وعليه فقد توصل ابن الأغلب ـ والي العباسيين على القيروان ـ إلى كسب ولاء شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد ـ بعد فترة سيأتي ذكرها ـ ثم شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد؛ غير أن تلك المحاولات اليائسة أجهضها إدريس الثاني؛ بفضل حزمه وحسن سياسته.

وازدادت الدولة الإدريسية ـ مع مرور الوقت ـ عزة وعنفوانا؛ تبعا لمن وفد إليها من وجوه العرب وفرسانهم أصحاب الخبرة والكفاءة. إذ جاء بعضهم من إفريقية، وبعضهم الآخر من الأندلس.[1] وتقدر المصادر عدد الوافدين من العرب ـ خلال سنة واحدة فقط؛ وهي سنة 189هـ (804م) ـ بحوالي: خمسمائة فارس؛ ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة؛ كبني يحصب، والأزد، ومدلج. فسر إدريس بالوافدين، وقربهم إليه، ورفع منازلهم، واتخذهم بطانة، وخاصة له؛ فاستوزر بعضهم، واستكتب آخرين، وأسند القضاء لأصحاب الكفاءة منهم.[2] غير

---

[1] كما قدم جماعة من الفرس وافدين إلى فاس من بغداد؛ وهم الذي قال فيهم ابن أبي زرع: ((ووفد عليه [أي إدريس] في تلك الأيام جماعة من الفرس؛ من بلاد العراق؛ فأنزلهم بناحية عين علون؛ ومنهم بنو ملونة)). الأنيس المطرب، ص: 29.

[2] فمما قاله ابن أبي زرع: ((وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ـ في نحو الخمسمائة من القيسية والأزد ومذحج والصدف وغيرهم ـ فسر إدريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر، فاعتز بهم؛ لأنه كان فريدا بين البربر؛ ليس معه عربي؛ فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي؛ وكان من فرسان العرب وساداتهم؛ ولأبيه مصعب مأثرة عظيمة بإفريقية والأندلس، ومشاهد في غزو الروم كثيرة. واستقضا منهم عامر ابن محمد=

أن هذا السلوك أغضب شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ فطفح كيله في هذه المرة؛ وتململت عصبيته؛ خاصة أنه سبق أن استاء من تصرف إدريس الثاني؛ بعد أن رأى قبيلته وأهل عصبيته يفقدون – يوما بعد يوم – مواقعهم المتميزة؛ وأخذت حظوتهم السابقة في البلاط تتلاشى.

وذلك أنه بعد اتساع نفوذ الدولة، وانضمام قبائل أمازيغية عديدة (بترية وبرنسية) إليها؛ نال بعضهم حظوة عظيمة، وقربا ملحوظا في بلاط الإمام إدريس. فلم يستسغ شيخ أوربة هذا الأمر؛ ولكنه سكت على مضض. غير أنه رأى – مرة أخرى – تماديا؛ في ذلك السلوك الذي اعتبره مجحفا ومثيرا. فلم يتقبل ما شاهده من حظوة وعناية تلاقيهما وفود العرب؛ تلك الحظوة التي كانت في السابق موقوفة عليه، وعلى قومه لا غير. نظرا لكونهم أصحاب الفضل الأول في قيام الدولة. وعليه فقد تحركت في داخله بذور العصبية؛ التي كانت كامنة في صدره؛ تنتظر موعد الإنبات؛ فدفعته نخوته وعصبيته إلى الاتصال بعدو الدولة اللدود ابن الأغلب؛ (والي القيروان) التابع للدولة العباسية؛ بغرض التآمر على إدريس. وهنا.. كشرت طبيعة الملك على أنيابها؛ طبقا لمقتضاها في الرد؛ بقوة وحزم وبدون شفقة. فكان مصير شيخ

=بن سعيد القيسي – من قيس غيلان – وكان رجلا صالحا ورعا فقيها؛ سمع مالكا وسفيان الثوري، وروى عنهم[ا] كثيرا؛ ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد؛ ثم جاز إلى العدوة؛ فوفد بها على إدريس؛ فيمن وفد عليه من العرب)). الأنيس المطرب، ص: 13.

أوربة إسحاق بن عبد الحميد هو القتل.[1] ولم تشفع له مواقفه السابقة مع إدريس الأول؛ خاصة وأن هذا السلطان – الثاني في الدولة – لم يعش الأيام التي نشأت فيها الدولة، ولم يشاهد – بنفسه – الخدمات الجليلة التي قدمها شيخ أوربة إلى أبيه إدريس. وبهذا يصح ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[2]

وبعد هذا تفاقمت عزلة أوربة، وازداد نفوذها ضعفا وفتورا. حدث ذلك – على الخصوص – بعد انتقال عاصمة الدولة من وليلي إلى مدينة فاس – الحاضرة الجديدة للدولة – وهي التي أنشأها إدريس الثاني لهذا الغرض؛ حتى تستوعب القبائل التابعة للدولة جميعها؛ خاصة وأن من القبائل – التي التحقت بخدمة الدولة الإدريسية – ما يفوق قبيلة أوربة عددا وعدة. فتعزز بهم مركز مدينة فاس، وازدهر العمران بها، وأينعت حضارتها، فغدت مصدر إشعاع حضاري وثقافي عظيم

---

[1] المغرب، ص: 123. العبر، م: 4، ص: 26.

[2] حيث قال واصفا سلوك بعض الحكام : ((الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته، وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه؛ حتى يُقِرَّ الأمرَ في نصابه، ويُفْرِدَ أهل بيته بما يبني من مجده. فيعاني من مدافعتهم، ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب؛ فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب؛ لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد؛ فيركب صعبا من الأمر)). المقدمة، ج: 2، ص: 664.

بالمغرب. وقد ساعدها مركزها المتميز، وموقعها الجيد، وثرواتها: المائية والفلاحية والمعدنية؛ على مضاهاة كبريات الحواضر الإسلامية آنئذ.[1]

وعندما يئس الأغالبة من تفكيك وحدة القبائل المناصرة للأدارسة؛ وأحسوا بالعجز في القضاء على دولتهم؛ تحولوا إلى استعمال سلاح آخر؛ وهو سلاح الإشاعة، والحرب النفسية؛ إذ عملوا على بث الشك في انتساب إدريس الثاني إلى الهاشميين؛ وذلك بنشر إشاعة مفادها أنه ابن راشد الوصي؛ ولكن سعيهم هذا باء بالفشل أيضا.[2]

هذا وتوفي إدريس بن إدريس بوليلي سنة 213هـ (828م) مختنقا بحبة عنب؛ تسربت في مجرى الهواء بحلقومه.[3] وأولاد إدريس الثاني هم: إدريس، ومحمد، وأحمد، وعبد الله، وعبيد الله، وداود، ويحيى، والحسن، والحسين، وعيسى، وعمر، وجعفر، وحمزة، والقاسم.[4]

---

[1] أنظر الأنيس المطرب؛ ففيه عرض وافي لمدينة فاس.

[2] ومما يدخل في سياق هذه الإشاعة الواهية؛ قول أحدهم؛ ويسمى محمد بن السمهري؛ يهجو القاسم بن إدريس أمير بصرة وطنجة ونواحيهما:

قُلْ لِلزَّنِيم زَنِيم طَنجَة عِشْ بِهَا
لاَ يَحْسُدَنَّكَ فِي بِلاَدِكَ حَاسِدُ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً
هَيْهَاتَ هَذَا مِنْ حَدِيثِكَ بَارِدُ
لَمَّا رَأَيْتُكَ لِلِّئَام مُصَافِيًا
أَيْقَنْتُ حَقًّا أَنْ جَدَّكَ رَاشِدُ

وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: ((وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة؛ ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير؛ بالغض من إدريس، والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس؛ بما هو أوهن من خيوط العناكب)). العبر ، مج: 4، ص: 27.

[3] المغرب، ص: 123.

[4] الجمهرة، ص: 49. أما البكري وابن أبي زرع فأسقطا اسمي الحسن والحسين؛ وذكرا البقية؛ وكان عددهم اثني عشر ولدا ذكرا هم: محمد وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود=

ـ حكومة محمد بن إدريس بن إدريس:

ولما توفي إدريس الثاني خلفه ولده محمد؛ الذي قام بتقسيم مقاطعات الدولة بين اخوته؛ تبعا لوصية جدته كنزة أم إدريس. إذ أبقى لنفسه حاضرة الدولة (مدينة فاس)؛ بينما خص أخاه القاسم بطنجة وبصرة ونواحيهما، أما صنهاجة وغمارة فكانتا من نصيب أخيه عمر، وبلاد هوارة وتسول وتازي لأخيه داود، وأغمات ونفيس والمصامدة ولمطة والسوس الأقصى لعبد الله، وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة ليحيى، وشالة وسلا وأزمور وتامسنا لعيسى، ووليلي وأعمالها لحمزة.[1] أما تلمسان وبعض الجهات من المغرب الأوسط فكانت من نصيب بني عمه سليمان ابن عبد الله.[2] وقد نتج عن هذا التصرف بعض المشاكل؛ إذ شجع بعض اخوته على المطالبة بالمزيد، ومحاولة الاستبداد بما تحت أيديهم. فأعلنوا العصيان والثورة عليه. عندها نشبت الفتن بينهم؛ غير أن أخاه عمر بقي وفيا له؛ فكلفه بمحاربة إخوانه العصاة؛ فنفذ له أمره؛ ولما حقق له ما أراد؛ جازاه خير الجزاء؛ إذ ضم إليه ولايات اخوته

=وعمر. المغرب، ص ص: 123 ــ 124. الأنيس المطرب، ص: 27. وحتى ابن الخطيب ذكر أن عددهم اثنا عشرة؛ ولكنه لم يسمهم. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 202.

[1] أنظر المغرب، ص: 124. والأنيس المطرب، ص: 28. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 202 ــ 205.
والعبر، مج: 4، ص ص: 27 ــ 28.

[2] العبر، مج: 4، ص: 28. غير أن ابن الخطيب يقول أن الذي ولي تلمسان هو حمزة. والراجح أنه أخطأ. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 205.

العاصين. وعمر هذا هو جد ملوك بني حمود؛ الذين امتلكوا الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وكانت وفاة عمر في عام 220هـ (835م) ودفن بفاس. فأسند محمد أعمال أخيه عمر لولده علي بن عمر؛ ولم تطل الحياة بمحمد هو الآخر؛ إذ التحق بأخيه عمر سنة 221هـ. وذكر ابن الخطيب من أولاد محمد بن إدريس ثلاثة هم: علي وإدريس وعبد الله.[1] أضف إليهم الأمير يحيى الذي خلف أخاه عليا فيما بعد.

ـ حكومة أبناء محمد: علي ويحيى:

وخلف محمدا ـ بعد وفاته ـ ابنه عليٌّ؛ وكان يلقب بحيدرة؛ تيمنا بجد العلويين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ونسبت المصادر لعلي هذا ـ على الرغم من صغر سنه؛ إذ كان سنة عند توليه تسعة سنوات وأربعة أشهر ـ النباهة والفطنة والذكاء؛ كما يقال أن أيام حكمه مرت في هدوء وسكينة وهناء.[2] ويرجح أن السمعة الحسنة التي أضفيت على عهده؛ ترجع في الأساس إلى سهر القائمين على تسيير دولته؛ من رجال بلاط أبيه. هذا وتولى ـ بعد موته سنة 234هـ (848م)

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 207. يبدو أن هناك أسماء أخرى لم يذكرها ابن الخطيب؛ وإلا فكيف نفسر تولي من يدعى يحيى بن محمد بعد أخيه علي؟

[2] قال فيه ابن خلدون: ((بعد أن استخلف ولده عليا ـ في مرضه ـ وهو ابن تسع سنين؛ فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاما مترعا؛ وقاموا بأمره، وأحسنوا كفالته وطاعته؛ فكانت أيامه خير أيام)). العبر، مج: 4، ص: 29.

ـ أمر الدولة أخوه يحيى بن محمد.[1] فقام بشئون الدولة على أحسن وجه؛ إذ تجلت عظمة الدولة الإدريسية في عهده كما قيل.[2]حيث اهتم بالعمران والبناء، وتنشيط التجارة في مملكته، وتشجيع القادمين إليها من الأندلس والأقطار الأخرى. كما بنيت في عهده النواة الأولى لجامع القرويين في سنة 245هـ (859م)؛ بأموال تبرعت بها امرأة ثرية محسنة من أهل القيروان تدعى فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني. والغريب أن المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى سنة وفاة يحي محمد. وفي العبر بقي موضع تاريخ الوفاة فارغا؛ إذ جاء فيه: **((وهلك يحي هذا سنة....))**.[3] كما أن المصادر كلها خلت المصادر من التفاصيل الضرورية التي تستحقها هذه الفترة التاريخية المزدهرة ـ حسب قولهم ـ من عهد الدولة الإدريسية.

---

[1] هنا يختلف المؤرخون حول من تولى الحكم بعد علي بن محمد. فالبكري وابن الخطيب يقولان بان الذي خلف علي هو ابن أخيه يحيى بن يحيي بن محمد. أما ابن أبي زرع وابن خلدون فيريان أن الذي تولي الحكم هو يحيى بن محمد نفسه. ومن جهة أخرى= =فقد تجاهل ابن عذاري تماما ولاية علي بن محمد؛ إذ انتقل مباشرة إلى أخيه يحيى. وبذلك تعتبر الفترة التي تلت موت محمد بن إدريس سنة 221هـ؛ وحتى قيام حكومة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس سنة 292هـ شديدة الغموض والإبهام. أنظر: المغرب، ص: 124. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 211. والأنيس المطرب، ص: 29. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. والعبر، 29.

[2] يقول ابن أبي زرع: ((وولي بعد وفاة أخيه علي، وبعهده إليه في حياته؛ فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده. وفي أيامه كثرت العمارة بفاس؛ وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب؛ فضاقت بسكانها؛ فبنا الناس الأرباض بخارجها؛ وبنا الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجارة؛ وفي أيامهم بني جامع القرويين شرفه الله)). الأنيس المطرب، ص: 29. أنظر أيضا العبر، مج: 4، ص ص: 29 ـــ 30.

[3] العبر، مج: 4، ص: 30.

ـ حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:

وبعد وفاة يحيى بن محمد[1] خلفه ولده يحيى بن يحيى. وكان هذا الأخير سيئ السيرة، سكيرا، عربيدا، فاسد الخلق. وقد ارتكب حماقة قضت على حكمه؛ وذلك عندما تهجم على امرأة يهودية في الحمام؛ فأثارت تلك الحادثة عليه الرعية، وأخرجوه إلى عدوة الأندلس؛ حيث توفي بعد ليلتين من خروجه كمدا وحرقة.[2] وقدم ـ بعد ذلك ـ والد زوجته، وابن عمه عليٌّ ابن عمر بجيشه من بلاد الريف فدخل فاسا وتولى الحكم بدلا من يحيى بن يحيى بن محمد. وبذلك انتقل الحكم في الدولة الإدريسية من أسرة محمد بن إدريس إلى أسرة عمر بن إدريس. هذا ولا يوجد ما يمكن قوله بخصوص حكومة يحيى هذا. إذ يبدو أن فترة حكمه لم تدم طويلا؛ ولم يسجل التاريخ عنه سوى فضائحه الخلقية.

ـ حكومة علي بن عمر بن إدريس:

كان هذا الأمير يحكم بلاد الريف؛ ولما ثار سكان فاس على أميرهم يحيى؛ استدعى أعيان الدولة عليا هذا ليتولى الحكم بفاس؛ فقدم إليها في ظروف غامضة؛ حيث بويع من طرف أهل الحل والعقد. ولم تشر المصادر المتوفرة إلى تاريخ ولايته، ولا تاريخ سقوط حكمه. وكل ما ذكر هو

---

[1] لم تذكر المصادر المتوفرة تاريخ وفاته، ولا تاريخ ولاية الذي خلفه.

[2] المغرب، ص: 124. الأنيس المطرب، ص: 46. البيان المغرب، ج: 1، ص: 211. أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. العبر، مج: 4، ص: 30.

أن الدولة في عهده مرت بمراحل حرجة ـ نتيجة لظروف خارجية وداخلية ـ سادت فيها الاضطرابات والفتن بين الأمير علي وبعض الثوار من الصفرية؛ بقيادة عبد الرزاق الفهري الخارجي؛[1] الذي كان متمركزا بجبال ويلان بمديونة؛ جنوب فاس. فتغلب هذا الثائر الصفري على علي بن عمر، وأخرجه من فاس؛ ثم اضطره للفرار إلى بلاد أوربة. هذا ولم يتمكن عبد الرزاق الصفري من الاستيلاء على عدوة القيروانيين؛ فاكتفى بعدوة الأندلسيين؛[2] حيث بقي فيها إلى أن ظهر الأمير يحيى بن القاسم. وهو كما يظهر من اسمه يتبع الفرع الثالث من أبناء إدريس؛ أي فرع القاسم بن إدريس.

ـ حكومة يحيى بن القاسم بن إدريس:

ولما انهزم علي بن عمر أمام عبد الرزاق الصفري؛ ودخول هذا الأخير عدوة الأندلسيين؛ أرسل أهل العدوة الأخرى في طلب يحيى ابن القاسم بن إدريس بن إدريس الملقب بالمقدام أو العدام؛[3] وقد تمكن هذا الأمير الحازم من استرجاع عدوة الأندلسيين؛ بعد أن طرد منها

---

[1] سبق الحديث عنه عند التطرق للأمراء الثائرين من الخوارج؛ في الفصل السابق.

[2] تبقى الفترة الزمنية الفاصلة ما بين موت علي بن محمد؛ وتولي يحيى بن إدريس بن عمر غامضة وغير واضحة المعالم. والمصادر التاريخية كلها تتخلص من الموضوع بجمل خاطفة لا تفيد.

[3] يقول البكري وابن الخطيب: أنه عرف باسم العدام، أما ابن أبي زرع وابن عذاري فيسميانه العوام، أما ابن خلدون فيسميه الصرام. ويبدو أن الاسم تعرض للتحريف.

الخوارج. وشدد – من هناك – الضغط على أولئك الثوار الصفرية، ولاحقهم في معاقلهم، وكانت له معهم وقائع هامة؛ ولكنه لم يهنأ طويلا؛ إذ اغتاله شخص سمته المصادر – دون توضيح يذكر – بالربيع بن سليمان سنة 292هـ (904م). وبموته عاد عرش الدولة إلى أسرة عمر بن إدريس مرة أخرى؛ من خلال الأمير يحيى بن إدريس بن عمر. وعلى الرغم من الأحداث الكبرى التي عرفتها هذه الفترة – ولو كانت قصيرة – فإن المصادر التاريخية وقفت عاجزة عن تقديم شيء مهم للقارئ.

– حكومة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس:

وهكذا رجع الحكم في فاس – من جديد – إلى أسرة عمر بن إدريس؛ وذلك بعد أن انتصب يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس صاحب الريف على عرش فاس سنة 292هـ (904م). فقام هذا الأمير بأمر الدولة خير قيام.[1] وأعلنت الخطبة بطاعته في بلاد المغرب الأقصى بكاملها.

---

[1] وفيه يقول ابن خلدون نقلا عن ابن زرع بتصرف: ((فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا؛ وكان فقيها، عارفا بالحديث؛ ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة. وفي أثناء ذلك كله خلص الملك للشيعة بإفريقية، وتغلبوا على الإسكندرية، واختطوا المهدية — كما نذكره في دولة كتامة — ثم طمحوا إلى ملك المغرب؛ وعقدوا لمصالة بن حبوس كبير مكناسة، وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة؛ فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة؛ وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة، وسائر البرابرة والموالي؛ فالتقوا على مكناسة، وكانت الدبرة على يحيى وقومه؛ ورجع إلى فاس)). العبر، مج: 4، ص: 31. الأنيس المطرب، ص: 48.

وتعتبر المصادر الأمير يحيى هذا أفضل بني إدريس شأنا، وأوسعهم ملكا، وأهمهم ذكرا، وأعلاهم قدرا، وأزكاهم عدلا؛ نظرا لسعة علمه، وفضل أدبه، وسداد فقهه، وفصاحة لسانه، وصواب حفظه للحديث الشريف.[1] ومع هذا لم يسعفه الحظ طويلا؛ حيث شاءت الأقدار أن تسوق إليه مصالة بن حبوس المكناسي؛ في جيش الفاطميين؛ وذلك سنة 305هـ (917م). فتصدى له يحيى؛ ولكن مدافعته لم تجد نفعا؛ فاضطر إلى اللجوء خلف الأسوار عندما شعر بالعجز. وأخيرا اضطرته الأوضاع إلى خيار المصالحة والتسليم لمصالة؛ بشرط أن يتركه في سدة العرش مقابل قدر من المال؛ مع إعلان بيعته للخليفة الفاطمي أبي عبيد الله. ولما تم ذلك عاد مصالة إلى إفريقية.

واتضح أن هذه الهزيمة قد أثرت سلبا على استقرار الدولة الإدريسية وسيادتها؛ وخاصة بعد أن أجبر أميرها على إعلان طاعته وولائه للدولة الفاطمية. وكان هذا الأمر بداية انحدار الدولة الإدريسية نحو السقوط النهائي. إذ كان لظهور مصالة بن حبوس المكناسي على مسرح الأحداث وقع خطير على أمن الدولة؛ حيث أنه كان يميل إلى عصبيته المكناسية؛ وتبعا لذلك فقد انحاز إلى

---

[1] كتب البكري: ((قال علي النوفلي: "كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء؛ وكان أبو احمد الشافعي من جلسائه، وممن يتكلم عنده في العلم؛ وكان ينسخ له عدة الوراقين، وينتجعه الناس من الأندلس وغيرها؛ فيحسن إلى جميعهم، وينصرفون عنه أكرم منصرف)). المغرب، ص: 132.

أبناء عمه بني أبي العافية المكناسيين؛ المعروفين بشدة العداء للأدارسة؛ أين تآمر معهم على إسقاط الدولة الإدريسية؛ مع أنه عقد مع سلطانها صلحا قائما على شروط؛ لم ينكثها يحيى بن إدريس.[1]

وهكذا ظهر أنه كما قامت الدولة الإدريسية بواسطة عصبية قبيلة أوربة البرنسية؛ شاءت لها الأقدار أن تتفكك، وتنهار بواسطة عصبية قبيلة أخرى منافسة؛ وهي قبيلة مكناسة؛ التي انضمت إلى حلف: كتامة وصنهاجة؛ المسخر لخدمة الدولة الفاطمية. تم ذلك حين أرسل عبيد الله المهدي قائد جيوشه؛ مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي إلى فاس؛ بغرض إخضاعها. فتمكن من الانتصار على الأدارسة – كما سبق ذكره – حيث انتزع بيعتهم للمهدي سنة 305هـ (917م). ولكن أضاف بعض الأشياء التي أوحت بها إليه عصبيته المكناسية؛ إذ استهوته فكرة تقسيم النفوذ

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان موسي بن أبي العافية – صاحب تسول وبلاد تازا – قد خدم القايد مصالة، وهاداه وتقرب إليه بالإحسان؛ وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب. فلما انصرف مصالة إلى القيروان؛ قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه. فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد فيه؛ غمره يحيى بن إدريس الحسني؛ بشرفه وكرمه ودينه وعدله؛ وقطع به على كل ما يريد؛ فكان على قلبه منه حملا ثقيلا. فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية؛ وذلك في سنة تسع وثلاث مائة؛ سعى موسى بن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده؛ حتى وغر صدره عليه؛ فعزم مصالة على القبض عليه. فلما قرب من مدينة فاس؛ خرج إليه الأمير يحيى بن إدريس ليسلم عليه – في قوم من وجوه عسكره – فقبض عليهم مصالة؛ وقيد يحيى بالحديد. ودخل مصالة مدينة فاس؛ ويحيى بن إدريس بين يديه مقيدا على جمل؛ فعذبه بأنواع من العذاب؛ حتى أخرج إليه جميع أمواله وذخائره. فلما قبض مصالة الأموال أطلقه ونفاه إلى ناحية مدينة أصيلا)). الأنيس المطرب، ص ص: 48 – 49.

والسلطان – في تلك الديار – بين الأدارسة وأهل عصبيته الممثلين في قبيلة مكناسة. فبادر – من فوره – إلى منح شيخ مكناسة – موسى بن أبي العافية ابن أبي باسل بن أبي الضحاك المكناسي – ما طلبه من نفوذ واسع خارج أسوار فاس. وفي المقابل حصر نفوذ الدولة الإدريسية داخل تلك الأسوار. وهنا اشتعل الصراع بين القبيلة الفتية؛ المتطلعة إلى الملك، وبين الدولة التي تسرب إليها الوهن والانحلال. فكان هذا الإجراء – المتخذ من طرف مصالة – يعتبر بمثابة الضوء الأخضر؛ الذي أطلق يد ابن عمه موسى ابن العافية؛ لكي يتحرش بيحيى بن إدريس أمير الأدارسة. وعليه فقد وجد ابن أبي العافية فرصة مواتية لمواصلة استفزازه وتحرشه بالأدارسة. وذلك لأنه لم يقتنع بما حصل عليه من نفوذ وسلطات ورئاسة؛ إذ كان – في الحقيقة – يطلب مرتبة الملك نفسه؛ ذلك الملك الذي تسعى إليه كل عصبية تحس في ذاتها القدرة على الوصول إليه. فالعصبية المكناسية في هذه الحال ينطبق عليها ما جاء في مقدمة ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1]

---

[1] حيث يقول: ((ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها؛ طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإذا كافأتها، ومانعتها كانوا أقتالا وأنظارا؛ ولكل واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها الدولة. فإن أدركت الدولة في هَرَمِهَا ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجْمَعُ لها. وإن انتهت إلى=

وهكذا استمر موسى بن العافية في إلحاحه على ابن عمه مصالة؛ حتى حقق له مآربه كلها. حدث ذلك عندما قدم في المرة الثانية إلى غرب البلاد؛ أين قبض على أمير الدولة الإدريسية يحيى بن إدريس؛ في سنة 309هـ (921م)؛ بخديعة دبرها وأحكمها؛ ثم سلط عليه صنوفا من العذاب والإهانة. كما سلبه ذخائره وممتلكاته؛ وبعدها نفاه إلى أصيلا؛ حيث ساءت حاله؛ واشتدت عزلته؛ وتعاظمت حاجته، وازداد فقره؛ فخرج منها إلى الريف في رعاية بني عمه الأدارسة هناك؛ ولكنه قرر بعد ذلك التوجه إلى إفريقية؛ طمعا في استعطاف السلطان الفاطمي؛ فاعترض طريقه موسى بن العافية؛ وسجنه عنده زهاء عشر سنين، ثم أطلق سراحه؛ فسار إلى المهدية ــ التي كانت آنئذ محاصرة من قبل أبي يزيد صاحب الحمار ــ فمات بها جوعا وكمدا سنة 332هـ (943م).[1] أما فاس فقد ولى مصالة عليها ريحان بن علي الكتامي؛ إلى أن قام عليه أمير آخر من أسرة الأدارسة.

ــ حكومة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس:

وبذلك يتضح؛ أن ثمة بقية من الحياة مازالت تنبض بالنشاط والحيوية في الأسرة

=قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها؛ تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها)). المقدمة، ج: 2، ص: 610.

[1] المغرب، ص: 126. والأنيس المطرب، ص: 49. والعبر، مج: 4، ص: 32.

الإدريسية؛ حيث ظهر على مسرح الأحداث أمير إدريسي آخر؛ وهو الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام؛ وذلك حين ثار سنة 310هـ (922م)[1] على ريحان بن عليّ الكتامي؛ الذي ولاّه مصالة على أعمال فاس؛ قبل عودته إلى إفريقية. ولما تغلب عليه الحسن بن محمد نفاه عن فاس إلى إفريقية. وكان الأمير الحسن موصوفا بالشجاعة والإقدام والفروسية. وقد عرف بلقب الحجام؛ لأنه حدث أن كان ـ في بعض حروبه ـ لا يطعن أحدا إلا في موضع المحاجم؛ فقيل عنه صار حجاما؛[2] ومن هنا قال هو أو قال أحدهم على لسانه:

وَسُمِّيتُ حَجَّاماً ولَستُ بِحَاجِمٍ
ولَكِنْ لِضَرْبِي فِي مَكَانِ المَحَاجِمِ

وبعد أن استولى الحجام على فاس؛ خرج لحرب موسى بن أبي العافية؛ فوقعت بينهما معركة حامية؛ سنة 311هـ (923م). قال عنها المؤرخون أنها كانت أشد معركة حدثت في عهد دولة الأدارسة؛ منذ وفاة جدهم إدريس؛ إذ قتل فيها من المكناسيين نحو ألفين وثلاثمائة قتيل؛ منهم ولد لموسى بن العافية واسمه منهل؛ ومن جيش الأدارسة قتل حوالي سبعمائة. ومع هذا لم يهنأ

---

[1] يقول البكري أن تولية ريحان الكتامي تمت في سنة 307هـ؛ وثار عليه الحسن الحجام في سنة 316هـ؛ المغرب، ص: 126. أما ابن خلدون فيقول أن تولي ريحان على فاس تم في سنة 309هـ؛ أما قيام الحسن عليه فحدث في سنة 313هـ. العبر، مج: 4، ص: 32. ومج: 6، ص: 447.

[2] أما ابن حزم فيقول: ((سمي الحجّام لكثرة سفكه للدماء)). الجمهرة، 50.

الأمير الحسن طويلا بالنصر؛ إذ تعرض لمؤامرة غادرة؛ قام بها مساعده وعامله على فاس؛ حامد بن حمدان الهمداني؛ المعروف باللوزي؛ نسبة إلى قرية بإفريقية تسمى لوزة؛ وثمة من ينسبه إلى قبيلة أوربة.[1] انتهز هذا الرجل فرصة عودة سيده إلى المدينة منفردا؛ فانقض عليه واعتقله؛ ثم بعث إلى موسى بن العافية؛ داعيا إياه للقدوم؛ بعد أن أقفل أبواب فاس في وجه جيش الأدارسة. وبهذا تمكن موسى بن أبي العافية من دخول فاس واحتلالها. كما تعزز ملكه بموت الحسن الحجام. ومن الواجب التنبيه هنا إلى أن المصادر قد اختلفت؛ حول الكيفية التي مات بها الحسن الحجام؛ إذ قال بعضهم أنه مات مسموما؛ وبعضهم الآخر قال أنه مات بتأثير السقوط من السور الذي فر منه.[2]

والمهم هنا أنه مات بعد هذا الحادث. ولم تشر المصادر بشكل صريح إلى السنة التي مات فيها؛ وإن كانت قد قالت أن مدة حكم الحسن نحو عامين. وإذا كان قد ثار على ريحان الكتامي في سنة 310هـ (922م)؛ واشتبك مع ابن العافية سنة 311هـ (923م)؛ تكون إذن سنة سقوط حكمه هي أواخر عام 311هـ أو بداية عام 312هـ (924م). ولما استولى موسى بن أبي العافية على مدينة فاس؛ تحرش بصاحب الفضل عليه حامد ابن

---

[1] الأنيس المطرب، ص: 50. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 213. والعبر، مج: 4، ص: 32.

[2] المغرب، ص: 127. الأنيس المطرب، ص: 50.

حمدان؛ فخاف منه؛ فلم يجد أمامه منجى سوى الفرار إلى المهدية.[1] وذكر ابن حزم من ذرية الحسن الحجام: ((**القاسم بن محمد بن الحسن؛ الفقيه الشافعي بالقيروان؛ المعروف بابن الزبيري**)).[2]

وهكذا يتضح بأن تلك المحاولات اليائسة التي قام بها الحسنِ الحجام؛ لبعث الحياة في الدولة الإدريسية لم تـجْـدِ نفعا؛ لأن حال الدولة الإدرسية أضحى مهلهلا ومتهالكا؛ إذ يبدو أنها دخلت في سن الشيخوخة؛ حيث تفشت بين أصحابها عاهات الفساد والانحلال، واستهوتهم مغريات الترف والسكينة والارتخاء؛ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فقد غدت قوى أعداء هذه الدولة متفوقة عليها؛ بفضل تحالفهم مع الفاطميين. وعليه فقد وصلت دولة الأدارسة إلى الحد الذي يشير إليه ابن خلدون في نظريته بقوله: ((**وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم؛ ويستولي عليها المرض المزمن الذي**

[1] رواية ابن خلدون تقول: ((وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله. وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس؛ وملكها؛ وطالبه بإحضار الحسن؛ فدافعه عن ذلك؛ وأطلق الحسن متنكرا؛ فتدلى من السور فسقط؛ ومات من ليلته. وفر حامد بن حمدان إلى المهدية... وذهب ملك الأدارسة؛ واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة؛ واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم ابن= =محمد بن القاسم ـــ أخي الحسن ـــ وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة. ونزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة. وبقي إبراهيم كذلك)). العبر، مج: 4، ص: ص: 32 ـــ 33.

[2] الجمهرة، ص: 50. أما البكري فذكر أربعة من أولاد عمر وهم: علي، وإدريس، وعبيد الله، ومحمد. المغرب، ص: 131.

لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برءٌ؛ إلى أن تنقرض)).[1]

وعلى الرغم مما حل بهذه الدولة من أوضاع مزرية؛ وما أضحت عليه من وهن وتشرذم؛ فقد بقيت المواجهات بين أمرائها وأعدائهم قائمة؛ – وإن تغير الأشخاص واختلفت المواقع – إذ ظهر أن الأحداث لم تهدأ والأحوال لم تسكن أبدا. وجوهر الاختلاف يتمثل في تبدل المقاتلين، وتنوع ميادين الصدام والقتال. ومع ذلك فقد حل الموعد المحتوم لنهاية هذه الدولة؛ وذلك بعد مدة من الزمن – كما سبق ذكره – وصح ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص**".[2] وفي النهاية، وبعد مد

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 666.

[2] حيث يقول: ((أما أعمار الدول – أيضا – وإن كانت تختلف بحسب القرانات؛ إلا أن الدولة – في الغالب – لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط؛ فيكون أربعين؛ الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: "حتى إذا= =بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" [من آية 15 من سورة الأحقاف] ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل... وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو – في الغالب – ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها؛ من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم؛ فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم – بالملك والترفه – من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء؛ وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك؛ بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية؛ فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية؛ وإن ذهب منه ما ذهب؛ ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول؛ أو على ظن من وجودها فيهم. وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية؛ بما هم فيه من ملكة القهر؛ ويبلغ فيهم الترف غايته؛ بما تفنقوه [أي تنعموا] من النعيم=

وجزر؛ خلص الأمر إلى سقوط ما بقي من قلاع للصمود في الدولة الإدريسية؛ تحت ثقل الدولة الأموية بالأندلس سنة 365هـ (975م). ولكن كيف حدث كل ذلك..؟

۞۞۞

ـ <u>عصر التفكك والشتات</u>:

أخذت الدولة الإدريسية في التفكك إلى أجزاء صغيرة، وأطراف منفصلة؛ اعتبارا من تاريخ سقوط حكومة الحسن الحجام؛ أي في بداية العقد الثاني من القرن الرابع الهجري ـ حيث غدت تشبه قطرة من زئبق سقطت على مسطح؛ فتفتتت إلى جزيئات؛ تناثرت في كل الجهات. ومع هذا فقد بقيت خلايا تلك الدولة تنبض بالحياة؛ وإن تفككت لحمتها، وانشطرت كتلتها، وتناثرت أجزاء وأطرافا. وأضحت عبارة عن مجموعة من الكيانات التي تحكم المدن.. وإمارات مجهرية ذات طابع قبلي؛ موزعة عبر التراب المغربي كله؛ وكانت كلها تحظى بحماية ورعاية عجيبة من طرف القبائل المغربية المختلفة. وحدث ذلك خاصة في مناطق

=وغضارة [أي النعمة والسعة] العيش؛ فيصيرون عيالا على الدولة؛ ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم؛ وتسقط العصبية بالجملة... وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة سنة على ما مر. ولا تعدو الدول ـــ في الغالب ـــ هذا العمر؛ بتقريب قبله أو بعده؛ إلا إذا عرض لها عارض آخر؛ من فقدان المطالب؛ فيكون الهرم حاصلا مستوليا؛ والطالب لم يحضرها؛ ولو قد جاء الطالب؛ لما وجد مدافعا. "فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" [من الآية 61 من سورة النحل])). المقدمة، ج: 2، ص ص: 655 ـــ 657.

الساحل الشمالي للمغرب، وبلاد الريف، وجبال غمارة.

غير أنه برز من بين تلك الإمارات إمارتان إدريسيتان منفصلتان ومتنافستان: الأولى إمارة بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛[1] وكانت تحت قيادة إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس. وهو الذي بنى قلعة منيعة ليتحصن فيها مع أسرته وبني عمومته؛ وتسمى حجر النسر؛ وذلك في سنة 317هـ (929م)؛[2] وكانت هذه القلعة تربض على ذروة جبل شاهق صعب المنال؛ في نواحي الريف بجبال غمارة. أما الإمارة الثانية فهي لبني عمر بن إدريس بن إدريس؛ بقيادة أبي العيش[3] بن إدريس بن عمر بن إدريس؛[4] وقامت في جهات تيقيساس (تيكيساز) وسبتة

---

[1] ذكر البكري أنهم: ((حسن وجنون [واسمه الحقيقي أحمد. ومعنى جنون بالأمازيغية القمر] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم. وكان محمد متخلفا في إخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه. وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون وحنون ابنا إبراهيم. واسم جنون [قنون] القاسم [وهو غير جنون الأول ابن محمد بن القاسم ابن إدريس؛ الذي يسمى أحمد])). المغرب، ص ص: 128 ـــ 129. أنظر أيضا الجمهرة، ص: 49.

[2] المغرب، ص: 127. واضطرب ابن خلدون في هذا الخبر؛ حيث ذكر ـــ مرة ـــ أن باني القلعة هو إبراهيم بن محمد؛ ـــ ومرة أخرى ـــ قال أن الذي بناها هو محمد بن إبراهيم بن محمد. العبر، مج: 4، ص: 33. ومج: 6، ص: 447.

[3] منعا لكل التباس؛ من الواجب التنبيه إلى أن اسم أبي العيش مستعمل في عائلتي الأدارسة وبني سليمان. وثمة عدد من الأشخاص يسمون بهذا الاسم.

[4] يقول البكري: ((وأما إدريس بن عمر بن إدريس فهو لباب ولد عمر بن إدريس؛ وبولده تكرر الأمر؛ إلى أن أكثرهم بنو محمد بن القاسم. ومحمد بن إدريس بن عمر هو المعروف بابن ميالة؛ يكنى أبا العيش؛ ولم يزل مواليا للناصر عبد الرحمن رحمه الله... وكان لإدريس بن عمر خمسة من الولد الذكور غير هذين [يقصد أبا العيش محمدا ويحيى الذي تولى=

وطنجة من بلاد غمارة. وعلى هذا تكون قبيلة غمارة قد برهنت على أنها من أخلص قبائل المغرب لبني إدريس؛ حيث احتضنوهم، وآووهم في بلادهم، وأخلصوا الطاعة لهم جميعا؛ سواء كانوا من بنى إبراهيم بن محمد بن القاسم، أو من بني عمر بن إدريس.[1]

غير أن موسى بن أبي العافية لم يكتف بما افتكه من أيدي الأدارسة؛ بل شحن عليهم بسعيه في مطاردتهم عبر البلاد المغربية كلها؛ إذ عمل جاهدا لتصفيتهم نهائيا، وإزالة وجودهم من تلك الديار؛ سواء كان ذلك بالقتل، أو بالنفي الأبدي.[2] حدث ذلك بعد أن تغلب موسى بن أبي العافية على معظم المغرب الأقصى؛ وبعض والأجزاء الغربية من المغرب الأوسط. وطارد الحسنيين في كل مكان؛ حتى أوشك أن يقضي على وجودهم نهائيا من تلك البلاد. ولم يفلت من مخالبه أو

=الملك بفاس]؛ ولهم عقب كثير)). ثم يضيف: ((وأما أبو العيش بن عبيد الله فولد حمودا ويحيى. فأما يحيى فله بنون بتازغدرا. وأما حمود فولد القاسم وعليا وفاطمة. فأما علي فولي الخلافة بالأندلس سنة سبع وأربعمائة)). المغرب، ص ص: 132 ــ 133.

[1] يقول ابن خلدون في هذا: ((واستولى ابن أبي العافية على فاس، وأعمال المغرب؛ وأجلى الأدارسة وأحجرهم بحصنهم حجر النسر؛ وتحيزوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف. وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات؛ واستجدوا بتلك الناحية ملكا؛ توزعوه قطعا. كان أعظمها لبني محمد هؤلاء، ولبني عمر بتيفيساس ونكور وبلاد الريف)). العبر، مج: 6، ص: 448.

[2] وصفت بعض المصادر والمراجع ما أحدثه ابن أبي العافية من مجازر في بلاد المغرب؛ كان الأدارسة من ضحاياها. وقال إسماعيل العربي؛ دون أن يشير إلى مصدره: ((وعقب ذلك؛ بدأ ابن أبي العافية في مطاردة الأدارسة وتقتيلهم جماعات وأفرادا؛ حتى أطلق على نهر فاس اسم النهر الأحمر؛ لغزارة الدماء ــ دماء الأدارسة خصوصا ــ التي سالت فيه)). كتاب دولة الأدارسة، ص: 154.

يتقي سطوته إلا الذين انحازوا إلى الريف؛ متحصنين بقلعة حجر النسر المنيعة؛ كما سبق قوله. وحتى هؤلاء حاول استئصالهم نهائيا لولا المعارضة التي واجهه بها أصحابه.[1] وذلك أنه لما حاصرهم في قلعتهم، وتمادى في التضييق عليهم قصد استئصالهم نهائيا؛ اعترض عليه أصحابه؛ ومنعوه من تحقيق رغبته في القضاء – نهائيا – على الأدارسة. فعاد إلى فاس؛ بعد أن ترك حامية تقدر بألف فارس لمراقبتهم والتضييق عليهم. ولما عاد إلى مركز إمارته بفاس؛ طور زحفه نحو إمارة بني سليمان بن عبد الله بتلمسان. تلك الإمارة التي كان يقودها الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحسني.[2] وقد

---

[1] قال في هذا ابن أبي زرع: ((واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب؛ وبايعه القبائل والأشياخ؛ فاجلا جميع الأدارسة من بلادهم، وأخرجهم من ديارهم، وملك مدينة أصيلا، ومدينة شالة وغيرها من بلادهم. وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر؛ مقهورين، مغلوبين؛ فانحصروا بها؛ وهي حصن منيع؛ بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم ابن إدريس؛ طلع في عنان السحاب. فنزل عليهم ابن أبي العافية؛ واشتد عليهم الحصار؛ وأراد استيصالهم، وقطع دابرهم؛ فعدله على ذلك رؤساء المغرب، وأكابر أهل دولته؛ وقالوا له: "أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب، وتقتلهم أجمعين. هذا شيء لا نوافقك عليه، ولا نتركك له"؛ فاستحيا لذلك وارتحل عنهم إلى مدينة فاس؛ وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي [في المغرب والبيان المغرب سمي أبا قمح] في ألف فارس؛ يمنعهم من التصرف؛ وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة)). الأنيس المطرب: ص: 51. أنظر أيضا المغرب، ص:128. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 214.

[2] وهو من أبناء سليمان؛ كما هو واضح من اسمه؛ وبذلك تكون يد ابن أبي العافية قد امتدت حتى إلى أبناء سليمان. وكان أبو العيش عيسى هو الذي شيد مدينة جراوة. وحول هذا يقول لكري: ((عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ هو الذي بنا جراوة؛ وكان أميرها؛ وبها توفي)). المغرب، ص: 77. ويضيف ابن عذاري: ((أسسها أبو العيش في سنة 257هـ؛ ووليها بعده ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة 291هـ؛ وخرج منها إلى حصن المنصورة في سنة 319هـ؛ ثم عاد إليها في سنة 323هـ؛ ثم انتقل منها إلى تلمسان في سنة 325هـ)). ثم يكمل في موضع لاحق:=

كان هذا الأمير – في تلك الأثناء – داخلا في طاعة الفاطميين؛ فحاصره ابن أبي العافية، وأخرجه من تلمسان، ومن جراوة في سنة 319هـ (931م)؛ واضطره للالتحاق بمدينة مليلة؛ حيث تحصن بها؛ إلى أن تحين الفرصة المواتية. وبعد ذلك توجه ابن أبي العافية إلى مدينة نكور؛ فاحتلها هي الأخرى سنة 320هـ (932م). وكان في هذه الأثناء؛ قد نقل بيعته من الفاطميين بإفريقية، إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي بالأندلس.

وتعتبر هذه الخطوة التي قام بها ابن أبي العافية هي بداية نهايته؛ إذ أرسل عبيد الله الشيعي جيشا فاطميا – في البداية – بقيادة حميد بن يصليتن أو يصلي (عمه هو مصالة). فتمكن من طرد موسى من فاس، وإجباره على التحصن في نواحي تسول. ولما لم تكن حملة يصلي حاسمة فقد جرد عبيد الله الشيعي جيشا آخر بقيادة ميسور الفتى في سنة 323هـ (934م). فتمكن هذا الجيش من اكتساح كل ما سبق أن

=((فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدوة؛ وتجمع إليه كثير من قبائل البربر؛ وتغلب على مدينة جراوة؛ وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي. ودارت بينهما محاربات ومواقعات. وبنى الحسن بن أبي العيش حصنا منيعا؛ بجبل بينه وبين جراوة أربعة أميال؛ وحوله قرى لمدغرة وبني يفرن وغيرهم من القبائل. وكان لأبي العيش أيضا وبنيه مدينة تلمسان وما والاها؛ يسكنها مثل زواغة ونفزة وغير ذلك. وفي ذلك يقول بكر بن حماد [كامل]:

سَائِلْ زُواغَـةَ عن طعان سُيوفِه ... وَرِماحه في العَارِض المُتَهَلِّلِ
وديار نَفزة كَيفَ دَاسَ حَرِيمَها ... والخيلُ تمرغ في الوشيج الذبَّل
وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلَّةً ... وسقىَ جَراوة من نَقِيع الحنظل)).

وجراوة في البيت الأخير؛ تعني القبيلة؛ وليست المدينة. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 196. 199 — 200.

استولى عليه موسى بن أبي العافية؛ بل طارده وشرده في مجالات بعيدة عبر الصحراء والآفاق النائية. وظل موسى على حاله في التشرد والانقطاع حتى قتل في نواحي ملوية؛ وقد حدث ذلك في تاريخ يكتنفه غموض كبير؛ إذ اختلفت فيه الأقوال.[1] وهنا تمكن الأدارسة، وأبناء عمومتهم بنو سليمان من استعادة المبادرة؛ إذ استطاعوا تخليص مراكزهم وإماراتهم من براثن ابن أبي العافية. خاصة إذا أخذ بالاعتبار ما كانوا عليه؛ من تعاون مطلق مع الفاطميين؛ في حربهم ضد موسى بن أبي العافية وفي مطاردته. وقد تم ذلك ـ على الأخص ـ انطلاقا من الإمارتين المنيعتين؛ اللتين شيدهما أبناء محمد بن القاسم بن إدريس؛ أصحاب قلعة حجر النسر، وربما أبناء عمر بن إدريس بن إدريس أيضا؛ الأمراء في غمارة وبلاد الريف؛ من تيقيساس إلى طنجة. حيث واصل من تلك النواحي بنو إدريس ـ بفرعيهم ـ حركة المقاومة؛ واستمروا في نضالهم بغرض استعادة مجدهم، واسترجاع دولتهم بفاس. فكانوا بذلك يترصدون الأحداث، ويتربصون حلول الفرص المناسبة ـ من تلك المواقع المنيعة ـ للانقضاض على أعدائهم. وقد اضطروا أحيانا؛ إلى عقد أحلاف، وعهود مع خصومهم السابقين؛ من أجل تحقيق أهدافهم الأساسية؛ التي تتمثل: في القضاء على عدوهم

---

[1] اختلفت الأقوال ـــ أيضا ـــ حول سنة وفاة موسى؛ إذ يقول بعضهم أنها في سنة 328هـ، وآخرون يرونها في سنة 341هـ، وفي قول سنة 350هـ، وآخر في 360هـ، وآخر في 363هـ. الأنيس المطرب، ص: 52.

الرئيسي موسى بن أبي العافية؛ ثم العودة إلى فاس؛ الأمر الذي يحقق لهم تطهير أراضيهم بعد ذلك نهائيا من الدخلاء والمحتلين؛ سواء كانوا من الفاطميين الشيعة، أم من الأمويين.[1]

وبالفعل فقد سارعوا إلى عقد حلف مع الفاطميين ــ وإن كان ذلك لبعض الوقت ــ حينما كانت جيوش الشيعة تطارد موسى بن أبي العافية؛ الأمر الذي مكنهم من استرجاع معظم أملاكهم بالمغرب.[2] كما سعوا إلى مصانعة، الأمويين بالأندلس؛ مظهرين رغبة في التقرب إليهم بواسطة ــ التظاهر بالبيعة ومخادعتهم ــ أملا في كسب الوقت؛ حتى يتحقق لهم جمع شعثهم ولمِّ شملهم. غير أن ذلك ــ كما يبدو ــ صعب المنال؛ لأن عصبية بني إدريس فسدت، وانكسرت سورتها

---

[1] كانوا يناورون بين الأمويين والفاطميين. أنظر: المغرب، ص ص: 128 ــ 134. وروض القرطاس، ص ص: 53 ــ 59. والعبر، مج: 6، ص ص: 448 ــ 454.

[2] ومما قاله عنهم البكري: ((ثم قدم ميسور الفتى إلى المغرب في سنة ثلاث وعشرين وثلاثماية... حاصر موسى بن أبي العافية؛ وتولى معاظم تلك الحروب بنو إدريس؛ حتى جلى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء؛ وصار ما كان بيده إلى آل إدريس؛ والرياسة منهم في بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهم: حسن وجنون [كنون] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم؛ وكان محمد متخلفا في اخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه؛ وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون [كنون] وحنون ابنا إبراهيم؛ واسم جنون [كنون] القاسم... وكان أعلى بني محمد كلهم أيدا أبو العيش بن جنون [كنون] بن محمد؛ وكان له من البلد ما بين أجاجن؛ وهو بقبلي حجر النسر إلى مدينة فاس. وكان أحمد بن إبراهيم ابن محمد عالمهم؛ كان يحفظ السير والتواريخ، وكان نسابة، عاقلا حليما؛ وكان مبجلا لعلمه؛ وكان يعرف أحمد الفاضل؛ وكان له ما جرَّ من أجاجن إلى مدينة سبتة؛ وكان شديد الميل إلى خلفاء بني أمية... ولم يكن في بني إدريس من شهر بالعلم شهرته إلا أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي؛ كان له علم وقدر وجاه بالمغرب؛ وهو الذي استجلب بكر بن حماد)). المغرب، ص ص: 128 ــ 130.

بالتمام. والشاهد على ذلك ما كان يحدث بين الأسرتين الإدريسيتين المتنافستين من شنآن وفرقة؛ زادت في ضعفهم جميعا؛ وأعطت لأعدائهم فرصا ثمينة لكي يكتسحوهم، ويقضوا عليهم بالكامل.[1]

وهكذا فما أن خلصوا من أطماع موسى بن أبي العافية والشيعة؛ حتى تورطوا في أطماع أخرى أشد وأكثر شراهة ونفاذا؛ تلك هي أطماع عبد الرحمن الناصر حاكم الأندلس؛ الذي وضع كل ما في حوزته من قوة ودهاء؛ لكي يمنع وصول الفاطميين إلى حدود مملكته. إذ أن خوفه من امتداد نفوذ الفاطميين الأقوياء إلى حدود دولته الجنوبية؛ في الطرف المقابل من العدوة؛ ألزمه وحتم عليه العمل الجاد؛ لكي يحول بين الفاطميين وبين تحقيق أهدافهم البعيدة المدى. تلك الأهداف التي ترمي إلى الانفراد بالخلافة الإسلامية غربا وشرقا؛ بحكم أنهم يرون في أنفسهم أحق الناس بها؛ لأنهم

---

[1] أرجع إلى الرسائل التي بعث بها الطرفان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان كل طرف منهما يشنع بأخيه، ويحاول شحن صدر الخليفة الأموي عليه. وطبعا هذا شاهد حي على ما وصلت إليه العصبية الإدريسية من ضعف ومهانة. لقد عرض إسماعيل العربي بعض المقطوعات من تلك الرسائل؛ نقلا عن قطعة من المقتبس؛ نشرها شالميتا بمدريد. دولة الأدارسة، ص ص: 156 ــ 159. وكعينة لما يقولونه؛ هذه فقرة من رسالة بعث بها بنو عمر إلى السلطان الأموي يحرضونه على بني عمومتهم: ((ولا نامن سلطان بني عمنا ــ بني محمد ــ المباينين لنا؛ إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه؛ الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور؛ إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبعثه، والكراهية لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده؛ وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك؛ من الصغو له؛ أيده الله؛ والميل إليه، والاعتراف بحقه)). دولة الأدارسة، ص: 158. هذه حال بني إدريس؛ بعد أن غزت الشيخوخة دولتهم، وبعد فساد عصبيتهم. وعليه فقد وجد الخليفة الأموي الأرضية صالحة لاكتساح بلادهم وضم أراضيهم وأملاكهم إليه.

من أبناء فاطمة الزهراء؛ التي تجعلهم خير من يمثل أهل البيت. وعليه فما أن أحس بضعف الأدارسة، وعجزهم عن صد الفاطميين، ومنعهم من احتلال ديار المغرب الأقصى؛ حتى سارع إلى التكفل بأمر الدفاع عن تلك الجهات الغربية بنفسه. لذا لم يجد عبد الرحمن الناصر خيارا آخر أمامه ـ بعد ذلك ـ سوى التدخل المباشر؛ وبكل ما يملكه من قوة، وبكل ما لديه من حكمة ودهاء. حيث استعمل في ذلك سلاح الضغوط والإغراء والتوجيهات. ومع هذا فقد وجد أن تدخله بقوة الاحتلال في بلاد المغرب أصبح من الأمور الضرورية الملحة؛ قبل فوات الأوان.

وعليه فقد اكتسح ـ هو ومن بعده ابنه؛ المستنصر بالله ـ المناطق التي يتمركز فيها الأدارسة؛ الذين اتضح لهما أنهم كانوا مذبذبين في ولائهم وطاعتهم التامة إليهما؛ نتيجة لخوفهم وضعفهم؛ من جهة، وكراهيتهم لبني أمية من جهة أخرى. هذا وقد سهل على عبد الرحمن الناصر مهمة إخضاع الأدارسة؛ نظرا لما كان يلاحظه من انقسام في صفوفهم؛ إذ أنه لمس ـ بسهولة ـ ما كان يحدث بينهم من صراع وشنآن. وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اكتفى باحتلال سبتة وطنجة؛ كموضع قدم له في الضفة المغربية؛ بغرض تحويلهما إلى رأس جسر يسهلان مرور جيوشه فيما بعد ـ بالإضافة إلى احتلال بعض المواقع الهامة في تلك الديار ـ فإن ابنه الحكم

تجاوز ذلك الحد؛ بالعمل الجاد على الاحتلال الكامل للمغرب الأقصى؛ وإسقاط ما فيه من جيوب وكيانات إدريسية. ولما احتل المستنصر بالله بلاد المغرب الأقصى كلها كما خطط؛ نقل كل الأدارسة إلى بلاد الأندلس؛ وذلك في حدود سنة 365هـ (975. حيث فتحت لهم أبواب تلك الديار واسعة. إذ أصبحت بالنسبة إليهم ميدانا جديدا للسعي نحو الملك والسلطان مرة أخرى.[1]

---

[1] للتوسع في موضوع الدولة الإدريسية يستحسن الإطلاع على الكتب التالية: المغرب، ص ص: 115 ـــ 134. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 4 ـــ 93. والبيان المغرب، ج: 2، ص ص: 210 ـــ 214. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 188 ـــ 224. والعبر، مج: 4، ص ص: 23 ـــ 36. والاستقصاء، ج: 1. ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ولمزيد من التوثيق؛ هذا نص لابن خلدون عن الذي جرى ـــ في الأيام الأخيرة ـــ لمن بقي من الأدارسة؛ جاء فيه: ((واستولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد ابن القاسم؛ أخي الحسن [الحجام] وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيفيساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب؛ وملك سبتة على بني إدريس سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]؛ وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر؛ فانجابوا له عنها، وأنزل بها حاميته. وهلـ[ـك] إبراهيم بن محمد كبير بني محمد؛ فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكنون؛ وهو أخو الحسن الحجام؛ واسمه القاسم بن محمد بن القاسم؛ وقام بدعوة الشيعة؛ انحرافا عن أبي العافية ومذهبه. واتصل الأمر في ولده؛ وغمارة أولياؤهم، والقائمون بأمرهم... وأقام الأدارسة بالريف؛ مع غمارة؛ وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة، وقلعة حجر النسر، ومدينة سبتة، وأصيلا. ثم تغلب عليهم المروانيون، وأثخنوهم إلى الأندلس ثم أجازوهم إلى الإسكندرية. وبعث العزيز العبيدي ابن كنون منهم لطلب ملكهم بالمغرب؛ فغلبه عليه المنصور ابن أبي عامر، وقتله. وعليه كان انقراض أمرهم، وانقراض سلطان أوربة من المغرب. وكان من أعقاب الأدارسة الذين أووا إلى غمارة؛ فكانوا الدائلين من ملوك الأموية بالأندلس. وذلك أن الأدارسة لما انقرض سلطانهم؛ صاروا إلى بلاد غمارة، واستجدوا بها رياسة، واستمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس؛ وكانت للبربر إليهم ـــ بسبب ذلك ـــ طاعة، وخاصة. وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ حين أجازوا في مظاهرة المستعين. ثم غلبوه ـــ بعد=

ـ **حكومة أبي العيش أحمد بن القاسم (قنون):**

وبهذا العرض يتضح أن الدولة الإدريسية الأولى بفاس؛ قد انقطعت في حدود سنة 311هـ (923م) تقريبا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الزمنية التي كان فيها الأدارسة يناضلون من أجل استعادة دولتهم؛ وذلك انطلاقا من مواقعهم المنيعة في بلاد الريف وغمارة؛ تكون دولة الأدارسة الثانية قد أخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه من قبل؛ حيث تقلص نفوذ أصحابها؛ بل أضحوا تابعين لغيرهم. كما اتخذت الدولة الإدريسية الجديدة عاصمة أخرى لها غير مدينة فاس. وقد تم ذلك ـ في البداية ـ بقلعة صخرة النسر؛ وأخيرا بمدينة البصرة.[1] إذ بدأت ـ في تلك النواحي ـ تتبلور صورة دولتهم الجديدة؛ تلك الدولة التي برز فيها الحسن ابن قنون بالبصرة في حدود سنة 347هـ (958م) تقريبا؛ إلى سنة تغلبه على مدينة فاس في حدود أواخر عام 372هـ (982م) ـ بمساعدة الفاطميين ـ إلى أن تم القبض عليه من طرف الأمويين؛ أين قتل في سنة 375هـ (417م)؛ وفي هذا التاريخ سقطت الدولة الإدريسية نهائيا وزالت من بلاد المغرب.

ومن هنا وجب علينا الاستمرار في الحديث عن هذه الدولة؛ من خلال عرض الكيفية التي

=ذلك ـ على الأمر، وصار لهم ملك الأندلس)).العبر، مج: 4، ص ص: 33ـ 34.

[1] هذا طبعا بالنسبة إلى فرع القاسم بن إدريس؛ لأنهم هم الذين يمثلون صمود الأسرة الإدريسية.

نشأت بها مرة أخرى بعد سقوطها. ولتوضيح الصورة التي بدأت بها هذه الدولة؛ لابد من العودة قليلا إلى أيام التشرد، والامتناع في بلاد الريف وغمارة. وبالتحديد إلى أخبار فرع من بني إدريس؛ وهم بنو محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ الذين امتنعوا في قلعة النسر. حيث برز من بين أعضاء تلك الأسرة أبو العيش أحمد بن القاسم (قنون).[1] وكان هذا الأمير فقيها، وعالما بالسير والأنساب. كما اشتهر بالعفاف والورع والحلم والكرم والشجاعة؛ وكان يعرف باسم أحمد الفاضل.[2] ويعتبر هذا الأمير من أشد بني إدريس ميلا إلى الأمويين بالأندلس؛ حيث سارع إراديا – بعد أن خلف والده – إلى قطع الدعوة عن الفاطميين؛ وتحويلها إلى الأمويين. ولكن عبد الرحمن الناصر طمع في أكثر من البيعة؛ إذ ساومه على التخلي له عن مدينتي: طنجة وسبتة؛ فلم يقبل أبو العيش – في الوهلة الأولى – بذلك الشطط والغلو الذين أبداهما عبد الرحمن الناصر. ولكنه لم يجد أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع – في الأخير – نتيجة للضغوط؛ ذات الطابع العسكري؛ التي لجأ إليها عبد الرحمن الناصر. إذ تدخل هذا السلطان النافذ بالقوة المسلحة؛ دون انتظار أو تلكؤ؛ حيث بادر فورا بإرسال جيش لاحتلال المدينتين. وهكذا لم يجد أبو العيش مفرا

---

[1] تكتب أحيانا كنون، وأحيانا أخرى جنون أو قنون بجيم مصرية؛ حسب النطق بها.

[2] انظر المغرب، ص ص: 127 — 128.

من الخضوع للأمر الواقع المعلن بالقوة العسكرية؛ وترك ما كان قد أظهره من اعتراض؛ بل سارع في الحال إلى الاعتذار والتأسف وإبداء الندم؛ فقبل عبد الرحمن الناصر منه ذلك؛ بل أبدى له مودة وإكبارا عظيمين.

ومع ذلك فإن العاهل الأموي لم يقف عند حدود المدينتين: طنجة وسبتة؛ لأنه — في حقيقة الأمر — لم يكن يرى فيهما سوى رأسي جسر؛ يمكنانه من تمديد ونشر سلطانه الفعلي على بلاد المغرب كلها. وبالفعل فقد تمادى ذلك السلطان الأموي في مشاريعه التوسعية؛ حيث استطاع — بعد مدة — أن يهيمن على معظم بلاد المغرب؛ تاركا لبني إدريس أصيلا والبصرة فقط. ولما شاهد أبو العيش تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد المغرب؛ وانقياد القبائل الأمازيغية إليه؛ بعث إليه يستأذنه في الانتقال إلى الأندلس بهدف الجهاد في الثغور. فلبى عبد الرحمن طلبه؛ مبديا فرحه وسروره.[1] وتقول المصادر أن حياة أبي العيش انتهت باستشهاده في ميدان الجهاد بالأندلس سنة 347هـ (958م).[2] وكان أبو العيش قد استخلف في أعماله

---

[1] يقول في هذا ابن أبي زرع: ((فلما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة؛ كتب إليه — إلى قرطبة — يستأذنه في الجهاد؛ فأذن له؛ وأمر أن يبنى له في كل منزل ينزله قصرا؛ من الجزيرة الخضراء إلى الثغر؛ وأن يجرى له فيه ألف دينار في كل يوم ضيافة؛ ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر. فلم يزل في ذلك حتى وصل إلى الثغر. فكانت منازله في رحلته من الجزيرة ثلاثين منزلا)). الأنيس المطرب، ص: 54. أنظر أيضا المغرب، ص: 120. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 218 — 219.

[2] اختلفت الأقوال حول تاريخ وفاته؛ فابن أبي زرع وابن خلدون يقولان أنها حدثت في سنة 343هـ؛ بينما يرى ابن الخطيب أنها وقعت في سنة 346هـ؛=

ــ عنــد مسيــره للأندلــس ــ أخــاه الحســن بــن قنــون (كنــون). وهــذا الأخيــر هــو صاحــب الدولــة الإدريسيــة الثانيــة بالبصــرة وفــاس. كمــا يعتبــر آخــر ملــوك هــذه الدولــة في المغــرب الأقــصى. وهنــا لا بــد مــن عــرض الكيفيــة الــتي وقعــت بهــا تلــك الأحــداث.

ــ حكومــة الحســن بــن أحمــد قنــون الأولى:

فلمــا تــولى الحســن بــن قنــون شئــون الحكــم؛ بعــد أخيــه أبي العيــش ظــل ــ في بدايــة عهــده ــ محافظــا عــلى المواثيــق المتفــق عليهــا مــع الدولــة الأمويــة؛ إذ واصــل إعــلان الدعــوة لخلفائهــا. ولكنــه اضطــر إلى تغييــر موقفــه المعلــن ــ عــلى مــا يبــدو أو تظاهــر بذلــك ــ عنــد قــدوم الجيــش الفاطــمي مــن إفريقيــة سنــة 348هــ (959م)؛ بقيــادة جوهــر الصقــلي ــ إذ لــم يكــن أمامــه ســوى مسايــرة مقتــضى الحــال؛ حيــث أنــه بتغيــر الأوضــاع؛ تغيــرت مواقــف الحســن بــن قنــون كذلــك. وعليــه فقــد بــادر حــالا إلى نقــل ولائــه مــن الأميــر الأمــوي إلى الخليفــة الفاطــمي؛ لأنــه ــ كمــا يبــدو ــ رأى في الفاطمييــن مزايــا؛ لــم يجدهــا لــدى الأموييــن؛ إذ يبــدو أنــه اعتقــد أنهــم الأقــوى عــددا وعــدة؛ هــذا مــن جهــة، ومــن جهــة أخــرى فقــد رأى أن مصلحتــه تقتــضي التعامــل مــع دولــة بعيــدة ــ جغرافيــا ــ عنــه؛ أفضــل مــن التعامــل مــع دولــة قويــة وقريبــة مــن أرضــه؛ لأن هــذه الميــزة تمكنــه مــن

=بينمــا يخــطئ البكــري حيــن يقــول أنهــا حصلــت في سنــة 332هــ. أمــا إسماعيــل العــربي فيجــزم بأنهــا حدثــت في سنــة347هــ. الأنيــس المطــرب، ص: 54. وأعمــال الأعــلام؛ ق: 3، ص: 219. والعبــر، مج: 6، ص: 450. ودولــة الأدارســة، ص: 179.

الحركة والعمل بحرية مطلقة؛ دون أن يلجأ أولئك الحكام المتغلبين إلى التدخل في شئونه في كل لحظة ولأتفه الأسباب. وأهم فائدة قد يجنيها مع الدولة الفاطمية؛ هي ما تحققه له من شروط التخلص من هيمنة القبائل الزناتية المشاغبة؛ تلك القبائل التي اختارت التحالف مع الدولة الأموية؛ وكانت تشكل عامل تهديد يقف في طريق استقرر دولته.

ومع هذا فقد استعمل ورقة المناورة والخداع؛ التي تسمح بها الظرف آنئذ؛ وذلك حينما عاد جوهر الصقلي إلى إفريقية سنة 349هـ(960م)؛ حيث لم يجد الحسن بن قنون أمامه ـ من مخرج ـ سوى أنه أعاد ولاءه ودعوته للأمويين؛ متعللا لهم ـ طبعا ـ بضعفه، وعجزه عن مواجهة الشيعة. كما ظل على عهده بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وخلافة ولده الحكم المستنصر بالله سنة 350هـ؛ وإن كان ذلك قد تم خوفا منهما؛ لأنه ما أن زحف بلغين يوسف بن زيري الصنهاجي إلى المغرب الأقصى؛ لإخضاع القبائل الناكثة للعهد، وأخذ ثأر أبيه من القبائل الزناتية. حتى سارع الحسن بن قنون إلى الانضمام إليه، ومساعدته في حروبه ضد القبائل المتحالفة مع الدولة الأموية. وبهذا يكون قد أضاع كل الفرص الممكنة؛ للتعلل بأعذاره المعهودة؛ كالضعف، واستحالة المقاومة، وانعدام الحيلة.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن قنون بيعة العبيديين، وعاد إلى بيعة المروانيين؛ تتمسك بدعوة الناصر، ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعد؛ خوفا منهم لا محبة فيهم؛ لقرب=

وبالطبع فقد انجر عن ذلك التصرف من قبل الحسن ابن قنون؛ أنه صدرت عن الدولة الأموية قرارات هامة وحاسمة؛ إذ قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر ـ بعد هذا ـ أن يزيل نهائيا أي كيان للأدارسة ببلاد المغرب. لأنه ـ كما يبدو ـ وصل الحال بين الأسرتين القريشيتين في بلاد المغرب إلى القطيعة التامة؛ التي لا تقبل أي ترقيع، أو مسوغات ممكنة. وعليه فقد عبأ قوات ضخمة؛ ووجهها إلى بلاد المغرب؛ لكي يلحقها ـ تماما ـ بمملكته في الأندلس. غير أنه ـ كما يبدو ـ تسرع في تنفيذ قراره؛ ولم يقدر قوة خصمه حق قدرها؛ إذ انتهت المعارك الطاحنة؛ التي دارت بين الجيشين ـ والتي كان أغلبها في البدء سجالا ـ بهزيمة شنيعة للجيش الأموي؛ في سنة 362هـ(972م)؛ حيث قتل فيها قائده محمد بن القاسم؛ مع عدد كبير من أفراده؛ قدرهم ابن

=بلاده منهم. فلم يزل في طاعتهم، قائما بدعوتهم إلى أن قدم بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي؛ من إفريقية قاصدا إلى المغرب؛ لأخذ ثأر أبيه؛ فقتل زناتة، واستأصلهم، وملك المغرب بأسره؛ وقطع أيضا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم؛ وأخذ البيعة ـ على جميع بلاد المغرب ـ لمعد بن إسماعيل؛ كما فعل جوهر من قبله. فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته، وقتل أولياء المروانيين، وقطع دولتهم من أمراء المغرب الحسن بن قنون صاحب مدينة البصرة. وكشف وجهه في ذلك؛ وعمل فيه جهده؛ فاتصل خبره بالحكم المستنصر؛ فحقد له ذلك. فلما انصرف بلقين بن زيري إلى إفريقية؛ بعث الحكم قائده ـ محمد بن القاسم ـ في جيش كثيف إلى قتال الحسن ابن قنون؛ فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم؛ وعدد كثير، وقوة وعدة كاملة؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة؛ فزحف إلى قتاله الحسن بن قنون في قبائل البربر... فقتل فيها محمد بن القاسم؛ قائد الحكم المستنصر؛ وقتل معه خلق كثير من أصحابه؛ وفر الباقون فدخلوا سبتة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

حيان بنحو خمسمائة فارس وألف مقاتل مترجل[1]. بينما انهزمت بقيتهم، وانحصروا خلف الأسوار؛ منتظرين المدد، والمساعدة من طرف الخليفة الأموي.

بالفعل فقد بادر الحكم المستنصر بإصدار أوامره المستعجلة؛ يطلب من قواته فيها البقاء في مراكزهم حتى يأتيهم المدد؛ ومعه الأوامر الجديدة. ثم أرسل إليهم ــ بعد ذلك ــ القائد الأعلى لجيشه غالب بن عبد الرحمن؛ مكلفا بمهمة شن حرب محكمة، وشاملة، وطويلة النفس ضد الحسن بن قنون في بلاد العدوة. ويبدو أن الحرب في هذه المرة لا تشبه سابقتها؛ حيث روعيت فيها عدة اعتبارات: عسكرية وسياسية؛ كان من شأنها تحقيق النصر لا محالة. فمن بين القرارات المتخذة:

ــ أولا: حسن اختيار القيادة المكلفة بمهمة الحرب في أرض العدوة. حيث أسند المستنصر هذه المهمة العظيمة إلى قائد محنك؛ وخبير بالشئون العسكرية والقتالية. وهو الوزير القائد غالب ابن عبد الرحمن ــ مولى الخليفة الناصر لدين الله؛ وصاحب مدينة سالم والثغر الأعلى. ويعتبر هذا القائد من أهم أمراء الجيش الأموي ــ آنئذ ــ إذ لا تسند إليه ــ في العادة ــ إلا المهمات الصعبة والخطيرة. ووصفه

[1] المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي؛ ص: 96.

ابن خلدون بقوله: ((**البعيد الصيت، المعروف بالشهامة**)).[1]

ـ ثانيا: إعداد خطة محكمة لقتال الحسن بن قنون. لأنه من خلال تجربة الوقائع الأولى؛ ثبت عدم صلاحية الخطط المتبعة فيها؛ بسبب ما شابها من ارتجال واستخفاف بالعدو. لذلك فقد أخذ الخليفة الحكم بعض الوقت لنفسه؛ بهدف التفكير والتشاور وضبط الخطة القتالية التي ستتبع؛ قبل أن يغامر مرة أخرى. وحتى قواته التي مازالت متمركزة في بلاد العدوة؛ فقد أرسل لهم أمرا باجتناب الاشتباك مع قوات حسن بن قنون؛ وأن ينتظروا الأوامر الجديدة.[2] ولما كان الحسن بن قنون قد اعتمد حرب الكر والفر؛ التي تعرف الآن بحرب العصابات؛ فقد كان على المستنصر ومعاونيه أن يبلوروا خطة عسكرية فعالة؛ حتى يتمكنوا من كسر عنفوان وشدة الهجمات؛ التي اعتاد الحسن بن قنون شنها على حين غرة. ومن هنا فقد وجدوا أنه من الضروري كسب ولاء القبائل الأمازيغية؛ المنتشرة عبر بلاد العدوة.

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 451. أما ابن أبي زرع فيقول: ((فبعث إليهم قائد عسكره وصاحب حروبه غالبا مولاه. وكان غالب على غاية من الحزم والنجدة والدهاء والإقدام)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] في هذا يقول ابن حيان: ((فتضمن الجواب إليهم [أي جواب الخليفة المستنصر إلى قواده في بر العدوة] أن الرأي؛ ترك الحركة إليه [أي إلى الحسن] والتعرض لحربه؛ حتى يلحق بهم الوزير القائد الأعلى غالب بالقوة إن شاء الله)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ص: 103.

لأنه أصبح من الضروري؛ عزل الحسن بن قنون عن أنصاره؛ بغرض إفشال خططه وإرباكه.[1]

ـ ثالثا: حشد القوات المقاتلة بثبات وتأني؛ بحيث يتم اختيار الرجال الأكفاء؛ وتوفير العدد الكافي. وهذا ما تم بالفعل؛ إذ عمل الخليفة المستنصر ـ هذه المرة ـ على حشد عدد كبير من الجند؛ جلبوا من الثغر الأعلى؛ بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا في قرطبة ونواحيها. كما تميز التحضير بالروية ودقة الإعداد؛ بحيث تطلب التحضير لهذه الحملة ـ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبا؛[2] قد يكون ذلك تم ابتداء من شهر جمادى الثانية إلى منتصف شهر رمضان؛ الذي ركب فيه القائد غالب بن عبد الرحمن الأسطول ـ بجيشه ـ متجها إلى طنجة.[3] ومع ذلك لم يتوقف مدد المستنصر

---

[1] يتضمن كتاب المقتبس عينات كثيرة مبعثرة في صفحاته بخصوص العطايا والهدايا التي يقدمها المستنصر وأعوانه لرؤساء القبائل الأمازيغية؛ لكي يستميلهم إليه ويضمن طاعتهم وولاءهم. وفيما يلي نص لابن أبي زرع يقول فيه: ((فأعطاه الحكم [أي أعطى إلى غالب] أموالا جليلة، وعددا كثيرة، وجيوشا وافرة؛ وأمره بقتال العلويين، واستنزالهم من معاقلهم؛ وقال له عند وداعه: " يا غالب سر مسير من أذن له بالرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا؛ ولا تشح بالمال، وابسط يدك به يتبعك الناس)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] قال ابن أبي زرع: ((فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة في آخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[3] قال ابن حيان: ((وفي جمادى الآخرة احتل الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بمحلة فحص السرادق ـــ شرقي قرطبة ـــ مستدعىً من مولاه الخليفة الحكم؛ مهيبا به لحرب الغوي حسن بن قنون؛ المنازع له عمله بأرض العدوة؛ عندما تفاقم أمره، وأعيا مراسه، وأثخن في قتل الجند، وانتحل ولاية الدعي الشيعي معد. فاضطرب غالب بمحلته تلك ـــ يومئذ ـــ في يومين في الدُّهم [أي العدد الكثير] الذين أمر باستنفارهم؛ من حشد الثغر الأعلى إلى من استنهضهم من جيش السلطان لديه؛ ثم تقدم بهم في اليوم الثالث إلى الزهراء وطن الخليفة مولاه؛ مشتقا قرطبة؛ واجتهر أهلها من احتفال جيشه، واكتمال عدده واطراد ترتيبه ما امتلأت به قلوبهم فرحا،=

لجيش غالب بالعساكر والمال والعتاد الحربي؛ بل استمر ذلك الخليفة الحازم في إرسال التعزيزات وراء التعزيزات؛ دون تحفظ أو تردد.[1]

ـ رابعا: تخصيص أكبر قدر من الأموال؛ لصرفها على جيش الخلافة، أو الاستعانة بها في حملة واسعة؛ قررت لاستمالة وكسب ولاء القبائل الأمازيغية المتعاطفة مع الحسن بن قنون. ومن يتصفح كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان؛ سيلاحظ ـ بلا شك ـ ما كان يبعث به المستنصر ـ بدون تحفظ ـ من أموال ضخمة وتحف ثمينة، وعتاد حربي، إلى غالب بن عبد

=وشمخت له أنوفهم عزا. وأقام بقرطبة أياما؛ اتصل فيها عمل السلطان ورجاله في تجهيزه، وإزاحة علله، وتقوية أيده؛ إلى أن بلغ منه ما ارتضاه؛ ففصل عند ذلك في جموعه يوم الثلاثاء لتسع خلون من رجب منها)). ((وفي هذا الوقت [أي شهر رمضان] ورد الخبر بركوب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن البحر في الأسطول؛ من مدينة الجزيرة؛ فرضة المجاز إلى بلد الأندلس؛ بعد طول مقامه فيها؛ بعد أن استكمل أهبته فيها؛ وقدم إجازة الأجناد والخيل والأثقال وآلات الحروب؛ فتوافت إلى هناك كاملة؛ وإن ركوبه من الجزيرة كان في يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان منها؛ وأقلع رافعا إلى جهة طنجة من أرض العدوة)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص ص: 102. 115.

[1] وهاتان عينتان لذلك: ((وورد كتاب صاحب الشرطة وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس؛ يذكر حركته بالأسطول إلى أصيلا؛ لما في القرب من الوزير القائد الأعلى واجتماع الأسطوليين من صواب التدبير، والأخذ بالحزم... وأرسلت إليه [إلى غالب] كسي فخمة، وسرج وألجم محلاة؛ ففضها فيمن جاءه من الرؤساء)). المقتبس، 116. ((فلما كان يوم الإثنين لسبع منه [من ذي القعدة] خرج الوزير القائد يحيى بن محمد بن هاشم من قرطبة؛ نافذا إلى العدوة؛ خروجا ظاهرا؛ بين يديه التعبئة الكاملة، والترتيب المنظوم؛ وخرج بخروجه اخوته المتقدمة تسميتهم، وبنو عمه التجيبيون؛ في عسكر ضخم؛ ممن ضم إليه من طبقات الأجناد؛ وفيهم قطع من العبيد الرماة، ومن الرماة الأحرار، وغيرهم من جند المملكة؛ راق إبصارهم النظارة؛ فاحتل يومه ذلك على نهر شوش. وخرج بخروجه الخازن أحمد بن محمد بن حاجب؛ وبين يديه ستة عشر حملا من المال العين، وعدة أحمال من الكسي الفخمة، والسيوف الحالية المرسلة إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن لفضها فيمن يستامن إليه من أكابر البرابرة)). المقتبس، ص129.

الرحمن؛ لكي يعزز بها قوته العسكرية، ويستميل بها القبائل المناصرة للحسن ابن قنون.[1]

ـ خامسا: تكثيف عمل الاستخبارات، وبث الجواسيس بشكل واسع؛ لتتبع حركة العدو، ومعرفة نواياه؛ وبث الإشاعات الهدامة في صفوف قواته وأنصاره.[2]

ـ سادسا: مراعاة العوامل النفسية، واعتماد سياسة إعلامية محكمة للتأثير على أنصار الحسن ابن قنون، وبث روح الكراهية له بين عامة المسلمين. ويتجلى هذا العمل في الميدان النفسي؛ من خلال ما حصل من عروض عسكرية؛ أقيمت عند تقدم الجيش نحو الزهراء، ودخوله مدينة قرطبة في مظاهرة ضخمة، بغرض إضفاء هالة كثيفة من الهيبة والأبهة على قيادة غالب بن عبد الرحمن؛ وأهم دليل على ذلك؛ ما قام به المستنصر حين بعث إلى هذا القائد بقبة القيادة الحمراء.[3] أما

---

[1] أنظر المقتبس، ص ص: 106. 108. 109. 110. 111. 115. 116. 123. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 135. 139. 151.

[2] مما جاء في رسالة المستنصر لقادته بأرض العدوة يوصيهم بالإصرار على المقاومة: ((إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار؛ حتى لا يخفى لحسن ـ أهلكه الله ـ حركة، ولا يتوارى له مذهب)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 97. ومن جهة أخرى؛ حتى الحسن ابن قنون كانت له عيون وجواسيس في صفوف الأمويين؛ ومن الشواهد على هذا ما قاله ابن حيان: ((فقدم الأدلاء والنزّاع في قطيع من الخيل نحوه [أي نحو الحسن]؛ كمنوا على الناحية وتفرقوا في جهاتها وتقطعوا في نواحيها؛ فانملص منهم جاسوس خالطهم لم يشعروا به؛ وأتى إلى الحسن؛ فأعلمه بخبر العسكر المتقرب، وبما ينوي؛ فأزعج من وقته، وركب مع ولده وأهله وجميع من كان معه ـ من فارس وراجل ـ وأحاط بالجبل الذي ظن أنه يوتى منه...)). المقتبس، ص: 140.

[3] وعنها قال ابن حيان: ((وفي هذا الوقت أرسل الخليفة المستنصر بالله إلى الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بالقبة الحمراء الفخمة المرأى، البديعة الصنعة؛ التي أمر باتخاذها له على حدّه، ووصفه كيما يرفعه وسط محلته، ويكون نزوله وقعوده فيها؛ إسماء لقدره، ورغما لقلب عدوه؛=

الجانب الإعلامي فقد تولاه ـ في غالب الأحيان ـ الشعراء، وأئمة المساجد. ويتجلى ذلك من خلال القصائد الكثيرة التي قيلت في المناسبات كلها، وكانت مليئة بالهجاء والسخرية من الحسن بن قنون.[1] كما أن إضافة كلمة (ملحد) إلى اسم الحسن ـ كلما ذكر ـ يدل على ما كان يستهدفه أعداءه من بث الكراهية له بين عامة الناس.

وهكذا فقد حظيت هذه الحملة الحربية المنظمة بنجاح كبير؛ إذ حققت أهدافها المسطرة لها. وتمكن غالب بن عبد الرحمن من عزل الحسن بن قنون، وشل حركته نهائيا؛ مما اضطره إلى الإذعان والاستسلام والقبول بشروط الأمويين. وعليه فقد سلم نفسه في سنة 363هـ (973م).[2] حيث تم نقله ـ مع أهله وحاشيته ـ إلى قرطبة؛ أين بقي فيها إلى

=وكانت غريبة الابتداع، عجيبة الاختراع، لها منظر رائق، ومرأى فائق؛ جرى في اتخاذها كلام كثير)). المقتبس ص: 116.

[1] يدخل في هذا السياق ما ذكره ابن حيان عن طلب غالب بن عبد الرحمن من الخليفة المستنصر إمداده بالشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطبني؛ لكي يستعين به في حربه الإعلامية ضد عدوه. وبالفعل لم يتردد الخليفة المستنصر في إرساله إلى بر العدوة. أنظر المقتبس، ص ص: 108 ـ 109.

[2] قال ابن أبي زرع: ((وأخرج غالب الأموال؛ فبعث بها إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون؛ ووعدهم، وأمنهم؛ ففروا عن الحسن وأسلموه؛ حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله؛ فلما رأى ذلك سار إلى حصن حجر النسر؛ فتحصن فيه؛ وأتبعه غالب فحاصره به، ونزل بجميع جيوشه عليه، وقطع عنه المواد؛ وأمده الحكم بالعرب الذين ببلاد الأندلس كافة، ورجال الثغور؛ فوصل المدد إلى غالب غرة محرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة؛ فاشتد الحصار على الحسن بن كنون؛ فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله؛ وينزل إليه؛ فيسير معه إلى قرطبة؛ فيكون بها؛ فأجابه غالب إلى ذلك، وعاهده عليه. فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله؛ وأسلم الحصن إلى غالب فملكه؛ واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم، وأخرجهم عن أوطانهم؛ ولم يترك في العدوة رئيسا منهم)). الأنيس المطرب، ص: 57.

سنة 365هـ (975م)؛ سنة إجلائه ـ مع أهله أيضا ـ إلى مصر؛ نظرا لما حدث بينه وبين المستنصر من جفاء؛ بسبب قطعة من العنبر؛ رفض الحسن ابن قنون التنازل عنها للحكم؛ الذي يقال أنها أعجبته وطمع فيها. فكان رد فعل المستنصر عنيفا؛ إذ استولى عليها وعلى أموال الحسن وأهله بالقوة؛ ثم أجلاهم جميعا إلى مصر.[1] ويبدو من هذا التصرف؛ أن المستنصر كان يترصد أقرب فرصة لكي يتخلص من الحسن وأهله. ذلك أنه ـ كما يقال ـ أثقله بالتكاليف المادية التي كانت تصرف عليه وعلى عائلته.

ـ <u>حكومة الحسن بن قنون الثانية بفاس:</u>

ومن مصر بدأ الحسن بن قنون مرحلة جديدة لاستعادة ملكه وملك آبائه. وقد وجد تجاوبا وحماسا من طرف الخليفة الفاطمي نزار بن معد؛ الذي أرسله في سنة 373هـ(983م) ـ مع توصية ـ إلى بلغين بن زيري في إفريقية؛ طالبا منه مساعدته

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان له [أي الحسن بن قنون] قطعة عنبر غريبة الشكل، كثيرة الجرم؛ ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها؛ فسواها منشورة يتوسد بها؛ فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها؛ فسأله حملها إليه، وضمها إلى ذخائره؛ على أن يرضيه عنها بحكمه؛ فامتنع من ذلك، وأبى أن يسلمها إليه؛ فنكبه عليها؛ وأخذ أمواله، وسلبه من جميعها، وأخذ القطعة؛ فبقيت في خزانته إلى أن ظهر علي بن حمود الحسني ـــ على ملك الأندلس ـــ ودخل قرطبة، وسكن القصر، وظفر ببني أمية؛ فأصاب تلك العنبرة متاع ابن عمه الحسن في الخزانة؛ قد أعفتها الأيام؛ حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها. ولما نكب الحكم الحسن بن كنون، وأخذ أمواله؛ أمر به وبالعلوية؛ فأخرجوهم عن قرطبة، وأجلاهم إلى المشرق؛ فجازوا من المرية إلى تونس؛ ليستريح من نفقاتهم؛ وذلك في سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر؛ فنزلوا على نزار بن معد؛ وبالغ في إكرامهم، ووعد للحسن النصرة)). الأنيس المطرب، ص: 58.

على استعادة ملكه في فاس. وبالفعل فقد أمده زيري بثلاثة آلاف فارس؛ رافقوه إلى المغرب الأقصى؛ حيث تمكن بواسطتهم من احتلال مدينة فاس؛ وإعلان قيام الدولة الإدريسية فيها من جديد. وذلك في السنة نفسها. وبادرت قبائل أمازيغية عديدة بإعلان طاعتها وانقيادها للدولة الإدريسية العائدة إلى أحضان المغرب.

ولما بلغ الخبر إلى المنصور بن أبي عامر ـ حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد ـ سارع في الحال إلى إرسال ابن عمه الوزير عمر ابن عبد الله بن أبي عامر؛ على رأس جيش ضخم؛ بغرض محاربة الحسن بن قنون. ولم يقف الحاجب المنصور عند هذا الحد؛ بل أرسل أيضا ولده عبد الملك في جيش كثيف أيضا؛ بهدف دعم المجهود الحربي، وتعزيز صفوف الوزير عمر. ولما تكاثرت الجيوش على الحسن بن قنون؛ وضاقت به السبل؛ طلب من الوزير عمر الأمان؛ على أن يذهب إلى الأندلس؛ ولما أعلم المنصور بذلك؛ تظاهر بالمصادقة على الأمان الذي أعطاه الوزير عمر؛ وطلب منه الإسراع بإرسال الحسن إلى قرطبة. وفي طريقه إليها بعث من اغتاله؛ في جمادى الأولى من سنة 375هـ(985م). وبذلك طويت صفحة الدولة الإدريسية المستقلة نهائيا ببلاد المغرب؛ على أنها ظهرت في ثوب جديد ببلاد الأندلس؛ بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي حال مقابلة الدولة الإدريسية بالدولة الفاطمية؛ سيتجلى ضعف الدولة الإدريسية، وقصورها، وانكماش نفوذها. ويرجع ذلك إلى عجزها عن تحقيق بعض الشروط؛ التي تمكنت الدولة الفاطمية من تحقيقها. أهمها: قوة العصبية، وكثرة الأتباع، وفعالية الدعوة الدينية. فعصبية الأدارسة كانت ضعيفة أمام عصبية الفاطميين. وأتباع الأدارسة أيضا قليلون. كما أنهم يفتقرون إلى دعاة أكفاء، وتعاليم مذهبية تشكل قاعدة فكرية، ذات شحنات نفسية؛ تنمي الحماس وتشحذ الهمم؛ في سبيل تحقيق أهداف الدولة. فالدولة تحتاج ـ لتعزيز قوتها ـ إلى قدرة نافذة، وتحكم دقيق في سير سياسة الدعوة والدعاة. فبفضل ذلك توفر الدولة الأنصار الأوفياء، وتحقق التزامهم المستميت بأهدافها، وتفانيهم في خدمتها وحماية مؤسساتها. وهذه العوامل كلها توفرت للفاطميين؛ وافتقر إليها الأدارسة؛ وبذلك عظمت دولة الأولين؛ بل امتد نفوذها حتى شمل الأدارسة أنفسهم.

۞۞۞

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

أما إنجازات الدولة الإدريسية: العمرانية منها والثقافية؛ فيبدو أنها كانت بالمغرب ـ هي الأخرى ـ قاصرة ومحدودة أمام إنجازات الدولة الفاطمية. إذ أن أبرز أعمال الأدارسة تتجلى في مدينة فاس؛ تلك

المدينة التي أضحت ـ في عهدهم ـ مركزا هاما؛ يستقطب نشاطات عديدة منها: ما هو عمراني، وما هو ثقافي؛ بالإضافة إلى الدور الاقتصادي الهام؛ الذي أضحت تتميز به مدينة فاس في تلك الربوع.[1] وقد تضمنت الكتب التالية: ـ المغرب للبكري، ونزهة المشتاق للإدريسي، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، ودولة الأدارسة لإسماعيل العربي، ـ معلومات لا بأس بها؛ تخص الإنجازات العمرانية ـ الدينية منها والثقافية ـ التي تمت في عهد الأدارسة بفاس. ويظهر أن تحولا كبيرا حدث في المظهر الحضاري والثقافي لهذه الدولة؛ بدءا بتوافد عدد من المهاجرين العرب؛ ذوي الثقافة الرفيعة، والصناعة المحكمة، والإبداع

---

[1] يقول ابن خلدون واصفا عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس في فاس: ((وعظمت دولته، وحسنت آثار أيامه، واستجدت فاس في العمران، وبنيت بها الحمامات، والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية. واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البنين؛ بنت محمد الفهري ـــ وقال ابن أبي زرع اسمها فاطمة، وأنها من هوارة ـــ وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير؛ فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين؛ أصغر ما كان سنة خمس وأربعين [ومائتين]؛ في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبطت بصحنها بئرا شرابا للناس؛ فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها؛ ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس؛ لضيق محلته، وجوار بيته)). العبر، مج: 4، ص: 29. ومما قاله أيضا ابن أبي زرع عن فاس: ((وهي قاعدة بلاد المغرب، وقطرها ومركزها، وقطبها؛ وهي ملك الأدارسة الحسنيين؛ الذين اختطوها... وبها منازل مونقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة)).((وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة؛ وأكثرهم ينتحل الحراث والفلاحة؛ وأهل عدوة القرويين أهل رفاهة، ونخوة في البناء، واللباس، والفرش والمطعم، والمشرب؛ وأكثرهم صناع وتجار)).((فأقامت مدينتيْ فاس [عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين] على ما بناه [أي إدريس] طول مدته، وأيام ولده من بعده؛ إلى أيام زناتة؛ فكثرت العمارات بها، وبنيت الأرباض عليها، واتصل البناء حولها من كل جهة؛ فبنيت بها الفناديق، والحمامات، والأرحا، والمساجد والأسواق؛ من باب إفريقية إلى عين إيصيلن)). الأنيس المطرب، ص ص: 15 ـــ 16. 23. 25.

والابتكار غير المسبوقين في تلك البلاد؛ قدم أولئك العلماء والمثقفون والفقهاء من القيروان، ومن قرطبة بعد حادثة الربض فيها. حيث تمركز القيروانيون في الموضع الذي عرف بعدوة القرويين؛ بينما سكن القرطبيون بعدوة الأندلسيين.

ونتيجة لهذا التقسيم السكاني أخذت تظهر عليهم بعض الفروق الثقافية؛ التي ميزت كل فئة بمميزات خاصة اشتهروا بها. ويمكن اعتبار أهم إنجازين عمرانيين شيدا ـ آنئذ ـ بالعدوتين؛ هما المسجدان الذين بنتهما الأختان الوافدتان من القيروان: فاطمة المعروفة بأم البنين، وأختها مريم: بنتي محمد الفهري؛ إذ بَنَتْ فاطمة جامع القيروانيين في سنة 245هـ(859م)؛ أيِ في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس. وبَنَتْ ـ أيضا ـ أختها مريم جامع الأندلس. وكان بالعدوتين جامعين بناهما ـ قبل ذلك العهد ـ إدريس بن إدريس؛ وهما: جامع الشرفاء بعدوة القرويين، والثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلسيين. ومع مرور الوقت قدر لمسجد القرويين ـ الذي بنته فاطمة الفهرية ـ أن يكون أهم معلم ثقافي بالمغرب الأقصى؛ إذ تحول ـ مع الأيام ـ إلى جامعة كبرى، ومركز إشعاع ثقافي وديني في منتهى الأهمية. حيث تخرج منه عدد كبير جدا من الفقهاء والأدباء؛ الذين تركوا بصماتهم في ثقافة المغرب عبر العصور.

وما يمكن الاستشهاد به من نصوص أدبية؛ ترجع إلى الفترة الزمنية التي أظلت الدولة

الإدريسية؛ ليس بالشيء الكثير؛ من حيث الكيف والكم. من ذلك ـ مثلا ـ ما ورد في بعض المصادر من نصوص شعرية ونثرية نسبت إلى الملوك الأدارسة؛ وإلى الأدباء المقيمين أو الوافدين إلى بلاط الدولة الإدريسية. فهذا ـ على سبيل المثال ـ نص قصير جدا من خطبة قالها إدريس الأول عندما بويع بالإمامة؛ قال فيها: **((بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، لا تمدّن الأعناق إلى غيرنا؛ فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا)).**[1] أما إدريس بن إدريس؛ فيختلف حاله بعض الشيء؛ إذ وصلت إلينا بعض النصوص المنسوبة إليه؛ فإن صح ذلك؛ فذاك شاهد على مكانته الشخصية في ميدان الأدب؛ وإن لم تصح نسبتها إليه فهي بدون شك تعطي صورة لما كان عليه بلاط الدولة الإدريسية في هذا المجال. ومن خلال تلك النصوص يمكن تحديد فكرة ـ ولو متواضعة ـ على المستوى الأدبي لهذا الملك من جهة، والمستوى الذي كان عليه الأدباء في تلك الدولة أو القادمين إليها من جهات أخرى. ومن الشعر المنسوب إلى إدريس الثاني هذه المقاطع:[2]

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 24.

[2] قد يشك بعضهم في صحة إسناد هذه النصوص إلى إدريس؛ غير أن المهم هنا هو تقديم عينة من النصوص الأدبية التي قيلت في ذلك الوقت؛ ولا يهم ـ في هذه الحال ـ إن كان قائلها هو إدريس نفسه، أو قيلت نيابة عنه؛ من طرف أدباء كانوا في بلاط دولته.

لَوْ مَالَ صَبْرِي بِصَبْرِ النَّاسِ كُلِّهِمُ
لَضَلَّ فِي رَوْعَتِي أَوْ ضَلَّ فِي جَزَعِي

وَمَا أُرِيعُ إِلَى يَأْسٍ لِيُسْلِيَنِي
ألا [..........] يَأْس إِلَى طَمَعِ

وَكَيْفَ يَصْبِرُ مَطْوِيٌّ هَضَائِمُهُ
عَلَى وَسْوَاسِ هَمٍّ غَيْرِ مُنْقَطِعِ

إِذَا الهُمُومُ تَوَافَتْ بَعْدَ هَجْعَتِهِ
كَرَّتْ عَلَيْهِ بِكَأْسٍ مُرَّةِ الجُرَعِ

بَانَ الأَحِبَّةُ وَاسْتَبْدَلْتُ بُعْدَهُمُ
هَمّاً مُقِيماً وَشَمْلاً غَيْرَ مُجْتَمِعِ

كَأَنَّنِي حِينَ يُجْرِي الهَمُّ ذِكْرَهُمُ
عَلَى ضَمِيرِي مَخْبُولٌ مِنَ الفَزَعِ

تَأْوِي هُمُومِي إِذْ حَرَّكْتُ ذِكْرَهُمُ
إِلَى جَوَانِحِ جِسْمٍ دَائِمِ الوَلَعِ

كما بعث بأبيات ـ نسبتها المصادر إليه ـ محذرا شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد من مغبة انسياقه في المؤامرة التي يحوك خيوطها إبراهيم بن الأغلب؛ فقال:

أَبَهْلُولُ قَدْ شَمَّمْتَ نَفْسَكَ خُطَّةً
تَبَدَّلْتَ مِنْهَا ضَلَّةً بِرَشَادِ

أَضَلَّكَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بُعْدِ دَارِهِ
فَأَصْبَحْتَ مُنْقَاداً بِغَيْرِ قِيَادِ

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِمَكْرِ ابْنِ أَغْلَبٍ
وَقِدْماً رَمَى بِالكَيْدِ كُلَّ بِلَادِ

وَمِنْ دُونِ مَا مَنَّتكَ نفسُكَ خَالِياً
وَمَنَّاكَ إبرَاهِيمُ شَوْكَ قَتَادِ

وثمة أبيات أخرى نسبت إليه أيضا؛ وهي موجهة إلى ابن الأغلب؛ يقول فيها:

أَذَكِّرُ إبْرَاهِيمَ حَقَّ مُحَمَّدٍ
وَعِتْرَتِهِ وَالحَقّ خَيْرَ مَقُولِ
وَأَدْعُوهُ لِلأَمْرِ الذِي فِيهِ رُشْدُهُ
وَمَا هُوَ لَوْلاَ رَأيُهُ بِجَهُولِ
فَإنْ آثَرَ الدُّنْيَا فَإنَّ أَمَامَهُ
زَلازِلُ يَوْمٍ لِلْعِقَابِ طَوِيلِ

ومما نسب إليه من نثر؛ هذه الخطبة التي ألقاها يوم بيعته في سنة 188هـ (803هـ)؛ وجاء فيها: **((الحمد الله، أحمده وأستغفره، وأستعين به، وأتوكل عليه، وأعوذ به من شرّ نفسي، ومن شر كل ذي شر، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعيا إلى الله بإذنه، وسراجا منيرا، صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً. أيها الناس: إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق**

إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا)).[1]

وورد في المصادر أيضا قصيدة شعرية نسبت إلى القاسم بن إدريس صاحب سبتة وطنجة؛ بعث بها إلى أخيه محمد يعتذر فيها عن تنفيذ أمر وجه إليه من طرفه؛ يطلب فيه تأديب أخيهما عيسى صاحب شالة وتامسنا. وفي هذه القصيدة يقول القاسم:

سَأتْرُكُ لِلرَّاغِبِ الغَرْبَ نَهْباً
وَإنْ كُنتُ فِي الغَرْبِ قَيلاً وَنَدْبا

وَأسْمُو إلَى الشَّرقِ فِي هِمَّةٍ
يَعِزُّ بِهَا رُتَباً مَنْ أحَبَّا

وَأتْرُكُ عِيسَى عَلَى رَأيِهِ
يُعَالِجُ فِي الغَرْبِ هَمًّا وكَرْبا

وَلَوْ كَانَ قَلْبِي عَن قَلْبِهِ
لَكُنتُ لَهُ فِي القَرَابَةِ قَلبَا

وَإنْ أحدَثَ الدَّهرُ مِنْ رَيْبِهِ
شِقَاقاً عَلَيْنَا وَأحدَثَ حَرْبَا

فَإنِّي أرَى البُعْدَ سِتْراً لَنَا
يُجَدِّدُ شَوقاً لَدَيْنَا وَحُبا

وَلَمْ نَجْنِ قَطْعاً لأرْحَامِنَا
نُلاقِي بِهِ آخِرَ الدَّهرِ عَتَبَا

وَتَبْقَى العَدَاوَةَ فِي عَقْبِنَا
وَأكرِمْ بِهِ حِينَ نُعْقِبُ عَقْبَا

---

[1] الأدب المغربي، ص ص: 121 ـــ 122. وكما يظهر فقد اقتبس هذه العبارة الأخيرة من خطبة أبيه. راجع ما سبق.

وَأوفــقُ مِــنْ ذَاكَ جَــوْبُ الــفَــلاَةِ
وَقَــطــعِ الــمَــخَارِمِ نَــقْــبــاً فَــنَــقْــبَــا

هــذا عــن ملــوك وأمــراء الدولــة الإدريسيــة؛ أمــا الأدبــاء والشعــراء مــن عامــة النــاس؛ فالمعلومــات عنهــم ـ هي الأخــرى ـ شحيحــة للغايــة؛ ومــع هــذا يمكــن الاستشهــاد ببعــض العينــات المتناثــرة في عــدد مــن المصــادر والمراجــع. وكمثــال عــلى ذلــك يــأتي: أحمــد ابــن القاســم بــن إدريــس وأبــو العيــش عيــسى بــن إبراهيــم بــن القاســم ابــن إدريــس أميــرا الــبَــصْــرة (أو كــرت كمــا تســمى أيضــا) في مقدمــة الذيــن يهتمــون بالأدب والشعــر؛ إذ كانــا يستقبــلان في مجالسهمــا الشعــراء مــن كــل الأقطــار؛ ويقصدهمــا الشعــراء والأدبــاء مــن ربــوع المغــرب والأندلــس كلهــا؛ حيــث كانــوا يتوافــدون إلى مجالسهمــا الثريــة الزاهيــة. ويفهــم مــن بعــض المصــادر أن بكــر بــن حمــاد الزنــاتي التاهــرتي كــان يراســل أحمــد بــن القاســم ـ إن لــم يكــن قــد زاره في بلاطــه ببصــرة ـ ويمدحــه بقصــائــد كثيــرة؛ لــم يصلنــا منهــا إلا هــذه القطعــة الــتي يقــول فيهــا:

إنَّ الــسَّــمَــاحَــةَ وَالــمُــرُوءَةَ وَالــنــدَى
جُــمِــعُــوا لأحْــمَــدَ مِــنْ بَــنِــي الــقَــاسِــمِ
وَإذَا تــفَــاخَــرَتِ الــقَــبَــائِــلُ وَانــتَــمَــتْ
فَــافْــخَــرْ بِــفَــضْــلِ مُــحَــمَّــدٍ وَبِــفَــاطِــمِ
وَبِــجَــعْــفَــرِ الــطَّــيَّــارِ فِي دُرَجِ الــعُــلَــى
وَعَــلِــيٍّ الــعَــضْــبِ الــحُــسَــامِ الــصَّــارِمِ

إنـي لـمشتـاقٌ إليـكَ وَإنـمَـا
يَسـمـوا العـقـابُ إذَا سَمَـا بِقـوَادِمِ
فـابـعـثْ إلـيَّ بـمـركـبٍ أسْـمـو بـهِ
عَـلـي أكـونَ علـيـكَ أولَ قـادِمِ
وَاعْـلـمْ بِـأنـكَ لـنْ تـنـالَ مَـحـبـة
إلاَّ بـبـعـضِ مـلاَبـسٍ وَدَرَاهـمِ

وقال ابن عذاري هنا: ((فبعث إليه ببغلة سنية، وصلة جزلة. وكان له فيه أمداح كثيرة)).[1] ويفهم من البيتين الأخيرين أنه ربما يكون زار بلاط أحمد بن القاسم. ومن بين الشعراء الذين وفدوا على أبي العيش عيسى الشاعر التاهرتي أحمد بن الفتح؛ حيث مدحه بقصيدة استهلها ـ كعادة العرب ـ بالنسيب ووصف جمال نساء البصرة؛ فقال:

قـبَّـحَ الإلـهُ الـلـهْـوَ إلاَّ قـيْـنـةً
بـصْـريّـةً فِـي حـمْـرَةٍ وَبـيـاضِ[2]
الـخـمْـرُ فِـي لـحَـظـاتِـهَـا وَالـوَرْدُ فِـي
وَجَـنـاتِـهَـا، وَالـكـشْـحُ غـيْـرُ مُـفـاضِ
فِي شَكـلِ مَـرْجِي، وَنُـسْـكِ مُـهَـاجِـرِ
وَعـفَـافِ سُـنِـيِّ وَسَـمْـتِ إبَـاضِ
تَـاهـرْتُ أنـتِ خـلِـيَّـةٌ وَبَـريـئـةٌ
عـوَضْـتُ مِـنـكِ بِـبَـصْـرَةَ فَـاعْـتَـاضِ

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 236
[2] جاء هذا البيت في الأدب المغربي هكذا: مَا حَازَ كُلُّ الحُسْنِ إلاَّ قَيْنَةٌ بِصَرِيَّةٌ في حُمْرَةٍ وَبَيَاضِ، ص: 109.

لاَ عُذرَ لِلحَمرَاءِ فِي كَلفِي بِهَا[1]
أوْ تَسْتَفِيضَ بِأبحُرٍ وَحِيَاضِ
مَا عُذرُهَا وَالبَحْرُ عِيسَى رَبُّهَا
مَلِكُ المُلوكِ وَرَايِضُ الرُّوَاضِ

وهذا مقطع قاله شاعر آخر عاش في القرن الرابع الهجري اسمه إبراهيم بن محمد الأصيلي؛ وهو في مدح حيّ من هوارة يعرف ببني زياد؛ كانوا ساكنين حول مدينة أصيلا:

سَقَى غَرْبِيَّ أرْضِ بَنِي زِيَادٍ
سَحَائِبُ مَا يَجِفُّ لَهَا غُرُوبُ
وَلاَ زَالَ النَعِيمُ يَعُمُّ قَوْماً
إزَاؤُهُمْ مِنَ الشرقِ الكَثِيبُ

ومن شعراء ذلك الزمن الشاعر محمد بن إسحاق المعروف بالبجيلي أو النحيلي؛ وهو القائل في عدوة القرويين بفاس:

يَا عدْوَةَ القَرَوِيِينَ التِي كَرِمَتْ
لاَزَالَ جَانِبُكِ المَحْبُورِ مَسْطُورَا
وَلاَ سَرَى اللهُ عَنكِ ثَوْبَ نِعْمَتِهِ
أرْضٌ تَجَنَّبَتِ الآثَامَ وَالزُّورَا

---
[1] الحمراء هنا هي بصرة؛ إتسمى بهذا الاسم أيضا، كما تسمى بصرة الكتاب، وبصرة الذبان. المغرب، ص: 110.

وقد يكون هذا الشاعر هو الذي سمَّاه البكري مرة البجيلي ومرة أخرى النحيلي؛ وقد أورد له أبياتا شعرية مقذعة هجا فيها القاسم جنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس؛ وكان قد أخذ منه جارية له يحبها؛ فقال:

أتَرَى سِلاَحك إذْ كَدَدْتَ قَصِيدَتي
يَنفِيهِ سَيْلٌ قدْ طمَا مِنْ سَفَسَدِ

إلى قوله:

أبَنِي مُحَمَّدَ الزَّنيمِ لأنتمُ
شرٌّ الوَرَى مِمَّنْ يَرُوحُ وَيغتدِ
إنْ كانَ جَنُونُ مِنْ آلِ محَمدٍ
فأنا كفورٌ بِالنبيِّ محَمدِ

أما إبراهيم بن محمد الأصيلي متعرضا لفاس قائلا:

دَخلتُ فاساً ولي شَوقٌ إلَى فاسِ
وَالجُبْنُ يَأخذُ بالعَيْنينِ وَالرَّأسِ
فلَسْتُ أدْخلُ فاساً لوْ حييتُ وَلوْ
أعطِيتُ فاساً بمَا فِيهَا مِنَ النَاسِ

وممن هجا فاسا - في ذلك الزمن أيضا - قاضي تاهرت أحمد ابن فتح بقوله:

أسْلَحْ عَلى كلِّ فاسِيٍّ مَرَرْتَ بِهِ
فِي العُدْوَتَيْنِ مَعاً لاَ تبقِيَنَ أحَدَا
قومٌ غذُّوا اللؤْمَ حَتَّى قالَ قائلِهِمْ
مَنْ لاَ يَكونُ لئيماً لمْ يَعِشْ رَغدَا

ومن الشعراء الذين عاشوا في تلك الفترة أيضا محمد بن السمهري الذي هجا القاسم بن إدريس بن إدريس صاحب طنجة بقوله:

قُلْ للزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنَجَةَ عِشْ بهَا
لاَ يَحْسدَنكَ فِي بِلاَدِكَ حَاسِدُ
مَنتكَ نَفْسُكَ أنْ تكُونَ خَلِيفَةً
هَيْهاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِكَ بَارِدُ
لَمَا رَأيْتكَ لِلِئَامِ مُصَافِياً
أيْقنتُ حَقاً أنْ جَدَّكَ رَاشِدُ

۞۞۞

2)- دولة بني حمود بقرطبة:

تعتبر هذه الدولة بمثابة امتداد وتواصل للدولة الإدريسية في بلاد المغرب. وقيامها في بلاد الأندلس حدث نتيجة لتحول ساحة الصراع بين الأدارسة والأمويين إلى أرض الأندلس؛ بسبب ما حصل من نقل أفراد الأسرة الإدريسية بكاملهم إلى تلك الديار؛ من طرف الخليفة الأموي المستنصر بالله؛ خاصة في سنتي: 365هـ (975م) و375هـ(985م). هذا وينتمي الملوك الأول من الأدارسة - في الأندلس - إلى فرع عمر بن إدريس. وقد كانوا منافسين لبني عمومتهم: أبناء القاسم بن إدريس؛ الذين يعتبرون آخر من تولى ملك الأدارسة في المغرب. ويبدو أن تلك المنافسة كانت سببا في تغاضي الخليفة الأموي المستنصر عن محاولة نفيهم - هم الآخرين - مع الحسن بن قنون إلى مصر.

هذا ولم تشر جل المصادر - بوضوح - إلى مكان إقامة بني حمود في الأندلس؛ حينما بدأت الفتنة. وقد انفرد ابن الخطيب - تقريبا - بالحديث عن ذلك؛ ولكن باقتضاب شديد؛ حيث ذكر أنهم كانوا ((**من جملة أمراء المغاربة المترسمين في ديوان بني أمية بقرطبة**)).[1] دون تحديد الفترة الزمنية؛ هل تم ذلك قبل نفي الحسن بن قنون إلى مصر، أو بعد نفيه؟. وعليه فالسؤال يبقى قائما حول المكان الدائم الذي كانوا يعيشون فيه؛ بعد نفي الأدارسة إلى الأندلس؛ وإخلاء بلاد المغرب منهم. ومن ثمة؛ بعد نفي ابن قنون وأهله إلى مصر. ومن هنا يمكن التساؤل: هل كانوا مستقرين في بلاد غمارة؛ مختفين عن الأنظار بتلك الديار؟ أم كانوا قاطنين ببلاد الأندلس؛

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 128.

في الظل؛ وبعيدا عن الأضواء؟ وبهذا يمكن الاعتماد على ما ذكره ابن حزم بإيجاز؛ حين ذكر أن بني حمود كانوا بتازغدرا من عمل غمارة.[1] كما يشير البكري إلى بعض فروعهم الموزعين في بقاع شتى بالمغرب كـ: بلاد أوربة، وفاس، وكتامة، وبلاد بني عسوجة وبلاد زناتة، وبلاد برغواطة، وتازغدرا بغمارة.[2] ومن جهة أخرى يجيب ابن الخطيب بإيجاز أيضا ـ في سياق آخر ـ على ذلك؛ إذ يرى أن علي بن حمود انتهز موجة الاضطرابات؛ التي حدثت بين أبناء البيت المالك من: الأمويين وأنصارهم المشكلين من: الأمازيغ وأهل قرطبة؛ فقطع البحر؛ قاصدا سبتة؛ حيث تغلب عليها. ولكنه عاد إلى الأندلس عند سماعه باستفحال أمر سليمان بن الحكم؛ مع من كان معه من الأمازيغ؛ وبعد ظهور بوادر تفيد بقرب انتصارهم على أعدائهم.[3] وقد وردت إشارة خاطفة وباهتة في الذخيرة لابن بسام ـ حين ذكر موضوع وصية هشام المؤيد بالعهد من بعده إلى علي بن حمود؛ نكاية في بني عمه من آل الناصر الثائرين عليه ـ قال فيها أن عليا كان يتردد على سبتة؛ بغرض حث طوائف الأمازيغ، وتحريضهم على الجهاد في صف سليمان؛

---

[1] قال ابن حزم: ((وكان بدء أمرهم [أي بني حمود] في شوال سنة 400؛ إذ ولي القاسم ابن حمود سبتة إلى التاريخ المذكور. وكان هذا الفخذ من أفخاذهم خاملا؛ وكانوا صاروا بتازغدرة من عمل غمارة)). الجمهرة، ص: 51.

[2] المغرب، ص ص: 131 ـ 133.

[3] وفي هذا يقول ابن الخطيب: ((ولما التفت البرابرة بسليمان؛ استيجاشا من العصائب الأندلسية، وتشميرا لمقارعتها؛ وأجفل البرابرة إلى وادي يارو منهزمين؛ لحق [أي علي ابن حمود] بالعدوة الغربية؛ وتغلب على سبتة محتالا. ثم عاد إلى الأندلس؛ لما استوسق الأمر لسليمان. واختص من كُوَر إيالته التي اقتسمها البرابر واقتطعوها بسبتة، وأخوه القاسم بالجزيرة)). أعمال الأعلام، ق: 2؛ ص: 128.

وضد المهدي وأنصاره من أهل قرطبة.[1] وهنا يتبادر إلى الذهن احتمال عودة السبب في انتقال علي بن حمود إلى الأندلس من جديد – بعد أن تغلب على سبتة؛ خلال موجة الاضطرابات – إلى الخطاب الذي ورد إليه من هشام المؤيد؛ كما جاء في الذخيرة ومصادر أخرى. ذلك الخطاب الذي يسند فيه هشام ولاية العهد إليه. ومن هنا يبدو أنه لم يعبر المضيق نحو الأندلس لمجرد التضامن مع سليمان بن الحكم، أو بدافع الغيرة عليه بحكم العصبية، أو حبا في الوقوف معه ضد أعدائه من أهل قرطبة. بل حدث ذلك بدافع المصلحة؛ التي أملت عليه العمل بجد في سبيل تحقيقها.

على كل حال؛ فانزواء بني حمود هذا، واختفائهم عن الأضواء – سواء في بلاد الأندلس أو في المغرب – مكنهم من اصطياد الفرصة المواتية للانقضاض على عرش الخلافة بالأندلس. وقد تحقق لهم ذلك؛ حينما ترنحت دولة الأمويين؛ ومالت نحو الانهيار؛ بعد سقوط مؤسساتها الفاعلة، وتفكك قواعدها الأساسية. وجملة القول هي أن جل المصادر التاريخية بدأت – لأول مرة – تتحدث عن علي بن حمود وأخيه القاسم في بلاد الأندلس؛ اعتبارا من سنة 403هـ (1012م). حين تناقلت – ما ذكره ابن حيان – عنهما وعن الموضع الذي عسكرا فيه مع جيشهما المشكل

---

[1] قال ابن بسام: ((وكان هشام – عندما رآه من اضطراب أمره؛ وتيقنه من انصرام دولته؛ بما مني به قديما وحديثا؛ من تمالؤ بني عمه آل الناصر عليه؛ وقيامهم واحدا بعد واحد في خلعه – صيّر إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله بذلك إلى سبتة؛ أيام تردده عليها؛ بمعنى الاستمداد، وجمعه طوائف البرابرة للجهاد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1. ص ص: 37 – 38.

من المغاربة؛ وكان ذلك بالقرب من الزهراء وقرطبة؛ وبالتحديد في شَقُنْدة. حيث كانا ضمن جيش سليمان ابن الحكم.[1] والمهم هنا أن علي بن حمود يكون قد ولد في بلاد المغرب؛ حسبما توصل إليه إسماعيل العربي؛ بعد عملية حسابية قصيرة قام بها.[2] ثم نُقِلَ ــ مع من نُقِل من بني عمه الأدارسة ــ إلى بلاد الأندلس؛ حيث ظل مهمشاً وبعيداً عن الأنظار حتى حانت الفرصة المناسبة؛ حين ظهر الانقسام الأكبر في صفوف بني أمية وأنصارهم؛ فعاد إلى مركز قوته ونفوذه؛ أين جمع شمل عصبيته الأمازيغية؛ بحجة نصرة أحد الفريقين المتخاصمين من بني أمية؛ ولما تمكن واشتد ساعده انقض من هناك على فريسته، وتغلب على أعدائه، حيث تربع على عرش الخلافة في قرطبة باسم العلويين من بني هاشم.

ولابد ــ هنا ــ من الإشارة؛ إلى أن ابن خلدون كتب فقرة غامضة؛ تبعث على الاعتقاد بأن بني حمود كانوا مقيمين في تازغدرا ببلاد المغرب؛ في حماية قبيلة غمارة الأمازيغية.[3] وربما يكون ابن خلدون قد اقتبس هذا الخبر عن ابن حزم أو البكري؛

---

[1] إذ قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وانتقل إلى مدينة الزهراء [أي سليمان بن الحكم] بجملة برابره وجيشه؛ فضاقت الزهراء عنهم؛ فنزلوا بما اتصل بها. ونزل ابنا حمود: علي والقاسم قائدا فرقة المغاربة بشَقُنْدة)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 37. نقل هذا النص أيضا ــ كما هو ــ ابن عذاري، ج: 3، ص: 113. كما أشار إليه الحميدي في جذوة المقتبس، ص ص: 19 ــ 20. وعبد الواحد المراكشي في المعجب، ص: 43.

[2] دولة الأدارسة، ص: 226.

[3] وفي ذلك يقول: ((وبقي الفخر منهم بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ وصاروا في جملة المستعين؛ مع أمراء العدوة، من البربر. فعقد لهما [أي لعلي والقاسم] المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعلي منهما على طنجة، وللقاسم ــ وكان الأسن ــ على الجزيرة الخضراء)). العبر، مج: 4، ص: 330.

إذ قالا القول نفسه؛ كما سبقت الإشارة إليه. ولما اشتدت الأزمة في الأندلس؛ عَبَرَ أمير بني حمود علي بن حمود إلى الضفة الأخرى مع جملة من أنصاره الأمازيغ؛ حيث انضم إلى صفوف سليمان بن الحكم؛ مسايرة منه للحلف الذي عقده ـ هذا الأخير ـ مع جل القبائل الأمازيغية هناك؛ خاصة وأن علي بن حمود وأعضاء أسرته كانوا يرون في أنفسهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأمازيغي. وبالفعل فقد عامله سليمان بن الحكم كما عامل أمراء القبائل الأمازيغية. حيث أقطعه ـ بعد أن تحقق له النصر ـ مدينة سبتة؛ كما أقطع أخاه القاسم الجزيرة الخضراء. ويرى بعضهم أن سليمان ارتكب خطأ كبيرا بتقديم تلك المقاطعتين لعلي وأخيه القاسم.[1] والغريب أن بعض الأمازيغ أنفسهم استنكروا ما قام به سليمان؛ على الرغم من الاندماج الحاصل بين بني حمود والأمازيغ.[2] وربما يكون ما

---

[1] فهذا ابن بسام يقول: ((ومن الاتفاق الغريب على سليمان أنه لما استوسق له الأمر؛ بعد فراغه من خبر هشام المؤيد؛ أنفذ عزمه ـ من بين قواد جيوشه ـ في اختيار علي ابن حمود المذكور؛ فقدمه على مدينة سبتة؛ رأيا ذَهَلَ عنه؛ ونبذها إلى ضد له مكاشح شريك في الدعوى والقرابة. فتلقفها علي تلقف الأكياس المقبلين؛ ودَبَّ لمغبونه سليمان من قِبَلِها الضَّراء دبيب الحَنق الموتور؛ حتى هجم عليه وسلبه ملكه، وحول دولته، ومزق عِتْرَته. وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا من بعده؛ وإذا أراد الله شيئا أمضاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 38.

[2] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حمادة: ((وكانوا ستة قبائل. فأعطى صنهاجة إلبيرة؛ فبقيت بيد حبوس وذريته نحو المائة سنة. وأعطى مغراوة الجوف. وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة. [لم يكن منذر بن يحيى بربريا؛ بل كان من قبيلة تجيب العربية] وأعطى بني برزال وبني يفرن جيان وذواتها. وأعطى بني دمر وأزداجة شذونة ومورور وغير ذلك من الحصون. وذكِر أنه ولى القاسم ابن حمود طنجة وآصيلا، أما علي بن حمود فولاه سبتة كما ذكرناه. [يرى المراكشي وابن الخطيب وابن خلدون أن ما أعطاه سليمان للقاسم هي الجزيرة الخضراء] فلما بلغ عبد الله البرزالي تقديم ابني حمود؛ دخل على سليمان؛ فقال: "يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب." قال: "نعم". قال له: "أليس العلويون طالبيين؟" قال: "نعم". قال: "تأتي إلى خشاش؛ تردهم ثعابين؟"=

أبداه أمير بني برزال من اعتراض؛ لا يعدو أنه أتى من باب الغيرة والحسد لعلي ابن حمود وأخيه؛ أو ربما يكون ذلك بتأثير من معتقده الخارجي.

المهم أن ذلك حدث بموافقة سليمان وبقرار منه. ولعله لم يكن في يده القدرة على الرفض أو المعارضة؛ نظرا لكون علي قد سيطر بالفعل ـ من قبل ـ على سبتة؛ كما جاء في نصي: ابن بسام وابن الخطيب. خاصة وأن ابن حزم قال أن سبتة كانت ولاية القاسم بن حمود منذ شوال سنة 400هـ(1009م).[1] وبهذا فما صدر ـ بعدئذ ـ عن سليمان لم يكن سوى مصادقة وموافقة على أمر واقع بالفعل. وهكذا فمن ذلك التاريخ برز الدور الخطير والفعال للأدارسة في بلاد الأندلس؛ ممثلين بعلي بن حمود بن ميمون بن حمود ـ وحمود اسمه الحقيقي أحمد ـ بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله.[2] وكما سبق ذكره فهذا الأمير يعتبر من بقايا الأدارسة؛ الذين أجبرتهم الظروف على العيش في ظل الدولة الأموية؛ بعد أن تغلبت على ملكهم ببلاد المغرب.

وقد برز فيما بعد ببلاد الأندلس والضفة المقابلة في العدوة المغربية ـ من هذه الأسرة؛ إلى جانب علي بن حمود ـ أخوه القاسم وعدد من ذرية علي بن حمود هذا؛ منهم: يحيى بن علي، وإدريس بن علي، وحسن بن يحيى، وإدريس بن يحيى، ومحمد بن إدريس بن يحيى، ويحيى (**حيون**) بن إدريس، ومحمد

=قال: "نفذ الأمر في ذلك")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ـ 114. أنظر في هذا أيضا المعجب، ص: 43. وأعمال الأعلام لابن الخطيب: ق: 2، ص: 119.

[1] الجمهرة، ص: 51.

[2] الجهرة، ص: 50.

ابن إدريس بن علي، وحسن بن إدريس بن علي، وعلي بن إدريس بن علي. أما ذرية القاسم فمنهم: محمد بن القاسم، وحسن بن القاسم، والقاسم بن محمد بن القاسم. وقد كان بنو إدريس هؤلاء مندمجين ضمن كتلة القبائل الأمازيغية؛ على الرغم من أصولهم الأولى التي تلتحم ببني هاشم. ذلك لأن الأدارسة كلهم قد انصهروا ـ منذ قيام دولتهم الأولى ـ في المجتمع الأمازيغي؛ فأضحوا جزءا لا يتجزأ منهم. ولهذا فالمصادر التاريخية كلها؛ تتكلم عنهم دوما في سياق حديثها عن الأمازيغ؛ كما ينسب كل تصرف يصدر عنهم آليا إلى القبائل الأمازيغية.[1]

وتشير بعض المصادر ـ أيضا ـ إلى أن لهجتهم كانت أمازيغية؛ ومع ذلك فهم لا يجهلون العربية بالتمام. وقد أورد ابن الخطيب مثالا على لهجة علي بن حمود؛ تلك اللهجة المتأثرة بالعجمة كما وصفها؛ حين قال: ((**وقبض** [أي علي بن حمود] **على سليمان وأخيه وأبيه الحكم؛ فقتلهم بيده؛ وقال بلسانه الزناتي: "لا يقتل الزلطان إلا الزلطان"**)). ويقصد ابن الخطيب من هذا أن علي بن حمود لم يقل السلطان بالسين؛ إذ

[1] فابن خلدون يفتتح الكلام عنهم بقوله: ((كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة؛ واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس؛ فكانت للبرابرة إليهم صاغية؛ بسبب ذلك، وخلطة بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر. فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعليّ منهما على طنجة وعملها، وللقاسم ـ كان الأسنّ ـ على الجزيرة الخضراء. وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس؛ متوارث من دولتهم بالعدوة)). العبر، مج: 4، ص: 330. أما ابن بسام فيستشهد بمقالة ابن قتيبة؛ حين قال: ((ثم رفضتهم آفاقها [يقصد رفضت آفاق بلاد إفريقية بني أبي طالب] إلى طرف بلاد البربر؛ فنكحوا إليهم، وتبربروا معهم)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 96.

نطق السين زايا.[1] غير أن الذي قاله ابن الخطيب لا يمنع كون علي وأخيه القاسم ومن تبعهما من ذرية بني حمود كانوا يعرفون العربية ويتذوقون آدابها؛ خاصة وأن مصادر كثيرة أتت بشواهد تفيد بذلك.[2]

❁ ❁ ❁

ـ حكومة الناصر لدين الله علي بن حمود بقرطبة:

وخلاصة القول فقد ظل علي بن حمود يترقب الفرصة المواتية للانقضاض على كرسي الخلافة بقرطبة. إذ كان يتابع ـ من قرب وبعناية ـ كل ما يجري في ديار الأندلس. حيث يراقب الأحداث التي تمت بعد نشوب الاضطرابات ـ في بدايتها ـ داخل البيت الأموي، وبعد زوال حكم العامريين؛ نتيجة للانقسامات التي حدثت بين أنصار الدولة الأموية؛ عندما انحازت كل فئة من المصطنعين، والقبائل إلى أمير من الأمويين. فانضم جمع كبير من الأمازيغ ـ وبنو حمود معهم طبعا ـ إلى سليمان ابن الحكم بن سليمان الملقب بالمستعين بالله؛ الذي قام ضد خصمه محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي. وذلك لأن الأمازيغ كرهوا ابن عبد الجبار **(المهدي)**؛ بسبب ما أعلنه من عداء لهم؛ وما أبداه من تعصب شديد

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

[2] فمما قاله المقري ـ على سبيل المثال ـ في علي بن حمود: ((وكان الناصر علي بن حمود ـ على عجمته، وبعده من الفضائل ـ يصغي الى الأمداح، ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي. ومن شعرائه المختصين به ابن الحنّاط القرطبي [وهو محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني القرطبي الأعمى]... وعبادة بن ماء السماء؛ وكان معروفا بالتشيع... ومدحه ابن دراج القسطلي)). نفح الطيب، ج: 1، ص ص: 483 ـ 484.

ضدهم ـ في بداية عهده ـ إذ كان يَكِنُّ لهم كراهية ملحوظة؛ الأمر الذي أجج حقدهم عليه، وعلى أتباعه من العامة والدهماء؛ الذين ارتكبوا مجازر رهيبة في حق الأمازيغ بقرطبة. لذا كان رد الفعل عندهم ـ على اختلاف قبائلهم ـ هو العمل باستماتة على نصرة خصمه اللدود ومنافسه العنيد سليمان بن الحكم **(المستعين بالله).**

وسبب كراهية المهدي للأمازيغ ـ طبعا ـ عائدة إلى ضغوط نفسية؛ تحركها في داخله العصبية الشديدة لأقربائه وأهله من بني أمية؛ أولئك الأقرباء من الأسرة المالكة الذين سلبهم الأمازيغ ـ بدعمهم للمنصور بن أبي عامر وأبنائه ـ القدرة في مقاومة المغتصبين والمستبدين في بلاط هشام المؤيد.[1] وهذا ما فسره المقري بقوله: ((**وأذل** [أي المنصور ابن أبي عامر] **قبائل الأندلس بإجازة البرابر**)).[2] أي بنقلهم من المغرب إلى الأندلس؛ ثم يضيف في موضع آخر: ((**وكانت الأموية تعتد عليهم** [أي على الأمازيغ] **ما كان من مظاهرتهم العامريين؛ وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم؛ فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون. ولولا مالهم من العصبية لأستأصلهم الناس؛ ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة** [أي قرطبة] **بكراهيتهم. وأمر المهدي**

---

[1] وفي ذلك يقول ابن الخطيب: ((وأعلن [أي المهدي] ببغض البرابرة وتنقصهم؛ جهلا بمحلهم من البأس والعصبية؛... وتعصبت العامة للمهدي... وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط؛ خارج قرطبة؛ عشية يوم الجمعة؛ وبعد محاورة بينهم وبين العامة؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر. وراسلهم محمد بن عبد الجبار؛ فلم يلتفتوا إليه)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 112 ـ 113. وثمة شواهد أخرى في المصدر نفسه، ص ص: 66. 70. 87. 102. 106. 112ـ 119. وأنظر في هذا أيضا البيان المغرب، ج: 2، ص ص: 263. 278 ـ 279. 281. 287. 293 ـ 294. ج: 3، ص ص: 30. 51 ـ 91. والعبر، مج: 4، ص ص: 318 ـ 326. ونفح الطيب، ج:1، ص ص:397 ـ 398. 405. 417. 427 ـ 430.

[2] نفح الطيب، ج: 1، ص: 405.

أن لا يركبوا ولا يتسلحوا؛ وَرُدَّ بعض رؤوسهم في بعض الأيام من باب القصر؛ فانتهبت العامة دورهم؛ وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم؛ فاعتذر إليهم، وقتل من اتهم من العامة في أمرهم؛ وهو مع ذلك مظهر لبغضهم؛ مجاهر بسوء الثناء عليهم. وبلغهم أنه يريد الفتك بهم...)).[1]

ويقتضي الحال هنا وقفة قصيرة؛ لمحاولة فهم ما جرى بقرطبة في تلك الأثناء. فمن الواضح أن الوضع تطور خلال درجات ومراحل متتابعة. ففي البدء اقتصر الصراع على أهل البلاط بقرطبة؛ وبالتحديد داخل الأسرة المالكة؛ أو بالأحرى بين العصبية الأموية العربية وبعض الموالي والمصطنعين؛ ممن أراد الخليفة إعدادهم وتجهيزهم ضد من تسول له نفسه ــ من عصبيته ــ أن يخرج عليه، أو يتطلع لمشاركته في مجد الملك والسلطان.[2] وفي المرحلة الموالية بدأ نجم المنصور بن أبي عامر يبرز ويسطع على الأندلس كلها. ولما أراد هذا الوزير الحاجب الحازم ــ الذي كان وصيا على العرش ــ أن يستبد بالأمر؛ لم يكتف باصطناع الموالي والمصطنعين ــ كالفتيان العامريين ــ بل مد نظره بعيدا؛ إلى الطرف الآخر من العدوة؛ حيث الأرض التي تفيض بالقبائل، وأبطال الحرب والنزال؛ تلك الأرض المغربية الخصبة بالرجال البواسل، والزاخرة بالقبائل التي لا تحصى؛ تلك القبائل التي ما زالت تعيش في محيط بدوي متقشف؛ محيط بعيد عن

---

[1] نفسه، ص: 427.

[2] هذا يتوافق مع ما ذكره ابن خلدون ضمن: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ــ 678.

ليونة الحضارة وطراوتها، والنائية عن تياراتها المفسدة لشروط الصلابة والبسالة.[1]

وقد يكون من الحوافز التي جعلت المنصور يتحمس إلى جلب فرسان الأمازيغ إلى الأندلس؛ تلك النتائج المشجعة التي انبثقت عنها تجربة سيده المستنصر؛ حين استخدم بني برزال. فاتضح له أنهم كانوا أهلا للمهمة التي أنيطت بهم؛ حيث أضحوا للخليفة الأموي حراسا أوفياء، وللبلاد فرسانا مغاوير. ونتيجة لذلك فقد عمل المنصور على جلب عدد كبير من القبائل الأمازيغية وفرسانهم الأبطال إلى بلاد الأندلس؛ بحجة الجهاد، والدفاع عن أمن الدولة الإسلامية من تحرشات النصارى. فأجزل لهم العطاء، وخصهم بكل غال وثمين من أموال وإقطاع. وبذلك أصبحت في يده قوة لا تقهر في الأندلس؛ مكنته من الاستبداد والتصرف في شئون الدولة كما يحلو له.[2] ثم أتت الفترة الموالية؛ التي شهدت الصراع الخطير والانقسام المذهل الذي فتت الدولة إلى طوائف وإمارات صغيرة هنا وهناك؛ حيث هيمنت خلالها فئات عديدة ومتفرقة في المجتمع: قبائل عربية، وقبائل أمازيغية، وموالي من أجناس شتى، ومماليك صقالبة وسودان..ألخ. وضمن هذا البحر المتماوج من العصبيات المختلفة ـ قبلية وفئوية وعرقية ومذهبية ـ كان بعض الفئات المنعزل، والبقايا الضائعة من بني

---

[1] أنظر إلى ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـ 589. و((وفصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنعة منهم)). نفسه، ص ص: 589 ـ 591.

[2] أنظر أيضا: ((فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 680 ـ 681. و((فصل في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك)). نفسه، ص ص: 682 ـ 683.

أمية تظهر فوق السطح أحيانا، وتختفي تحت الأمواج أحيانا أخرى. وفي هذه الأثناء ظهرت العصبية الهاشمية؛ ممثلة بالأدارسة من بني أبي طالب. غير أن عصبيتهم الفاعلة والموجودة في الميدان كانت هي العصبية الأمازيغية؛ نظرا لما حصل من اندماج قديم بين الأدارسة والأمازيغ. ومن هنا يتضح التداخل بين العصبيتين؛ كما يتضح سبب الجفاء الذي لاقاه الأدارسة من قبل الأندلسيين؛ ذلك الجفاء العائد ـ في الحقيقة ـ إلى عدم التمييز والفصل بينهم وبين الأمازيغ.

ونظرا لما واجه الأمازيغ من شدة في العداء أبداه سكان المدن؛ وخاصة أهل قرطبة وإشبيلية؛ فما كان منهم سوى الحرص على حماية أنفسهم، والسهر على أمنهم، والذود عن مصالحهم. ومن هنا عملوا على تقديم ولائهم للأمير الذي يفيدهم ويحقق مآربهم. فالتفوا في البداية حول الأمير هشام بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر؛ ولما قتل انضموا إلى ابن أخيه سليمان ابن الحكم بن سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. ولما تحقق لسليمان المذكور النصر، وتربع على عرش الخلافة بقرطبة؛ لم يجد متسعا من الوقت لكي يؤجل تسديد الدين الذي عليه للأمازيغ ومن ناصره في حرب عدوه. لذا فقد سارع إلى مكافأتهم جميعا؛ حيث أسند إلى بعضهم مناصب سامية في الدولة؛ كما خص أمراءهم بالقيادات والمقاطعات الهامة. فكان حظ بني حمود ـ كما سبق ذكره ـ مثل حظ بقية الأمازيغ؛ لصلتهم بهم وانتمائهم إليهم. وهكذا فقد أقطع سبتة لعلي بن حمود، والجزيرة الخضراء لأخيه القاسم.

وبذلك كان هذا الإقطاع بداية الخطوات الممهدة لدروب الملك؛ إذ وصل بنو حمود بذلك إلى المنفذ؛ الذي ساعدهم على التسرب نحو حكم قرطبة نفسها. فبهاتين الولايتن الهامتين الممثلتين في سبتة والجزيرة الخضراء؛ يمكن لهم أن يحشدوا الحشود، ويسهل عليهم الحصول على الأموال اللازمة والعتاد الضروري للقتال. هذا بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يرون في أنفسهم أحق الناس بالملك؛ حيث استمدوا شرعيتهم أولا: من كتاب العهد الذي ـ كما قيل ـ خص به الخليفة الشرعي هشام المؤيد الأمير علي بن حمود؛[1] وثانيا: من سلالتهم الإدريسية العلوية القريشية؛ التي تضعهم في مقدمة المؤهلين للخلافة. وثالثا: من قوة العصبية التي تساندهم وتقف خلفهم؛ وهي القبائل الأمازيغية.[2] وهذا هو الذي جعلهم يحسون بإمكان قيام دولتهم بيسر وسهولة؛ خاصة بعد أن ضمن علي بن حمود حقه الشرعي فيها؛ من خلال العهد الذي منحه إياه هشام المؤيد.[3] وعليه فما أن تحقق لعلي بن حمود أمر

---

[1] أنظر ما ذكره ابن خلدون فيما يخص ولاية العهد، ومشروعيتها ضمن: "فصل في ولاية العهد". المقدمة، ج: 2، ص ص: 721 ـ 734. إذ يلخص القول في: ((اعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة؛ وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها؛ ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده)). ص : 721.

[2] راجع ما قاله ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)). حيث ذكر أن ((كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية...)). ثم قدم بعض الأمثلة من الأحداث التاريخية. المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[3] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حيان. ويبدو أن هذا النص هو ذاته الذي ذكره ابن بسام وورد من قبل: ((وكان هشام بن الحكم عندما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته؛ صير إلى علي بن خمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله إلى سبتة بذلك سرا؛ وولاه=

تعيينه على سبتة؛ وما أن تمكن من تعزيز قوته فيها - بعد استقراره وضبط أموره - حتى شرع في خطواته الأولى نحو تحقيق أهدافه.

وبالفعل كان أول ما بادر إليه علي بن حمود سنة 404هـ(1013م) هو إحكام قبضته على سبتة؛ والقضاء على المعارضين. وذلك أنه سارع إلى قتل قاضي البلدة محمد بن عيسى مع الفقيه ابن يربوع. متهما القاضي المذكور بالتجسس عليه، والسعي إلى كشف أعماله وخططه. إذ اتهمه بأنه كاتب سرا سليمان المستعين، وأخطره بالتحضيرات التي قام بها لغزو قرطبة.[1] إلى جانب ذلك أرسل إلى أخيه القاسم؛ الذي كان في تلك الأثناء بقرطبة؛ فطلب منه الالتحاق بولايته في الجزيرة الخضراء. كما بعث في سنة 405هـ(1014م) إلى حبوس أمير بني زيري والفتى خيران العامري يعلمهما بخطاب العهد الذي وصله من هشام المؤيد؛ ويطلب منهما مساعدته للإطاحة بسليمان.[2]

=طلب دمه؛ واستكتمه السر فيه؛ إلى أوانه وبلوغ زمانه)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 114. 120. أما المقري فيقول: ((فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة، ومحو كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها؛ كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود؛ وبلغ هشاما المؤيد - وهو محبوس - خبره، واسمه ونسبه؛ فدس إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له: "إن خاطري يحدثني أن هذا الرجل يقتلني" - يعني سليمان - "فإن فعل فخذ بثأري". وكان هذا الأمر هو الذي قوى نفس ابن حمود على طلب الإمامة؛ وحمله على الأخذ بثار هشام المؤيد)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 482.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 115. أنظر أيضا أعمال الأعلام لابن الخطيب، ق: 2، ص: 121.

[2] قال ابن عذاري نقلا عن المظفري؛ وهو كتاب محمد بن عبد الله بن الأفطس: ((لما خرج علي عن طاعة المستعين؛ أخرج كتابا نسبه إلى هشام بن الحكم؛ يقول فيه: "أنقذني من أسر البرابر والمستعين؛ وأنت ولي عهدي". ووجه به إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامري؛ فقال له انهض إلى مالقة؛ وبها يتم أمرنا؛ فاقبل إليها بالقطائع والعساكر فقتل قائدها واستولى عليها)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. وقد اشار إلى هذا أيضا المراكشي في المعجب، ص: 44.

ثم تحرك نحو مدينة مالقة التي استولى عليها، وربما قتل قائدها حسب قول ابن عذاري.[1] ومن ثمة اجتمع مع خيران في المرية؛ وانضم إليه أيضا زاوي ابن زيري وحبوس بن ماكسن بن زيري في قبيلة صنهاجة.[2] فانطلقوا جميعا نحو قرطبة؛ ضمن قوة كبيرة من الأمازيغ والعامريين. ولما وصلت أخبار علي بن حمود وحلفائه إلى سليمان خرج إليهم بجيشه المكون من الأندلسيين، وقلة من الأمازيغ سنة 407هـ(1016م). ولكنه لم يصمد أمامهم، ومني بهزيمة نكراء؛ حيث انكشفت المعركة عن سقوطه – مع أخيه وأبيه – في الأسر. ولما دخل علي بن حمود إلى قصر قرطبة واستولى على عرشها؛ بادر فورا بقتل سليمان وأخيه وأبيه – ذلك الشيخ الذي ناهز عمره 72 سنة – ويقال أنه قتلهم بيده. أخذا بثأر هشام المؤيد كما زعم.[3] هذا هو منطق الملك في أبشع صوره.

---

[1] انفرد ابن عذاري بخبر قتل والي مالقة. البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. أما المراكشي فقال أنه عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق مولى الحكم المستنصر؛ وذكر أنه أخرجه من مالقة؛ ولم يشر إلى قتله. المعجب: ص: 44. أما ابن الأثير فيقول أنه اتفق مع علي على الثورة؛ وخرج من مالقة بإرادته وسلمها لعلي بن حمود. الكامل، ج: 7، ص: 284.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

[3] قال ابن بسام: ((فانهزم سليمان؛ وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه؛ وسيقوا أسَارَى إلى علي بن حمود. ودخل القصر وخيران يطمع أن يجد هشاما المؤيد حيا. فلم يوجد؛ وذكر أنه قتل؛ وعرض عليه قبره. فأمر علي بنبشه. فأخرج الشخص؛ وشهد أنه هشام؛ وسليمان يتبرأ من دمه؛ وما كان في جسده شيء من أثر السلاح؛ فتوهم فيه الخَنـق. وأمر علي بتجهيزه إلى أهله؛ وأنذر طبقات الناس للصلاة عليه؛ فدفن لزيق أبيه الحكم. ثم دعا علي بسليمان وذويه؛ فضرب عنقه بيده؛ وظهر منه جزع شديد عند ملاحظته السيف؛ خارت منه قواه. فجثا على ركبتيه؛ ثم ضربت عنق الشيخ أبيه وعنق عبد الرحمن ابنه. وجعلت الرؤوس الثلاثة في طست؛ وأخرجت من القصر إلى المحلة؛ ينادى عليها: هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 41 – 42. ورد هذا الخبر أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص: 117. وفي أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

وهكذا تم ما أراده الله. ففي لحظات أصبح الحلفاء أعداء؛ يقتل بعضهم بعضا. فما هو السبب؛ وكيف حدث هذا..؟ وما الحافز والمحرك لما جرى كله..؟ هل هي نشوة الملك..؟ أم هي العداوة المزمنة الكامنة في نفوس أجيال وأجيال من بني أمية وبني أبي طالب..؟ يبدو أن تلك العوامل كلها كانت وراء ما حدث. فالأطماع – طبعا – لعبت دورا مهما؛ كما أن العصبية الهاشمية كانت محركا فعالا نشطت حماس علي ابن حمود. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن علي بن حمود كانت تتجاذبه عصبيتان رئيسيتان هي: العصبية الهاشمية والعصبية الأمازيغية. وعليه فما يمس الأمازيغ يمسه أيضا في الصميم؛ خاصة وأنه كان دوما محسوبا عليهم؛ ولا يعامله الآخرون إلا كما يعاملون الأمازيغ. ومن هنا اتضح بأن عليّ بن حمود وسليمان بن الحكم كانا يكنان لبعضهما كراهية وحقدا دفينين؛ لم يعلنا عنهما إلا في حالات خاصة. وقد جاء في بعض المصادر لمحات من هذا؛ إذ تقول بعض الروايات أن سليمان كان يكن كراهية لعليّ بن حمود والأمازيغ أيضا – مثله في ذلك مثل أعضاء الأسرة الأموية – وما الحلف الذي جمعهم سوى فترة زمنية عابرة غير دائمة. إذ كان سليمان في أمس الحاجة إليهم وإلى سيوفهم. لذا فإنه كان يحرص على مداراتهم؛ وتقديمهم على غيرهم؛ خوفا من بطشهم؛ لأنه يدرك ضعف موقفه أمامهم. ومن الشواهد التي أوردها بعض الكتاب والمؤرخين: أنه قال – في أوساطه الخاصة – أبياتا شعرية من نظمه في حق الأمازيغ ومن حالفهم:[1]

---

[1] قال المقري في هذه الأبيات: ((وكان من اعظم الأسباب في فساد دولة=

حَـلـفـتُ بِـمَـنْ صَـلـَّى وَصَـامَ وَكَـبَّـرَا
لأغْـمِـدَهَـا فِـيـمَـنْ طَـغَـى وَتَـجَـبَّـرَا
وَأنْـصَـرَ دِيـنَ الـلـهِ تَـحْـيَـا رُسُـومُـهُ
فَـيَـدلَ مَـا قَـدْ لاحَ مِـنْـهَـا وَغَـيَّـرَا
فَـوَاعَـجَـبـاً مِـنْ عَـبْـشَـمِـيٍّ مُـمَـلـكٍ
بِـرَغْـمِ الـعَـوَالِـي وَالـمَـعَـالِـي تَـبَـرْبَـرَا
فَـلَـوْ أنَّ أمْـرِي بِـالـخِـيَـارِ نَـبَـذْتُـهُـمْ
وَحَـاكَـمْـتُـهُـمْ لِـلـسَّـيْـفِ حُـكْـمـاً مُـحَـرَّرَا
فَـإِمَّـا حَـيَـاةٌ تَـسْـتَـلِـذُ بِـفَـقْـدِهِـمْ
وَإِمَّـا حِـمَـامٌ لاَ نَـرَى فِـيـهِ مَـا زَرَى

فهذه الأبيات تدل ـ بدون شك ـ على ما ينطوي عليه صدر سليمان؛ من كراهية للأمازيغ؛ حيث لم يستطع التخلص من رواسب العصبية الأموية العربية؛ على الرغم من الحلف الذي يربطه بالأمازيع، وعلى الرغم من استماتتهم في الدفاع عنه، والتضحية بأرواحهم من أجله. وبذلك فقد برهن على أنه لا يختلف كثيرا عن ابن عبد الجبار (**المهدي**)؛ سوى في التقية التي لجأ إليها. ويبدو أن هذه الأبيات كشفت نواياه الحقيقية؛ مما جعل الأمازيع يختارون صف علي بن حمود؛ عندما قرر الأخذ بثأر أجداده الأدارسة من أحفاد الناصر لدين الله الأموي؛ الذي سبق له أن أزال الدولة الإدريسية من الوجود، إذ كان هذا هو حافزه الأساسي لإسقاط الدولة الأموية؛ وإرجاع الحق لبني هاشم. هذا وقد مدح شاعر

=المستعين؛ أنه قال هذه الأبيات؛ مستريحا بها إلى خواصه)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 429.

الأندلس وفحلها دون منازع؛ أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي علي بن حمود بقصيدة رائعة؛ نذكر مطلعها هنا؛ على أن نسجل أغلبها في الفصل المخصص للحضارة والثقافة. ومطلعها:

لَعَلك ياشَمسُ عِندَ الأصيلِ
شَجِيتِ لِشَجْوِ الغَريبِ الذَّليلِ
فَكوني شَفيعِي إلى ابنِ الشَّفِيع
وكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسولِ

ولما تم لعلي أمر إسقاط دولة سليمان؛ سارع إلى طلب البيعة من أهل الحل والعقد في قرطبة. فبويع بالفعل في سنة 407هـ(1016م) وتسمى بلقب الناصر لدين الله. وكانت بيعة شاملة؛ لم يتخلف عنها أحد كما قال ابن حيان.[1] وأظهر ـ من اليوم الأول لحكمه ـ سلوكا فيه حزم وجد وعدل؛ أثلج قلوب الرعية، وملأ نفوس الناس بالبشر والرضى. إذ شرع في اجتثاث الفساد، وكبح الظالمين، وتسليط سيف العدل على رقاب الناهبين والمتجبرين من بعض أتباعه الأمازيغ.[2] غير أنه شعر ـ بعدئذ ـ من أهل

---

[1] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((بويع علي بن حمود في باب السُدَّة من قصر قرطبة يوم الإثنين لسبع بقين لمحرم سنة سبع وأربعمائة؛ ثاني اليوم الذي أدرك فيه بثأر هشام المؤيد. ولم يتخلف أحد عن بيعته؛ ووصلوا إليه على طبقاتهم؛ فكرم منازلهم، وأجمل خطابهم. وتسمى ليومه من الألقاب السلطانية بالناصر لدين الله. لقب قد سبقه إليه أبو أحمد المتوكل العباسي بالمشرق؛ وتبعه فيه أيضا عبد الرحمن بن محمد بهذا الأفق)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 97.

[2] قال ابن بسام: ((وجلس علي بنفسه لمظالم الناس؛ وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب؛ للوارد والصادر؛ يقيم الحدود مباشرا بنفسه؛ لا يحاشي أحدا من أكابر قومه. فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض؛ وسلكت السبل، ورخا السعر، وارقوا الأغذية، وشاموا النساء وطلبوا النسل... واستمر على أهل قرطبة نحوا من ثمانية أشهر في أحسن عشرة. ثم=

قرطبة ميلا إلى أمير أموي ظهر في شرق الأندلس؛ اسمه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر؛ وقد تلقب بالمرتضى؛ وذلك في سنة 407هـ(1016م). عندها تحول عن أسلوبه الأول الذي اتبعه في حكم قرطبة.[1] فأطلق أيدي أتباعه الأمازيغ على أهل المدينة ـ كرد فعل منه ضد أولئك السكان؛ الذين قابلوا إحسانه بالإساءة، وجميل فعله معهم بالنكران ـ فانتشر النهب فيهم من جديد؛ وكثر العيث والفساد في البلدة؛ دون أن يجد سكانها حماية أو أذنا صاغية لنجدة أو إغاثة.[2]

ولا بد ـ هنا ـ أن ننبه إلى تمسك أهل قرطبة وتشبثهم بالأمويين؛ مهما كانت صفاتهم، ومهما تعددت مثالبهم؛ إذ كان سكان هذه المدينة لا يرضون بديلا بهم؛ مهما توافرت في البديل من شروط الصلاح أو العدل، أو الكفاءة. ولعل الجواب عن هذا يكمن فيما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أنه إذا استقرت**

=آنس منهم الكراهية لدولته. وبلغه أيضا قيام المرتضى بشرقي الأندلس. فعزم على إبادة أهل قرطبة وإخلائها؛ فلا يعود لأئمتهم المروانيية سلطان آخر الدهر؛ ثم يعود إلى ساحله، ويجمع شمل برابرته؛ فيضرب بهم جميع الأندلس. فانقلب سريعا ظن التجمل الذي كان يظهره لهم، وانصرف إلى حزبه البربري فآثره)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 97 ـ 99.

[1] قال ابن عذاري: ((وانقلب سريعا عن التجمل الذي كان يظهره لأهل قرطبة، وانصرف إلى حزبه البربري فآثره عليهم لما أحس منهم الميل إلى الخليفة المرتضى)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 123.

[2] ذكر ابن بسام أنه: ((وبلغه أيضا قيام المرتضى بشرقي الأندلس؛ فعزم على إبادة أهل قرطبة، وإخلائها؛ فلا يعودون إلى أئمتهم المروانية سلطان إلى آخر الدهر؛ ثم يعود إلى ساحله، ويجمع شمل برابرته؛ فيضرب بهم جميع الأندلس. فانقلب سريعا ظن التجمل الذي كان يظهره لهم، وانصرف إلى حزبه البربري فآثره، وأغضى على سوء ما كانوا عليه من الظلم والحيف؛ فوقع أهل قرطبة في وغيرهم في حالتهم مدة سليمان من استيطالتهم عليهم. وصب على أهل قرطبة ضروبا من التنكيل والمغارم؛ وانتزع السلاح منهم، وهدم دورهم، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم؛ ففتحوا له أبوابا من البلايا أهلك بها الأمة؛ وتقربوا إليه بالسعاية)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 99.

الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية".[1] كما أن حياتهم الحضرية ونفوسهم الرقيقة، المرفهة، المتعالية كانت سببا مباشرا في تأففهم وكراهيتهم لمعاشرة الأمازيغ؛ المتميزين بالصفات البدوية في خشونتها وقساوتها. ومن جهة أخرى فإن الأمازيغ بدورهم ــ بحكم طبعهم البدوي ــ لا يخفون احتقارهم وسخريتهم من نعومة أهل المدن، ورقة عاداتهم، وهشاشة عظامهم، وسوء أخلاقهم.[2]

ومع هذا لم يهنأ علي بن حمود مدة طويلة بخلافة المسلمين في قرطبة؛ إذ تعرض لمؤامرة اغتيال؛ بعد واحد وعشرين شهرا وسبعة أيام[3] من يوم بيعته؛ وبالتحديد في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م). ونسبت

---

[1] ومما جاء في هذا الفصل: ((والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب؛ للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة؛ نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم؛ وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة)). المقدمة، ج: 2، ص: 632.

[2] تكلم ابن خلدون في هذا حين قال: ((وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعاكفون على شهواتهم منها؛ قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم.... وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها؛ وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة قبحها؛ فيسهل علاجهم عن علاج الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 584 ــ 585.

[3] الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 102. وحددها المراكشي بـ((عامين غير شهرين)). المعجب، ص: 50. بينما يقول ابن عذاري أنه حكم سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120. أما المقري فذكر أن بعضهم حققوها بإحدى وعشرين شهرا وستة أيام. نفح الطيب، ج: 1، ص: 483.

المصادر اغتياله إلى بعض صبيانه الصقالبة؛ وتم ذلك داخل حمام قصره.[1] ولما اكتشفت الجريمة سارع أنصاره — من القادة والأعيان الأمازيغ — إلى إعلام أخيه القاسم؛ الذي كان واليا على إشبيلية. فخاف أن تكون مكيدة قد أعدت له؛ لذا فقد اكتفى — في البداية — بإرسال من يستطلع صحة الخبر. ولما تحقق من موت أخيه ذهب إلى قرطبة؛ حيث تولى تجهيز أخيه الذي دفن في سبتة. وبعدها بحثوا عن الجناة؛ فاتضح أنهم من صقالبة القصر؛ فقبضوا على بعضهم؛ حيث قتلوا ثم صلبوا على جسر قرطبة. هذا وترك علي بن حمود من الأولاد: يحيى الذي ولاه سبتة، وإدريسا الوالي على مالقة.[2]

— حكومة المأمون القاسم بن حمود بقرطبة:

عقدت البيعة للقاسم بن حمود؛ في سادس يوم من وفاة أخيه علي بن حمود؛ ولقب في ذلك اليوم بالمأمون؛ وكان أكبر من أخيه سنا بعشر سنين.[3] ويقال أنه تشَيَّعَ سرا ولم يظهر ذلك علنا؛ كما أنه لم يحاول تغيير ما كان عليه الناس في مذهبهم.[4] هذا ولم يهنأ هو الآخر طويلا بمنصبه؛ إذ تميز عهده بالاضطراب والانقطاع. حيث حكم قرطبة فترتين؛[5] تخللهما انقطاع لمدة عام ونصف تقريبا؛ تغلب خلالها

---

[1] راجع ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 684 — 686.

[2] الجمهرة، ص: 51. المغرب، ص: 133. والمعجب، ص: 50. والكامل، ج: 7، ص: 286

[3] يرى ابن عذاري أنه يكبره بأربع سنوات فقط. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

[4] العجب، ص: 50. الكامل في التاريخ، ص: 286.

[5] دامت الفترة الأولى من ذي القعدة سنة 408هـ إلى ربيع الآخر سنة 412هـ. أما الفترة الثانية فبدأت بذي القعدة من سنة 413هـ إلى شعبان من السنة نفسها.

عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود؛ الذي كان واليا على سبتة.[1] وهكذا تحقق ما لم يكن ينتظره القاسم؛ لأنه ـ كما يبدو ـ يكون قد اقتنع ـ منذ الوهلة الأولى ـ ورضي بما تحصل عليه من ولاية ممثلة في حكم إشبيلية. ولكن شاءت الأقدار أن يصبح فجأة وبدون تخطيط خليفة للمسلمين. وعليه فقد استهل الفترة الأولى من حكمه ـ التي بدأت في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م) ـ بمظهر الحاكم الجاد والحازم والعادل؛ إذ أظهر ميلا إلى إصلاح الحال، ورعاية شئون العباد، وتنمية أسباب المعاش والعمران، وكان يتصف بالرفق، وحسن السياسة للرعية.

غير أنه ـ مع مرور الأيام ـ ظهر عليه شيء من الضعف والخذلان؛ أمام قوة العصبية التي اعتمد عليها في بداية أمره؛ وتتمثل تلك العصبية في قبائل الأمازيغ. ويبدو أنه كان أسير فضلهم عليه؛ ولكنه عندما استثقل هيمنتهم، وتضايق من شدة تغلبهم عليه وعلى شئون الدولة ـ باحتكار المناصب الحساسة فيها لصالحهم ـ جعله يسعى جاهدا لكي يتخلص ـ نوعا ما ـ من ثقل وطأتهم. لذا فقد أراد خلق بعض التوازن في القوى؛ حيث شرع في اصطناع جماعات من السودان؛ الذين أسند إليهم بعض المهام الحساسة في الدولة.[2] وهنا تحركت العصبية الأمازيغية التي وجدت أنه من واجبها الدفاع عن مصالحها؛ ومنع

---

[1] المغرب، ص: 133. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 124 ـ 125. 130 ـ 131.

[2] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وزاد كلف القاسم في اتخاذ السودان؛ وقودهم في أعماله؛ إلى أن ضعف أمره، وتسلط البرابرة عليه حتى احتقره. فكاتب منذر بن يحيى ـ في السر ـ يبثه شأنهم، ويستنهضه لتقويمهم؛ فلم يكن فيه فضل لذلك)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 481. وورد النص نفسه في البيان المغرب، ج: 3، ص: 130.

تحقيق ما يخطط له القاسم بن حمود. وهنا يتبين بوضوح صدق المقولة التي ذكرها ابن خلدون ضمن: **"فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين"** [1]

وبالفعل فقد جاءت الفرصة المواتية للأمازيغ كي يعطوا للقاسم درسا قاسيا. وبالفعل تم لهم ذلك حينما بدأ يحيى ابن أخيه علي؛ ـ الذي كان واليا على سبتة ـ في المشاغبة، وإظهار شيء من العصيان؛ حيث أخذ يحرض رؤساء القبائل الأمازيغية ضد عمه؛ بهدف ضمان وقوفهم معه في وجه القاسم، ومساعدته في انتزاع ما اغتصب منه بعد موت والده.[2] ولما عرض القاسم أمر ابن أخيه على رؤساء القبائل الأمازيغية؛ تثاقلوا عن نصرته؛ بحجة أنه شأن عائلي بينهما؛ ولا يجوز الدخول بين حسنيين اثنين. وعندما تحرك يحيى نحو قرطبة لم يجد القاسم أمامه سوى الهروب إلى إشبيلية؛ مركز ولايته في السابق. ولم يرافقه إلا خمسة فرسان من خاصته المقربين. وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة 412هـ(1021م). وبقي

---

[1] جاء في قول ابن خلدون: ((فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم، وانفرد بالمجد، ودافعهم عنه بالراح؛ صاروا ـ في حقيقة الأمر ـ من بعض أعدائه؛ واحتاج في مدافعتهم عن الأمر، وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين؛ من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم، ويتولاهم دونهم؛ فيكونون أقرب إليه من سائرهم، وأخص به قربا واصطناعا، وأولى إيثارا وجاها؛ لما أنهم يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم، والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم؛ فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ، ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار؛ ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه، ويقلدهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية؛ وما يختص به لنفسه؛ وتكون خاصة له دون قومه من ألقاب المملكة؛ لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون. وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة، وعلامة على المرض المزمن فيها؛ لفساد العصبية التي كان بنا الغلب عليها، ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان؛ فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر)). المقدمة، ج: 2، ص: 677.

[2] أنظر نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

أنصاره السابقون من الأمازيغ والسودان في قرطبة؛ حيث قاموا بضبط البلدة؛ وإعداد القصر لوصول يحيى؛ ولما وصل سلموا له الأمر.[1]

تلك هي الفترة الأولى من حكم القاسم **(المأمون)** في قرطبة؛ أما الفترة الثانية فبدأت بعد انقلاب الأمازيغ على ابن أخيه يحيى بن علي؛ مما أجبره على الهروب – هو الآخر – إلى مالقة تحت جنح الليل. فما كان من القاسم – لما سمع بخبر خروج يحيى إلى مالقة فارا – إلا أنه تحرك من فوره والتحق بقرطبة من جديد؛ وتم ذلك في ذي القعدة من سنة 413هـ(1022م). ومع هذا لم تدم الفترة الثانية من حكمه طويلا؛ إذ ثار عليه أهل قرطبة؛ في شعبان من عام 414هـ(1023م)؛ بدعوى أنهم لم يحتملوا تسلط الأمازيغ في الأسواق.[2] بينما يقول ابن بسام: ((**فتكنف سريره أغمار الناس من البرابر؛ وخرجوا** [أي أهل قرطبة] **لقتالهم سنة أربع عشرة**)).[3] ويتفق ابن الخطيب مع هذا الرأي أيضا.[4] أما المقري فيتعمق في

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 482.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص: 134.

[3] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 485.

[4] إذ يقول: ((وفسد ما بينه [أي القاسم] وبين أهل المدينة؛ بسبب من حفه من البرابرة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 133. أما ابن الأثير فيرى أن استيلاء يحيى وإدريس على الجزيرة الخضراء وطنجة؛ شجع الناس على العصيان؛ إذ يقول: ((فلما ملك ابنا أخيه بلاده طمع فيه الناس؛ وتسلط البربر على قرطبة فأخذوا أموالهم؛ فاجتمع أهلها وبرزوا إلى قتاله عاشر جمادى الأولى سنة أربع عشرة [وأربعمائة] فاقتتلوا قتالا شديدا؛ ثم سكنت الحرب، وأمن بعضهم بعضا إلى منتصف جمادى الآخرة من السنة؛ والقاسم بالقصر يظهر التودد لأهل قرطبة وأنه معهم وباطنه مع البربر؛ فلما كان يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة صلى الناس الجمعة؛ فلما فرغوا تنادوا السلاح السلاح؛ فاجتمعوا ولبسوا السلاح وحفظوا البلد، ودخلوا قصر الإمارة؛ فخرج عنها القاسم...)). الكامل، ج: 7، ص: 286- ويتفق ابن خلدون مع الرأي القائل بأن تغلب ابني أخيه على حصونه ومراكزه في طنجة والجزيرة الخضراء قد شجع الناس على التجاسر عليه. العبر، مج: 4، ص: 331.

الشرح بعض الشيء؛ بحيث يفهم من قوله أن الاحتقان بين الطرفين ربما كان بسبب التضييق على أهل قرطبة؛ أثناء البحث عن بعض الأمويين المشتبه في أمرهم؛ بعد أن أشيع أن قائما منهم سوف يظهر.[1]

ولما عاد القاسم إلى إشبيلية مهزوما من قرطبة؛ وجد أبوابها مقفلة في وجهه؛ بتدبير من القاضي محمد بن إسماعيل ابن عباد؛ الذي أوهم سكان المدينة بأن القاسم سيسكن من معه من الأمازيغ في مساكن الإشبيليين. ومن جهة أخرى فقد أغرى ـ صاحب القاسم وثقته ـ محمد ابن زيري بن دوناس اليفرني، وأطمعه في إمارة البلدة إن هو ساعدهم على منع دخول القاسم إلى قرطبة.[2] وبهذا لم يجد القاسم بدا من الخضوع لإرادتهم؛ نظرا لكون أهل البلد حاصروا ابنه محمدا في دار الإمارة؛ وساوموه على فك الحصار عنه والسماح له بالخروج من إشبيلية؛ مقابل

[1] وقد وصف المقري ما حدث بقوله: ((ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة. ووقع الاختلاف؛ وكان هوى السودان معه، وهوى كثير من البرابر مع يحيى، وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهر؛ وكثر الإرجاف بذلك، ووقع الطلب على بني أمية؛ فتفرقوا في البلاد، ودخلوا في أغمار الناس، وأخفوا زيهم. ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة؛ وتكاثر البلديون، وأخرجوا القاسم وبرابرته؛ فضرب خيمة بغربيها، وقاتلهم مدة خمسين يوما قتالا شديدا... وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية، وفر البرابرة إلى يحيى وهو بمالقة؛ وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة 414هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 487.

[2] وفي هذا يقول ابن خلدون: ((ولحق المأمون بإشبيلية وبها ابنه محمد، ومحمد بن زيري من رجالات البربر؛ فأطمعه القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد في الملك؛ وأن يمتنعوا من القاسم؛ فمنعوه، وأخرجوا إليه ابنه، وضبطوا بلدهم. ثم اشتد ابن عباد وأخرج محمد بن زيري)). العبر، مج: 4، ص: 232. ويتفق مع هذا الرأي المقري فيقول: ((وأطمع [أي ابن عباد] ابن زيري في التملك؛ فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه؛ فقتل من البربر والسودان خلق كثير؛ وابن عباد يضحك على الجميع؛ فيئس القاسم، وقنع أن يخرجوا إليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم؛ فأخرجوهم إليه؛ فسار بهم إلى شريش)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

أن يرفع هو بدوره الحصار عن المدينة ويتخلى عن المطالبة بها. فلم يجد القاسم أمامه اختيارا آخر غير القبول بشروطهم؛ كسبا للوقت. وتحول إلى شريش؛ حيث بقي هناك بعض الوقت. وفي تلك المدينة ازدادت محنته؛ حين تفرق من حوله جل أنصاره من الأمازيغ، الذين التحقوا بابن أخيه المعتلي يحيى بن علي بمالقة؛ وذلك في سنة 415هـ(1024م).[1] ولما تخلص ابن عباد من الخطر الذي كان يمثله القاسم؛ انقض على محمد بن زيري بن دوناس اليفرني، وطرده من إشبيلية. وهكذا لم تفد ابن دوناس خيانته للقاسم صاحب الفضل عليه. هذا ولم يطل الحال بالقاسم في شريش حتى زحف إليه المعتلي يحيى ابن علي فحاصره فيها، وقاتله قتالا شديدا، ثم ضيق عليه حتى استسلم؛ فنقله معه إلى مالقة؛ أين رماه في الأسر حتى مات، أو قتل في السجن سنة 427هـ(1035م) كما قال بعضهم.[2] هذا وخلف القاسم من الأولاد: محمدا الذي تسمى بالخلافة في الجزيرة الخضراء، والحسن الذي تنسك ولبس الصوف، ثم توجه إلى الحج.[3]

وفي عهد القاسم بن حمود قتل عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك (**المرتضى**)؛ الأمير الأموي الثائر بشرق الأندلس.[4] وكان زهير الفتى، وخيران الصقلبي، ومنذر بن يحيى التجيبي – في قومه ومعززا بجماعة

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 332.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 485 – 486. ويقول المراكشي وابن الأثير أنه قتل في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 – 52. والكامل، ج: 7، ص: 287. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 135. والعبر، مج: 4، ص: 332. نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

[3] ويرى ابن حزم أن ابني الحسن هذا هما: هاشم وعقيل. الجمهرة، ص ص: 50.

[4] جعل المراكشي وابن الأثير خبر المرتضى ومقتله في عهد علي بن حمود. المعجب، ص ص: 49 – 50. الكامل، ج: 1، ص: 285.

من فرسان الفرنج ـ، وسليمان بن هود ـ مدعوما هو الآخر بفرسان من الفرنج وآخرين ـ قد اتفقوا على تنصيبه خليفة؛ ومحاربة القاسم ومن معه من الأمازيغ. ثم زحفوا جميعا معه ـ في قوة عظيمة ـ نحو قرطبة؛ ولكنهم اشتبكوا في الطريق ببني زيري عند حدود إمارة غرناطة؛ فانهزم جيش المرتضى، ونهبت محلته، وتشتت أنصاره. ومن المفارقات العجيبة أن الذين نصبوا المرتضى ونادوا به خليفة للمسلمين هم الذين تسببوا في هزيمته؛ بعد خيانته، إذ تركوه فريسة لعدوه.[1] بل هم الذين قتلوه عندما فر هاربا.[2] هذا واستولى بنو زيري على ما في محلة المرتضى ـ بعد هزيمته ـ من: أنواع السلاح وصنوف الذخائر وعتاق الخيل ومختلف الأحمال وأزهى القباب. ولم ينس زاوي ابن زيري بن مناد أمير الصنهاجيين أن يرسل إلى القاسم بن حمود سهمه من الغنيمة؛ بصفته الخليفة المعترف به.[3] وبهذا أصبحت الأندلس كلها نهبا

---

[1] قال ابن بسام: ((وأول من انهزم من ذلك العسكر منذر بن يحيى وخيران الصقلبي. وكان منذر قد أوقع في نفوس مدده من رجال الإفرنجة الذعر من غدر الموالي العامريين؛ فشغل بذلك بالهم. فلما انهزم لم يعرفوا السر؛ وأجفل منذر في أصحابه الثغريين؛ فمر بسليمان بن هود صاحبه وهو مثبت للإفرنجة لا يريم موقفه. فصاح به: النجاة يا بن الفاعلة. فلست أقف عليك. فقال له سليمان: جئت والله بها صلعاء، وفضحت أهل الأندلس؛ ثم انقلع وراءه ببقية عسكره؛ وانقلع أيضا خيران برجاله. وصبر الموالي العامريين قليلا حول صاحبهم المرتضى)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 454 ـ 455. ومما نقله ابن بسام أيضا عن ابن حيان قوله: ((وذلك أنه لما انهزم المرتضى؛ قال زاوي لقومه: "كيف رأيتم ما قد خلصنا منه؟" قالوا: "عظيما". قال: "فلا تنسوه وتغالطوا أنفسكم بعده؛ إن انهزام من رأيتموهم لم يكن من قوة منا. وإنما جره مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا؛ فإني عرفت ذلك من يوم نزولهم)). نفسه، ص: 458.

[2] أنظر الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 453 ـ 458. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 125 ـ 130. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 130 ـ 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 484 ـ 486.

[3] قال ابن الخطيب: ((وورد على القاسم بن حمود الخبر بمقتل المرتضى، وهزيمة الأندلسيين من قبل زاوي مع سهمه من الغنيمة؛ وفي الجملة سرادق

للأقوياء؛ من القبائل العربية، والأمازيغية، وبعض الكتل والعصابات من المماليك الصقالبة، والفتيان العامريين والنصارى وغيرهم؛ حدث ذلك كنتيجة لتلك المعركة التي وقعت بين المرتضى وبني زيري في سنة 409هـ(1018م). وبالمقابل تأكدت نهاية الحكم الأموي نهائيا في تلك الربوع؛ وذلك على الرغم من المحاولات الفاشلة الساعية في قرطبة لإحياء دولتهم.[1] وفي هذا يقول ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((**فحلت بهذه الوقعة على جماعة من الأندلس مصيبة سوداء أنست ما قبلها؛ ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد؛ وأقروا بالإدبار، وباءوا بالصغار. وورد على القاسم كتاب زاوي بشرحها مع نصيبه من الغنيمة؛ وفي جملتها سرادق المرتضى. فضربه القاسم على نهر قرطبة، وغشيه من النظارة جملة من علية الناس؛ وقلوبهم تتقطع حسرة منه. فركدت ريح المروانية من ذلك الوقت**)).[2]

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد هذا – كغيره من أمراء الأسرة الأموية – يحقد على الأمازيغ، ويعلن تعصبه ضدهم؛ بسبب نصرتهم السابقة للعامريين. وكان يحملهم مسئولية التفكك والانهيار الذي

=المرتضى؛ فسر بذلك، وضرب السرادق على نهر قرطبة؛ وغشيه الناس ينظرون إليه؛ وقلوبهم تتقطع أسىً وحسرة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 131.

[1] للتوسع في دولة بني حمود يستحسن الرجوع إلى الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 35 – 59. 96 – 102. 452 – 461. 468 – 486. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 115 – 144. 216 – 220. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 128 – 143. والعبر، مج: 4، ص ص: 330 – 336. ودولة الإسلام في الأندلس (العصر الأول – القسم الثاني)، ص ص: 656 – 677.

[2] الذخيرة، ق: 1، ص ص: 455 – 456. وراجع النص نفسه تقريبا في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 127 – 128. وأعمال الأعلام ق: 2، ص: 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

أصاب الدولة الأموية في أواخر أيامها. ومن منظوماته التي تفيض بالعداء للأمازيغ قوله:

قَدْ بَلَغَ البَرْبَرُ فِينَا بِنَا
مَا أَفْسَدَ الأَحْوَالَ وَالنَظَمَا

كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلاَ الذِي
فِيهِ مِنَ الرِّيشِ لَمَا أَصْمَى

قُومُوا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قَوْمَةً
تُزِيلُ عَنَا العَارَ وَالرَّغْمَا

إِمَّا بِهَا نَمْلِكُ، أَوْ لاَ نَرَى
مَا يَرْجِعُ الطَرْفُ بِهِ أَعْمَى

وقد أنشد محمد بن سليمان بن الحناط الكفيف شاعر بني حمود قصيدة أمام القاسم مشيدا بالانتصار على المرتضى وأتباعه؛ جاء في مطلعها:

لَكَ الخَيْرُ خَيْرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِهِ
وَأَصْبَحَ مُلْكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِهِ

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود:

كان يحيى بن علي بن حمود ـ في عهد والده ـ والياً على سبتة، بينما اختص أخوه إدريس بولاية مالقة. وكانت في نفس يحيى غصة من عمه؛ بسبب اعتقاده أنه اغتصب منه الملك، واستولى على ميراثه الشرعي؛ نظرا لكونه هو ولي عهد أبيه.[1] غير

[1] يقول البكري: ((وكان له [أي علي بن حمود] من الولد يحيى وإدريس؛ وولى عهده منهما يحيى؛ وكان صاحب المغرب، وكان إدريس أخوه صاحب مدينة مالقة. فلما قتل علي استدعى البربر القاسم أخاه، وأدخلوه القصر، وبايعه الناس، وخطب له بالخلافة؛ فأنف من ذلك ابن أخيه يحيى؛ لما تقدم من عهد أبيه له)). المغرب، ص: 1333.

أنه استسلم – في البداية – لمنطق القوة والغلبة؛ عندما فهم أن معظم القبائل الأمازيغية كانت تتعاطف مع عمه. ومع هذا فقد ظل يرى في نفسه أحق من عمه بالخلافة. ويرى أنه سبقه إلى العرش؛ منتهزا بعده عن عاصمة الدولة آنئذ؛ إذ أن وجوده في سبتة بالعدوة المغربية ساعد عمه القاسم في التربع على العرش بدلا منه. والراجح هنا هو أن السبب يعود أيضا إلى ميل القبائل الأمازيغية في البداية – وهم القوة الضاربة في قرطبة – إلى تنصيب القاسم. وربما عللوا موقفهم – كما جاء في بعض المصادر – إلى عدة أسباب؛ منها: أنهم أحسوا بأن القاسم غبن منذ البداية؛ إذ كان أسن من أخيه علي؛ الذي سبقه وتربع على سدة الخلافة في قرطبة. ثم إن الوضع السياسي في تلك المدينة آنئذ – أي يوم قتل علي – لم يكن يسمح بالتريث والانتظار حتى يأتي يحيى بن علي من سبتة؛ التي كانت أبعد من إشبيلية.[1] وبحكم هذه المسوغات فقد وجد يحيى نفسه – في البداية – مضطرا للخضوع للأمر الواقع على مضض؛ ولكنه لم يستسلم إليه بشكل مطلق.

وعليه فقد شرع في الإعداد الهادئ لاستعادة ما سلب منه. إذ شرع في تعزيز موقفه عن طريق أخيه إدريس في مالقة؛ لكي يسهل عليه التحرك فيما بعد. وبالفعل فقد كان منطلقه عند زحفه إلى قرطبة؛ عبر تلك المدينة الساحلية. وجاءت الفرصة بسرعة؛ لما شعر ببوادر الضيق والخلاف التي أخذت تدب بين رؤساء القبائل الأمازيغية وعمه؛ جراء اصطناع جماعة من السودان؛ فسارع من فوره إلى تأجيج غيظهم؛

---

[1] نفح الطيب، ج: 1، ص: 484.

وتحذيرهم من خطط عمه التي يعمل على تحقيقها؛ باستخدام فرق من السودان لحماية ملكه؛ وإضعاف نفوذ القبائل الأمازيغية.[1] وبالفعل وجد نداؤه وتحذيره صدى لدى رؤساء الأمازيغ؛ خاصة وأنهم أصبحوا بالفعل متذمرين من سلوك القاسم الرامي إلى إضعاف نفوذهم؛ والانفراد بمجد الملك وحده؛ دون حساب لمقتضى المشاركة التي تجمعهم وإياه فيه؛ بحكم أن ذلك الملك نشأ بفضل سيوفهم وغلبتهم.[2] ولهذا فقد لبوا هذه المرة بسهولة نداء يحيى، وأبدوا تفهمهم واستعدادهم لدعمه وتأييده. فبادر على الفور بالإعداد لغزو قرطبة، والإطاحة بعمه؛ فكان أول عمل قام به بعد أن جهز نفسه عسكريا وماديا؛ هو قطع الدعوة لعمه، ثم انتقل إلى مالقة ومنح لأخيه إدريس ولاية سبتة.

ولما أحس بضعف عمه القاسم؛ وتأكد من عجزه عن التصدي له؛ بدأ بالزحف إلى قرطبة؛ في قوة كبيرة يؤازره فيها زاوي ابن زيري أمير غرناطة. فاستنجد القاسم بأنصاره الأمازيغ؛ فتثاقلوا ولم يلبوا

---

[1] يقول المقري: ((وكتب [يحيى] من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: "إن عمي أخذ ميراثي من أبي؛ ثم إنه قدم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان. وأنا أطلب ميراثي، وأوليّكم مناصبكم، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس"؛ فأجابوه إلى ذلك. فجمع ما عنده من المراكب؛ وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة؛ فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالقة مع أخيه؛ وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكد المودة؛ فقال له أخوه إدريس: "إن خيران رجل خداع" فقال يحيى: "ونحن منخدعون فيما لا يضرنا". ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة؛ واثقا بأن البرابر معه؛ ففر القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت 28 من شهر ربيع الآخر سنة 412هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[2] راجع الفصول التالية في مقدمة ابن خلدون: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 632 ـ 634. و((فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)). نفسه، ص ص: 649 ـ 650. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ـ 678.

طلبه؛ بحجة أن الخلاف حاصل بين حسنيين؛ وذلك شأن داخلي بينهما.[1] عندها لم يجد القاسم مفرا من الخروج هاربا إلى إشبيلية؛ التي كان واليا عليها في السابق؛ ولم يرافقه إلا خمسة من الفرسان؛ وذلك عام 412هـ(1021م). ولما دخل يحيى بن علي إلى قصر الخلافة في قرطبة؛ عقدت البيعة له؛ حيث بايعته في المدينة جموع الأمازيغ والسودان وأهل البلد؛ وذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة؛ وفيها لقب بالمعتلي بالله. ثم أسند خطة الكتابة إلى أحمد بن برد، والوزارة إلى محمد بن الفرضي.[2] ومع هذا فقد عقد يحيى صلحا مع عمه؛ على أن يعترف كل واحد منهما بالآخر؛ فتسمى كلاهما بلقب خليفة.[3] وبذلك أصبح في قرطبة خليفة، وفي إشبيلية خليفة آخر؛ وهذا

---

[1] الذخيرة، ق: 1 مج: 1، ص: 482.

[2] فمما كتبه ابن بسام عن التعيينات التي أقرها المعتلي: ((وأقر يحيى أصحاب الخطط على مراتبهم؛ وحسن رأيه في أحمد بن برد وعول عليه في كتابته؛ واستخلص من الأندلسيين صحبه: جعفر بن محمد بن فتح والفقيه أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني؛ وولاه خطة الوزارة؛ فكادت الجبال تنهدُّ لهذه العظيمة؛ وجمح مركبها به؛ وأبدع في الكبر والخنزوانة. وقدم أيضا إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب؛ فكان أعدى من الجَرَب على دواته؛ وارتقبَ عقلاء الناس ــ عند ذلك ــ حلول المحنة؛ فقديما استعاذوا بالله من وزارة السَفلة. ووصَل جعفر بن فتح صاحبه الأقدم إبراهيم الإفليلي كبير الأدباء بقرطبة بالخليفة يحيى، ورغبه في الإحسان إليه؛ فذاكره وحدثه ونوه به. وسما ــ في أيامه ــ أبو بكر بن ذكوان، وأبو العباس أحمد بن أبي حاتم أخوه؛ وأنهضهما إلى الوزارة عقب وفاة الشيخ أبي العباس بن ذكوان. وغ رب شأوُ أبي بكر منهم؛ فجاء أحوذيًا نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته)). الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 483.

[3] يقول ابن عذاري: ((وكان عمه القاسم بن حمود لما رأى جور البربر، وقلة طاعتهم؛ خرج من قرطبة إلى إشبيلية فارا منهم وخائفا، فاستقر بإشبيلية وهو يدعى له بالخلافة، ويتسمى بأمير المؤمنين؛ فخاطب البربر ــ من قرطبة ــ إلى ابن أخيه هذا يحيى بن علي؛ وأدخلوه قرطبة، وبويع بها ــ كما ذكرنا ــ وتسمى بالخلافة وإمرة المؤمنين، وتلقب بالمستعلي؛ (قال ابن حزم): "خليفتان تصالحا؛ وهو أمر لم يسمع بأنذل منه، ولا أدل على إدبار الأمور؛ يحيى بن علي بن حمود بقرطبة، والقاسم ابن حمود بإشبيلية")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 132 ــ 133.

طبعا يدل على الضعف والهوان الذي أضحى عليه لقب خليفة في الأندلس.

وحتى يحيى بن علي هذا حكم قرطبة ـ مثل عمه ـ في فترتين: بدأت الأولى في جمادى الأولى من سنة 412هـ كما تم ذكره؛ وظل متربعا على سرير الحكم ـ في هذه الفترة ـ ما يناهز السنة وستة أشهر؛ ثم خرج فارا ـ كعمه أيضا ـ إلى مالقة؛ بعد أن ضاق به الحال في تلك المدينة المتقلبة. أما الفترة الثانية فأتت بعد أن عمل القرطبيون على تنصيب بعض الأمويين ـ من جديد في قرطبة ـ كخلفاء؛ وكان آخرهم المستكفي محمد ابن عبد الرحمن؛ فكان سيئ السيرة، فاسد الخلق، مهملا لشئون الحكم؛ فانفض من حوله أعيان البلدة؛ وخرج بعضهم ـ وعلى رأسهم الوزير الشاعر أحمد بن شهَيد ـ إلى مالقة؛ مستنجدين بيحيى ابن علي؛ آملين في عودته؛ بعد أن يئسوا من جدوى الاتكال على بني أمية. عندئذ زحف يحيى ـ كرة أخرى ـ نحو قرطبة؛ لاستعادتها وضمها إلى مملكته؛[1] خاصة بعد أن خلا له الجو من منافسة عمه الذي أضحى سجينا عنده في مالقة. ودخل ـ كما جاء في بعض الأقوال ـ إلى قرطبة من جديد في شهر رمضان من سنة 416هـ(1025م). ولكنه لم يبق في المدينة أكثر من سنة؛ ثم خرج إلى مالقة ـ أيضا ـ وبالتحديد في شهر محرم من سنة 417هـ(1026م). وذلك لأنه لم يعد يرغب في اتخاذها عاصمة لدولته؛

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 142. أما المراكشي وابن الأثير فيقولان ـ بصراحة ـ أنه لم يذهب إلى قرطبة بنفسه؛ وإنما بعث إليها عبد الرحمن بن عطاف اليفرني واليا عليها من قبله. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. كما يفهم من سياق ما كتبه ابن خلدون ـ بغموض ـ أنه اكتفى بإرسال الوالي المذكور. العبر، مج: 4، ص: 332.

بعد أن ضاق بها وبأهلها المشاغبين؛ فترك فيها وزيره وكاتبه أحمد بن موسى[1] مع دوناس بن أبي روح. غير أن أهل قرطبة نقضوا عهدهم، وثاروا عليهما ـ كعادتهم ـ في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وذلك لما سمعوا بزحف مجاهد وخيران العامريين نحو قرطبة؛ من قبل حبوس بن ماكسن بن زيري.[2] ولكن مجاهد وخيران اختلفا؛ فخاف كل واحد من صاحبه؛ الأمر الذي جعل خيران ينسحب من قرطبة، ويعود إلى المرية.

وجملة القول يبدو أنه ـ على الرغم من ترحيب الناس بيحيى (**المعتلي**) في الفترة الأولى من حكمه لقرطبة ـ فإنهم سرعان ما تحولوا عن تأييده والقبول به. ويبدو أن السبب يعود إلى ما ورد في جل المصادر؛ من أنه من جهة وقع فريسة للعجب والغرور والتكبر؛ وذلك تبعا لما أظهره من كبر وزهو بنفسه، وما لجأ إليه من فرض الحجاب؛ والترفع عن الاستقبال ومباشرة القضايا بنفسه. ومن جهة أخرى أنه سقط في فخ بعض الوزراء والمستخدمين من السفلة والمنحطين. غير أن ثمة عاملا أخر أغضب بعض الفئات الفاعلة منه. حدث ذلك عندما طالبه رؤساء الأمازيغ بالوفاء بوعده لهم؛ بخصوص عزل السودان من مناصبهم التي حصلوا عليها أيام عمه القاسم؛ فأجابهم في شيء

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 143 ـ 144. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136. وأجمع كل من: عبد الواحد المراكشي وابن الأثير وابن خلدون والمقري على أن الذي ولاه يحيى على قرطبة هو عبد الرحمن ابن عطاف اليفرني. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. والعبر، مج: 4، ص: 332. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 288. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 143. وذكر ابن الخطيب معهما اسم زهير؛ مع أنه في الحقيقة كان مساعدا لخيران. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136.

وتهرب من أشياء. عندئذ شرعوا في المشاغبة وإبداء مظاهر العصيان والتمرد. ولما اشتدت ضغوطهم؛ هرب جماعة كبيرة من السودان إلى عمه في إشبيلية؛ وبقي هو منفردا أمام الأمازيغ الساخطين من جهة، والقرطبيين المعارضين من جهة أخرى. وهكذا ساءت الحال بيحيى في قرطبة؛ فاختار بدوره ـ كعمه ـ الهروب منها، والالتحاق بمالقة. فما كان من الأمازيغ إلا الإسراع في استدعاء القاسم إلى قرطبة مرة ثانية؛ وذلك في سنة 413هـ(1022م). وكان من قبل متصلا بهم؛ عاملا على التحريض وبث الفتنة؛ مثلما سبق أن عمل يحيى بالضبط. هذا ولم يطل بقاء القاسم ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ في قرطبة؛ إذ اضطر هو بدوره إلى الخروج منها مطرودا بضغط من سكانها؛ وذلك في سنة 414هـ(1023م). ويبدو أنهم ـ كما أشار إلى ذلك ابن الأثير وابن خلدون ـ قد استضعفوه بعد أن وصلتهم أخبار أفادت بتغلب ابن أخيه يحيى المعتلي على حصونه ومراكزه في الجزيرة الخضراء وطنجة.[1]

❁ ❁ ❁

<u>ـ دولة بني حمود خارج قرطبة:</u>

وبخروج القاسم إلى إشبيلية ويحيى إلى مالقة؛ أفل شعاع قرطبة نهائيا كحاضرة للخلافة بالأندلس. وأصبحت كغيرها من مدن تلك الديار؛ تابعة لمراكز أخرى؛ سواء كانت مالقة أو طليطلة أو إشبيلية أو غيرها. وأضحى. الحديث ـ من جهة أخرى ـ عن دولة بني حمود لا يعدو أن يكون حديثا عن إمارات

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 286. والعبر، مج: 4، ص: 331.

متفرقة للحموديين ـ مثلها مثل أي إمارة من إمارات الطوائف ـ في: مالقة أو في الجزيرة أو في سبتة؛ ثم انحدر بها الحال شيئا فشيئا أخيرا إلى مجرد إمارة صغيرة في مدينة مليلة. ومع هذا فقد أصر أصحاب تلك الإمارات على إضفاء صفة الخلافة على ملكهم الهزيل.[1] وهذا ما جعل أبو محمد علي بن حزم يصرخ مستنكرا لما آلت إليه الأوضاع السياسية في الأندلس: ((**فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام؛ كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين؛ ويُخطب لهم بها في زمن واحد. وهم: خَلَفٌ الحُصُريُّ بإشبيلية؛ على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود بِبُبَشْتر**)).[2] وبالطبع فالذي يتحمل تبعات جل تلك الأوضاع الشاذة، والاضطرابات المدمرة ـ التي نسفت الدولة الأموية، ومن بعدها الدولة الحمودية؛ وبالتالي مزقت بلاد الأندلس إلى دويلات وكيانات هزيلة؛ لا تقوى على الدفاع عن أمنها وأمن رعاياها ـ هي ظاهرة العصبية القبلية؛ تلك الظاهرة المرضية التي سادت بلاد الأندلس آنئذ.

---

[1] أعلن يحيى وأبناؤه أنفسهم خلفاء في مالقة؛ حيث تلقبوا بالألقاب الخلافية. وبالمقابل أعلن أبناء القاسم أنفسهم خلفاء في الجزيرة الخضراء؛ وتلقبوا ـ بدورهم ـ بالألقاب الخلافية. أنظر: الكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 286 ـ 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 144. 191 ـ 192. 216 ـ 219. والعبر، مج: 4، ص ص: 331 ـ 335. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 140 ـ 143.

[2] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء (ضمن كتاب رسائل ابن حزم الأندلسي)، ج: 2، ص ص: 97 ـ 98.

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود في مالقة:

فمنذ البداية كان يحيى يميل إلى الاستقرار في مدينة مالقة أكثر من ميله إلى قرطبة؛ تلك المدينة التي لا تستقر على حال. وذلك لأن مالقة تحتل موقعا قريبا من أنصاره وعصبيته في الضفة المغربية. لذا فعند خروجه في المرة الثانية من قرطبة في سنة 417هـ(1026م)؛ قرر أن يجردها من صفتها السابقة كعاصمة للخلافة؛ ووضعها في مصاف المدن الثانوية التابعة لمركز الخلافة في مالقة. لهذا فقد أسند شئونها إلى بعض معاونيه؛ كـ: أبي جعفر أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح في قول، أو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني في قول آخر.

وكان قد عمل ـ قبل هذا التاريخ، وبالتحديد في سنة 413هـ(1022م) لما خرج في المرة الأولى من قرطبة ـ على تنظيم شئونه في مالقة؛ حيث تمسك بإعلان نفسه خليفة إلى جانب عمه خليفة إشبيلية. وبقي يترقب ما يجري في قرطبة وإشبيلية؛ حتى وصلته أخبار هروب عمه القاسم من قرطبة للمرة الثانية، وامتناع إشبيلية عن استقباله؛ الأمر الذي اضطره إلى اللجوء إلى شريش. عندها لم يترك يحيى هذه الفرصة تفوته؛ لذا فقد زحف فورا إلى شريش؛ بنية القتال ضد عمه؛ إذ حدثت بينهما معارك شديدة؛ ضيق خلالها يحيى الحصار على عمه حتى استسلم له في الأخير؛ فقام بأسره؛ ثم نقله معه إلى مالقة عاصمة ملكه. أين كان مصيره القتل في السجن سنة

427هـ(1035م).[1] في قول، أو في 431هـ(1039م) في قول آخر.

وكان يحيى بن علي يسعى جاهدا ـ منذ ترك قرطبة في المرة الأولى ـ إلى تمهيد دولته وتقويتها انطلاقا من مالقة؛ لذا فإنه لم يتراخ لحظة واحدة عن محاولة ضم مقاطعات جديدة لمملكته؛ من ذلك أنه تغلب على الجزيرة الخضراء؛ التي كانت إحدى مراكز عمه الخلفية؛ وفي الوقت نفسه تمكن أخوه إدريس ـ الوالي على سبتة ـ من التغلب على طنجة؛ التي كانت ـ أيضا ـ حصنا ومستودعا لذخائر عمه. ويعتبر خروج هاتين المقاطعتين الهامتين من يد القاسم؛ بمثابة الضربة القاصمة لسلطانه. وتلا ذلك ـ بالفعل ـ اضطراب حاله في قرطبة، إذ أعلن سكانها عليه العصيان.[2] ولم يكتف يحيى بهذا فحسب؛ بل تحرك أيضا لقتال عمه في شريش كما سبق ذكره. حيث قبض عليه مع ولديه: محمد والحسن؛ حيث

---

[1] شرح المقري سبب قتله بقوله: ((وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه، وإسلام أهل شَرِيشَ له، وفر سودانه؛ وحصل القاسم وابنه في يد يحيى؛ وكان قد أقسم أنه إن حصل في يده ليقتله، ولا يتركه حتى يلي الإمامة في قرطبة مرة ثانية؛ فرأى التربص في قتله حتى يرى رأيه فيه. فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله بقيد إلى مالقة، وحبسه عنده؛ وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماؤه في الإبقاء عليه؛ لأنه لا قدرة له في الخلاص... وامتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقا بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه؛ لأنه كان قد حبسه في حصن من حصون مالقة؛ فنمي إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان؛ فقال أوَبقي في رأسه حديث بعد هذا العمر؟ فقتله سنة 427هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488. وذكر عبد الواحد المراكشي أنه بقي في السجن في زمن كل من: يحيى وإدريس؛ ولم يقتل خنقا إلا بعد موت إدريس في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 ـ 52. أما ابن الأثير فيرى أن الذي قتل القاسم هو إدريس بن علي وليس يحيى. الكامل، ج: 7، ص: 287.

[2] العبر، مج: 4، ص: 331.

سجنهم بمالقة؛ وربما يكون ـ كما جاء في بعض الروايات ـ قد حبس ابني عمه في الجزيرة الخضراء.[1]

ولم يكتف المعتلي يحيى بن علي بما افتكه من عمه؛ بل أكره عددا من أمراء الأمازيغ؛ كي يتخلوا له عن بعض مدنهم وحصونهم؛ التي تغلبوا عليها من قبل. وقد اتخذ من تلك الحصون منطلقا لحصار إشبيلية والتضييق عليها؛ كي يجبر ابن عباد على التسليم له والإذعان للطاعة.[2] ويبدو أن بعض القبائل الأمازيغية لم تكن مخلصة الإخلاص كله للمعتلي؛ وما خضوعها وإعلان طاعتها إلا سياسة مهادنة؛ الهدف منها كسب الوقت. وهذا ما يتضح من الاتفاق الذي عقد بين أمير بني برزال وابن عباد ضد يحيى بن علي. إذ تجلى ذلك في مساعدة البرزالي لابن عباد في قتل يحيى؛ بل يقال أن أمير البرزاليين محمد بن عبد الله هو الذي قتل يحيى بيده سنة 426هـ(1034م) أو 427هـ في قول آخر.[3] وذكر في هذا ابن خلدون: **((فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد؛ وقد كمنوا له؛ فكبا به فرسه وقتل. وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي؛**

---

[1] نفسه، ص: 332.

[2] يقول في هذا ابن الأثير: ((واتفق البربر على طاعته، وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن؛ فقوي وعظم شأنه، وبقي كذلك مدة ثم سار إلى قرمونة؛ فأقام بها محاصرا لإشبيلية طامعا في أخذها)). الكامل، ج: 7، ص: 288. ويتفق معه ابن خلدون فيقول: ((وأقام يحيى المعتلي يخيفهم ويردد العساكر لحصارهم [يقصد هنا ملوك الطوائف] إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له؛ فعلا سلطانه واشتد أمره؛ وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره؛ فنزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد بإشبيلية؛ إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله)). العبر، مج: 4، ص ص: 332 ـ 333.

[3] أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 188. والعبر، مج: 4، ص: 333. بينما قال عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أنه قتل في المحرم من سنة 427هـ. المعجب، ص: 61. والكامل، ج: 7، ص: 288.

وانقطعت دولة بني حمود من قرطبة)).[1] ولما قتل المعتلي وضع ابن عباد السيف في أنصاره؛ وكانوا في معظمهم من الأمازيغ؛ فتحركت النعرة والعصبية في صدر البرزالي؛ بسبب ما لحق ببني جلدته؛ فطلب من ابن عباد أن يرفع السيف عنهم. وفي هذا يقول ابن عذاري: **((واستمرت** [أي عمليات القتل] **على أصحاب يحيى؛ حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالي، وبدت عصبيته لقومه؛ وكلم ابن عباد في رفع السيف عنهم؛ فأطاعه في ذلك، وتم لأبن عبد الله ما أراد من حقن الدماء؛ إذ لم يأت الذي أتاه إلا عن ضرورة)).**[2] وتلك الضرورة لم تكن في الحقيقة سوى الرغبة في استعادة حصن قرمونة؛ الذي افتكه يحيى من سيد بني برزال؛ واتخذه منطلقا لحصار إشبيلية. هذا وقد ترك يحيى ولدين صغيرين هما: الحسن وإدريس.[3]

❁ ❁ ❁

ـ <u>الانقسام الثاني في أسرة بني حمود:</u>

حدث الانقسام الأول ـ كما سبق شرحه ـ في سنة 412هـ(1021م)؛ عندما خرج يحيى بن علي بن حمود عن طاعة عمه القاسم؛ حيث أعلن نفسه خليفة بقرطبة؛ في الوقت الذي احتفظ عمه القاسم بلقبه الخلافي في إشبيلية؛ حاضرة ملكه الجديدة. ولما استحوذ

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 333. وتوسعت المصادر الأخرى في شرح الكيفية التي قتل بها يحيى بن علي. منها الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص ص: 316 ـ 318. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 188 ـ 189. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 137.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص: 189.

[3] الجمهرة، ص: 51. المعجب، ص: 54. والكامل، ج: 7، ص: 288.

يحيى على ملك الحموديين بالأندلس، وانفرد بالحكم - بعد تغلبه على مراكز عمه الخلفية في الجزيرة وطنجة - زج بعمه في سجن مالقة؛ ثم حبس ولديه: محمدا والحسن بالجزيرة؛[1] حيث أوكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبي الحجاج. ولما قتل (**المعتلي يحيى بن علي**) بن حمود سنة 427هـ (1035م) سارع أبو الحجاج هذا إلى الإفراج عنهما.[2] ثم طلب من أصحاب الحل في الجزيرة - من السودان والأمازيغ - البيعة لمحمد بن القاسم؛ الذي اكتفى - في البداية - بالإمارة على الجزيرة؛ وتغاضى عن الادعاء بالخلافة. ولكنه - فيما بعد - أعلن نفسه خليفة سنة 439هـ(1047م) وتسمى بالمهدي.[3] ولما توفي ولي بعده في مرتبة الخلافة - كما يزعم بعضهم - ابنه القاسم بن محمد؛[4] الذي قيل أنه تسمى بالواثق.[5] وكان هذا الأمير هو آخر من تولى من بني القاسم في الأندلس. ويعود السبب في انتقال الخلافة من بني علي بن حمود إلى

---

[1] فحين يرى عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أن يحيى قد سجنهما في الجزيرة الخضراء؛ يقول ابن خلدون والمقري أن محمدا كان مسجونا بمالقة؛ ثم فر من سجنه في سنة 414هـ إلى الجزيرة. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] وحتى هذا الخبر فيه خلاف؛ إذ يرى عبد الواحد المراكشي أن الموكل بهما أخرجهما إثر مقتل يحيى ابن علي؛ بينما يقول ابن الأثير أنهما أخرجا من المعتقل بعد موت إدريس بن علي؛ بينما يجعل ابن خلدون تاريخ هروب محمد بن القاسم - من معتقله بمالقة إلى الجزيرة - في عام 414هـ. أنظر: المعجب، ص: 62. والكامل، ج: 7، ص: 289. والعبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[3] هكذا في جل المصادر؛ بينما قال ابن خلدون أنه تسمى بالمعتصم. العبر، مج: 4، ص: 335.

[4] قال ابن حزم أن محمد بن القاسم خلف من الأولاد: ((يحيى الأصم؛ أكبرهم، ثم القاسم؛ الوالي بعد أبيه؛ وكان حصورا؛ لا يقرب النساء، وإبراهيم، وأحمد، وجعفر، والحسين)). الجمهرة، ص: 51.

[5] هكذا قال ابن خلدون، العبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن حزم والمراكشي فيقولان أنه لم يتسم بالخلافة. الجمهرة، ص: 50. والمعجب، ص: 68.

بني أخيه القاسم؛ إلى ما أصاب دولة الأدارسة في مالقة من تفكك ووهن؛ لذا فقد قرر أمراء الأمازيغ ـ في تلك الديار ـ أن ينقلوا الخلافة من أسرة علي بن حمود في مالقة؛ إلى أسرة أخيه القاسم بالجزيرة. وأولئك الأمراء هم: باديس بن حبوس الصنهاجي أمير بني زيري في غرناطة، وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي أمير قرمونة، ومحمد بن نوح بن أبي تزيري الدمري الزناتي أمير مورور، وعبدون ابن خزرون الرنداجي الزناتي أمير بني خزرون في أركش.[1] هذا وقد بقي أبناء القاسم في إمارتهم بالجزيرة حتى سنة 446هـ(1054م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها عليهم جيش المعتضد بن عباد؛ حيث أجلاهم قائد ذلك الجيش عن الجزيرة؛ فانطلقوا إلى المرية في حماية المعتصم بن صمادح.

ـ حكومة المهدي محمد بن القاسم بن حمود:

نشأت هذه الإمارة ـ كما سبق قوله ـ في الجزيرة الخضراء أيام القاسم بن حمود؛ بتكليف من الخليفة الأموي المستعين بالله سليمان ابن الحكم.[2] ثم تغلب عليها المعتلي يحيى ابن علي، وقبض على ولدي القاسم: محمدا وحسن. ولكنهما استطاعا الإفلات بعد موت يحيى ابن علي سنة 427هـ(1035م)؛[3] والعودة إلى امتلاك الجزيرة من جديد؛ بمساعدة المكلف

---

[1] والكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 218. 229 ـ 230.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 284. والمعجب: ص: 43. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 128.

[3] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 62 ـ 63. أما ابن خلدون والمقري فيريان أنهما تمكنا من الفرار من محبسهما بمالقة في سنة 414هـ. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

حراستهما؛ وهو من المغاربة، ويدعى أبا الحجاج.
منذئذ اعتلى محمد بن القاسم على عرش الجزيرة
خضراء؛ دون أن يتسمى – في البداية – بالألقاب
خلافية. أما أخوه حسن فقد تنسك، ولبس الصوف؛
م توجه إلى الحج مع أخته فاطمة؛ زوجة المعتلي
حيى بن علي. وبقي محمد بن القاسم على ذلك
حال حتى زحف إليه نجا الصقلبي؛ بغرض امتلاك
جزيرة؛ وذلك في سنة 434هـ(1042م)؛ فخرجت إليه
محمد والقاسم – واسمها سبيعة – فاحتجت عليه
ائلة: **((يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن
بلاد؛ ما هذا بحسن)).**[1] فاستحى من قولها وتخلى
ن غرضه.[2] وظل محمد في إمارته تاركا مرتبة
خلافة لبني عمه؛ أبناء علي بن حمود؛ دون السعي
زاحمتهم في الألقاب الخلافية؛ حتى قرر أمراء
لأمازيغ – سنة 439هـ(1047م) – تحويل دعوتهم
الخلافة من بني علي بن حمود إلي بني القاسم؛[3]

البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.
يقول عبد الواحد المراكشي أنه أحس بفتور من أصحابه؛ لذا تراجع:
((ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه
اما؛ ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا
صل فيها نفى من يخاف غائلته منهم، واستصلح سائرهم؛ واستدعى
صقالبة من حيث أمكنه ليقوى بهم على غيرهم)). المعجب، ص: 64.
قال ابن عذاري: ((وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة – قال ابن حيان –
يها تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن
قاسم بن حمود الحسني؛ وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء؛ وهم أربعة
مراء: إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن
وح الدميري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وكبيرهم
ديس بن حبوس صاحب غرناطة وأعمالة وأستجة وغيرها. فبايع جميعهم
ه بالخلافة؛ وتسمى من الألقاب الخلافية بالمهدي، وخطب له جميع هؤلاء
أمراء في بلادهم على المنابر؛ ثم نهضوا مع إمامهم وساروا إلى المعتضد
باد بن محمد صاحب إشبيلية؛ ونزلوا عليها؛ ودخل معهم ابن الأفطس
احب بطليوس. وكانت عدة هؤلاء الرؤساء مع إمامهم محمد بن القاسم
لى عباد بن محمد سبعة ملوك؛ ثم انصرفوا مع خليفتهم؛ ولم يقض=

عندئذ تلقب محمد بالمهدي[1] ونسب إلى نفسه خلافة المسلمين. ويبدو أن الأمازيغ عادوا فتخلوا عنه، وتركوه وحيدا؛ إذ يقال أنه مات غما سنة 440هـ(1048م). ويقول عبد الواحد المراكشي أنه أنجب زهاء ثمانية أولاد ذكورا.

ـ حكومة القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود:

تولي القاسم بن محمد الحكم في الجزيرة الخضراء إثر وفاة والده سنة 440هـ(1048م). وقد اختلفت آراء المؤرخين في المرتبة الملكية التي احتلها القاسم هذا؛ إذ يقول ابن خلدون والمقري ـ على سبيل المثال ـ أنه تسمى بلقب الواثق؛ بينما يرى ابن حزم أنه لم يتسم بالخلافة؛ ويتفق مع ابن حزم كل من: ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي.[2]

هذا ولم يقم القاسم بن محمد بما يستحق الذكر والتنويه في بلاد الأندلس؛ طوال المدة التي حكم فيها الجزيرة الخضراء. وكل ما ذكره عنه المؤرخون هو تعرض بلاده لغزو جيش المعتضد بن عباد؛ بقيادة عبد الله بن سلام في سنة 446هـ(1054م). فتمكن من

=الله لهم أربا. فلم يكن لهم بعد ذلك اجتماع، ولا اتفاق")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 219 ـ 220.

[1] يعتقد ابن خلدون والمقري: أنه تلقب بالمعتصم. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة خمسين [وأربعمائة])). العبر، مج: 4، ص: 335. أنظر أيضا: نفح الطيب، ج: 1، ص: 435. أما ابن حزم فيقول: ((وولي الجزيرة بعد محمد بن القاسم المذكور ابنه القاسم بن محمد؛ ولم يتسم بالخلافة؛ إلى أن خرج عنها سنة 446هـ)). الجمهرة، ص: 50. ويؤيد ابن الأثير هذا الأمر بقوله: ((فولي الجزيرة ابنه القاسم؛ ولم يتسم بالخلافة)). الكامل ج: 7، ص : 289. ويقول المراكشي أيضا: ((فتولى أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد ابن القاسم؛ إلا أنه لم يتسم بالخلافة)). والمعجب، ص: 68.

التغلب على الجزيرة الخضراء؛ وأخرج القاسم منها؛ حيث أعد له مركبا لينقله حيث يشاء؛ فاختار المرية؛ في حماية المعتصم بن صمادح؛ بعد أن يئس من قبوله في سبتة؛ حيث يقيم سقوط البرغواطي.[1] وتقول بعض الروايات أن القاسم بن محمد توفي بالمرية سنة 450هـ(1058م).[2] ويقول ابن حزم أنه كان حصورا لا يقرب النساء؛ وعليه فلم يخلف أولادا.[3]

❁ ❁ ❁

ـ <u>حكومة المتأيد بالله إدريس بن علي بن حمود:</u>

ولما قتل المعتلي يحيى بن علي بن حمود؛ عاد كبير دولته أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة[4] رفقة أبي الفوز نجا الخادم ـ ذلك الفتى الصقلبي[5] المقرب من المعتلي يحيى بن علي ـ إلى مالقة؛ أين استدعيا بسرعة إدريس بن علي أخا يحيى من سبتة؛ حيث عقدا له البيعة؛ بشرط أن يسند

---

[1] قال ابن عذاري: ((وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة نظر المعتضد عباد في حسن الجزيرة الخضراء وأميرها القاسم بن محمد العلوي؛ فضيق عليه إلى أن نزل عن بلده بأمان على نفسه وخرج؛ فكان الذي حصرها له قائده عبد الله بن سلام؛ فأعد عبد الله للقاسم مركبا يسير فيه حيث شاء. وكان أمير سبتة يومئذ سواجات [سقوط] البرغواطي؛ وكان القاسم هذا استنصره فلم ينصره؛ فنكب عن سبتة إلى المرية؛ وبقي بها إلى أن توفي. واحتوى قائد بن عباد على الخضراء؛ ثم خرج منها بالعسكر؛ تهفو بهم ريح النصر؛ وقد قدروا ألا غالب لهم؛ فلقوا جماعة من بني يرنيان؛ فوقعت بينهم حرب انهزم لها خيل ابن عباد؛ وقتل قائدهم عبد الله ابن سلام؛ وانصرف الجيش لابن عباد مهزوما)). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 242 ـ 243.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 242 ـ 243. الأعلام للزركلي، ج: 6، ص: 16. أما ابن بسام فلم يذكر المرية؛ ولكنه قال أنه لجأ إلى قرطبة؛ حيث مات بها في التاريخ نفسه. الذخيرة، ق: 2، مج: 1، ص ص: 36 ـ 37.

[3] الجمهرة، ص: 51.

[4] ورد في بعض المصادر ابن بقية والصحيح هو ابن بقنة.

[5] في العبر؛ الصقلي؛ مج: 4، ص: 333.

ولاية سبتة وطنجة للحسن بن يحيى بن علي؛ فقبل إدريس بذلك؛ وانتقل الحسن بن يحيى ـ رفقة الفتى الصقلبي نجا ـ إلى ولاية سبتة. وفي البيعة تلقب إدريس بن علي بالمتأيد بالله واعتلى سدة الخلافة؛ مثلما كان عليه أخيه يحيى بن علي؛ فاعترف بخلافته جمع كبير من الأمازيغ، وبعض الفتيان العامريين؛ مثل: حبوس ابن ماكسن بن زيري، ومحمد بن عبد الله البرزالي، والفتى الصقلبي العامري زهير المتغلب على المرية، وغيرهم. وفي الخامس من ذي القعدة سنة 427هـ(1035م) اتفقوا ـ جميعا ـ على محاصرة إشبيلية؛ أين استولوا على بعض الحصون والقلاع المحيطة بها.[1]

هذا وقد واجه إدريس المتأيد مقاومة شديدة من طرف ابن عباد؛ الذي عمل جاهدا على استقطاب الناس نحو إشبيلية، والاعتراف بها عاصمة للخلافة؛ إذ أظهر بها رجلا زعم أنه هشام المؤيد؛ فنادى به خليفة للمؤمنين؛ بغرض قطع الطريق في وجه بني حمود؛ الذين يستأثرون بالخلافة. وكان القاضي أبو القاسم بن عباد يعتمد كل الاعتماد في تحقيق مشاريعه على ابنه إسماعيل؛ الذي نجح في قتل يحيى المعتلي ـ كما سبق ذكره ـ أمام قرمونة. ولما تولى إدريس

[1] قال ابن عذاري: ((وفيها [أي سنة 427هـ] اجتمع زهير وحبوس مع محمد بن عبد الله زعيم زناتة بجهة أستجة في يوم الأربعاء لخمس خلون من ذي القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة إشبيلية؛ واحتلوا قرية طشتانة، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد واحتلوا بالقلعة يوم الإثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طريانة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر؛ وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس بن علي بن حمود؛ وانصرفوا إلى قرمونة؛ وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وانصرف زهير إلى المرية، وأخطب لإدريس فيها في منتصف شهر ذي الحجة من السنة)). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 190 ـ 191.

بن علي الخلافة واصل التحرش ببني عباد؛ مثلما كان الحال أيام أخيه يحيى. ووقف أمراء الأمازيغ وبعض الفتيان الصقالبة إلى جانب إدريس؛ نظرا لما عانوه من أطماع ابن عباد. لذا فقد اشتد الصراع بينهم وبين بني عباد، وامتد نطاقه حتى شمل جل المراكز والحصون الأمازيغية في الأندلس. ولم يستثن ابن عباد في ذلك حتى حصون حليفه السابق محمد بن عبد الله البرزالي؛ إذ انتزع منه أشونة وأستجة، وبعدهما عمل على حصار قرمونة. وهنا التأم شمل الأمازيغ — في بداية الأمر — من جديد؛ بدعم من الفتى العامري زهير. فتمكنوا بفضل حلفهم — بعد فترة — من تكبيد بني عباد خسائر فادحة؛ حيث قتل إسماعيل بن أبي القاسم، بعد أن انكسر جيشه على مشارف قرمونة؛ فحزوا رأسه وأرسلوه إلى المتأيد بالله إدريس بن علي الذي كان آنئذ مريضا في حصن بُبَشتر. ولم يعش إدريس — بعد هذه الموقعة — سوى يومين؛ إذ مات في المحرم من سنة 431هـ(1039م).[1] وخلف ثلاثة أولاد هم: يحيى ومحمد والحسن؛ وكان له ابن أكبر مات في حياته من قبل؛

[1] قال ابن خلدون في هذا بإيجاز: ((وكان أبوه [أي إسماعيل] أبو القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده لانتزاع البلاد من أيدي الثوار؛ وملك أشونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي؛ وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة؛ فاستصرخ محمد بن عبد الله بالمتأيد هذا وبزاوي(؟)؛ فجاء زاوي بنفسه، [مات في سنة 428هـ؛ وعليه يكون من شاركهم هو ابنه باديس] وبعث المتأيد هذا عساكره مع ابن بقية [الصحيح هو ابن بقنة]؛ فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة؛ هزم فيها ابن عباد، وقتل، وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد؛ وهلك [أي المتأيد] ليومين بعدها؛ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة)). العبر، مج: 4، ص: 333.

اسمه علي؛ ترك من الأولاد ـ هو الآخر ـ ابنا اسمه عبد الله بن علي بن إدريس[1].

ـ حكومة المستنصر الحسن بن يحيى بن علي:

أراد ابن بقنة ـ بعد موت المتأيد بالله إدريس بن علي ـ تنصيب ولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون؛ الذي تلقب بالقاسم بالله؛ ولكن الفتى نجا الصقلبي لم يترك له الفرصة لتمهيد حكمه؛ إذ عاجله بالقدوم من سبتة ومعه الحسن بن يحيى ابن علي؛ فهرب ابن بقنة مع يحيى بن إدريس إلى حصن كمارش [قمارش] القريب من مالقة. ولما دخل نجا الخادم إلى مالقة رفع مولاه الحسن بن يحيى إلى[2] سدة الخلافة بمالقة؛[3] فبايعه الناس وتسمى بالمستنصر[4] سنة 431هـ(1039م). وبعدها عمل الحسن على استدراج ابن بقنة وتطمينه بوعد أمان؛ فعاد رفقة يحيى بن إدريس

---

[1] المعجب، ص: 62.

[2] يبدو أن في الأمر خلط والتباس؛ إذ يعتقد: ابن عذاري وابن الخطيب أن الحسن هذا هو ابن علي بن حمود. وقد تبنى هذا الرأي أيضا إسماعيل العربي. وهذا طبعا لا يستقيم مع ما ثبت من أن علي لم يخلف سوى ولدين اثنين هما: يحيى وإدريس. وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى ـ وهي كثيرة ـ انطلاقا من جمهرة ابن حزم، ص: 51. إلى المغرب للبكري، 133. إلى العبر لابن خلدون، مج: 4، ص ص: 331. 334. إلى نفح الطيب للمقري، ج: 1، ص: 432. أنظر نقيض ذلك في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140. دولة الأدارسة، ص: 267. هذا ويفهم من أقوال ابن عذاري وابن الخطيب أن هناك شخصين يسميان بحسن: الأول بن علي، والثاني ابن يحيى. المهم أن هذه الفترة من حكم الأدارسة يكتنفها غموض كثيف.

[3] ذكر البكري أن إدريس بن علي عين الحسن بن يحيى وليا لعهده. أنظر المغرب، ص: 133.

[4] هذا هو اللقب الذي ذكره: ابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون والمقري؛ أما عبد الواحد المراكشي فقال أنه لقب بالمستعلي؛ والظاهر أنه وقع في التباس. أنظر: المعجب، ص: 63. والكامل، ج: 7، ص: 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. والعبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

(حيون) إلى مالقة؛ أين قبض عليهما المستنصر وأمر بقتلهما.[1] وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة عمه إدريس، وأخت يحيى بن إدريس (حيون) المقتول؛ فعملت جهدها للانتقام منه، والثأر لأخيها؛ وعليه يقال أنها اغتالته بسم دسته له. وذلك في جمادى الأولى من سنة 434هـ(1042م).[2] ويقال أن الحسن بن يحيى خلف ولدا وتركه في كفالة نجا الخادم بسبتة؛ فقتله طمعا في اغتصاب الملك.

ـ حكومة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود:

كان نجا الصقلبي قد ترك في مالقة ـ عندما رجع إلى مقر ولايته بسبتة ـ رجلا من التجار يثق فيه اشتهر باسم محمد السطيفي؛ وأوصاه بالسهر على سير الإمارة، وعلى سلامة سيده الحسن بن يحيى.

[1] ثمة رأي آخر مفاده أن حيون لم يعد إلى مالقة؛ بل بقي في حصن إيرش؛ حيث مات به سنة 434هـ. وثمة رأي آخر ذكره ابن خلدون مفاده أن الخادم نجا قتله مع ابن للحسن ابن يحيى صغير كان لديه. أنظر: العبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432. هذا فيما يخص حيون؛ أما بخصوص أبي جعفر بن موسى (ابن بقنة) فابن عذاري يرى بأن بقنة قتل بمالقة؛ بعد مقتل الفتى نجا فقول: ((ثم نهض قوم منهم [أي من الثوار الذين قتلوا نجا] إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر ابن موسى فقتلوه، وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه؛ وبايعوه؛ وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر، وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. إذن يفهم من هذا النص أن ابن بقنة هو الذي كان مع الحسن بن يحيى؛ وليس السطيفي كما ذكر المراكشي، أو الشطيفي كما سماه ابن الأثير. والغريب أن ابن عذاري يخلط في الأمر في موضع آخر؛ حين ذكر أن أبا جعفر بن موسى هذا استوزره الحسن بن يحيى، ثم قتله سنة 433هـ بعد أن امتحنه واستصفى أمواله. أنظر البيان المغرب، ج: ص: 290. كما أنه ـ في الوقت الذي أغفل ذكر السطيفي من قبل؛ ذكره في موضع آخر على انه قتل في اليوم الذي بويع فيه العالي إدريس بن يحيى؛ وذلك في خبر يتوافق مع ما ذكره عبد الواحد المراكشي؛ ويتعارض مع ما سبق أن قاله ابن عذاري نفسه. لذا يتدعم الرأي القائل بأن هذا النص أو (القطعة) ليس من سياق كتاب ابن عذاري؛ ولم يكن أصلا منه. أنظر البيان المغرب، ج: 3، المقدمة، ثم: ص: 291.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 63 ـ 64.

ولما قتل الحسن مسموما بيد زوجته؛ سارع السطيفي إلى اعتقال أخيه إدريس بن يحيى؛ خوفا من خروج الأمر من يده ويد نجا الصقلبي الوصي على العرش؛ ثم بعث بالخبر إلى ذلك الفتى الصقلبي نجا؛ فسارع من فوره إلى التوجه في قوة إلى مالقة؛ ولما دخلها زاد في التضييق على إدريس بن يحيى، إذ قام هو الآخر بالتحفظ عليه؛ وأبقاه في سجنه أيضا؛ خوفا من تطلعه للخلافة؛ لأنه ـ كما قيل ـ كان يرغب في القضاء على ملك بني حمود نهائيا. ويبدو ـ كما تقول المصادر ـ أن هذا الفتى الصقلبي كان ينوي ـ في هذه المرة ـ الاستبداد بالدولة، ويسعى لامتلاكها والاستحواذ بها لنفسه[1]؛ بعد أن يجلب مجموعات من الصقالبة؛ ليضمن ولاءهم. غير أن خطته فشلت؛ وذلك بعد أن صرح برغبته تلك للذين كانوا معه من الأمازيغ. وكان جيشه مكونا منهم؛ وبالتحديد من برغواطة؛ وهم أخوال الحسن بن يحيى.[2] فاستاء الأمازيغ من فكرته؛

---

[1] ذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان للحسن بن يحيى المقتول ابن؛ في رعاية الفتى نجا بسبتة؛ وقيل أنه اغتاله؛ حتى يخلو له الجو على ما يبدو. لذا فإنه استخلف في سبتة عند ذهابه إلى مالقة رجلا من الصقالبة كان يثق فيه. المعجب، ص: 64. أما ابن عذاري فقال بوجود ولد للحسن صغير السن بسبتة في رعاية نجا؛ ولكنه لم يشر إلى احتمال قتله. البيان المغرب، ج: 1، ص: 216.

[2] جاء في رواية ابن عذاري: ((فأتى [نجا] الجزيرة الخضراء؛ وفيها ابنا القاسم بن حمود؛ فأراد إخراجهما منها؛ فخرجت إليه سبيعة أمهما وقالت له: "يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن"؛ فاستحيا منها وانصرف إلى مالقة؛ فلما كان ببعض الطريق اجتمعت برغواطة؛ الذين كانوا معه على قتله؛ وكانوا أخوال حسن بن يحيى ومواليه؛ فقالوا: "أنترك موالينا ونتبع عبدا مملوكا خصيا"؛ فتعرض إليه أحدهم... فطعنه بين كتفيه طعنة خرجت من صدره؛ فهلك أبو الفوز نجاء، وقطعوا رأسه وعلقوه من شجرة؛ ثم نهض قوم منهم إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر ابن موسى فقتلوه [يختلف هنا ابن عذاري مع الذين يقولون أن ذلك الوزير هو السطيفي؛ أما ابن موسى (ابن بقنة) فقتله نجا من قبل] وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء=

ولكنهم تظاهروا بأنهم يؤيدونه؛ بينما كانوا يتصيدون الفرصة المواتية للانقضاض عليه. وبالفعل تمكنوا من القضاء عليه؛ أثناء عودته من الجزيرة الخضراء إلى مالقة. ثم قضوا على صنيعته السطيفي بعده.[1] وتم ذلك كله سنة 434هـ(1042م). وبعد ذلك أخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه، ونصبوه على سدة الخلافة، ولقبوه بالعالي؛ في السنة نفسها أي 434هـ(1042م).

ولما تولى إدريس بن يحيى الحكم في مالقة بادر فورا إلى اعتقال: محمد وحسن: ابني إدريس بن علي؛ ووضع عليهما حراسة. ولكن أخذت ـ بعد فترة ـ تظهر على إدريس ابن يحيى بعض التناقضات، والتصرفات الغريبة في تسيير شئون الدولة؛ لذا بدأت ثقة معاونيه تتضعضع فيه؛ وفتر حماسهم نحوه، وصار ولاؤهم يتآكل شيئا فشيئا؛ ويميل إلى الضعف والتلاشى. وعليه فقد أطلق الحراس المكلفين بابني عمه سراحهما؛ ونادوا بخلافة كبيرهما محمد بن إدريس بن علي؛ بدلا من إدريس. وعندما سمع الخبر السودان القائمين بأمن قصبة مالقة؛ سارعوا

=البربر وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217.

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. أما المراكشي فقال في خبر شرح فيه مقتل الخادم الصقلبي نجا: ((وعزم [أي نجا] على محو أمر الحسنيين جملة؛ وأن يضبط تلك البلاد لنفسه؛ فدعا البربر الذين كانوا جند البلد؛ وكشف الأمر إليهم علانية، ووعدهم بالإحسان؛ فلم يجدوا لمساعدته بدا؛ فوافقوه في الظاهر؛ وعظم ذلك في أنفسهم باطنا. ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد ابن القاسم؛ فحاربه أياما، ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم، واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم؛ وأحس البربر بهذا منه؛ فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة؛ فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه؛ وقد تقدمه إليه الذي أراد الفتك به؛ وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم؛ ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة؛ فدخلا وهما يقولان: "البشرى البشرى!" فلما وصلا إلى السطيفي؛ وضعا سيفهما عليه فقتلاه)). المعجب، ص ص: 64 ـ 65.

للاستجابة والدعاء لمحمد؛ ثم أستقدموه إلى حاضرة الملك. ولما انتصب محمد على عرش الخلافة ـ بدخوله إلى مالقة ـ تسمى بالمهدي؛ وولى أخاه حسنا ولاية عهده، ولقبه بالسامي؛ وذلك في سنة 438هـ(1046م).

وبعد أن تمكن الخليفة الجديد من الوضع أمر بالقبض على إدريس (**العالي**)، ثم حبسه في المكان نفسه؛ الذي كان هو أخوه مسجونان فيه؛ أي في حصن قمارش كما قال بعضهم. وبذلك استبدل الخصمان الأماكن والمواقع.[1] ومع ذلك تمكن العالي ـ بعد فترة ـ من الخلاص من محبسه؛ بمعونة بني زيري، وبعض أمراء الأمازيغ؛ الذين لم ترضهم سياسة محمد المهدى؛ المتصف بالتشدد والحزم. وقد تم ذلك عندما استمالوا المكلفين بحراسة العالي في قمارش؛ حيث أقنعوهم بالدعاء للعالي، وإعادته لمنصبه الخلافي؛ انطلاقا من ذلك الحصن؛ وبالفعل قام حراس العالي برفعه إلى سدة الخلافة في تلك الجهات.[2] ولم يكفهم

---

[1] أورد هذا الخبر ابن الأثير، وعبد الواحد المراكشي، الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب: ص: 66. أما ابن عذاري فلم يذكر حصن إيرش تماما؛ وإنما قال نقلا عن ابن القطان: ((فخرج إدريس بن يحيى من مالقة إلى حصن ببشتر مع عبيده ومن تبعه من الجند؛ فغزا مالقة مع باديس بن حبوس؛ فلم يقدر على شيء؛ فرجع إلى حصن ببشتر، وأخرج عياله وجاز إلى سبتة)). ثم أضاف رواية نقلا عن ابن حيان فقال: ((وفي شعبان من سنة ثمان وثلاثين [وأربعمائة] خرج إدريس بن يحيى بن علي بن حمود من مالقة؛ متنزها للصيد فغلق الباب في وجهه أهل البلد؛ ووجهوا إلى ابن عمه محمد بن إدريس، وبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمهدي، وتوطد أمره بمالقة مدة حياته؛ وانصرف إدريس بن [يحيى] بن علي العالي إلى العدوة، ثم رجع= =بعد ذلك إلى الأندلس، واستقر عند أبي نور ابن أبي قرة اليفرني، صاحب رندة شهورا ودعا له بالخلافة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. أما ابن الخطيب فيقول أن محمد بن إدريس انتهز فرصة خروج العالي إدريس بن يحيى إلى حصن ببشتر؛ فاقفل في وجهه أبواب مالقة. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 141. المهم أن الآراء حول دولة الأدارسة في مالقة متضاربة وتختلف من مصدر إلى آخر.

[2] الكامل، ج: 7، ص، 289. والمعجب، ص: 67.

إطلاق سراح إدريس بل عملوا كل جهدهم كي يتغلبوا على مالقة ويعيدوه إلى منصبه فيها. ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع.[1] ولما يئس بنو زيري وأمراء الأمازيغ من إمكان التغلب على مالقة؛ تخلوا عن المطالبة بها. وتركوا العالي وحيدا؛ واتجه أمراء الأمازيغ - بعدئذ - صوب هدف آخر في الجزيرة الخضراء؛ حيث يقيم محمد بن القاسم بن حمود؛ فالتفوا حوله، ونادوا به خليفة للمسلمين؛ ولكنهم تخلوا عنه - هو الآخر بعد فترة - وتفرقوا عنه؛ عندما لم يجدوا فيه فائدة تنتظر.

ولما ترك أمراء الأمازيغ إدريس بن يحيى وحيدا؛ نظرا لفشل مخططهم في احتلال مالقة؛ وتبعا لما كان يبديه من مواقف سلبية ومتناقضة؛ لم يجد أمامه - بعد أن تفرق الأنصار من حوله - سوى اللجوء إلى سبتة؛ تلك المقاطعة المغربية التي سبق له أن وضعها في يد عبد من عبيد أبيه؛ يسمى سقوط أو **(سكوت)** البرغواطي؛ في الوقت الذي أسند فيه - أيضا - مدينة طنجة لعبد برغواطي آخر من عبيد أبيه؛ اسمه رزق الله البرغواطي. وهكذا لم يجد ملجأ مناسبا سواهما يهرب إليه؛ عندما سدت في وجهه السبل؛ وعليه فقد قصدهما؛ قاطعا بحر العدوة؛ فاستقبلاه بالتبجيل والإجلال؛ واعترفا بخلافته؛ ونايا بها؛ ولكنهما

---

[1] قال المراكشي: ((وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة؛ هابه بها جميع البربر، وأشفقوا منه؛ وراسلوا المرتب في الحصن الذي فيه إدريس بن يحيى هذا؛ واستمالوه؛ فأجابهم، وقام بدعوة إدريس... ولم يظهر محمد مبالاة بذلك؛ بل ثبت ثباتا شديدا؛ وكانت والدته تشجعه، وتقوي متنه، وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلى من أبلى؛ فلما رأى البربر شدة عزمه، وثباته؛ فـ تّ ذلك في أعضادهم؛ وتخلوا عن إدريس بن يحيى؛ ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة؛ إلى البرغواطيين اللذين ذكرنا)). المعجب، ص ص: 66 ـ 67.

ـ بالمقابل ـ ضربا عليه حجابا شديدا؛ منع أعيان القوم من الاتصال به. وبعد مدة سئم البرغواطيان منه؛ فنفياه للأندلس مرة أخرى؛ دون أن يتخليا عن الاعتراف به خليفة للمسلمين؛ كما أبقيا لديهما ولده الصغير رهينة للمستقبل. وفي الأندلس اختار إدريس الإقامة في تاكرنة عند بني يفرن ـ دون أن يتنازل عن لقب الخلافة ـ وبقي يرقب الحال إلى أن توفي خصمه محمد المهدي؛ عندها طلب عامة الناس في مالقة عودته إليها؛ فدخل من جديد إلى حاضرة ملكه السابق؛ سنة 445هـ(1053م). وبقي في مالقة إلى أن توفاه الله[1] سنة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م). وبذلك يكون العالي إدريس بن يحيى بن علي ابن حمود قد حكم خلال فترتين متقطعتين: الفترة الأولى بين عامي: 434هـ(1042م) و438هـ(1046م)؛ أما الفترة الثانية فبين عامي: 445هـ(1053م) و446هـ أو 447هـ(1055م). وذلك شأنه شأن أبيه يحيى، وعم أبيه القاسم بن حمود من قبل.

وكان العالي إدريس بن يحيى هذا حسن الثقافة، أديبا وشاعرا؛ كريم الخصال، مهذب الطباع، لطيف المعشر، حسن المجلس، عطوفا، شفوقا، حليما؛ ولكنه ـ مع ذلك ـ كان غريب الأطوار، متناقض المواقف والأفعال. فمما شاع عنه أنه يكثر من أعمال الخير والإحسان؛ حتى قيل أنه واظب على التصدق في كل يوم جمعة بحصة من المال تقدر بخمسمائة دينار.[2] كما يقال أنه رد للذين كانوا مغضوبا عليهم اعتبارهم وحقوقهم،

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن عذاري فيخالف هذا الرأي؛ إذ يرى أن إدريس مات بعد خلعه بفترة قصيرة. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 291.

[2] الكامل: ج: 7، ص: 289.

وأرجع ـ أيضا ـ المطرودين إلى أوطانهم، وأعاد لهم ما أخذ منهم من أملاك وضياع.

وبالمقابل كان يظهر في صورة أخرى مناقضة للصورة الأولى؛ وذلك أنه كان ينادم ويصاحب الأرذال من العباد؛ ويقال أنه لم يكن يحجب حرمه عنهم.[1] ومن غرائب ما عرف عنه أنه لم يكن يبخل حتى بحصونه ورموز دولته؛ إذا ما سأله جيرانه الأقوياء التكرم عليهم بها.[2] وقيل أنه لما انقلب عليه ابن عمه محمد بن إدريس؛ عرض عليه مؤيدوه وأنصاره ـ من العامة ـ أن يسمح لهم بالمقاومة والدفاع عنه؛ فرفض؛ وطلب منهم أن يتركوه وشأنه.[3] فلم يجدوا بدا من تركه لقمة في يد ابن عمه؛ الذي سجنه كما تمت الإشارة إليه. وحتى عندما انتقل إلى سبتة، وقام عبداه: سقوط أو (**سكات**)، ورزق الله البرغواطيان بالحجر عليه، وحجبه عن رؤساء وأعيان البلدة؛ وقف موقفا غريبا؛ وذلك حينما تمكن بعضهم من الاتصال به؛ فطلبوا منه أن يأذن لهم بفك الحصار عنه؛ فأبى ثم أعلم العبدين بما قالوه له؛ مما أدى بالعبدين إلى نفي أولئك الأعيان من سبتة؛ بل نفياه هو بدوره إلى الأندلس؛ بعد أن احتفظا بولده رهينة لديهما. فاستقر به

---

[1] الكامل، 7، ص: 289. والمعجب، ص: 66.

[2] قال المراكشي: ((وكل من طلب منه حصنا من حصون بلاده؛ ممن يجاوره من صنهاجة، أو بني يفرن أعطاه إياه. وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجده: موسى بن عفان السبتي؛ فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب إليه يطلبه منه؛ وأنه لابد من تسليمه إليه؛ قال له موسى بن عفان: "افعل ما تؤمر؛ وستجدني إن شاء الله من الصابرين! " فبعث به إلى الصنهاجي فقتله)). المعجب، ص: 66.

[3] يقول المراكشي: ((واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى، واستأذنوه في حرب القصبة، والدفاع عنه؛ ولو أذن لهم ما ثبت السودان فوارق ناقة [وهذه العبارة تأتي كناية عن السرعة والحسم]؛ فأبى؛ فقال لهم: "الزموا منازلكم ودعوني؛ فتفرقوا عنه)). المعجب، ص: 66.

الحال في تاكرنة عند بني يفرن؛ إلى أن وصله نبأ وفاة خصمه محمد بن إدريس (المهدي)؛ وطلب أهل مالقة منه العودة إلى مركز ملكه؛ فعاد؛ وبقي بها حتى وفاته.

ويعتبر العالي إدريس بن يحيى أبرز بني حمود ذكرا وشهرة عند أدباء وعلماء الأندلس؛ إذ لازم بلاطه عدد كبير منهم؛ كما زاره عدد آخر من الشعراء والعلماء؛ فكان يكرمهم ويجالسهم ويحاورهم ويشاركهم في قرض الشعر ونقده. ومن أولئك الأدباء والعلماء الأديب الشاعر الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد المخزومي المالقي؛ وهو الذي قال في العالي:

رِيحُ الصَّبَا بَلِّغِي أَنْفَاسَ ذِي ظَمَإٍ
وَبَرِّدِيهَا بِمَا يَقْضِيهِ مَجْرَاكِ
أَوْ يَمِّمِي حَضْرَةَ العَالِي بِمَا احْتَمَلَتْ
مِنِّي الضُّلُوعُ فَثَمَّ البُرْءُ لِلشَّاكِي

ــ الانقسام الثالث في أسرة بني حمود:

كان الانقسام الأول ــ كما ذكرناه ــ في عهد القاسم بن حمود سنة 412هـ(1021م). أما الانقسام الثاني فحدث بعد وفاة إدريس بن يحيى بن حمود سنة 431هـ(1039م). ثم جاء الانقسام الثالث في عهد العالي إدريس بن يحيى بن علي سنة 438هـ(1046م)؛ وذلك بعدما خرج عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن علي؛ حين تغلب على مالقة وحبس العالي في حصن قمارش ــ كما سبق ذكره ــ ثم تسمى بالخلافة، وتلقب بالمهدي. وبعد ذلك انحاز حراس إدريس إليه، وأعادوا إليه الاعتبار، ونادوا به خليفة؛ حيث استقر لبعض الوقت في حصن قمارش أو ببشتر؛ وتمسك

بالدعاء له أمراء الأمازيغ ـ أيضا ـ وزحفوا نحو مالقة؛ بغرض التغلب عليها وإعادة العالي إلى منصبه؛ ولكنهم فشلوا في مساعيهم كلها؛ نظرا لحسن صمود محمد المهدي ومن معه.

ولما يئس أمراء الأمازيغ من عودة إدريس انفضوا عنه؛ وتحولوا صوب محمد بن القاسم بن حمود أمير الجزيرة؛ فالتفوا حوله ونادوا به ـ هو الآخر ـ خليفة للمسلمين. وبهذه الخطوة أصبح في الأندلس أربع خلفاء؛[1] الخليفة الأول إدريس بن يحيى بحصن بُبَشْتر الملقب بالعالي، والثاني خليفة إشبيلية خلف الحصري المنتحل لاسم هشام المؤيد، والثالث محمد بن إدريس بمالقة الملقب بالمهدي، والرابع محمد ابن القاسم بالجزيرة الخضراء الملقب ـ أيضا ـ بالمهدي. ويبدو أن هذا هو الذي استفز أبا محمد علي بن حزم؛ وحفزه لقول مقولته السابقة الذكر؛ مستنكرا ومنددا بما حصل. وطبعا لا يمكن أن يحدث كل ذلك لولا نزوات القبلية؛ ذات المصالح الضيقة، وأنانية العصبية المدمرة.

ـ حكومة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود:

وحينما توفي المتأيد إدريس بن علي سنة 431هـ(1039م)؛ خلف ثلاثة أولاد ذكورا هم: يحيى ومحمد وحسن. فأما يحيى ـ وهو الملقب بحيون ـ فقتله ابن عمه المستنصر حسن بن يحيى **(المعتلي)**؛ عندما قدم مع الخادم نجا من سبتة ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ وبقي أخواه الصغيران: محمد وحسن: ابني إدريس بن علي. ولما تولى العالي إدريس ابن

[1] الكامل في التاريخ، ج: 7، ص: 286. والمعجب، ص: 68.

يحيى الحكم بادر – فورا – إلى حبسهما. ولكنهما تمكنا من الإفلات، والقيام بعصيان ضد إدريس؛ متصيدين – كما قيل في بعض المصادر – لحظة خروجه من مالقة للقنص؛ فأغلقا – مع أنصارهما – أبواب المدينة؛ ومنعاه من العودة إلى ملكه. وقد سهل عليهما الأمر ما كان يشوب أجواء البلاط؛ من استياء ونفور؛ لما كان يبديه العالي من سلوك غير مقبول لدى معاونيه. وبالطبع فقد استثمرا تلك الفرصة التي أضحى فيها أعيان الدولة غاضبين من التصرفات الشاذة للخليفة إدريس ابن يحيى؛ نظرا لما كان يظهره من تناقض وتقلب في الأحوال. وبذلك وجد الأخوان منفذا هاما؛ للاستيلاء على الحكم. وبالفعل تمكنا من ذلك؛ بمساعدة بعض الحراس، وبمساندة الحامية السودانية بقصبة مالقة. وتم تغلبهما على سدة الخلافة سنة 438هـ(1046م)؛ حيث تربع على عرش مالقة محمد بن إدريس؛ الذي تلقب بالمهدي؛ ورفع الدعاء له بالخلافة. وبادر محمد المهدي بإسناد ولاية العهد لأخيه حسن؛ الذي تسمى بالسامي. غير أنه غضب عليه فيما بعد، فنفاه إلى جبال غمارة بالعدوة المغربية؛ فبايعه من كان هناك من قبائل غمارة؛ أين يتواجد أنصار الأدارسة التقليديين. أما محمد المهدي فبقي صامدا في مالقة؛ ضد خصومه من أمراء الأمازيغ إلى يوم وفاته مسموما – كما قيل – في سنة 444هـ(1052م) أو 445هـ(1053م).[1] فسارع – عندئذ –

[1] اتفق ابن عذاري وابن الخطيب على قصة زعما أنها قصة موت محمد المهدي؛ وجاء فيها: ((وكان محمد بن إدريس هذا سفاكا للدماء؛ فامتدت يده إلى قتل البرابر؛ ولما رأى الحجاب ذلك؛ وهم أمراء القبائل؛ عملوا الحيلة في قتله؛ فوجه له باديس بن حبوس بكاس عراقي مسموم؛ مع رجل من الكتاميين. فلما وصل إليه قال له: "هذه كاس جلبت للحاجب=

العالي إدريس ابن يحيى إلى العودة إلى مالقة؛ والتربع من جديد على عرش الخلافة بها؛[1] وذلك لأنه كان يتربص الفرصة المواتية؛ من تاكرنة حيث كان مستقرا. وهكذا عاد العرش لإدريس من جديد؛ حيث بقي إلى يوم وفاته سنة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م)؛ كما سبق ذكره.

ـ حكومة المستعلي محمد بن إدريس المتأيد:[2]

تولى الحكم بمالقة في السنة التي توفي فيها العالي إدريس بن يحيى. وتسمى ـ في أوثق الأقوال ـ بالمستعلي. هذا ولم تهتم المصادر التاريخية كثيرا بالمستعلي هذا؛ خاصة وأن حكمه لم يتجاوز السنتين. أي من سنة 446 أو 447هـ(1055م) إلى سنة 449هـ(1057م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها باديس بن حبوس بن زيري على مالقة؛ معلنا بذلك ختام الدولة الإدريسية في الأندلس نهائيا.[3] وكان أمراء الأمازيغ بتلك الديار

=المظفر باديس؛ فلم يرها تصلح إلا للخلافة؛ فاختصك بها". فأعجب بها محمد بن إدريس، وملأها خمرا، وضمها إلى فمه؛ فأحس في نفسه ريبة منها؛ فأمر الكتامي فشربها؛ فتهرأ جلده عن لحمه من حينه. وبقي هو ثلاثة أيام، ومات من رائحتها في أواخر سنة 444هـ)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 218. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 141 ـ 142.

[1] قال البكري وابن الخطيب: أن الذي تولى الحكم ـ مباشرة ـ بعد موت محمد المهدي ابن أخيه إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي؛ حيث تسمى بالموفق؛ ولم ينسب إلى نفسه رتبة الخلافة؛ ولكنه لم يبق في الملك أكثر من أشهر يسيرة؛ إذ زحف إليه العالي إدريس ابن يحيى. أنظر المغرب، ص: 134.

[2] هذا رأي ابن عذاري وابن خلدون. البيان المغرب، ج: 3، ص:218. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما رأي البكري وابن الخطيب فيختلف؛ إذ يرون أنه ابن العالي إدريس بن يحيى؛ وليس ابن إدريس المتأيد. أنظر: المغرب، ص: 134. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 142. كما انهم اختلفوا أيضا في اللقب فمنهم من يعتقد أن لقبه هو المستعلي؛ ومنهم من يرى أن لقبه هو السامي.

[3] يرى البكري أن باديس دخل مالقة، وأسقط دولة المستعلي في سنة 447هـ. المغرب، ص: 134.

قد حولوا دعوتهم ـ في البداية ـ إلى محمد بن القاسم سنة 439هـ(1047م)، ولما مات سنة 440هـ(1048م) نقلوها لابنه القاسم لفترة قصيرة؛ ولكنهم تخلوا ـ بعد ذلك ـ عن تلك الفكرة؛ ورأوا وجوب الاستقلال بأنفسهم؛ دون حاجة إلى سند شرعي في الحكم. خاصة بعد سقوط دولة بني القاسم بالجزيرة الخضراء في يد المعتضد ابن عباد سنة 449هـ(1057م).[1] وهذا ما جعل باديس بن حبوس يزحف إلى مالقة؛ بغرض امتلاكها. ولما أسقط أمير بني زيري باديس بن حبوس دولة بني حمود؛ لم يجد المستعلي مفرا من اللجوء ـ في البداية ـ إلى المرية. ومن هناك وصلته دعوة من أهل مليلة؛ فأجاز إليهم قاطعا البحر؛ نحو العدوة المغربية. وفي تلك المدينة الوفية لبني إدريس وجد الملجأ الآمن؛ حيث بايعته قبائل تلك النواحي سنة 456هـ(1063م)؛[2] وظل هناك حتى وفاته في أواخر سنة 460هـ(1067م).[3] ويعتبر المستعلي محمد بن إدريس هذا هو آخر ملوك بني حمود الأدارسة في الأندلس. وذلك بعد أن تمت تصفية ملك بني عمهم؛ أبناء القاسم ابن حمود ملوك الجزيرة الخضراء؛ من قبل المعتضد بن عباد سنة 449هـ(1057م).

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 242.

[2] يقول البكري الذي كان معاصرا لتلك الفترة أن المستعلي ذهب إلى مليلة في سنة 459هـ؛ فمما قال:((وتسمى بالمستعلي، ولم يخطب له بالخلافة؛ فأقام بمالقة إلى أن تغلب عليها باديس بن حبوس بن ماكسن في صدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة؛ فانقطعت دولة بني علي بن حمود من يومئذ؛ ثم استدعي محمد بن إدريس هذا من مدينة مليلة؛ وهو مستقر بالمرية؛ لا يعرف مكانه؛ لخمول ذكره؛ فعبر إليها؛ وذلك في شهر شوال سنة تسع وخمسين وأربعمائة؛ فقام به جماعة بني ورتدي بمليلة وبقلوع جارة ونواحيها. وهو هنالك باقي إلى وقتنا هذا؛ وهو آخر سنة ستين وأربعمائة)). المغرب، ص: 134.

[3] العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

- الحضارة والحركة الثقافية:

يبدو أن الإنجازات الحضارية والثقافية لدولة بني حمود لم تصل إلى المستوى المطلوب؛ بالنسبة لدولة تواجدت في ربوع الأندلس؛ إذ كان رصيد هذه الدولة الحضاري - بفرعيها - متواضعا؛ إذا ما قيست بالدولة الأموية، أو بدولة بني عباد بإشبيلية. فدولة بني حمود - سواء بقرطبة أو بمالقة أو بالجزيرة الخضراء - كان يهيمن عليها الطابع القبلي؛ ذي التوجه العسكري. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عمرها كان قصيرا - بعض الشيء - بالمقارنة مع دولة بني أمية؛ الأمر الذي لم يساعد على ظهور المبتكرات الحضارية والثقافية بالقدر الكافي. كما أن حياتها كانت مليئة بالفتن والحروب والمؤامرات؛ وهذا - بالطبع - لا يساعد على بروز عبقريات في الميادين العلمية والفكرية. ويعتبر ذلك من بين الموانع المؤثرة في سبيل إنجاز أي مشروع حضاري. هذا وكان - طبعا - للعامل الاقتصادي أثره في انكماش الإنجازات الحضارية والثقافية بهذه الدولة الضعيفة؛ التي لم تكن مواردها الاقتصادية كافية لتحقيق ما حققته الدولة الأموية.

ومع ذلك فقد ورثت دولة بني حمود شيئا من التراث الذي خلفته الدولة الأموية؛ ممثلا ببعض المنشآت العمرانية، والمبتكرات العلمية، وما تعودت عليه الرعية من تذوق للإبداعات الفنية والأدبية. هذا وقد ورث بلاط الحموديين أيضا - بشقيه - بعض المؤسسات الثقافية كما ضم إليه بعض الأدباء والكتاب الفطاحل، والشعراء الفحول؛ كما استقبل أدباء وشعراء وفدوا إليه من جهات أخرى؛ دون نية في الإقامة. وقد ازدانت هذه الدولة وحظيت أيضا بوجود

بعض العلماء والفقهاء في ربوعها؛ حيث اختصوا بشئون الكتابة والقضاء والفتيا والتدريس. ولمزيد من الفائدة والتوضيح نشير إلى أولئك العلماء والأدباء والكتاب والشعراء؛ وهم:

ـ <u>أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي</u>:[1] وينتسب إلى أسرة بني درّاج الصنهاجيين. وكان القسطلي ـ أيام المنصور ابن أبي عامر ـ كاتبا للإنشاء مع ابن الجزيري.[2] ويبدو أن ابن درّاج مر مرور الكرام

---

[1] قال فيه ابن بسام: ((حل اسمه من الأماني محل الأنس، وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس؛ وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدْره؛ وكان الشام والعراق أدنى خطى ذكره. وقد أجرى الثعالبي طرفا من أمره بـ(اليتيمة): "بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام؛ وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك. وكان يجيد ما ينظم")). نفسه، ص: 60.

[2] ذكره الحميدي فقال: ((كان كاتبا من كتاب الإنشاء في أيام المنصور أبي عامر؛ وهو معدود في جملة العلماء والمقدَّمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء؛ وشعره كثير مجموعٌ؛ يدل على علمه؛ وله طريقة في البلاغة والرسائل؛ تدل على اتساعه وقوته؛ وأول من مدح من الملوك المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر مدبر دولة هشام المؤيد... فعن أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد الفقيه؛ وأخبرني أن المنصور أبا عامر لما فتح شنب ياقب أو غيرها من القلاع الحصينة التي يقال إن أحدا لم يصل إليها قبله؛ استدْعِيَ أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج، وأبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري؛ وأمرا بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة، وإلى سائر الأعمال. فأما ابن الجزيري: "سمعا وطاعة". وأما ابن درّاج فقال: "لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة". وكان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة. فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك؛ فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل الكتب في ذلك. وقيل لابن درّاج افعل ذلك على اختيارك؛ فقد فسح لك فيه. ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح؛ وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها، ومشاهد القتال، وكيفية الحال؛ بأحسن وصف، وأبدع وصف؛ فاستحسنت ووقع الإعجاب بها؛ ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن. وما بقي من نسخ ابن الجزيري ـ في ذلك الفتح على كثرتها ـ عين ولا أثر... وسمعت أبا محمد علي بن أحمد [بن سعيد الفقيه]؛ وكان عالما بنقد الشعر يقول: "لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد". وقال مرة أخرى: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج؛ لما تأخر عن شأو (حبيب) و(المتنبي)". مات أبو عمر أحمد بن درّاج قريبا من من العشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 110 ـ 114.

ـلاط بـني حمـود؛ إذ لـم تطـل إقامتـه فيـه كثيـرا. ومـع
ـذا فقـد منـح ملـوك هـذه الدولـة أروع مـا خـطتـه أقـلام
تـاب مـن نثـر، وأجمـل مـا قيـل فيهـم مـن قصائـد
ـريـة. ومـن قولـه المنثـور هـذه القطعـة الـتي خـص
ـا الخليفـة عـلي بـن حمـود؛ جـاء فيهـا: ((حسْـبُـك اللـهُ
ـا ابـنَ رسـول اللـه، وعـلى هـدًى مـن اللـه، فيمـا
ـفـقـتْ إليـه راياتـك، وصَـدَقَـتْ بـه آياتـُك، جديـرٌ أن
ـعِـزَّ بطاعتـه نـصْـرَك، كمـا شَـرحَ بتوفيقـه صَـدْرَك،
ـتـمَّـم بتأييـدِهِ أمـرَك، بمـا أولَـيـتَ أوليـاءَه المؤمنيـن،
ـلـيْـتَ في عبـادِهِ الصالحيـن، المصابيـنَ في الأمـوال
لأهليـن، أيـامَ تـزاحَـمَـتْ إليهـم أسبـابُ القضـاء
بَـأسـاءِ والضَّـرَّاء، وأبْـرَقَـتْ عليهـم آفـاقُ السمـاء
يـوف الأعـداء، تَـسِـحُّ بوابـل الدِّمـاء وتمـوجُ بأسـراب
ـبـاء، فَـسُرْعـانَ مـا هامـوا فـلا وَزَر، وربعـوا فـلا
ـتـقـرّ، ونـادوا ولاتَ حيـن مَـنـاص ولا فـوْت، إلاَّ مَـنْ
ـفَـاهُ المـوت؛ فأصبحـوا أنـفَـاضَ الجَـلاء، وأغـراضَ
ـنـاء، قـد جَهـدُوا بالبـلاء، وعَـيُـوا بالـدَّاء العَـيَـاء،
ـنْ زُلْـزِلَـتْ بهـم الأرض، لقـد سكَـنَ بهـم عِـزُّ سلطانِـك،
ـنْ تـهافـتَ بهـم الذعْـر، لقـد اطمأنـوا في مِهَـادِ
انـك)).[1] وقـد مـدح هـذا الشاعـر الذائـع الصيـت؛ الخليفـة
ـلي بـن حمـود بقصيـدة شهيـرة؛ نـوه فيهـا بانتسابـه إلى
ـول اللـه ﷺ، وأشـاد ببـني هاشـم، ومجـد نسبهـم القديـم؛
ـاء فيهـا:[2]

ذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص: 64.
ـال فيهـا ابـن بسـام: ((وهـذه القصيـدة لـه طويلـة؛ وهي مـن الهاشِمِيـاتِ الغـرّ؛
ـا مـن المِسْـك والـدُّرّ؛ لا مـن الجِـصّ والآجـُر؛ لا بـل خَـلـدُهـا حديثـاً عـلى
ـر، وسَـرّ بهـا مَطالـعَ النـجـوم الزُّهْـر؛ لـو قـرَعَـتْ سَمْـعَ دِعْـبـل بـن عـلىّ
ـزاعيّ، والكُـمَـيْـتِ بـن زَيْـدٍ الأسـديّ، لأمْـسَـكـا عـن القـول، وبرئـا إليـه في
ـوّةِ والحَـوْل؛ بـل لـوْ رآهـا السيـد الحميـريّ، وكُـثـيِّـرٌ الخُـزاعيّ، لأقاماهـا
ـنـة على الدَّعـوَى، ولتلقياهـا بـبِشـارَة عـلى زَعْـمِـهِـمـا بخُـروج الخيـل من=

لـعَـلـك ياشَـمْـسُ عِـنـدَ الأصيلِ
شَجِـيتِ لـشَجْـوِ الغَـريبِ الـذَّليـلِ
فَكـوني شَـفيـعي إلى ابـنِ الشفِـيع
وكَـوني رَسُـولي إلى ابـنِ الرَّسـولِ
فَـإمَّـا شَـهدْتِ فَـأزْكـى شَـهِـيـدٍ
وإمَّـا دَلـلْـتِ فَأهْـدَى دَلِـيـلِ
عَـلى سَابـقٍ في قـيُـودِ الخـُطُـوبِ
ونَجْمِ سَـناً فِـي غُـثاءِ الـسُّـيُـولِ
يُـنـادِي الـثـرَى لـسَـقامِ الضَّيَـاعِ
ويَـشْـكو إلى المُـلْكِ دَاءَ الخُمُـولِ
وَعَـزٌّ عَـلى العِـلـمِ مَـثْـوَاهُ أرْضاً
علَى حُـكمِ دَهْـرٍ ظَـلـومٍ جَـهُـولِ
وَيَـعْـجَـبُ كـيْـفَ دَنـا مِـنْ عَـلِيٍّ
ولَمْ تَـنْفَـصِمْ حَـلَـقـاتُ الكـبُـولِ
وكَـيْـفَ تـنـسَّـمَ آلَ الـنـبـيِّ
وَأبْطأ عَـنهُ شِـفـاءُ الـعَـلِـيـلِ
وَأطْـوَادُ عِـزِّهِـمُ مَـاثِـلاتٌ
لهُ وَهْـوَ يَـرنـو بـطَرفٍ كلِـيـلِ
وَأبْـحُـرُهـمْ زَاخِـرَاتٌ إلـيْـهِ
ويَرشُفُ فِي الثمَـدِ المُسْـتَـحِـيـلِ
تَـجَـزَّأ مِـنْ جَـنـتَـيْ مَـأرَبٍ
بِخَمْـطٍ وَأثْلٍ وَسِـدْرٍ قـلِـيـلِ

=رَضْـوَى؛ وقـد اثبـتُ أكثرهـا إعلانـا بجلالـة قدرهـا، واستحسانـا لعَجُـزِهـا وصدْرِهـا)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 87 ـ 88.

ثـم يضيـف قائــلا:

شَـرِيـدُ السُّـيُـوفِ وَفَـلُّ الـحُـتُـوفِ
يَـكِـيـدُ بـأفــلاَذِ قـلـــبٍ مَـهُـولِ
فــأذهَــلَ مُــرْضِعَــةً عَــنْ رَضِيـــعٍ
وَأنــسَــى الـحَـمَـائِـمَ ذِكْــرَ الهَـدِيــلِ
فـمَـا تـهْـتـدِي العَـيْـنُ فِيهَا سَبِـيلا
سِـوَى سُـبُـلِ الـعَـبَـرَاتِ الـهُـمُـولِ
وَلاَ يَـعْـرِفُ المَـوْتُ فِـيـهَـا طَـرِيقـاً
إلى النَّـفْـسِ إلاَّ بِـعَـضْـبٍ صَـقِـيـلِ
رَكِـبْـتُ لَـهَـا مَـحْـمَـلاً لِـلـنـجَـاةِ
وَصَـيَّـرْتُ قَـصْـدَكَ فِـيـهِ عَـدِيـلِـي
فَـرُدَّتْ عَـلى عَـقِـبَـيْـهَـا الـمَـنـونُ
بِــــوَاقٍ مُـجِـيـرٍ وَرَأيٍ أصِـيـــلِ
وَقَـد سُـمْـتَـهَـا بِـنَـفِـيـسِ الـتِّـلادِ
عَـلـى أنـفُـسٍ ضَـائِـعَـاتِ الـذُّحُـــولِ
نُـفُـوسٌ حَنَـتْ قَـوْسَ عَطْفِي عَلَيْهَـــا
فَـكُــنَّ سِـهَـامَ قِـسِـيِّ الـخُـمُــولِ

إلى أن يقــول:

إلَـى الهَـاشِـمِـيِّ إلَـى الـطَّـالِبِـيِّ
إلَـى الفَاطِمِـيِّ العَطُـوفِ الـوَصُـولِ
فَـسُـمِّـيَ جَـدُّكَ عَـمْـرُو الـكِـرَامِ
بِـهَـشْـمِ الثَّـرِيـدِ زَمَانَ الـمُـحُولِ
وَضَـيَّـفَ حَـتَّـى وُحُـوشَ الـفَـلاَةِ
وَأهْـدَى القِـرَى لِهِـضَـابِ الـوُعُـولِ

وَإنَّ أبَا طالِب لِلضُيُوفِ
لأطلَبُ مِنْ ضَيفِهِ لِلنزُولِ
يَرُوحُ عَلَيْهِم بِغُرٍّ الجِفَانِ
وَيَغدُو لَهُمْ بِالغَرِيضِ النَشِيلِ
فَأنْتمْ هُدَاةُ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ
وَأنتمْ أئمةُ فِعْلٍ وَقِيلِ
وَسَادَاتُ مَنْ حَلَّ جَنَاتِ عَدْنِ
جَمِيعِ شَبَابِهِمُ وَالكُهُولِ
وَأنتمْ خَلاَئِفُ دُنيَا وَدِينٍ
بِحُكمِ الكِتَابِ وَحُكمِ العُقُولِ
وَوَالِدُكمْ خَاتِمُ الأنبِيَاءِ
لَكمْ مِنهُ مَجْدُ حَفِيٍّ كَفِيلِ
تلذُّ بِحَمْلِكمُ عَاتِقَاهُ
عَلَى حَمْلِهِ كلَّ عِبْءٍ ثقِيلِ
وَرَحْبٌ عَلَى ضَمِّكمْ صَدْرُهُ
إذَا ضَاقَ صَدْرُ أبٍ عَنْ سَلِيلِ
وَيَطرُقهُ الوَحْيُ وَهْناً وَأنتمْ
ضَجِيعَاهُ بَينَ يَدَيْ جِبْرَئِيلِ
وَزَوَّدَكمْ كلَّ هَدْيٍ زَكِيٍّ
وَأوْدَعَكمْ كلَّ رَأيٍ أصِيلِ

ومما قاله ابن درّاج في وصف المقاتلين:
وَقَدْ لَمَعَتْ حَوْلَيكَ مِنهُمْ أسِنةُ
تخَيَّلُ أنَّ الحَزْنَ وَالسَّهْلَ نِيرَانُ
أسُودُ هَيَاجٍ مَا تزَالُ ترَاهُمُ
تطِيرُ بِهِمْ نَحْوَ الكَرِيهَةِ عِقبَانُ
وَأقمَارُ حَرْبٍ طَالِعَاتٌ كأنمَا
عَمَائِمُهُمْ فِي مَوقِفِ الرَّوْعِ تِيجَانُ

وَكُــلُّ زَنَــاتِــيٍّ كَــأَنَّ حُــسَــامَــهُ
وَهَــامَــةَ مَــنْ لاقَــاهُ نَــارٌ وَقُــرْبَــانُ
وَأَبْــيَــضَ صِــنْــهَــاجٍ كَــأَنَّ سِــنَــانَــهُ
شِهَــابٌ إِذَا أَهْــوَى لِــقِــرْنٍ وَشَــيْــطَــانُ

وقــال أيضــا في وصــف لحظــة وداع لأسرتــه:

وَلَــمَّــا تَــدَانَــتْ لِــلْــوَدَاعِ وَقَــدْ هَــفَــا
بِــصَــبْــرِيَ مِــنْــهَــا أَنَّــةٌ وَزَفِــيــرُ
تُــنَــاشِــدُنِــي عَــهْــدَ الْــمَــوَدَّةِ وَالْــهَــوَى
وَفِي الْمَهْــدِ مَــبْــغُــومُ الــنِّــدَاءِ صَــغِــيــرُ
عَــيِــيٌّ بِــمَرْجُــوعِ الْــخِطَــابِ وَلَــفْظِــهِ
بِــمَــوقِعِ أَهْوَاءِ الــنُّــفُــوسِ خَــبِــيــرُ
تَــبَــوَّأَ مَــمْــنُــوعَ الْــقُــلُوبِ وَمُــهِّــدَتْ
لَــهُ أَذْرُعٌ مَــحْــفُــوفَــةٌ وَنُــحُــورُ
فَــكُــلُّ مُــفَــدَّاةِ الــتَّــرَائِــبِ مُــرْضِــعٌ
وَكُــلُّ مُحَــيَّــاةِ الْــمَحَــاسِــنِ ظِــيــرُ
عَصَيْــتُ شَــفِيــعَ الــنَّــفْــسِ فِــيــهِ وَقَادَنِي
رَوَاحٌ بِــتَــدْآبِ الــسُّــرَى وَبُــكُــورُ
وَطَــارَ جَنَــاحُ الْبَــيْــنِ بِــي وَهَــفَتْ بِــهَا
جَوَانِــحُ مِنْ ذُعْــرِ الْــفِــرَاقِ تَــطِــيــرُ
لَــئِــنْ وَدَّعَــتْ مِــنِّــي غَــيُــوراً فَــإِنَّــنِي
عَلَى عَــزْمَــتِي مِــنْ شَجْــوِهَــا لَغَيُــورُ
وَلَــوْ شَاهَــدَتْــنِــي وَالْهَــوَاجِــرُ تَــلْــتَــظِي
عَلَــيَّ وَرَقْــرَاقُ الــسَّــرَابِ يَــمُــورُ
أُسَــلِّــطُ حَــرَّ الْــهَــاجِــرَاتِ إِذَا سَــطَــا
عَلَى حُــرِّ وَجْــهِي وَالأَصِيــلُ هَجِــيــرُ
وَأَسْــتَــنْــشِــقُ الــنَّــكْــبَــاءَ وَهْــيَ بَوَارِحٌ
وَأَسْــتَــوْطِئُ الرَّمْضَــاءَ وَهْيَ تَــفُــورُ

وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الجَبَانِ تَلَوُّنٌ
وَلِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيرُ

وقال في وصف هول البحر:

إِلَيْكَ شَحَنَّا الفُلْكَ تَهْوِي كَأَنَّهَا
وَقَدْ ذُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ غِرْبَانُ
عَلَى لُجَجٍ خُضْرٍ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا
تَرَامَى بِنَا فِيهَا ثَبِيرُ وَثَهْلاَنُ
مَوَاثِلُ تَرْعَى فِي ذُرَاهَا مَوَاثِلاً
كَمَا عُبِدَتْ فِي الجَاهِلِيَّةِ أَوْثَانُ
فِي طَيِّ أَسْمَالِ الغَرِيبِ غَرَائِبٌ
سَكَنَّ شِغَافَ القَلْبِ شِيبٌ وَوِلْدَانُ
يُرَدِّدْنَ فِي الأَحْشَاءِ حَرَّ مَصَائِبِ
تَزِيدُ ظَلاَماً لَيْلَهَا وَهْيَ نِيرَانُ
إِذَا غِيضَ مَاءُ البَحْرِ مِنْهَا مَدَدْنَهُ
بِدَمْعِ عُيُونٍ تَمْتَرِيهِنَّ أَشْجَانُ
وَإِنْ سَكَنَتْ عَنَّا الرِّيَاحُ جَرَى بِنَا
زَفِيرٌ إِلَى ذِكْرِ الأَحِبَّةِ حَنَّانُ
يَقِلْنَ وَمَوْجُ البَحْرِ وَالهَمُّ وَالدُّجَى
تَمُوجُ بِنَا فِيهَا عُيُونٌ وَآذَانُ
أَلاَ هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا
سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى المَاءِ أَكْفَانُ
وَهَبْنَا رَأَيْنَا مَعْلَمَ الأَرْضِ هَلْ لَنَا
مِنَ الأَرْضِ مَأْوًى أَوْ مِنَ الأُنْسِ عِرْفَانُ

ـ **ثم أبو حفص أحمد بن برد الأكبر:**[1] فأما الكاتب أبو حفص ابن أحمد بن برد الأكبر؛ فهو من أهل قرطبة؛ ولم تذكر المصادر أصوله الأولى التي ينحدر نسبه منها. أما ابن بسام فقال إن بني برد ينتمون إلى بني شُهَيد بالولاء. وقد كان ابن برد هذا ـ من قبل ـ كاتبا في البلاط الأموي؛ وأيام بني عامر بالتحديد؛ ثم كتب في آخر أيامه للخليفة علي بن حمود ثم ولده يحيى. وهو جد أبي حفص أحمد بن برد الأصغر؛ صاحب رسالة السيف والقلم. وهذه قطعة من خطاب كتبه ابن برد الأكبر عن علي بن حمود لمنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة:

((وما أنكرنا شيئاً مما ذهبتَ إليه من التأني والتثبت، ولا اعتقدنا إلاَّ رَأيَك في نظرِ الاجتماع، وتَرَقب الالتئام؛ لترتفعَ الشبْهة ويَنجَلِيَ الشكُّ؛ وإن كان مَذْهَبُنَا في هذه الأمَّةِ مشهوراً، واحتسابُنَا الأجْرَ في صلاحِها معروفاً، وقيامُنا لنصرِها وسخَاوُنا بأنفُسِنا وأموالنا لاستنقاذها؛ لا نَنْوِي إلاَّ وجْهَه تعالى. وإلاَّ فقد عَلِمَ مَنْ عَرَفَنا، وأيْقَن من أنْصَفَنا؛ أننا كنا في عَيْشٍ هَنِيٍّ، ولَبَبٍ رَخِيٍّ، وعملٍ واسع، ومال وافر، وجندٍ مُطيعٍ، وحصنٍ منيعٍ؛ وفي دونِ ذلك ما أقنَعَ من عرفَ الدنيا بحقيقتها، وأجْزَأ من أنزلَها مَنْزِلَتَها؛ وما كفَى من لا يعدِلُ بالسَّلامةِ ولا يَبيعُ بالغَبْن، ولا يركبُ الأهوال، ولا يقتحِمُ المهالك،

---

[1] قال ابن بسام: ((وقلد أبو حفص هذا ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري؛ ثم كتب عن سليمان المستعين وغيره من أمراء الفتنة؛ فأسمع الصم بيانا، واستنزل العصم إبداعا وإحسانا؛ وقد أخرجت من رسائله؛ ما يعرب عن فضائله، ويوضح من [...]ور دلائله؛ وكانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربعمائة؛ وقد نيف على الثمانين)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 103.

مغرِّراً بدمه، مُخاطِراً بنفسِه، لحُطامٍ تافِهٍ، وظلٍّ زائل، ومتاعٍ قليل؛ وإنا لنرجو منه تعالى أنه لم يُيَسِّر ما يَسَّرَ من آمالنا إلا عند اطلاعه على نيَّتِنا فيها؛ فنحن بعَيْنِ الله، ونواصينا بيدِه، والمُلكُ والأمْرُ له)).[1]

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 117 – 118.

ومن شعر أبي حفص بن برد الأكبر هذه الأبيات التي خاطب بها أبا العلاء صاعد بن الحسن اللغوي:

أبَا العَلاءِ اسْتَمِعْ تَعْرِيضَ ذِي مِقَة
أهْدَى لكَ الوُدَّ مَحْضاً غَيْرَ مَقْطُوبِ

نَاءٍ بِغُرْبَتِهِ والفَهْمُ يُسْنِبَتهُ
وكَمْ دَنِيٌّ قَصِيٌّ فِي المَنَاسِيبِ

وَصَارَ فِي غُرْبَةِ الآدَابِ مُغْتَرِباً
أمَا كَفَى الدَّهْرُ عَضٌّ دُونَ تَغْرِيبِ

أوْلاكَ مَحْمَدَةً مِنْ بَعْدِ تَجْرِبَةٍ
لا يَصْلُحُ الحَمْدُ إلا بَعْدَ تَجْرِيبِ

أنتَ الذِي لَمْ يُعَاشِرْ مِثْلهُ رَجُلاً
فِي العِلْمِ وَالظرفِ والآدابِ والطيبِ

تَحْصِيلُ فَضْلِكَ لِلحُسَّادِ مَعْجَزَةٍ
وكُنْهُ عِلمكَ شَيْءٌ غَيْرُ مَحْسُوبِ

أمَّا اللُّغَاتُ فلاَ يَعْقُوبُ يَبْلُغُ مَا
وَعِيتَ مِنهَا وَلاَ أشْيَاخُ يَعْقُوبِ

إلى أن يقول:

حَيَّا تَحِيَّةَ ذِي أُنسٍ بِنَا وَجَلاَ
قِنَاعَ وَجْهٍ طَوِيلِ الصَّوْنِ مَحْجُوبِ

فَقُلتُ: أهْلاً وَرَحْباً، مَنْ هَذَاكَ لنا
لَيلاً؟ فَرَدَّ بِتَأهِيلٍ وَتَرْحِيبِ

قَالَ: مَاذا تَرَى؟ قُلتُ: الغَزَالةُ فِي
ثوْبِ احْمِرَارٍ مِنَ الظلمَاءِ غِرْبِيبِ

وَقَالَ: اتَئِدْ! قُلتُ: قَدْ أبْصَرتها قِبَلاً
فَقَالَ: حِلاً، فَقلتُ: الحِلُّ مَطْلُوبِي

قَالَ: تَحَرَّ فَلاَ تَشْطُطْ بِنَا سَرَفاً
فَقلتُ: لَيْسَ سِوَى التَّقْصِيرِ مَرْغُوبِي

ثُمَّ اعْلمِي أنَّنِي فِي حُبِّكُمْ دَنِفٌ
قالت: عَلِمْتُ فَلاَ تَخْضَعْ لِمَحْبُوبِ=

ـ ثم أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد:[1] وينتسب هذا الأديب الفذ والشاعر العملاق إلى قبيلة أشجع الغطفانية العربية. هذا ويعتبر النقاد القدماء أحمد بن شُهَيْد في صف أهم الأدباء الأفذاذ الذين أنجبتهم بلاد الأندلس في وقته؛ إذ كان يتميز بسهولة عجيبة في التعبير؛ سواء كان ذلك شعرا أم نثرا. فهو بذلك شاعر وناثر في الوقت ذاته.[2] ومن أشهر أعماله

=قُلْتُ: الوِصَالُ، فَقَالَتْ: مَهْ بَلَى وَعَسَى
وَفِي عَسَى فَرْجَةٌ تُرْجَى لِمَكْرُوبِ
ثُمَّتَ وَلَتْ فَأَبْقَتْ فِي الحَشَا ضَرَماً
يُذكَى بِدَمْعٍ عَلَى الخَدَّيْنِ مَسْكُوبِ
فَالآنَ فَازْجُرْ أوِ اسْجَعْ إنْ هَمَمْتَ بِهِ
كَسَجْعِ شِقٍّ أوِ الأفْعَى أوِ الذِّيبِ
هَذِي عِبَارَتِهَا فَالأمْرُ مُشْتَرَكٌ
تلقَى أفَانِينَهُ طراً بِتَهْذِيبِ

[1] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سَفَرَ الكلام؛ وإذا تأملته ولسَنَه، وكيف يَجُرُّ في البلاغة رسنه؛ قلت عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه. والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه في بديهته ورويَّته؛ فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب، ولا اعتناء بالطلب، ولا رسوخ في الأدب؛ فإنه لم يوجد له رحمه الله ـ فيما بلغني ـ بعد موته؛ كتاب يستعين به على صناعته، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له؛ فزاد ذلك من عجائبه، وإعجاز بدائعه)). نفسه، ص: 192.

[2] قال الحميدي في ترجمة ابن شهيد: ((من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة، وله حظ من ذلك يسبق فيه، ولم ير لنفسه في البلاغة أحدا يجاريه؛ وله كتاب "حانوت عطار" في نحو من ذلك، وسائر رسائله وكتبه نافعة الجد، كثيرة الهزل؛ وشعره كثير مشهور؛ وقد ذكره أبو محمد علي بن أحمد [بن حزم] مفتخرا به؛ فقال: "ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد؛ وله من التصرف وجوه البلاغة وشعبها مقدار ينطق فيه بلسان مُركَّب من لساني: عمرو [بن بحر الجاحظ] وسهل [بن هارون]... قال لنا أبو محمد علي بن احمد [بن حزم] توفي أبو عامر بن شهيد ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى، سنة ست وعشرين وأربعمائة بقرطبة؛ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفته في مقبرة أم سلمة؛ وصلى عليه جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم. وكان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة؛ لم يخلف لنفسه نظير في هذين الهلمين جملة؛ ومولده سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 133 ـ 136.

الأدبية رسالة "التوابع والزوابع"؛ التي حلق بخياله فيها؛ حيث تخيل أنه قام برحلة إلى أرض الجن؛ بمساعدة جني من قبيلة أشجع الجن. التي تتطابق مع قبيلته أشجع ذات الأصول الأنسية. وأشار في تلك الرحلة إلى ما شاهده، وتكلم عن الذين لقيهم من الجن؛ أتباع الشعراء الفحول وشياطينهم؛ حيث وتحاور معهم وقرأ عليهم شعره ف فأجازوه. وهذه الرسالة ـ كما هو ظاهر ـ سبق بها غيره من المبدعين العرب وغير العرب؛ إذ كتبها قبل أن يكتب: أبو العلاء المعري العربي رسالة الغفران، وقبل أن يكتب آلياري دانتي الإيطالي قصته الكوميديا الإلهية، أو جون ميلتون الأنجليزي الفردوس المفقود.

هذا وقد عاش أبو عامر أحمد بن شُهيد في أدق فترة عرفتها بلاد الأندلس؛ كما أنه انغمس في الصراعات التي دارت ـ آنئذ ـ بين الطوائف المختلفة ـ أيام الفتنة الكبرى التي اجتاحت تلك الديار ـ وقضت على مؤسسات الخلافة الأموية نهائيا. وقد كان في عداد الأدباء الذين عايشوا الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الحمودية سواء كان ذلك في قرطبة؛ أو في مالقة؛ تلك المدينة التي هاجر إليها ابن شهيد مع بعض أعيان قرطبة ـ لبعض الوقت ـ بعد أن ازداد الوضع تعفنا في قرطبة؛ بسبب ما أبداه بقايا الخلفاء الأمويون من سلوك سيئ. وعليه فقد ذهب أولئك الأعيان ـ وفيهم ابن شهيد ـ إلى مالقة مستنجدين بيحيى بن حمود؛ طالبين منه العودة إلى قرطبة.[1]

---

[1] لكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 287 ـ 288. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 134 ـ 136. ودولة الإسلام في الأندلس، ق: 2، ص ص: 666 ـ 667.

ويبدو أنه لم يتول مهام وزارية في بلاط بني حمود؛ وإن كان من الذين يترددون عليه. ولم يكن ابن شهيد ـ حسبما تشير إليه بعض النصوص ـ من المقربين المحبوبين إلى حاشية الخلفاء من بني حمود؛ بل يبدو أنه تعرض ـ أحيانا ـ إلى بعض المضايقات من تلك الحاشية[1]. ومع ذلك فقد اختار ابن شهيد

---

[1] وقد نقل المقري عن صاحب المطمح نصا يشير إلى ذلك الجفاء والإقصاء جاء فيه: ((ودبّت إلى أبي عامر ابن شُهَيد أيام العلويين عَقارب؛ برئت بها منه أباعد وأقارب؛ واجهه بها صَرْفُ قطوب؛ وانبرت إليه منها خطوب؛ نَبَا لها جَنْبُه عن المضجع، وبقي بها ليالي يأرق ولا يهجع؛ إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله، وعقلته في عقال أذهب ماله؛ فأقام مرتهناً، ولقي وَهَناً؛ وقال:

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوَانِ مَجِيدُ
يَجُودُ وَيَشْكو حُزْنَهُ فَيُجِيدُ
نَعَى صَبْرَهُ عِنْدَ الإمَامِ فَيَا لَهُ
عَدُوٌّ لأبْنَاءِ الكِرَامِ حَسُودُ
وَمَا ضَرَّهُ إلاَّ مِزَاحٌ وَرِقَّةٌ
ثَنَتْهُ سَفِيهَ الذِّكْرِ وَهوَ رَشِيدُ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبةِ المُلكِ غَيْرُهُ
وَطُوِّقَ مِنْهُ بِالعَظِيمَةِ جِيدُ
وَمَا فِيَّ إلاَّ الشِّعْر أثْبَتَهُ الهَوَى
فَسَارَ بِهِ فِي العَالَمِينَ فَرِيدُ
أفُوهُ بِمَا لَمْ آتِهِ مُتَعَرِّضاً
لِحُسْنِ المَعَانِي تارَةً فَأزِيدُ
فَإنْ طَالَ ذِكْرِي بِالمُجُونِ فَإنهَا
عَظَائِمُ لَمْ يَصْبِرْ لَهُنَّ جَلِيدُ
وَهَلْ كُنْتُ فِي العُشَّاقِ أوَّلَ عَاقِلٍ
هَوَتْ بِحِجَاهُ أعْيُنٌ وَخُدُودُ
فِرَاقٌ وَشَجْوٌ وَاشْتِيَاقٌ وَذِلَّةٌ
وَجَبَّارُ حُفَّاظٍ عَلَيَّ عَتِيدُ
فَمَنْ يُبْلِغُ الفِتْيَانَ أنِّيَ بَعْدَهُمْ
مُقِيمٌ بِدَارِ الظَّالِمِينَ وَحِيدُ
مُقِيمٌ بِدَارٍ سَاكِنُوهَا مِنَ الأذَى
قِيَامٌ عَلَى جَمْرِ الحِمَامِ قُعُودُ
وَيَسْمَعُ لِلْجِنَّانِ فِي جَنَبَاتِهَا
بَسِيطٌ كَتَرْجِيعِ الصَّدَى وَنَشِيدُ=

اللجوء إلى مالقة، وفضل رعاية يحيى بن علي بن حمود؛ عندما ضاق به الحال في قرطبة؛ بسبب ما وصل إليه الوضع في تلك المدينة من فساد وتعفن بعد خروج بني حمود منها. لذا فقد قال هذه القصيدة لما أزمع الخروج إلى مالقة:

أرَى أعْيُناً ترنو إلَيَّ كأنمَا
تسَاوِرُ مِنهَا جَانبَيَّ أرَاقِمُ

=ولستُ بذِي قيْدٍ يَرِنُّ، وإنمَا
علَى اللحْظِ مِنْ سُخطِ الإمَامِ قيُودُ

وَقلتُ لِصدَّاحِ الحَمَامِ وَقدْ بَكى
عَلى القصْرِ إلفاً وَالدُّموعُ تجُودُ

ألاَ أيُّهَا البَاكِي عَلى مَنْ تُحِبهُ
كِلاَنا مُعَنًّى بِالخلاَءِ فرِيدُ

وَهَلْ أنتَ دَانٍ مِنْ مُحِبٍّ نأى بِهِ
عَنِ الإلفِ سُلطانٌ عَليهِ شدِيدُ

فصَفقَ مِنْ رِيشِ الجَنَاحَينِ وَاقِعاً
عَلى القرْبِ حَتًّى مَا عَليَهِ مَزِيدُ

وَمَا زَالَ يُبكِينِي وَأبكِيهِ جَاهِداً
وَلِلشوقِ مِنْ دُونِ الضُّلوعِ وَقُودُ

إلى أنْ بَكى الجُدرَانُ مِنْ طُولِ شَجْونَا
وَأجْهَشَ بَابٌ جَانِبَاهُ حَدِيدُ

أطاعتْ أمِيرَ المُؤمِنِينَ كتائبٌ
تصَرِّفُ فِي الأمْوَالِ كيفَ ترِيدُ

فلِلشَّمْسِ عَنهَا بِالنهَارِ تأخرٌ
وَلِلبَدْرِ شِحْناً بِالظلاَمِ صُدُود

ألاَ إنهَا الأيامُ تلعَبُ بِالفتى
نُحوسٌ تهَادَى تارَةً وَسُعُودُ

وَمَا كنتُ ذا أيدٍ فأذعن ذا قوًى
مِنَ الدَّهرِ مُبدٍ صَرْفهُ وَمُعِيدُ

وَرَاضَتْ صِعَابِي سَطوَةٌ علوِيةٌ
لهَا بَارِقٌ نحْوَ النَدَى وَرُعُودُ

تقولُ التِي مِنْ بَيْتِهَا كفَّ مَرْكبِي
أقرْبُكَ دَانٍ أمْ مَدَاكَ بَعِيدُ

فقلتُ لهَا أمْرِي إلى مَنْ سَمَتْ بهِ
إلى المَجْدِ آباءٌ لهُ وَجُدُودُ

أدُورُ فلاَ أعْتامُ غيْرَ مُحَارِبٍ
وَأسْعَى فلاَ ألْقَى امْرُءاً لِي مُسَالِمُ

وَيَجْلِبُ لِي فَهْمِي ضُرُوباً مِنَ الأذَى
وَأشْقَى امْرُئٍ فِي قَرْيَةِ الجَهْلِ عَالِمُ

وَأوْجَعُ مَظْلُومٍ لِقَلْبٍ وَذِي حِجىً
فَتىً عَرَبِيٌّ تَزْدَرِيهِ أعَاجِمُ

غَنِيْتُمْ عَلَى مَا تَزْعُمُونَ عَنِ الوَرَى
لقدْ سَفِهَتْ تِلْكَ الحُلُومُ الزَّوَاعِمُ

وَهَلْ يُقْدِمُ البَازِي عَلى الطَّيْرِ فِي الضُّحَى
إذا زَالَ عَنْ رِيشِ الجَنَاحِ القَوَادِمُ

سَلاَمٌ عَلَيكُمْ لاَ تَحِيَّةَ شَاكِرٍ
ولَكِنْ شَجىً تَنْسَدُّ مِنهُ الحَلاَقِمُ

وَمَا قَرعَتْ سِنِّي عَلَيْكُمْ نَدَامَةً
وَأوشَكَ غداً أنْ يَقْرَعَ السِّنَّ نَادِمُ

عَلَيكُمْ بِدَارِي فَاهْدِمُوهَا دَعَائِمَا
فَفِي الأرْضِ بَنَّاءُونَ لِي وَدَعَائِمُ

لَئِنْ اخْرَجَتْنِي عَنكُم شَرَّ عُصْبَةٍ
فَفِي الأرْضِ إخْوَانٌ عَلَيَّ أكَارِمُ

وَإنْ هَضَمَتْ حَقِّي أمَيَّةُ عِندَهَا
فَهَاتَا عَلى ظَهْرِ المَحَبَّةِ هَاشِمُ

وَلاَ غَرْوَ مِنْ تِلْكَ القَلاَنِسِ جَالِيا
إذا عَرَفَتْ حَقِّي هُنَاكَ العَمَائِمُ

وقال في وصف نحلة:

وَطَائِرَةٍ تَهْوِي كَأنَّ جَنَاحَهَا
ضَمِيرٌ خَفِيٌّ لاَ يُحَدِّدُهُ وَهْمُ

مُلاَزِمَةٍ لِلرَّوْضِ حَتَّى كَأنَّهَا
لَهَا كُلُّ مَا تَفْتَرُّ عَنهُ الرُّبَى طَعْمُ

تَمُجُّ بِفِيهَا الشَّهْدَ صِرفاً وَيَخْتَفِي
لِمُشْتَارِهِ مَا بَيْنَ أَحْشَائِهَا سَهْمُ
مُنَافِرَةٍ لِلإِنسِ تأنسُ بِالفَلاَ
مُفَرِّقَةٍ لِلشَّهْدِ، مِنْ بَعْضِهَا السُّمُّ
فَإِدْنَاؤُهَا رُشْدٌ وَهَتْكُ حِجَابِهَا
إِذَا احتَجَبَتْ فِي غَيْرِ أَيَامِهَا ظُلْمُ

وقال في وصف برغوث:

وَمُنَفِّرٍ لِلنَّوْمِ مَسْكَنُهُ إِذَا
نَامَ المُمَلَّكُ بَيْنَ أَثْنَاءِ الثِّيَابْ
يَسْرِي إِلَى الأَجْسَامِ يَهْتِكُ عَدْوُهُ
عَنْ كُلِّ جِسْمٍ صِيغَ بِالنُّعْمَى حِجَابْ
وَيَعُضُّ أَرْدَافَ الحِسَانِ وَمَالَهُ
كَفٌّ وَلَكِنْ فُوهُ مِنْ أَعْدَى الحِرَابْ
مُتَحَكِّمٌ فِي كُلِّ جِسْمٍ نَاعِمٍ
مُتَدَلِّلٌ مَا بَيْنَ أَلْحَاظِ الكِعَابْ
فَإِذَا هَمَمْتَ بِزَجْرِهِ وَلَّى وَلاَ
يُثْنِيهِ عَمَّا قَدْ تَعَوَّدَهُ طِلاَبْ
وَتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّهِ مَخْضُوبَةً
بِدَمِ القُلُوبِ وَمَا تَعَاوَرَهُ خِضَابْ
قَرِمٌ مِنَ اللَّيْلِ البَهِيمِ مُكَوَّرٌ
يَمْشِي البَرَازَ وَمَا تُوَارِيهِ ثِيَابْ
عَظُمَتْ رَزِيَّتُهُ وَلَكِنْ قَدْرُهُ
أَخْزَى وَأَهْوَنُ مِنْ ذُبَابٍ فِي تُرَابْ

ومن روائع ما كتبه نثرا في وصف برغوث قوله: ((أسودُ زنجيٌّ، وأهليٌّ وحشيٌّ، ليس بوانٍ ولا

زُمَّيْل، كأنه جزء لا يتجزأ من لَيل، وشُونيزة،[1] وَثَبَتُهَا غريزة، أو نقطة مداد، أو سويداء قلب فؤاد، شربه عبٌّ، ومَشْيهُ وَثْبٌ، يَكمُنُ نهاره، ويَسْري ليله، يدرك بطعن مؤلم، ويستحل دم كل مسلم، مساور للأساورَة، يجرُّ ذيله على الجبابرة يتكفر بأرفع الثياب، ويَهْتِكُ سِترَ كل حجاب، ولا يَحْفِلُ ببوّاب، يرد مناهل العيش العَذبَة، ويصل إلى الأحراجِ الرطبة، لا يُمْنَعُ منه أمير، ولا يَنفعُ فيه غيْرَةُ غَيور، شَرُّهُ مبثوث، وعهده منكوث، وهكذا كل بُرْغوث)).[2]

ويبدو أنه كان يخوض صراعا ساخنا ضد مجموعة من أدباء وعلماء قرطبة؛ إذ كانت بينهم منافسة شديدة؛ تجلت في بعض المناقضات والمعارضات التي كانوا يشنونها ضد بعضهم بعضا. ولم ينج من هذا الصراع حتى من ولي منهم مناصب عليا في الدولة[3].

---

[1] الشُّونِيزَة هي الحبة السوداء، وتسميها العامة في الجزائر سَيْنوجَة.

[2] المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 83.

[3] وهذا خبر نقل عن ابن شهيد يتعرض للأديب الكاتب ابن عباس الذي كان يتولى وزارة الفتى زُهير الصقلبي؛ جاء فيه: ((لما قدم زهير الصقلبي إلى حضرة قرطبة من المرية وجّه وزيره أبو جعفر ابن عباس إلى لُمَّة من أصحابنا منهم: ابن بُرْد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني؛ فحضروا إليه؛ فسألهم عني وقال: "وجِّهُوا إليه"؛ فوافاني رسوله مع دابة بسَرْج مُحَلًّى ثقيل؛ فسرت إليه، ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب؛ فتحفز المجلس لدخولي، وقاموا جميعا لي؛ حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً ذيلاً لم أرَ أحداً سَحبَه قبله، وهو يترنم؛ فسلمت عليه سلامِ من يعرف قدر الرجال، فرد رداً لطيفا؛ فعلمت أن في أنفه نُعرة لا تخرج إلا بسعط الكلام، ولا ترام إلا بمستحصد النظام؛ ورأيت أصحابي يُصِيخون إلى ترنمه. فقال لي ابن الحناط؛ وكان كثير الإنحاء عليّ، جالبا في المحافل ما يسوء إليّ: "إن الوزير حضره قسيم، وهو يسألنا إجازته"؛ فعلمت أني المراد؛ فاستنشدته، فأنشد:

مَرَضُ الجُفونِ ولَثْغَةٌ فِي المَنطِقِ

فقلت لمن حضر: لا تجهدوا أنفسكم؛ فما المراد غيري؛ ثم أخذت الدواة فكتبت:=

وكتب ابن شهيد إلى الكاتب الأديب أبي بكر محمد ابن قاسم المعروف باشكمياط أو (أشكنهاط) رسالة قال فيها منتقدا إياه: ((ما أغيرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر؛ لو إليكَ كان العلم، أو بكفك كان الفهم؛ لم تترك لأرض أعلاماً، ولا لغيرك إنعاماً؛ أحَشا عند رِعدتك؟![1] عرضت عليك الدرَّ منظوماً؛ فقلت: نعم ما صنعت لو اخترعت؛ وما أحس ما أطلعت لو ابتدعت. معرّضا بالتقَصُّص،[2] ومشيراً إلى التلصُّص؛ هيهات ! لا يزيد الحزّ من الغرَب [الذهب والفضة]، ولا

=سَبَبَانِ جرًا عِشْقَ مَنْ لمْ يَعْشَق
مَنْ لِي بِالثغَ لاَ يَزَالُ حَدِيثُهُ
يذكِي عَلَى الأحْشَاءِ جَمرَةَ مُحرق
ينبِي فَيَنبو فِي الكلاَمِ لِسَانُهُ
فكأنَهُ مِنْ خمرِ عَينيهِ سُقِي
لاَ يَنعِشُ الألفاظَ مِنْ عَثرَاتِها
ولَوانَّها كتِبتْ لَهُ فِي مهرَق

ثم قمت عنهم؛ فلم ألبث أن وَرَدُوا علَيَّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرضَ بما جئت به من البديهة، وسألوني أن أحمل مَكاويَ الهجاء على حتاره [أي تحريفه]؛ فقلت:

أبو جَعفرٍ كاتِبٌ مُحسِنٌ
مَلِيحُ سنا الخطِّ حلوُ الخطابة
تملأ شحماً ولحماً ومَا
يليقُ تملؤهُ بِالكِتابة
لهُ عرَقٌ ليسَ ماءَ الحياء
ولكِنهُ رَشحُ ماءِ الجنابة
جرَى المَاءُ فِي سُفلِهِ جرْيَ لين
فأحدَثَ فِي العلوِ مِنهُ صَلاَبة)).

نفح الطيب، ج: 3، ص ص: 610-611.

[1] أي هل يصح الحش (ترييش السهم استعدادا للرمي) مع رعدة تنتاب الرامي.

[2] أي الولوع في تتبع معاني الآخرين.

يضيءُ السليط في القصب [أي أنابيب من الجوهر][1] لأقطعنَّ حبالك هاجراً، ولأتركن ليلك ساهراً)).[2]

ومن النصوص التي يعارض فيها ابن شهيد بعض الكتاب المحافظين، المتشبثين بالأساليب القديمة للبيان قوله: ((وإصابةُ البيان لا يقومُ بها حفظُ كثير من الغريب، واستيفاءُ مسائلِ النحو؛ وإنما يقوم بها الطبع مع وَزنِه من هذين: النحو والغريب. ومقدارُ طبعِ الإنسان إنما يكونُ على مقدار تركيب نفسه مع جسمه؛ فمن كانت نفسه في أصلِ تركيبه مستوليةً على جسمه؛ كان مطبوعاً روحانياً؛ يطلع صُوَرَ الكلام والمعاني في أجملِ هيئاتها، وأروَق لبساتها؛ ومن كان جسمه مستولياً على نفسه ـ من أصل تركيبه ـ والغالبَ على حسّه؛ كان ما يطلعُ من تلك الصور ناقصاً عن الدّرجة الأولى في الكمال والتمام، وحُسْنِ الرّونق والنظام. فمن كانت نفسُه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النظام صُوَرٌ رائقة من الكلام؛ تملأ القلوب، وتشعف النفوس. فإذ فتشت لحسنها أصلا لم تجده، ولجمال تركيبها أسا لم تعرفه؛ وهذا هو الغريب؛ أن يتركب الحسن من غير حسن؛ كقول امرئ القيس:

تنوَّرتُها مِنْ أذرُعاتٍ وَأهلُهَا
بيَثرِبَ أدنَى دَارِهَا نظرٌ عَالِي

---

[1] أي أن الذهب والفضة لا يصلحان للسهام؛ ولن يزيد الحز من قيمتهما لكي يصيرا سهاما؛ كما لا يضيء السليط في قناديل من أنابيب الجوهر؛ بينما يضيء في قناديل بسيطة.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 230 ـ 231.

فإن هذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنىً لم تجده. وكقول أبي نواس:

طَرَحتمْ مِنَ الترْحالِ ذِكراً، فَغَمنا،
فَلَوْ قدْ شَخَصْتمْ صَبّحَ المَوْتُ بَعْضَنا

ثم قوله:
سَأشْكو إلى الفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالدٍ
هَوَاكِ، لَعَلّ الفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنا

فهذا من الكلام الغثّ، واللفظِ الرّثّ؛ الّذي لو رامه حِمار الكُساح لأدركه؛ ولكن له من التعلق بالنفس، والاستيلاء على القلب ما ترى)).[1]

ولمزيد من الفائدة نثبت هنا هذه المقاطع من رسائل أدبية، نقدية رائعة كتبها ابن شهيد؛ جاء فيها: ((وكما أن لكل مَقامٍ مَقالاً؛ فكذلك لكل عصر بيان، ولكلِّ دَهرٍ كلام، ولكلِّ طائفةٍ من الأمم المتعاقبة نوعٌ من الخطابةِ، وضربٌ من البلاغة؛ لا يوافقُها غيرُه ولا تَهشُّ لسواه. وكما أن للدنيا دولاً؛ فكذلك للكلام نقلٌ وتَغايرٌ في العادة. ألا ترى أنّ الزّمان لما دار كيف أحال بعضَ الرّسمِ الأولِ في هذا الفنِّ إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان؟ فالصنعة معهم أفسَحُ باعاً، وأشدُّ ذراعاً، وأنوَرُ شُعاعاً؛ لرُجحان تلك العقول، واتساع تلك القرائح في العلوم. ثم دار الزمانُ دَوَرَاناً؛ فكانت إحالةٌ أخرى إلى طريقة إبراهيم ابن العباس ومحمد ابن الزّيات وابني وهبٍ ونظرائهم؛ فرقت الطباعُ، وخف

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 231 ـ 232.

ثقلُ النفوس. ثم دار الزمانُ فاعترى أهله بالطائف صَلفٌ، وبرقةِ الكلامِ كلفٌ؛ فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما. وكذلك الشعراءُ انتقلوا عن العادة في الصنعةِ بانتقالِ الزمان؛ وطلبَ كلٌ ذي عصرٍ ما يجوز فيه، وتهشُ له قلوبُ أهلهِ؛ فكان من صريعِ الغواني وبشارٍ وأبي نواسٍ وأصحابهم في البديع ما كان؛ من استعمال أفانينهِ والزيادة في تفريع فنونه. ثم جاء أبو تمامٍ فأسرف في التجنيس، وخرج عن العادة؛ وطابَ ذلكَ منه، وامتثله الناس؛ فكل شِعرٍ لا يكونُ اليوم تجنيساً أو ما يُشبهه تمُجه الآذانُ؛ والتوسُّطُ في الأمرِ أعدلُ؛ لأنه لَبسَ ديباجة المُحدثين على لأمةِ العرب؛ فتركبَ له من الحسْنِ بينهما ما تركب)).[1]

((وأهل صناعة الكلامِ مُتباينون في المنزلة، متفاضِلون في شَرَفِ المرتبة، على مقدارِ إحسانهم وتصرُّفِهم. فمنهم الذي ينظِم الأوصاف، ويخترعُ المعاني، ويحرز جيد اللفظِ؛ إلاَّ أنه يصعبُ عليه الكلام، ويَكدُّ قريحته التأليف؛ حتى إنه رُبَّمَا قَصَّر في الوصف، وأساءَ الوضع. فهذا في الأبياتِ القليلة نافر، وفي القريبةِ المأخذِ سائر، وفي طريقة الجمهور الأعظم ذاهب؛ حتى إذا ازدحمت عليه، وانحشَدَتْ إليه، وطالبته ببهاءِ البهجة، وشرف المنزلة، وقف وأنفلَّ، وتلاشى واضمحل. ومنهم الكارعُ في بحر الغزارة، القارحُ بشُعاعِ البراعة؛ الذي يَمُرُّ مَرَّ السَّيلِ في اندفاعه، والشؤبُوبِ في انصبابه؛ لا يشكو الفشل، ولا يَكِلُّ على طولِ العمل؛ إذا ازدحَمَتْ في الكلامِ عليه المطالب، وعَلِقَتْ بحواشي فكره المآرب،

[1] نفسه، ص ص: 237 ـ 238.

وحُشرت عليه الصعائب والغرائب؛ استقلَّ بها كاهله، واضطلع بثقلها غاربهُ، وأعارَها من نظره لمْحة، ومن فِكره قدْحَة، ثم رمى بها عن جانبيهِ؛ قد رَويَتْ بمائها، ولبست شُعاع بهائها؛ وبقي كاللقوةِ في المَرقب؛ سامٍ نظرُه، قد ضمَّ جناحَيْه، ووقفَ على مخلبه، لا تتاحُ له جارحة إلا اقتصَّها، ولا تنازِله طائرة إلاَّ اختطفها؛ جُرْأته كشفرته، وبديهته كفكرته؛ فذلك الألسن يومَ حربِ الكلام، لا تخطئُ ضربتُه، ولا تُصابُ غرَّتُه. ومنهم من يتجافى الكلام، ويرغ عن المقال؛ فإذا مُني به، أخذ بأطرافِ المحاسن، وشارَك في أنحاءٍ من الصنعة؛ وجُلَّ ما عنده تلفيقٌ وحيلة؛ وبذلك يُصاحِبُ الأيام، ويُجاري أبناء الزَّمان؛ ما كان له عقل يغطي على نقصانِه، سياسة يَسُوسُ بها فُحولَ زمانِه. ومن خرج عنِ هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان، ولا يدخل في أهلِ صناعة الكلام)).[1]

((وَقومٌ من المعلمين بقُرْطُبتِنَا ممن أتى على أجزاءٍ من النحو، وحفِظَ كلماتٍ مِن اللغة، يحنونَ على أكبادٍ غليظة؛ وقلوب كقلوب البُعران؛ ويَرجِعون إلى فِطنٍ حَمِئةٍ، وأذهانٍ صَدِئَةٍ؛ لا مَنفذَ لها في شُعاعِ الرِّقةِ، ولا مَدَبَّ لها في أنوارِ البيان. سَقَطَتْ إليهم كُتبٌ في البديعِ والنقدِ فهِمُوا منها ما يفهمه القرد اليماني منِ الرَّقص على الإيقاع، والزَّمْر على الألحان؛ فهم يصَرِّفون غرَائبَها فيما يَجري عندهم تصريفَ من لم يرزَق آلة الفهم، ومن لم تكن له آلة الصناعة، مما هي مَخصوصَة بها، لا تقومُ تلك الصناعة إلا بتلك الآلة؛ فهو كالحمار

[1] نفسه، ص ص: 238 ـ 239.

لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضربِ العود والطنبور؛ لتوتدِ رُسغه، واستدارة حافره؛ ولا له بنانٌ يجسُّ به على دَستبان... فهذه حالُ العصابةِ من المعلِّمين: يدركون بالطبيعةِ، ويقصرون بالآلةِ. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العِلل الدّاخلةِ من فساد الآلةِ القابلةِ للروحانية، والخادمةِ لآلاتِ الفهم، الباعثة لرقيق الدّم في الشّريانات إلى القلب؛ وزيادةِ غِلظِ أعصاب الدّماغِ ونقصانِها عن المقدارَ الطبيعي. يُعينُ على ذلك بالحَدْس وطريق الفِراسة فسادُ الآلةِ الظاهرةِ؛ كفرطحةِ الرأس وتسفيطه، ونتوءِ القمَحْدُوَةِ، والتِواءِ الشّدْق، وخزَرِ العين، وغِلظِ الأنفِ، وانزواءِ الأرنبة... وليس العجبُ في هذه العصابةِ إلا من أبي القاسم[1] فإنّه

---

[1] وهو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الإفليلي؛ قال فيه الحميدي: ((وكان متصدراً في علم الأدب يُقرأ عليه، ويختلف فيه إليه؛ وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لهما؛ وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي)). جذوة المقتبس، ص: 151. وقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي... قد بذ أهل زمانه بقرطبة؛ في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة؛ في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، والمشاركة في بعض معانيها. وكان غيورا على ما يَحْمِل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه، وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه، وإكمال صناعته به، فلم يكن له شروع فيه. وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة؛ ومضى الناس من حائن وظاعن؛ فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم إلى أن نال الجاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 281 ـ 282. أما صاحب المغرب فقد أضاف: ((استكتبه المستكفي فبَرَدَ، ووقع كلامه خاليا من البلاغة؛ لأنه كان على طريقة المعلمين؛ فزُهِدَ فيه؛ وما بلغني أنه ألف شيئاً إلا كتابه في شعر المتنبي؛ ولحقته تهمة في دينه أيام هشام؛ فسجن في المطبق. وابن شهيد كثير الوقوع فيه والتندير به... قال الحجاري: "كان بارد النظم والنثر، لم ينـدر له من شعره إلا قوله:

صَحِبتُ القطِيعَ ونادَمتُه وَأصبَحتُ فِي شُرْبِهِ ذا انقِطاعْ
وَأبصَرتُ أنسِي بِهِ وَحدَهُ كَأنسِ الرَّضِيعِ بِثَديِ الرّضَاعْ "

قال: "وهو القائل في يحيى بن حمود:

أنتَ خَيرَ النّاسِ كلهمُ يَابنَ مَنْ مَا مِثلَهُ بَشَرُ
فإذَا مَا لحتَ بَينَهمُ قِيلَ هَذا البَدْوُ وَالحَضَرُ"=

زاد عليهم في الصناعة، وبَزَّهم بوُفورِ البضاعة. دخلَ الشعراء فأَخذَ لباقتَهم، وصار في جملة الكتاب فاستعار صلفهم ورشاقتهم، وباشرَ أهلَ الحساب فاستفاد طريقة البراهين، وناظر أهلَ الجَدَلِ فتعلم القوانين، وعَرَفَ عناصرَ الكلامِ؛ فكل علم يَزْعَمُه قبض يده، وكل جدٍّ وهَزلٍ فإليه منسوبٌ، وعنهُ مأخوذ؛ وهو مع ما اجتمعَ له من ذلك كلِّه، وحبِي به، أشدهم صَبابَة [ضنانة] بألاَّ يكونَ بالأندلسِ مُحْسِنٌ سواه، ولا مجيدٌ حاشاه. وكان الرَّأيُ عِندِي له أن يَسْكنَ أرْضَ جليقية أو قُطراً بعد عن الإسلام؛ حتى لا يسمعَ فيه لخطيب ذِكراً، ولا يُحِسَّ لشاعرٍ ركزاً؛ فيكونَ هناك فَرْداً. ومنَ العَجب أيضاً في أمرِهِ أنَّ كلَّ كاتب كتبَ للسلاطين عندنا، وكلَّ شاعرٍ مدحهم، رُوِيَتْ أشعارُه ورسائله غير أبي القاسمِ وحدَه. على أنه إنما جلس للتعليمِ على هذا المعنى. وربما عرَّضَ بأن يُؤخَذُ منه شيءٌ من أشعارِهِ ورسائله ولا يجيبه تلميذ؛ والمحرومُ محرومٌ... وهو مع هذا يسمينا الهمج الهامج، ويسمي البديعَ والصَّابئَ وشمسَ المعالي العَضَاريط. وهو أبخلُ أهلِ الأرضِ لا محالة. ولم يُقصِّرْ بنا عنده إلا توقيرُنا لثغامَته [أي بياض رأسه].

وفي ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة أصيب ابن شهيد بداء الفالج؛ فشل حركته، وألزمه

=قال: "وأنشدتهما لأحد الأدباء، فقال لي ـ عندما سمع عجز الأول ورأى ترادف الميمات ـ: هذه عُقد ذنب العقرب؛ فلما سمع الثاني قال: سبحان من أخلى خاطر هذا الرجل من التوفيق، وجعله يخرى على فمه")).
المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 73.

الفراش إلى أن مات. وقد أثر عليه ذلك المرض كثيرا؛ إذ طال ثقله عليه؛ وضيق عليك أنفاسه، فكره الحياة على تلك الحال المؤلمة؛ حتى راودته نفسه بالانتحار؛ ولكنه صبر على حكم الله؛ إلى أن وافته المنية سنة ست وعشرين وأربعمائة.

- ثم أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُّعيني المعروف بابن الحناط الكفيف: سمي بابن الحناط لأن أباه كان يبيع الحِنْطة بقرطبة. وينتسب هذا الأديب إلى قبيلة ذي رُعَيْن الحميرية العربية. هذا وقد ولد ضعيف البصر أعشى؛ وعلى الرغم من علته تلك؛ فقد تمكن من تعلم القراءة، والتفوق في تحصيل علوم شتى. ولم يفتْ في عضده انطفاء بصره بالكامل بعد فترة من الزمن؛ إذ واصل الجدّ والاجتهاد في استيعاب العلوم بمختلف فنونها. ويعتبر ابن الحناط من شعراء وأدباء الأندلس الفحول في زمنه. وقد كانت له صولات وجولات في مواجهة ابن شهيد؛ ويبدو أنه تفوق عليه في بعض المرات.[1] ويقول صاحب المسهب

[1] قال ابن بسام: ((وأبو عبد الله بن الحناط هذا زعيم من زعماء العصر - كان - ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام، وغمرة علم سالت بأعلام الأنام؛ فكم له من وقذة [أي ضربة] لا يبرأ أميمها [أي جرحها]، ونكزة لا يسلم سليمها. وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه، وانحياشه - كان - إلى جانبه؛ مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء، وأخذت عليه بفروج الهواء... وقد ذكره ابن حيان في فصل من كتابه فقال: "وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة نعي إلينا أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الشاعر الضرير القرطبي؛ بقية الأدباء النحارير في الشعر؛ هلك بالجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم. وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة؛ فاجتثّ أصله. وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلام، بصيرا بالآثار العلوية، عالما بالأفلاك والهيئة، حاذقا بالطب والفلسفة، ماهرا في العربية والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية؛ من رجل موهن في دينه، مضطرب في تدبيره، سيئ الظن بمعارفه، شديد الحذر على نفسه، فاسد التوهم في ذاته، عجيب الشأن في تفاوت أحواله، ولد=

أن بني ذكوان هم الذين أعانوه في حياته؛ إذ كفوه مئونة الدهر؛ وضمنوا له فرصة التفرغ للعلم. وتقول بعض المصادر أنه كان يغلب عليه الاشتغال بعلم المنطق؛ الأمر الذي وضعه ـ آنئذ ـ موضع اتهام في دينه.[1]

وهذه بعض العينات من قصائد ابن الحناط بالإضافة إلى نصوص من نثره؛ حفظتها كتب التراث الأندلسي. بدءا بمقطع من رسالة بعث بها إلى الوزير أبي العباس ابن ذكوان قال فيها: **((الإسهاب كلفة، والإيجازُ حكمة، وخواطر الألباب سهام؛ يصابُ بها أغراضُ الكلام؛ وأخونا أبو عامر [ابن شهيد] يسهبُ نثراً، ويطوّل نظماً؛ شامخاً بأنفه، ثانياً من عطفه، متخيلاً أنه قد أحرز السباق في الأدب، وأوتي فصل الخطاب. فهو يستقصرُ أساتيذَ الأدباء، ويستجهلُ شيوخ العلماء... في ليلةٍ بتها، والكفُّ الخضيبُ سوارُها البدر، والشعرى العبورُ وشاحها النسر؛ وكأنما سماؤها روضة تفتحتِ النجوم وسطها زَهراً، وتفجَّرتِ المجرَّة خلالها نهراً؛ وادٍ يسيل بعسجد على رضراضِ زبرجد. فلما أصبت الغِرَّة، وأقصدت الثغرة؛ تقلبت عراراً، وتناومت غراراً؛ حتى أنبهني الفجر ببرده، وسَرْبَلني الصباح ببُرْده، وهببت من النومة، وصحوت من النشْوةِ، فزففتها إليك بنت ليلتها عذراء، وجلوتها عليك كريمة فكرتها حسناء، تتلفع بحبرةِ حبر،**

=أعشى الحملاقة، ضعيف البصر، متوقد الخاطر، فقرأ كثيرا في حال عشاه، ثم طفئ نور عينيه بالكلية، فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك، فأنجح علاجا. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي له البصير، ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الإستنباط؛ وتطبب عنده الأعيان والملوك والخاصة، فاعترف له بمنافع جسيمة، وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة")). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 437 ــ 438.

[1] المغرب، ج: 1، ص: 121.

وتتبختر في شعار شعر، مؤتلفٌ بين رَقّها ومدادها، ومجتمع في بياضها وسوادها... وتخال القلمَ رقّ لما به فبكى؛ فأنشدْها أخاكَ الشهيدي [أي ابن شهيد]، وكلفه على العروض والقافية مُعارضَتَها، وحمّله على اللين والشدة مُقارضتها، فستوقد بقلبه قبَساً، وتَضْرِب في أذنِهِ جَرَساً؛ فيَتبيَّن به حَظّه، ويعرف لغيره فضله)).[1]

ويبدو أنه كان بين ابن الحناط وابن شُهيد منافسة حثيثة وبريئة؛ لم تمنعهما من إظهار التقدير والاحترام لبعضهما بعضا؛ ويتجلى ذلك من خلال تصرفاتهما الواضحة، ومن خلال ما ينظمانه من مقاطع شعرية يتبادلان فيها المديح[2].

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 439 ـ 440.

[2] وقد نقل الحميد بعض الأبيات التي تؤيد هذا؛ مثل: ((فأخبرني الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي قال: "لما نعيت أبا عامر بن شُهيد إلى أبي عبد الله بن الحناط ـ وقد عرفت ما كان بينهما من المنافسة ـ بكى، وأنشدني لنفسه بديهة:

لَمَّا نعَى النَاعِي أبا عَامِرٍ
أيقنْتُ أني لستُ بالصَّابرِ
أوْدَى فتَى الظرفِ وتِرْبُ النّدَى
وسَيِّدُ الأوّلِ والآخــرِ"

ولابن الحناط من كلمة طويلة في مدح أبي عامر بن شهيد أولها:

أمّا الفِرَاقُ فلي في يَومِهِ فَرَقُ
وَقَدْ أرِقتُ لهُ لوْ يَنفعُ الأرَقُ
أظْعَانُهمْ سَابَقتْ عَيْنِي التِي انْهَمَلَتْ
أم الدُّمُوعُ مَعَ الأظْعَانِ تَستَبِقُ
عاقَ العَقِيقُ عَنِ السُّلوَانِ واتضَحَتْ
فِي توضِحٍ لِي مِنْ نَهْجِ الهَوَى طرُقُ
لوْلاَ النسِيمُ الذِي تأتِي الرِّيَاحُ بهِ
إذَا تضَوّعَ مِنْ عَرفِ الحِمَى الأفُقُ
لمْ أدْرِ أنَّ بُيُوتَ الحَيِّ نَازِلةٌ
نَجْداً وَلاَ اعْتَادَنِي نَحْوَ الحِمَى القَلقُ
مَا فِي الهَوَادِجِ إلاَّ الشمْسُ طالِعَةً
وَمَا بِقلبِي إلاَّ الشوقُ وَالأرَقُ=

ومما قاله ابن الحناط في قصيدة رفعها إلى الخليفة علي بن حمود:

رَاحَتْ تُذَكِّرُ بِالنَّسِيمِ الرَّاحَا
وَطْفَاءُ تَكْسِرُ لِلْجُنُوحِ جَنَاحَا
أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلاَمُ فَأَوْقَدَتْ
مِنْ بَرْقِهَا كَيْ تَهْتَدِي مِصْبَاحَا
وَكَأَنَّ صَوْتَ الرَّعْدِ خَلْفَ سَحَابِهَا
حَادٍ إِذَا وَنَتِ السَّحَائِبُ صَاحَا
جَادَتْ عَلَى التَّلَعَاتِ فَاكْتَسَتِ الرُّبَى
حُلَلاً أَقَامَ لَهَا الرَّبِيعُ وِشَاحَا
فَانْظُرْ إِلَى الرَّوْضِ الأَرِيضِ وَقَدْ غَدَا
يَبْكِي الغَوَادِي ضَاحِكاً مُرْتَاحَا
وَالنَّوْرُ يَبْسُطُ نَحْوَ دِيمَتِهَا يَداً
أَهْدَى لَهَا سَاقِي النَّدَى أَقْدَاحَا
وَتَخَالُهُ حَيَّى الحَيَا مِنْ عَرْفِهِ
بِذَكِيِّهِ فَإِذَا سَقَاهُ فَاحَا
رَوْضٌ يُحَاكِي الفَاطِمِيَّ شَمَائِلاً
طِيباً، وَمُزْنٌ قَدْ حَكَاهُ سَمَاحَا
أَعَلِيُّ إِنْ تَعْلُ المُلُوكَ فَإِنَّهُمْ
بِهِمٌ جُعِلْتَ أَغَرَّهَا الوَضَّاحَا
لَمَّا طَلَعْتَ لَهَا بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ
أَنْسَيْتَهَا المَنْصُورَ وَالسَّفَّاحَا

=ومن أخرى:

مِنْ كُلِّ بَيْضَاءَ مِثْلِ البَدْرِ مُطَّلِعاً
هَيْفَاءَ مِثْل قَضِيبِ البَانِ مُنْعَطِفَا
إِلْفٌ أَلِفْتُ الضَّنَا مِنْ بَعْدِ فُرْقَتِهِ
حَتَّى غَدَا بَدَنِي مِنْ دِقَّةٍ أَلِفَا)).

جذوة المقتبس، ص: 58.

وفي قصيدة أخرى يقول في علي بن حمود أيضا:

شَقِيَ بَعْدَنَا بِالْبُعْدِ مِنْ نِعَمٍ نُعْمَانُ
وَأُوحِشَ مِنْ لُبْنَى عَلَى البُعْدِ لُبْنَانُ
سَقَى الْقَطْرُ مَا بَيْنَ الْعَقِيقِ وَضَارِجٍ
مَعَارِفَ فِيهَا لِلأَحِبَّةِ عِرْفَانُ
وَحَيَّا الحَيَا عَهْداً عَهِدْنَاهُ بِاللِّوَى
لَوَى دَيْنَنَا فِيهِ صُدُودٌ وَهِجْرَانُ

إلى قوله:
وَلاَ مِثْلَ هَذَا الْعَدْلِ كَيْفَ أَعَادَهُ
عَلِيٌّ وَقَدْ مَرَّتْ مِنَ الظُّلْمِ أَزْمَانُ

ويقول فيه أيضا في قصيدة أخرى:

بَكَيْتُ لَهَا شَجْواً وَهُنَّ الحَمَائِمُ
يَنُحْنَ بِلاَ دَمْعٍ وَدَمْعُكَ سَاجِمُ
وَلَمَّا عَلَوْنَا الحَزْنَ وَاعْتَسَفَتْ بِنَا
رُسُومَ الدِّيَارِ اليَعْمَلاَتُ الرَّوَاسِمُ

ثم يقول:
سَقَى مَنْبِتَ اللَّذَّاتِ مِنْهَا ابْنُ هَاشِمٍ
إِذَا انْهَمَلَتْ مِنْ رَاحَتَيْهِ الْغَمَائِمُ
إِمَامٌ أَقَامَ الدِّينَ حَدُّ حُسَامِهِ
طَرِيراً وَمِنْهُ فِي يَدِ اللَّهِ قَائِمُ
وَيُزْهِرُ فِي يُمْنَاهُ نُورٌ مِنَ الظُّبَا
لَهُ مِنْ رُؤُوسِ الدَّارِعِينَ كَمَائِمُ

سُيُوفٌ إِذَا اغْتَلَتْ جِهَاتُ ثُغُورِهَا
فَمِنْهُنَّ فِي أَعْنَاقِهِنَّ تَمَائِمُ

بِكُلِّ خَمِيسٍ طَبَّقَ الجَوَّ نَقْعَهُ
وَضَيِّقُ مَسْرَاهُ الجِيَادُ الصَّلاَدِمِ

كَأَنَّ مُثَارَ النَقْعِ إِثْمِدُ عَيْنِهِ
وَأَشْفَارَ جَفْنَيْهِ الشِّفَارُ الصَّوَارِمُ

تَعُدُّ عَلَيْهِ الطَيْرُ وَالوَحْشُ قُوتَهَا
إِذَا سَارَ وَالتَفَتْ عَلَيْهِ القَشَاعِمُ

ويقول أيضا في غيرها:

رَقَّتْ وَقَدْ غَنَّى الحَمَامُ الهَوَاتِفُ
بِمُنْعَرَجِ الأَجْزَاعِ وَاللَيْلُ عَاكِفُ

أَعَدْنَ لِيَ الشَوقَ القَدِيمَ وَطَافَ بِي
عَلَى النَأْيِ مِنْ ذِكرَى المَلِيحَةِ طَائِفُ

ويضيف:

سَقَى عَرَصَاتِ الدَّارِ كُلُّ مُلِثَّةٍ
مِنَ المُزْنِ تُزْجِيهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ

كَأَنَّ نَثِيرَ القَطْرِ مِنهَا جَوَاهِرٌ
تُفَرِّقُهَا لِلرِّيحِ أَيْدٍ عَوَاصِفُ

كَأَنَّ ابْتِسَامَ البَرقِ فِيهَا إِذَا بَدَتْ
سُيُوفُ عَلِيٍّ بِالدِّمَاءِ رَوَاعِفُ

وله قصيدة في القاسم بن حمود يشير فيها إلى مقتل المرتضى الأموي؛ بعد أن خانه حليفه خيران الصقلبي؛ فاستهلها قائلا:

لَـكَ الخَيْـرُ خَيْـرَانٌ مَـضَى لِـسَبِـيلِـهِ[1]
وَأَصْبَـحَ مُـلْـكُ اللـهِ فِي ابْـنِ رَسُـولِـهِ

إِلَى أن يقـول:
وَفَـرَّقَ جَمْـعَ الكُـفْـرِ وَاجْـتَـمَـعَ الـوَرَى
عَلَى ابْنِ حَـبِيبِ اللهِ بَعْـدَ خَـلِـيلِـهِ
وَقَـامَ لِـوَاءُ النَّـصْـرِ فَـوقَ مُـمَنَّـعٍ
مِنَ العِـزِّ جِبْرِيـلٌ إِمَـامُ رَعِـيلِـهِ
وَأَشْـرَقَـتِ الـدُّنْـيَا بِـنُـورِ خَـلِـيفَةٍ
بِهِ لاَحَ بَدْرُ الـحَـقِّ بَـعْـدَ أُفُـولِـهِ
مِـنَ الهَاشِـمِيِّـيـنَ الـذِيـنَ بِـمَـجْدِهِمْ
تَعَوَّدَ شَخْـصُ الـمَـجْـدِ جَـرَّ ذُيُـولِـهِ
فَـلاَ تَـسَـلِ الأَيَّـامَ عَـمَّـا أَتَـتْ بِـهِ
فَمَا زَالَـتِ الأَيَـامُ تَـأْتِي بِـسُـولِـهِ
وَلَمَّـا دَعَـا الشَّيْطَـانُ فِي الخَيْـلِ حِزْبَـهُ
وَأَقْـبَـلَ حِـزْبُ اللـهِ فَـوقَ خُـيُـولِـهِ
كَـتَـائِـبُ مِـنْ صَـنْـهَاجَـةٍ وَزَنَـاتَـةٍ
تَضَايَـقَ فِي عَـرْضِ الفَضَـاءِ وَطُـولِـهِ
تَـقَـدَّمَ خَـيْـرَانٌ إِلَـيْـهَـا بِـزَعْـمِهِ
لِيُـدْرِكَ مَـا قَـدْ فَـاتَـهُ مِـنْ ذُحُـولِـهِ
فَـلَـمَّـا الـتَـقَى الجَمْعَـانِ عَـاوَدَ رَأْيَهُ
فَخَـلَّى لِبَغْـضِ الهَـوْلِ جُـلَّ فُـضُـولِـهِ
وَوَلَّـى وَأَبْـقَـى مُـنْـذِراً مِـنْ وَرَائِـهِ
يُقِـيـمُ لأَهْـلِ الـغَـدْرِ عُـذْرَ نُـكُـولِـهِ

[1] في هـذا البيـت إشـارة إلى قصيـدة أحمـد بـن دراج القسطـلي؛ كـان قـد مـدح فيهـا خيـران بقولـه في المطلـع:
لـك الخيـر قـد أوفى بعهـدك خيـران   وبشـراك قـد وافـاك عـز وسلطـان

ومما قاله في المعتلي يحيى بن حمود:

لَمْ يَخْلُ مِنْ نُوَبِ الزَّمَانِ أَدِيبُ
كَلَّا فَشَأْنُ النَّائِبَاتِ يَنُوبُ
أَمْسَى قَرَاراً لِلْخُطُوبِ وَأَغْتَدِي
غَرَضاً تَفُوقُ نَحْوَهُ فَتُصِيبُ
وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْعُلُومِ وَجَدْتَهَا
شَيْئاً يُعَدُّ بِهِ عَلَيْكَ ذُنُوبُ
وَغَضَارَةُ الأَيَّامِ تَأْبَى أَنْ يُرَى
فِيهَا لأَبْنَاءِ الذَّكَاءِ نَصِيبُ
وَلِذَاكَ مَنْ صَحِبَ اللَّيَالِي طَالِباً
جَدًّا وَفَهْماً فَاتَهُ الْمَطْلُوبُ

إلى قوله:

أَمِتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُوَاجِلاً
فَسَقَى صَدَاهَا غَيْثُهُ الشُّؤْبُوبُ
الْمُعْتَلِي بِاللهِ وَالْمَلِكُ الَّذِي
تَاجُ الْفَخَارِ بِرَأْسِهِ مَعْصُوبُ
إِنْ كَانَ عَدُّوا حُبَّ آلِ مُحَمَّدٍ
ذَنْباً فَإِنِّي لَسْتُ مِنْهُ أَتُوبُ

ومما قاله في محمد بن القاسم بن حمود حينما اختار الإقامة عنده في الجزيرة الخضراء:

تَفَرَّغْتُ فِي شُغْلِ الْعَدَاوَةِ وَالظَّعْنِ
وَصِرْتُ إِلَى دَارِ الإِقَامَةِ وَالأَمْنِ
أَمَقْتُولَةَ الأَجْفَانِ مِنْ دَمْعِ حُزْنِهَا
أَفِيقِي فَإِنِّي قَدْ أَفَقْتُ مِنَ الْحُزْنِ

فلله سيري يوم ودعت صحبتي
زماعا ولم أقرع على ندم سني
رحلت فكم من جؤذر وغضنفر
يروي الثرى من فضل أدمعه الهتن
وما عن قلى فارقت تربة أرضكم
ولكنني أشفقت فيها من الدفن
مررت بشوس والنجوم كأنها
توقد من فكري وتسرج من ذهني
وأسريت من بذر الظلام بألبة
بصخبة مطفي الجمر أو مكفئ الظعن
لبسنا بها ليلا من الثلج أبيضا
كسته يد الصنبر ثوبا من القطن
ورحنا على البيرة فاستقل بي
جناح عقاب لا يروح إلى وكن
ولما تنكبنا المنكب لم نجد
لنا مركبا أهدى سبيلا من السفن
ترامت بنا الأهوال في كل لجة
تخيلها جوا تجلل بالدجن
ترى السفن فوق الموج فيها كأنها
تحدر من رعن وتوفي على رعن
فبوأت رحلي ظل أروع ماجد
يقول بلا خلف ويعطي بلا من
إمام وصي المصطفى وابن عمه
أبوه، فتم الفخر بين أب وابن

– **ثم أبو بكر عُبادة بن عبد الله بن محمد الأنصاري الخزرجي المعروف بابن ماء السماء:**[1] يضعه كثير من النقاد والأدباء الأندلسيين في صف فحول الشعراء بتلك الديار. وهو من أهل قرطبة؛ وينتسب في أصوله الأولى إلى الأنصار؛ وبالتحديد إلى قبيلة الخزرج. ويعتبر ابن ماء السماء من المبدعين المجددين في صناعة الشعر. هذا وقد نسبوا إليه بعض المبتكرات في نظم التواشيح.[2] ويقول ابن بسام أنه كان يظهر التشيع في شعره. وهذه بعض العينات من شعره بدءا بهذا المقطع قاله في علي بن حمود:

أطَاعَتكَ القلوبُ ولاَ عَصِيّ
وَحِزْبُ اللهِ حِزْبكَ يَا عَلِيّ

---

[1] وصف الحميدي ابن ماء السماء بقوله: ((من فحول شعراء الأندلس، متقدم فيهم مع علمه؛ وله كتاب "أخبار شعراء الأندلس". ذكره أبو محمد علي بن أحمد [بن حزم]؛ وأنه كان حيا في صفر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص: 293.

[2] قال ابن بسام: ((وقيل له ابن ماء السماء لجدهم الأول. ولحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية؛ ومدح رجالها. وكان أبو بكر في ذلك العصر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة؛ سلك إلى الشعر مسلكا سهلا؛ فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا. وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها، ووضعوا حقيقتَها، غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود؛ فأقام عُبادة هذا منآدَها، وقوم ميلَها وسنادَها؛ فكأنها لم تَسْمَعْ بالأندلس إلا منه، ولا أخذتْ إلا عنه؛ واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثير من حسناته. وهي أوزان كَثُرَ استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب؛ تشقُّ على سماعها مصوناتُ الجيوب بل القلوب. وأول من صنع أوزانَ هذه المُوَشَّحات بأفقنا واخترع طريقتها – فيما بلغني – محمد بن محمود القبْري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار؛ غيرَ أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة؛ يأخذ اللفظ العاميّ والعجميّ ويسمّيه المَركزَ، ويضعُ عليه الموَشَّحة دون تَضمينٍ فيها ولا أغصان. وقيل إن ابن عبد ربّه صاحب كتاب "العقد الفريد" أول من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا. ثم نشأ يوسف بن هارون الرّمادي؛ فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكيز؛ يضمّنُ كلّ موقفٍ يقف عليه في المراكز خاصّة. فاستمر على ذلك شعراءُ عصرنا؛ كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عُبادة هذا؛ فأحدَث التضفير؛ وذلك أنه اعتمد مواضعَ الوقف في المركز)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 468 – 469.

فكلُّ مَنِ ادَّعَى مَعَكَ المَعَالي
كذوبٌ مِثْلَ مَا كَذبَ الدَّعِيُّ

أبَى لَكَ أنْ تُهَاضَ عَلاكَ عَهْدٌ
هِشَامِيٌّ وَجَدٌّ هَاشِمِيٌّ

وَمَا سُمِيتَ بِاسْمِ أبِيكَ إلاَّ
لِيَحْيَا بِالسَّمِيِّ لهُ السَّمِيُّ

فَإنْ قَالَ الفَخُورُ أبِي فُلانٌ
فَحَسْبُكَ أنْ تَقولَ أبِي النَّبِيُّ

ويقول أيضا في قصيدة أخرى:

أبَسْلٌ عَلَيكَ المَاءُ حَتَّى يَشُوبَهُ
دَمٌ وَالكَرَى حَتَّى تَقضَّ المَضَاجِعُ

أجَمٌّ جِيَاداً أدمَنَ الغَزْوُ نَهْكَهَا
فَمِنهَا حَسِيرٌ فِي الجِهَادِ وَظَالِعُ

وَأغمِدْ سُيُوفاً تَشتَكِيكَ جُفُونُها
كَمَا تَشْتَكِي نُجْلَ العُيُونِ البَرَاقِعُ

وَسَكِّنْ عَجَاجَ الرَّكْضِ شَيْئاً فَقلَّمَا
يُرَى الجَوُّ مِمَّا هُجْتَهُ وَهوَ نَاصِعُ

وَآنِسْ قُصُوراً طَالَ إيحَاشُهَا بِهِ
فَقدْ أشفَقتْ مِمَّا صَنَعْتَ المَصَانِعُ

وَهَلْ ضَرَّكَ البَاغِي بِسَهْمِ مَكِيدَةٍ
وَأنتَ بِوَاقِي عِصْمَةِ اللهِ دَارِعُ؟

وَأيُّ يَدٍ تَنوِي قِرَاعَكَ بَعْدَمَا
رَأيْنَا يَدَ الجَبَّارِ عَنكَ تُقَارِعُ؟

وقال راثيا علي بن حمود، ومهنئا لأخيه القاسم بتوليه العرش:

صَلى عَلَى المَلِكِ الشَّهِيدِ مَلِيكُهُ
وَسَقَاهُ فِي ظِلِّ الجِنَانِ الكَوثَرُ
مَولًى دَهَتهُ عَبِيدُهُ، وَغَضَنفرٌ
تَرَكَتهُ أيْدِي الغُفرِ وَهوَ مُعَفرُ
كَانَتْ تَهَيَّبُهُ الأسُودُ فَغَالَهُ
فِي قَصْرِهِ مُسْتَضْعَفٌ مُسْتَحْقَرُ
لمْ يُثنِ عِزُّ المُلكِ عَنهُ مَنُونَهُ
فَسَمَتْ لَهُ مِنْ حَيْثُ لمْ يَكُ يَحْذَرُ
خَتَلَتْهُ سِراً وَالقَبَائِلُ دُرَّعٌ
تَحْمِيهِ لكِنَّ المَنَايَا جُسَّرُ
وَلَوْ أنَّهَا رَامَتْهُ جَهْراً لانْثَنَتْ
وَالبِيضُ تَقرَعُ وَالقَنَا يَتَكَسرُ

ثم يكمل:
مَا غَابَ بَدْرُ التمِّ إلاَّ رَيْثَمَا
جَلَّى الدُّجَى عَنَّا الصَّبَاحُ الأزْهَرُ
إنْ يَهْوِ مِنْ أفقِ الخِلافَةِ نيرٌ
يَهْدِي السَّبِيلَ فَقَدْ تَلاَهُ نَيِّرُ
بِالقَاسِمِ المَأمُونُ أفرَخَ رَوْعنا
فَالقَسْمُ وَافٍ وَالنَّصِيبُ مُوَفرُ

ومن شعره في القاسم بن حمود:
مَا ضَيَّعَ اللهُ مُلكاً أنتَ رَاعِيهِ
وَلاَ أبَاحَ ذِمَاراً أنتَ حَامِيهِ
لِلّهِ دَرُّكَ مِنْ مَولًى عَوَارِفُهُ
لمْ تَبْقَ فِي الأرْضِ إلاَّ مَنْ يُوَالِيهِ
تَهْدِيهِ وَالنَّاسُ قَدْ ضَلُّوا كَوَاكِبَ مِنْ
آرَائِهِ فِي سَمَاءٍ مِنْ مَعَالِيهِ

مُكفلاً برضَاهُ هِمةً أنفاً
تَرْمِي إلى الغَرَضِ الأقْصَى فتُصمِيهِ
كَانتْ خِلافتنا في الغرْبِ مَظلمَةً
كأنَّ أيَامَنا فِيهَا ليَاليهِ
سِيَاسَةٌ أبْرأتْ بالرِّفقِ فِي مَهَلٍ
دَاءَ الخِلافِ وَقدْ أعيا مُدَاويهِ
وَحِكمَةٌ خضَعَتْ هَامُ المُلوكِ لهَا
عِزًّا فلاَ حُرٌّ مَوْجُودٌ بوَادِيهِ
مُؤَيدٌ جَاءَتِ الدُّنيَا إلى يَدِهِ
عَفواً ولبَّتهُ مِنْ قرْبٍ أمَانِيهِ
جَلتْ أيَادِيهِ حَتَّى إنَّ أنفُسَنَا
وَمَا مَلكنَاهُ جُزْءٌ مِنْ أيَادِيهِ

ويقول مادحا يحيى بن علي بن حمود:

فهَا أنذَا يَا ابْنَ النبوَّةِ نافِثٌ
مِنَ القوْلِ أرْياً غيْرَ مَا يَنفثُ الصِّلُّ
وَعِندِي صَرِيحٌ فِي وَلائكَ مُعرِقٌ
تشيعُهُ مَحْضٌ وَبيْعَتهُ بتلُ
وَوَالَى أبي قيْسٌ أبَاكَ عَلى العُلاَ
فخيَّمَ فِي قلبِ ابنِ هِندٍ لهُ غِلُّ

ومن شعره أيضا:

لاَ تشْكوَنَّ إذَا عَثرْ
تَ إلى صَدِيقِكَ سُوءَ حَالكْ
فيُرِيكَ ألوَاناً مِنَ الْـ
إذْلاَلِ لمْ تخطرْ ببَالكْ

إيّاكَ أنْ تذري يَميـ
ـنكَ مَا يَدُورُ عَلى شِمَالِكْ
وَاصْبِرْ عَلَى نُوَبِ الزَّمَا
نِ وَإنْ رَمَتْ بِكَ فِي المَهَالِكْ
وَإلَى الذِي أغْنَى وَأقْـ
ـنَى اضْرَعْ وَسَلْهُ صَلاحَ حَالِكْ

وهذا موشح له يقول فيه:

مَنْ وَلِي ♦ فِي أمّةٍ أمْراً وَلَمْ يَعْدِلِ ♦ يُعْزَلِ ♦ إلاّ لِحَاظُ الرَّشَإِ الأكْحَلِ
جُرْتَ فِي حُكْمِكَ فِي قَتْلِيَ يَا مُسْرِفُ
فَانْصِفِ فَوَاجِبٌ أنْ يُنْصِفَ المُنْصِفُ
وَارْأفِ فَإنَّ هَذَا الشَّوقَ لاَ يَرْأفُ
عَلّلِ ♦ قَلْبي بِذَاكَ البَارِدِ السَّلْسَلِ ♦ يَنْجَلِي ♦ ما بِفُؤَادِي مِنْ جَوَى مُشْعَلِ
إنّمَا تَبْرُزُ كَيْ تُوقِدَ نَارَ الفِتَنْ
صَنَمَاً مُصَوَّراً فِي كلِّ شَيْءٍ حَسَنْ
إنْ رَمَى لَمْ يُخْطِ مِنْ دُونِ القُلُوبِ الجُنَنْ
كَيفَ لِي ♦ تَخَلّصٌ مِنْ سَهْمِكَ المُرْسَلِ ♦ فَصِلِ ♦ وَاستَبْقِني حَياً وَلاَ تَقْتُلِ
يَا سَنَا الشَّمْسِ وَيَا أبْهَى مِنَ الكَوكَبِ
يَا مُنَى النَّفسِ وَيَا سُؤْلِي وَيَا مَطْلَبِي
هَا أنَا حَلّ بِأعْدَائِكِ مَا حَلَّ بِي
عَذّلِي ♦ مِنْ ألَمِ الهِجْرَانِ فِي مَعْزِلِ ♦ وَالخَلِي فِي الحُبِّ لاَ يَسْألُ عَمّنْ بُلِي
أنْتَ قَدْ صَيّرتَ بالحُسْنِ مِنَ الرُّشْدِ غَيّ
لَمْ أجِدْ فِي طُرُقِي حُبِّكِ ذَنْباً عَلَيّ
فَاتَّئِدْ وَإنْ تَشَأ قَتْلِيَ شَيْئاً فَشَيّ
أجْمِلِ ♦ وَوَالِنِي مِنْكَ يَدَا المُفْضِلِ ♦ فَهْيَ لِي ♦ مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ المُقْبِلِ
مَااغتَذَى طَرْفِيَ إلاَّ بِسَنَا نَاظِرَيْكْ
وَكَذَا فِي الحُبِّ مَا بِي لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكْ
وَلِذَا أنْشِدُ وَالقَلْبُ رَهِينٌ لَدَيْكْ
يَا عَلِي ♦ سَلّطْتَ جَفْنَيْكَ عَلَى مَقْتَلِي ♦ فَابقِ لِي قَلْبِي وَجُدْ بِالفَضْلِ يَا مَوْئِلِي

ـ **ثم أبو جعفر أحمد بن أيوب اللمائي:**[1] يعتبر أبو جعفر اللمائي من الأدباء والشعراء الفحول ببلاد الأندلس. وينتسب هذا الكاتب إلى قبيلة لماية الأمازيغية؛ وقد ولي ـ في بلاط علي بن حمود ـ خطة الكتابة. ويبدو أنه كان يعاني ـ في آخر أيامه ـ من مرض ضيق النفس أو داء النسمة كما يسمى آنئذ؛ وقد توفي في مالقة بعد شدة وعذاب[2].

---

[1] قال ابن بسام: ((وكان أبو جعفر هذا ـ وقته ـ أحد أئمة الكتاب، وشهب الآداب؛ من سُخرت له فنون البيان، تسخير الجن لسليمان؛ وتصرف في محاسن الكلام، تصرف الرياح بالغمام؛ طلع من ثناياه، واقتعد مطاياه؛ وله إنشاءات سَرِيَّة في الدولة الحمودية؛ إذ كان علم أدبائها، والمُضطلع بأعبائها)). الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] وقد أورد ابن بسام قصيدة لأبي عامر ابن شهيد قالها ـ وهو على فراش مرضه المزمن ـ عندما نُعي إليه أحمد بن أيوب اللمائي جاء فيها:

أَمِنْ جَنَابِهِمُ النَّفْحُ الجَنُوبِيُّ
أَسْرَى فَصَاكَ بِهِ فِي الغَوْرِ غَارِيُّ؟

أَهْدَى إِلَيَّ ظَلاَماً رَدْعَ نَافِجَةٍ
أَدْمَاءَ شَقَّ بِهَا الدَّأْمَاءَ هِنْدِيُّ

وَاللَّيْلُ قَدْ قَامَ فِي أَثْوَابِ نَادِبَةٍ
كَأَنَّهُ فَوْقَ ظَهْرِ الأَرْضِ نُوبِيُّ

وَالنَّجْمُ تَحْسَبُهُ قُدَّامَ تَابِعِهِ
حَمَامَةً رَامَهَا فِي الجَوِّ بَازِيُّ

وَجَدْوَلُ الأُفْقِ يَجْرِي فِي مُنَافِسِهِ
مَاءٌ سَقَى زَهْرَةَ الخَضْرَاءِ فِضِّيُّ

فَقُلْتُ وَالسُّقْمُ مَنْشُورٌ عَلَى جَسَدِي
يَحدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ العَيْشِ مَطْوِيُّ:

أَهْدَى اللَّمَائِيُّ مِنْ أَزْهَارِ فِكْرَتِهِ
نَشْراً فَقَالَ الدُّجَى: مَرَّ اللَّمَائِيُّ

فَقِيلَ مَاتَ فَقَالَ اللَّيْلُ قَارَبَ ذَا
فَانْهَلَّ مِنْ مُقْلَتِي نَوْءٌ سِمَاكِيُّ

وَبِتُّ فَرْداً أُنَاجِي مُقْلَتِي شَغَفاً
كَأَنَّنِي فِي نُقُوبِ الدَّارِ جِنِّيُّ

لاَ عِشْتُ إِنْ مُتَّ لِي يَا وَاجِدِي أَبَداً
وَمَوْتُنَا وَاجِدٌ لاَ شَكَّ مَرْئِيُّ

إِنَّ الكَرِيمَ إِذَا مَا مَاتَ صَاحِبُهُ
أَوْدَى بِهِ الوَجْدُ وَالثُّكْلُ الطَّبِيعِيُّ=

وعلى الرغم من شهرته وطول باعه في ميدان الكتابة نثراً وشعراً؛ فإن ما وصل إلينا من أعماله زهيد جداً؛ بسبب الضياع؛ وقد تنبه إلى هذا الأمر ابن بسام حيث قال: **((إلا أنّي لم أجد عند تحريري هذه النسخة من كلامه إلا بعض فصول له من منثور؛ وهي ثِمَادٌ من بُحُور؛ وقد أخرجت من براعته ما يشهد له بالفضل في صناعته، والتقدم على أكثر جماعته)).**[1] وأهم أعماله التي وردت في المصادر القليلة هذه القطعة النثرية التي بعث بها إلى وزير زهير أبي جعفر أحمد بن عباس جاء فيها: **((غُصنُ ذِكراك عندي ناضر، وروضُ شُكرك لديّ عاطر، وريحُ إخلاصي لك صَباً، وزمنُ آمالي فيك صِباً، فأنا شاربٌ ماءَ إخائك، متفيءٌ ظِلال وفائك، جانٍ منك ثمر فَرْع طاب أكله، وأجناني البرَّ قديماً أصله، وسقاني إكراماً برقه، وروّاني إفضالاً وَدْقه، وأنت الطّالعُ في فجاجه، السَّالكُ لمنهاجه: سهمٌ في كنانة الفضل صائب، وكوكب في سماء المجد ثاقب، إن أتبَعَتَ الأعداءَ نورَهُ أحرق، وإن رميتهم به أصابَ**

=إنْ مُتُّ قبلكَ لاَ تعْجَبْ فذُو أمَلٍ
قدْ حَمَّ مِنْ دُونِهِ يَوماً حِمَامِيُّ
أوْ مُتُّ قبْلِي فمَا مَنعَاكَ لِي عَجبٌ
إنَّ الكَرِيمَ إلَى الأصْحَابِ مَنعِيُّ
زَادَ البَلاَءُ عَلَى نفسِي فأعْدَمَهَا
صَبْرِي فصَبْرِي عَليْكَ اليَوْمَ وَخْشِيُّ
حَتّى أهُمَّ بقتْلِي كلَّ دَاجِيَةٍ
يَا قوْمِ هَلْ رَامَ هَذَا قبْلُ إنسِيٌّ؟
إنِّي إلَى اللهِ مِنْ عُقبَى بُلِيتُ بهَا
جَرَى بهَا الحُكمُ وَالأمْرُ الإلهِيُّ

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

الحَـدَقَ؛ وعـلى الحقيقـة فلسـاني يَـقـْصُـرُ عـن جميـلِ أسيـرِهُ، ووصـفِ وُدٌّ أضْـمِـرُه)).[1] أمـا شعـره فمنـه قولـه:

قـدْ قـلتُ إذْ سَارَ السَّفِـينُ بـهِ   وَالبَـيْـنُ يَنْهَـبُ مُـهْـجَـتِـي نَهْبَا
لوْ أنَّ لِي مُـلـكـاً أصـولُ بـهِ   لأخـذْتُ كلَّ سَـفـيـنـةٍ غـصْـبـا

وقـال في أخـرى أيضـا:
غـنـى وَلـلإيـقـاعِ فـو   قَ بَـيـانِ مَـنـطِـقِـهِ بَـيـانُ
وكـأنـمـا يـدُهُ فـمٌ   وَقَـضِـيـبُـهُ فِـيـهَـا لِـسـانُ

زاره بعـض أصحابـه وهـو طريـح الفـراش بفعـل المـرض الـذي أودى بحياتـه؛ فحـاول بعضهـم الترويـح عليـه بغـرض التخفيـف عنـه؛ فقـال لهـم شعـرا:
رَوَّحـنِي عَـائـدِي فـقـلـتُ لـهُ   مَـهْ، لاَ تزِدْنِـي علَـى الذِي أجِـدُ
أمَا تـرَى الـنـارَ وَهْـيَ خامـدَةٌ   عنـدَ هـبوبِ الـرِّيـاحِ تـتـقِـدُ؟

وقـال يشتـكي مـن علتـه بعـد أن يئـس مـن الشفـاء:
عـظُـمَ الـبَـلاَءُ فـلاَ طَـبـيـبٌ يـرتـجَى
مِـنـه الـشـفـاءُ وَلاَ دَوَاءٌ يـنـجـعُ
لـمْ يَـبـقَ شَـيْءٌ لـمْ أعَـالِـجْـهَـا بـهِ
طمـعَ الـحَـيَـاةِ، وَأيـنَ مَنْ لاَ يَـطـمَـعِ؟
"وَإذَا الـمَـنِـيـةُ أنـشـبـتْ أظْـفـارَهـا
ألفـيْـتَ كـلَّ تـمِـيـمَـةٍ لاَ تـنـفـعُ"[2]

ولـه هـذه القطعـة كذلـك:
يـا كـبـدِي بـالـبَـيْـنِ مَـنْ أكـلـمَـكْ
وَيـا دُمـوعَ الـعَـيْـنِ مَـنْ أسْـجَـمـكْ؟

---
[1] الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص: 618.
[2] استشهـد هنـا ببيـت أبي ذؤيـب الهـذلي.

وَيَا فُؤَادِي كَمْ تُقَاسِي الهَوَى
مُكْتَتِماً عَنِّيَ، مَا أَكْتَمَكْ!
عَلِمْتُكَ الكَتْمَ أَمَا تَسْتَحِي
وَيْحَكَ أَنْ تَكْتُمَ مَنْ عَلَّمَكْ؟
كُنْتُ أُدَاوِيكَ فَلاَ ذَنْبَ لِي
لَوْ أَنَّنِي أَعْلَمُ مَنْ أَسْقَمَكْ

وله هذه قطعة التي يكون قد مدح فيها علي بن حمود:

طَلَعَتْ طَوَالِعُ لِلرَّبِيعِ فَأَطْلَعَتْ
فِي الرَّوْضِ وَرْداً قَبْلَ حِينِ أَوَانِهِ
حَيَّا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مُبَشِّراً
وَمُؤَمِّلاً لِلنَّيْلِ مِنْ إِحْسَانِهِ
ضَنَّتْ سَحَائِبُهُ عَلَيْهِ بِمَائِهَا
فَأَتَاهُ يَسْتَسْقِيهِ مَاءَ بَنَانِهِ
دَامَتْ لَنَا أَيَّامُهُ مَوْصُولَةً
بِالعِزِّ وَالتَّمْكِينِ فِي سُلْطَانِهِ

ثم هذه القصيدة التي يشكو فيها نوائب الدهر:

أَمْسَى سَقَامِي زَاجِرِي وَمُؤَنِّبِي
وَغَدَا مَشِيبِي وَاعِظِي وَمُؤَدِّبِي
أَوْهَتْ خُطُوبُ الدَّهْرِ مِنِّي عَاتِقِي
ثِقْلاً، وَزَعْزَعَ مَنْكِبَاهُ مَنْكِبِي
وَهَمَتْ سَحَائِبُهُ عَلَيَّ فَغَادَرَتْ
أَرْضِي قَرَارَةَ كُلِّ خَطْبٍ مُعْجِبِ
فَأَظَلُّ أُبْصِرُ فِيهِ مَا لَمْ أَحْتَسِبْ
جَوْراً وَأَقْرَأُ فِيهِ مَا لَمْ أَكْتُبِ

سـنّ حـديـثٌ تـحـتَ جـدٍّ شارفٍ
وَسـوادُ رَأسٍ فـوقَ قـلـبٍ أشـيـبِ
أغـدُو عَـلـى بَـكـرٍ لـصـرفِ بَـنـاتِهِ
وَأرُوحُ مـبـتـنِـيـاً بـأخـرَى ثـيِّـبِ
أفـتـضُّ مِـنـهَـا كـلَّ يـومٍ عـذرَةً
لا تـشـتـهَى وَأزَفُّ مَـا لـمْ أخـطـبِ
يَـا سَـيـدِي وَأخِـي الـوَفِـيَّ وَمَـا أخِي
مـنـهُ إلـى قـلـبِ الإخـاءِ بـأقـرَبِ
وَإذَا غـدَا الـعِـلـمُ الـمُـشـرِّفُ أهلَـهُ
نـسَـبـاً يُـؤلِّـفـنـا فـنحـنُ بـنـو أبِ
هـلاَّ اهـتـدَيـتَ إلـى خِـطـابِ مـرزَّإٍ
مَـا بـيـنَ أضْـلاَعِ الـخـطـوبِ مُـغـيـبُ
لـمْ يـبـقَ مِـنـهُ الـدَّهـرُ غـيـرَ مَـدَامِـعٍ
سُـفـحٍ وَقـلـبٍ بـالـسـقـامِ مُـعَـذَّبِ
أخـفـتـنِـيَ الأيـامُ فِـي لـهَـوَاتِهَـا
وَسَـجَـنـتِـي فِـيهَـا فـكـيـفَ شـعَـرْتَ بِـي؟
وكـتـبْـتَ عَـنْ وُدٍّ وَقـدْ كـتـبَ الإخـا
بَـيـنَ الـنـفـوسِ صَحَـائـفـاً لـمْ تـكـتـبِ
بـأرَقَّ مِـنْ دَمـعِ الـمُـشـوقِ فـؤادُهُ
وَأرَقَّ مِـنْ رِيـقِ الـحَـبـيـبِ وَأعـذَبِ
فـظـلـلـتُ مِـنـهُ فِـي غـديـرِ بَلاَغـةٍ
عـذْبٍ وَمُـلـتـفِّ الـحَـدَائـقِ مُـعْـشبِ
كـرُمَـتْ مَغـارِسـهُ فـأورَقَ فـرْعـهُ
عِـلـمـاً وَأثْـمـرَ بـالـكـلاَمِ الـطـيـبِ
صُـبـحٌ تـدرَّعَ مِـنْ سَـوَادِ مِـدَادِهِ
لـيـلاً كـفِـعْـلِ الـزَّائـرِ الـمُـتـرَقِّـبِ
خـفـيَـتْ مَـعَـانِـيـهِ عَـلـى أوْهَـامِنـا
فَـالـفـكـرُ بَـيْـنَ مُـصـدِّقٍ وَمُـكـذِّبِ

طلعتْ كواكِبهُ ولمَّا تطلِعْ
وغرَبنَ فيهِ لنا لمَّا تغرُبِ
أنا مُذْنبٌ لاشكَّ إذْ لمْ أستطِعْ
ردَّ الجَوَابِ وأنتَ غيرُ المُذْنبِ
حَمَلتهُ مِنْ طيبِ الإخاءِ مَحَبةٌ
فيكمْ وإخلاصٌ لكمْ فتطيَّبِ
وبَعَثتُ مَاءَ الورْدِ فيهِ سَائغاً
عَذْباً لذائقهِ زلالاً فاشرَبِ
أذكَى مِنَ المِسْكِ الفتِيقِ نسِيمُهُ
أرَجاً وأصْفَى مِنْ لعابِ الجندُبِ

- ثم أبو بكر عبد الله بن حجاج الغافقي الإشبيلي: وهو - كما يستوحى من اسمه - من أهل إشبيلية. هذا وينتسب ابن حجاج إلى قبيلة غافق القحطانية العربية. قال عنه صاحب المغرب ((ذكر الحجاري: "أنه شاعر بعيد الصوت، معدود في شعراء المعتضد؛ وكان قد هجر وطنه، وانتبذ إلى صاحب الجزيرة الخضراء محمد بن القاسم بن حمود... فقال له وزيره: أسأل ابن الخليفة: هل أنت من بني حجاج أصحاب السيرة بإشبيلية؟ فقال: لو كنت منهم طلبت السيف؛ ولم أطلب بالشعر؛ فقال ابن حمود: لا فُضَّ فوك! يا شَدَّ ما امْتَعَضَ لأعيانِ بلده)).[1] ويكون ابن حجاج هذا قد توفي بعد سنة 430هـ؛ لأنه تقابل في هذه السنة مع الحميدي؛ الذي قال إنه سمع منه أشعارا كثيرة؛ عندما التقى به في السنة المذكورة.[2] ومن شعره هذه الأبيات التي ذكرها الحميدي:

[1] المغرب، ج: 1، ص ص: 265 - 266.
[2] جذوة المقتبس، ص: 261.

لَمَّا كتمْتُ الحُبَّ لاَ عَنْ قِلَى
وَلَمْ أجِدْ إلاَّ البُكا وَالعَوِيلْ
نَادَيْتُ وَالقَلْبُ بِهِ مُغْرَمٌ
يا حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلْ

وأورد له الحجاري هذه الأبيات:

ألاَ أيها الوَادِي الذِي رَفَّ ظِلُّهُ
وَفاحَتْ خُزَامَاهُ وَغَرَّدَ طَائِرُهْ
أتَذْكُرُ أيامِي بِدَوْحِكَ وَالحِمَى
يُبارِكُنا مِنْهُ بِجِزْعِكَ زَائِرهْ
وَقَدْ رَقَّ نَسْجُ العَتْبِ بِيني وَبَيْنَهُ
وَمَا زَادَ مِنَّا الحُبُّ عفتْ سَرَائِرُهْ

أما المقري فقد أورد له عدة مقطوعات؛ منها هذا المقطع من قصيدة مدح بها محمد بن القاسم ابن حمود:

يَقُولونَ إنَّ السِّحْرَ فِي أرْضِ بَابِلٍ
وَمَا السِّحْرُ إلاَّ مَا أرَتْكَ مَحَاجِرُهْ
وَمَا الغُصْنُ إلاَّ مَا انْثَنَى تَحْتَ بُرْدِهِ
وَمَا الدِّعْصُ إلاَّ مَا طَوَتْهُ مَآزِرُهْ
وَمَا الدُّرُّ إلاَّ ثَغْرُهُ وَكَلاَمُهُ
وَمَا اللَّيْلُ إلاَّ صُدْغُهُ وَغَدَائِرُهْ

وأرد له أيضا المقري مقاطع صغيرة من الشعر الذي قاله عندما كان في إشبيلية. لا داعي لإثباتها في هذا المجال.

- **ثم أبو محمد غانم بن وليد المخزومي المالقي:**[1]

وينتسب هذا الأديب العالم إلى بني مخزوم من قريش؛ وهو من أهل مالقة وعلمائها النابهين. قال فيه الحميدي: ((**فقيهٌ، مدرسٌ، وأستاذ في الآداب وفنونها، مجوِّد؛ مع فضل وحسن طريقة**)).[2] ووردت له بعض المقطع الشعرية في الذخيرة، وبعض المواضع المتفرقة من نفح الطيب، وفي جذوة المقتبس، والصلة. ولغانم بن وليد رسائل نثرية عديدة أوردها ابن بسام؛ منها على سبيل المثال هذه المقطوعة النثرية التي صاغها لما تولى إدريس العالي الخلافة. وفي النص إشارة إلى الأحداث التي تكون قد وقعت في مالقة؛ حين حاول الفتى الصقلبي نجا بمساعدة السطيفي اغتصاب الحكم.

قال غانم: ((**ولم يترُك المتطوِّلُ علينا عزَّ وجههُ بالهدى أمةَ محمَّدٍ عليه السلامُ سدى؛ بل نظمَ شملها بإمامٍ عادلٍ تجتمَعُ إليه، وتعوِّلُ عليه، تتوارثهُ كابراً عن كابرٍ، وتتلقاهُ غابراً عن غابرٍ؛ إلى أن أذِنَ اللهُ للأكمامِ الهاشميِّ، والملك الفاطميِّ، والفرع العلويِّ، إدريس العالي بالله ابن يحيى المعتلي بالله ابن علي الناصر لدين الله بن حمود بن أبي العيش بن عبيد الله ابن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فقام العالي بالله بخلافة المغربين، واضطلع بملك العدوتين؛ ولما آن أوانُ إمامته، حانَ من عدوّه حينُ قيامته.**

[1] قال فيه ابن بسام: ((قد بذ ـ وقته ـ أهل ذلك الإقليم، في أنواع التعاليم؛ فرَدَ عصره ونسيج وحده في تناهي جده؛ متفننا جرى في ميدان السّبْق، وفقيها قرطس أغراض الحق؛ وكان في هذا الباب الذي ولجنا فيه من أهل الرّوية والبديه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 853 ـ 854.

[2] جذوة المقتبس، ص: 325.

وكان مقتلُ العبد الغادر ــ وكافرُ النعْمَة كالكافر ــ في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين، وفي عشرين ليلةٍ خلتْ من كانون. فانجلتْ سمومُ الشتاء بانجلائه، وانقضت أيام الشؤمِ بانقضائه، وكان عقبَ الشهر في استقبال شهر رجَبَ الشهر الأصمّ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّ العربَ أسقطتْ فيه قعْقعَة السِّلاح؛ وكأنَّ المثلَ إنما جرى في مضمار، على مفرق الليل والنهار، وأرى الناسَ مخايلَ السعدِ والإيناس، وهو قولهم: عِشْ رجباً ترَ عجباً؛ وكأن هذا العجبُ آخِرَ يومٍ من الليالي، وقامَتْ فيه دولةُ هذا الملكِ العالي، والشمسُ تأخذُ من قعرِ الفلكِ في الصعود، وتؤذنُ بجري الماء في العود؛ وتترقّى بالعلم في دَرَجِ السعود:

وَاسْتَقْبَلَ المُلكَ إمَامُ الهُدَى	فِي أرْبعٍ بَعْدَ ثَلاَثِينَا
خِلاَفَةُ العَالِي سَمَتْ نَحْوَهُ	وَهوَ ابْنُ خَمْسٍ بَعْدَ عِشْرِينَا
إنّي لأرْجُو يَا إمَامَ الهُدَى	أنْ تَمْلِكَ المُلْكَ ثَمَانِينَا
لاَ رَحِمَ اللهُ امْرءاً لَمْ يَقُلْ	عِنْدَ دُعَائي لكَ آمِينَا

فسفرت الدنيا قناعها فتية، وبلغت النفوسُ بخلافته الأمنية، وانثالتْ عليه بيعاتُ الأمصار، وأمتْ حضرته الرُّسلُ من جميع الأقطار، وبدأ بالفضل، وصدع بالعدل؛ فأحيا مآثرَ آبائهِ الطاهرين)).[1]

وفي رسالة له بعث بها إلى أبي الحسن الحصريّ قال: ((ما أفصحَ لسانك، وأفسحَ ميدانك، وأوضحَ بيانك، وأرجحَ ميزانك، وأنورَ صباحك، وأزهرَ مصباحك،

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 861 ــ 862.

أيها السابق المتمهل، في ميدان النبل، والسامق المتطول بفضائل الذكاء والفضل؛ أرحتني من غل الهم، فأزهدتني أريحية، وأزحتني عن ظل الغم، فلاحت لي شمس الأمنية، بما أطلعته علي، فنفذته مكارمك إلي. فقلت: أعصر الشباب رجع، أم كوكب السعد طلع، أم بارق الإقبال لمع؟ كلا والله؛ إنها لمكرمة فهرية، أهدتها نفس سنية، وهمة علية. إن قلت الوشي الصنعاني فقد نقصتها، أو الديباج الخسرواني فقد بخستها. بلى والله، أرتني زهر الربيع في غير أوانه، وحسن الصنيع على عدمه في أهل زمانه؛ لمحت منه عقد اللآل، يبقى على أخرى الليال؛ فأنت واحد البلاغة الذي لا يجارى، وفارس الفصاحة الذي لا يبارى؛ وقد اعتقدت ما به أشرت، وإياه اعتمدت، لو لاح لي في أفق النقلة صباح، أو استقل بي في طرق الرحلة جناح.

وكم حاولت مسالمة النوائب بانقباضي، ومداراة الدنيا بتركي لأغراضها وإعراضي؛ فإذا الانقباض قد حصلني في جملة القبض، والترك للأغراض قد جعلني للنوب كالغرض؛ ولا سلاح إلا الدعاء إلى الله تعالى في الصلاح، ولا جناح إلا التمني لمن يقول ما عليك جناح؛ فسبحان من قدر أن أكون لناب النوب حرباً، وتكون علي أيام الزمان إلباً، أصلى بنار المصائب السود؛ كأني ممّا أنا باك منه محسود. أستغفر الله! فقد حمي صدري حتى غلى مرجله، وضاق مجال فكري حتى اتسع في الشكوى مقوله. ولو أني سلمت لمواقع الأقدار، وعلمت أنه ليس على القدر اختيار، ورضيت بما يأتي به الليل والنهار، وتيقنت أن خلق الزمان عداوة الأحرار؛

لأرحتُ قلباً يتقلبُ في جمرِ الأسى، وأذكرتُ لبًّا قد نسي الاقتداء بالأسى)).[1] ومن المقطوعات الشعرية لغانم بن وليد؛ هذه الأبيات التي قالها لما دخل على مجلس باديس بن حبوس؛ فوسع له كي يجلس على رغم الضيق فقال:

صَيرْ فؤَادَكَ لِلمَحْبُوبِ مَنزِلَةً
سمُّ الخِيَاطِ مَجَالٌ لِلحَبِيبَيْنِ
وَلاَ تسَامِحْ بَغِيضاً فِي مُعَاشرَةٍ
فقلمَا تسعُ الدنيَا بَغِيضَيْنِ

وله أيضا:

الصَّبرُ أولَى بوقار الفتَى
مِنْ قلقٍ يَهْتِكُ سِترَ الوَقارْ
مَنْ لزِمَ الصَّبْرَ عَلَى حَالهِ
كانَ عَلَى أيامِهِ بالخيارْ

ومما قاله في العالي بالله إدريس بن يحيى بن حمود:

لَوْلاَ التَّحَرُّجُ لمْ يُحْجَبْ مُحَيَّاكِ
حُيِّيتِ عَنا وَحُيِّينا بِمَحْيَاكِ
هَذا اللثامُ غَمَامٌ مَا يُبينُ هُدَى
خُطِّي اللثامَ فَليسَ البَدْرُ إلاَّكِ
لمَّا هَدَيْتِ إلَى نَعْمَانَ سَافِرَةً
كانتْ هدَايتُنَا مِنْ بَعْضِ نعْمَاكِ

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 856 ـ 857.

ثم يضيف:

أَوْ يَمّمِي حَضْرَةَ العَالي بِمَا اختَمَلَتْ
مِنِّي الضُّلُوعُ فَثَمَّ البُرْءُ لِلشَّاكِي

ويقول في قصيدة أخرى:

يَا غَرِيباً بِحُسْنِهِ ... قِصَّتِي فِيكَ أَغْرَبُ
أَنْتَ فِي طَيِّ نَاظِرِي ... وَالمُنَى مِنْكَ تُحْجَبُ
لاَ تَلُمْ فِي مِدَادِهِ ... بِدَمِ القَلْبِ يُكْتَبُ
إِنَّ إِدْرِيسَ مَاجِدٌ ... لِلْعُلاَ فِيهِ مَذْهَبُ
جَدُّهُ خَاتَمُ الهُدَى ... وَعَلِيٌّ لَهُ أَبُ
فَهُوَ لِلْمَجْدِ مَطْلَعٌ ... وَهُوَ لِلْمَجْدِ مَغْرِبُ

ويقول دولة إدريس العالي:

ضَحِكَ الزَّمَانُ إِلَيْكَ بَعْدَ عُبُوس
وَنَفَى دُجَى الإِيحَاشِ بِالتَّأْنِيسِ
فَأَدِرْ نُجُومَ الرَّاحِ فِي فَلَكِ المُنَى
وَتَطُوفُ نَحْوَكَ مِنْ أَكُفِّ شُمُوسِ
فِي رَوْضَةٍ تُحْيِي النُّفُوسَ كَأَنَّمَا
بَاتَتْ تَنَفَّسُ عَنْ عُلاَ إِدْرِيسِ
مَلِكٌ أَقَامَ اللهُ دَوْلَةَ مُلْكِهِ
فَكَبَا مِنَ الأَعْدَاءِ كُلُّ رَئِيسِ
مِنْ دَوْحَةِ الوَحْيِ الَّتِي بِسُمُوِّهَا
دَرَسَتْ مَعَانِي الكُفْرِ أَيَّ دُرُوسِ

وقال في رثاء أخويه:

يَا دَمْعُ لاَ تَخْذُلْ وَكُنْ مُسْعِداً
لاَ تَخْشَ مِنْ صَبْرِيَ أَنْ يَمْنَعَكْ

أخٌ غريقٌ وأخٌ في الثرى
وترتجي السَّلوةَ مَا أطمَعَكْ!
إنَّ جُمودَ العَينِ خوفَ العِدَا
ورقبَةَ الحُسَّادِ لنْ يَنفعَكْ
يا عُمَراً أغمَرْتَ قلبِي أسىً
وَدَّعَ صَبرِي مِثلمَا وَدَّعكْ
رُزئتُ في الدُّنيَا يَدَيْ نصْرَتِي
يَا دَهرُ تباً لكَ مَا أفجعكْ

وقال واصفا وادي مالقة في موضع يسمى ربوة العقاب:

ضحِكَ الزَّمَانُ بحسنِهِ وبَهَائِهِ
كالصَّبِّ يضْحَكُ بَعْدَ طولِ بُكائِهِ
وكأنَّ إقبَالَ الرَّبيعِ بوَصلِهِ
وَصْلُ الحَبيبِ أتاكَ بَعْدَ جَفائِهِ
وكأنمَا وَادِي العُقَابِ عَشيةً
مُستمطِرٌ دَمْعِي بجرْيَةِ مَائِهِ
وكأنَّ رَشحَ الطلِّ فِي رَوْضِ الرُّبَى
رَشحُ الخدُودِ بَدَا بنارِ حيائِهِ

وكان يُحْيِي جلسات الأنس والطرب في قصر الملك العالي إدريس بن يحيى مطرب اسمه المهدوي؛ فطلب يوما من غانم تذييل بيت من الشعر كان يحفظه؛ حتى يتسنى له الغناء به؛ مع التذييل. والبيت الذي يحفظه المهدوي هو:

يَا نائبَ الوَجهِ عَنْ شمْسِ الضحَى غَسَقاً
وَالبدرُ لوْ كلفوهُ ذَاكَ لمْ ينُبِ

فأكمل غانم بن وليد بديهة:

فِي غُرَّةِ المَلِكِ العَالِي وَمَنْظَرِهِ
بَدْرٌ يُعَطِّلُ نُورَ السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

نَرَى مُحَيَّاهُ فِي لَيْلٍ فَيُخْبِرُنَا
عَنِ الحَقِيقَةِ أَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

وحدث أيضا في بعض جلسات الأنس والسمر والغناء؛ التي كان يحييها المغني محمد بن الحماميّ أن طلب الملك إدريس من غانم تذييل بيت ابن المعتز:

هَلْ يُزِيلُ البَيْنَ مُخْتَالُ   أَنْ غَدَتْ لِلبَيْنِ أَجْمَالُ

فأكمل غانم قائلا:

إِنَّمَا العَالِي إِمَامُ هُدَى   حَلِيَتْ فِي عَصْرِهِ الحَالُ
مَلِكٌ إِقْبَالُ دَوْلَتِهِ   لِذَوِي الأَفْهَامِ إِقْبَالُ
قُلْ لِمَنْ أَبْدَتْ مَطَالِبُهُ   رَاحَتَاهُ الجَاهُ وَالمَالُ[1]

ــ **وأبو عبد الله محمد بن السرّاج المالقي**: لم يتم التعرف على أصل نسبه الأول؛ إذ أحجمت المصادر

---

[1] ومما حكاه غانم عن مجالس السمر التي تقام بقصر الملك إدريس قوله:
((وحضرتُ مجلسهُ أيضاً فتغنّى الحماميُّ بشعرِ محدثٍ أوله:

إِذَا بَلَغْتِنِي يَا نَاقَتِي المُمْسِيٌّ إِدْرِيسَا

فكانَ العالي باللهِ استحسنَ الحُلةَ ولم يرضَ قوله "المسمىٌّ"؛ وإنما هو المسمَّى أو المُسمَّى من سمَّيت أو أسميت؛ ولا يُقالُ من التسميةِ سموتُ ولا سميت؛ ولو قال "المُسمّى بإدريسا" لصحَّ الوزنُ والكلام؛ فأطرقَ قليلاً ــ أيده الله ــ ثم قال: للمُغني: "أعِدِ الصوتَ؛ قل:

إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الدُّنْيَا   فَعَرِّجْ نَحْوَ إِدْرِيسَا
إِذَا لاَقَيْتَهُ تَلْقَى   رَئِيساً لَيْسَ مَرْءُوسَا
وَمَنْ عَزَمَاتُهُ تَنْفِي   عَنِ الأَوْطَانِ إِبْلِيسَا
إِمَامٌ مَاجِدٌ مَلِكٌ   يُزِيلُ الغَمَّ وَالبُؤْسَا")).

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 864.

المتوفرة عن الإشارة إلى ذلك؛ ولم تذكر سوى أنه من أهل مالقة[1]. أما ابن بسام فقد نقل مقطوعات عديدة من شعره؛ ولكنه لم يشر إلى ترجمة حياته؛ وكل ما قال فيه: ((**محسنٌ في أهلِ عصره مَعدود، وشاعِرُ بني حَمُّود؛ وله فيهم غَيرُ ما قصيد، ومقطوعاتٌ في النَّسيب؛ وجدتها بخطّ الأديب أبي عليّ الحسن بن الغليظ من أفق مالقة أيضا؛ صاحبه الكثير الاتصالِ به والمُنادمةِ له**)).[2] وكما هو واضح؛ فشعر ابن السراج هذا تغلب عليه نزعة الوصف، وحب الطبيعة، والغرق في المجون. وهذه بعض المقاطع المختارة من الذخيرة والمغرب ونفح الطيب. فمما قاله عند سماعه لهزار؛ وهو ذلك الطائر المسمى في بلاد المغرب والأندلس بـأمِّ الحَسَن[3]:

وَمُسْمِعَةٍ تغنينا ارتجالاً
وتصحبنا بنغمتها دَلالاً
وَبينَ أكفنا خمرٌ وَماءٌ
إذَا ما سالَ خِلتَ الدُّرَّ سَالاَ
فإنْ شاءَتْ سقيناها مدَاماً
وإنْ شاءَتْ سقيناها زُلالاَ

---

[1] قاله عنه الحميدي مثلا: ((محمد بن السرّاج المالقي: منسوب إلى مالقة؛ بلد من بلاد الأندلس؛ على ساحل المَجَاز الذي يقال له الزُّقاق؛ لم يقع لي اسم أبيه؛ شاعر أديب مشهور؛ رأيت له أشعارا في ذي الوزارتين أبي جعفر أحمدِ بن بَقنة وزير دولة العلويِّين من بني حمود؛ وذكره أبو عامر بن شُهَيْد مفضّلا له؛ وأنشد مما استحسن من شعره:

وكَمْ عَنَّ يَومَ النحرِ مِنْ نَحرِ شَادِنٍ
لِعينِي بأطوَاقِ الجمَالِ مُطوّق)).

جذوة المقتبس، ص: 61.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 870 ــ 871.

[3] ثمة قول يرى أن أم الحسن هي الشحرور والعندليب والبلبل.

وَلَوْ سُقِيتْ دَمِي وَدَمِي حَرَامٌ
لَكَانَ لِحُسْنِ مَنْطِقِهَا حَلالاَ

ويقول أيضا:

وَمُسْمِعَةٍ غَنَتْ فَهَاجَتْ لَنَا هَوًى
جَنِينَا بِهِ مِنْهَا ثِمَارَ الْمُنَى جَنْيَا
دَعَوْتُ لَهَا سُقْيَا، فَمَا اسْتَكْمَلَ الرِّضَا
دُعَائِي لَهَا حَتَّى سَقَاهَا الْحَيَا سَقْيَا
وَكَأْسٍ عَلَى طِيبِ اسْتِمَاعِي لِصَوْتِهَا
شَرِبْتُ، وَدَمْعُ الْمُزْنِ يُسْعِدُنِي جَرْيَا

ثم يقول:

كَفَى حَزَنًا أَنِّي أَرَى الْحُسْنَ مُمْكِنًا
وَلَسْتُ أَرَى لِي فِيهِ أَمْرًا وَلاَ نَهْيَا
وَلَوْ تَعْدِلُ الأَيَّامُ فِي بَذْلِ خُطَّةٍ
لَمَا كُنْتُ فِي السُّفْلَى وَغَيْرِيَ فِي الْعُلْيَا

ومما قاله في ديك صدح مع السحر:

رَعَى اللهُ ذَا صَوْتٍ أَنِسْنَا بِصَوْتِهِ
وَقَدْ بَانَ فِي وَجْهِ الظَّلاَمِ شُحُوبُ
دَعَا مِنْ بَعِيدٍ صَبَاحًا فَأَجَابَهُ
يُخَبِّرُنَا أَنَّ الصَّبَاحَ قَرِيبُ
عَلَيَّ لَهُ ـ لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ أَمْرَهُ
حَيَاةٌ عَلَى طِيبِ الزَّمَانِ تَطِيبُ

وله كذلك:

رَعَى اللهُ فِتْيَانًا أَنِسْتُ بِقُرْبِهِمْ
عَلَى جَدْوَلٍ لِلْمَاءِ فِيهِ خَرِيرُ

أقَمْنَا بِهَا يَوْمَيْنِ فِي خَفْضِ عِيشَةٍ
وَلاَ عَيْشَ إلاَّ قَهْوَةٌ وَغَدِيرُ

تَدُورُ القَوَافِي بَيْنَنَا نَسْتَحِثُّهَا
وَكَأْسُ الحُمَيَّا بِالسُّرُورِ تَدُورُ

وَفِي الشَّجَرَاتِ الخُضْرِ مِنْهُ رَقِيقَةٌ
لِنَغْمَتِهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ هَدِيرُ

إذَا مَا تَغَنَّتْ فَوْقَنَا قُلْتُ قَيْنَةٌ
تَلاَهَا بِصَوْتٍ مُثْلِثَانِ وَزِيرُ

سَبَتْنِي بِصَوْتٍ لَوْ يُبَاعُ اشْتَرَيْتُهُ
بِمَا مَرَّ مِنْ عُمْرِي وَذَاكَ يَسِيرُ

ـ ثم أبو علي الحسن بن الغليظ المالقي: كان ملازما لزميله الشاعر ابن السراج المالقي؛ فهما وجهين لعملة واحدة كما يقال. والمصادر التي تكلمت عن ابن السراج تحدثت ـ في سياق واحد ـ عن ابن الغليظ؛ لأنه كان هو المورد الأساسي الذي استقت منه تلك المصادر الأدبية أخبار زميله ابن السرج. وكان هذان الشاعران في خدمة ملوك بني حمود. ويتميز شعرهما بالتوجه نحو وصف الطبيعة، والمجون. هذا وقد جاءت أشعار ابن الغليظ متداخلة مع أشعار ابن السراج؛ إذ كانت عبارة عن مطارحات شعرية إخوانية بينهما؛ حيث كان ابن الغليظ ـ في أغلب الأحيان ـ يستفز صديقه ابن السراج بشطر أو بيت أو بعض أبيات؛ فينساق هذا الأخير مع تيار الإغراء؛ فيأتي ببقية الفكرة متقيدا بالبحر والقافية والروي نفسه. وكعينة من شعر ابن الغليظ؛ هذه الأبيات التي بعث بها إلى ابن السراج مغريا إياه كي يلتحق به؛ حيث أعد مجلس شراب وأنس:

يـا خـلـيـلاً صَـفـا وكَـدَّرَ يـومِـي
هـل إلـى الـطـيـب فِـي غـدٍ مِـنْ سـبـيـلِ؟
لـوْ تـرانِـي أسـارِقُ الـلـحـظَ خِـلـي
وَأسـقـي مِـنْ ريـقـهِ الـمـعـسـولِ
لـتـمَـنـيـتَ أنْ تـرَى "حـسُـنَ الـورْ
دِ" [1] تـغـنـيـكَ بـالـغـنـاءِ الـنبـيـلِ
يـا خـلـيـلاً مِـثـالـهُ نـصْـبَ عـيـنِـي
لـوْ خـلـونـا إذَنْ شـفـيـتُ غـلـيـلِـي

وقـال واصـفـا جلسـة مـن جلساتهـما في الطبيعـة الخلابـة؛ محاولا بذلـك تحريـك صديقـه ابـن سـراج، واستفـزازه لـكي يصـف ذلـك الموضـع الجميـل:

شـربـنـا عَـلـى مـاءٍ كـأنَّ خـريـرَهُ
خـريـرُ دُمـوعِـي عِـنـد رُؤيـةِ أزْهـرِ [2]
حـلـفـتُ بـعـيـنـيـهَـا لقـدْ سَـفكـتْ دَمِـي
بـأطـرَافِ فـتـانٍ وَألـحـاظِ جـؤذرِ

ثـم أعـاد إنشـاد صـدر البيـت الأول؛ بغـرض تحريـك صديقـه ابـن السـراج:

شـربـنـا عَـلـى مـاءٍ كـأنَّ خـريـرَهُ
فقـال عـلى الفـور:
بـكـاءُ مـحـبٍّ بـانَ عـنـه حـبـيـبُ
فـمـنْ كـانَ مـشـغـوفـاً كـئـيـبـاً بـإلـفـهِ
فـإنـي مـشـغـوفٌ بـهِ وكـئـيـبُ

[1] حُـسُـن الـوَرْد: جاريـة يحبهـا ابـن السـراج.
[2] أزْهـرُ جاريـة لبعـض أصدقائهمـا كـان يهواهـا ابـن السـراج.

ومن المقاطع الشعرية التي نسبها ابن بسام إلى ابن الغليظ؛ بغرض استفزاز ابن السراج:

بدَا الوَرْدُ فِي أغصانهِ متعرِّضاً
يذَكِّرُنِي مَن اسمهُ حسنُ الوَرْدِ
يذَكِّرُ أياماً نعمنا بطيبها
ورَشفَ رُضاب طعمهُ حَسنُ الوَرْدِ
فدَعنِي ولاَ تلحَ عَلَى الحبِّ أهلهُ
فلَوْ كنتَ تدْرِي لمْ تلمْنِي عَلى وَجدِي

فقال:

ولما تبدَّى الوَرْدُ فوقَ غصُونهِ
وذَكرنِي بالوَرْدِ فِي صَفحةِ الخدِّ
ذَكرْتُ بهِ مَنْ خدُّهُ لِيَ رَوْضةٌ
تهيمُ بها مَن حسنِها رَوْضةُ الوَرْدِ
فقلتُ لمنْ عهدِي لهُ مِثلُ عهدِهِ
سَقَاكَ الحَيا مِنْ صَاحِب حافِظِ العهدِ
وَقلتُ اسْقِنِي كأساً عَلَى طِيب ذِكرِها
فإنِّيَ مَشغوفٌ بِها بينِكمْ وَحدِي

وكتب إلى ابن السراج معتذرا عن تخلفه عن موعد تواعدا عليه:

يا صَدِيقاً وِدَادُهُ مَا يرِيمُ
وَخليلاً إخاؤُهُ لِي يدُومُ
جَاءَنِي رَاغِباً لأحضُرَ عُرسَاً
مَنْ لهُ عِندَنَا ذِمامٌ قدِيمُ

وَهــوَ عُــرْسٌ لاَ تــأتِيــهِ خَــاوِيَ الـبـطْـ
ـنِ فـإنَّ الـغـــدَاءَ فِـيــهِ نـــسِـيـمُ

وكتــب إلى ابــن الســراج ـ أيضــا ـ بعــد عــودتــه مــن سفــر متعــب؛ رافــق فيــه أنــاســا لــم يرتــح لرفقتهــم:

يــا مَــنْ أقــلـــبُ طــرفِــي فِــي مَــحَــاسِـنــهِ
فــلاَ أرَى مِـثْــلـــهُ فِي الــنـــاسِ إنْـسَــانــا
لــوْ كُــنْــتَ تَـعـلَــمُ مَـا لاَقَـيْـتُ بَـعْـدَكَ ما
شَرِبْــتُ كـأسـاً وَلاَ اسْـتَـحْسَـنْــتُ رَيْـحَـانــا

فــأجابــه بقولــه:

يــا مَــنْ إذَا سَــقَـــتَــنِـــي الــرَّاحَ رَاحــتــهُ
أهــــدَتْ إلَــيَّ بِــهـــا رُوحــاً وَرَيــحـــانــا
مَنْ لَــمْ يَــكُــنْ فِــي صَبَــاحِ السَّبْـــتِ يَأخُــذُهــا
فَــلَــيْـــسَ عِــنْــدِي بِــحُــكْــمِ الظَّــرْفِ إنْـسَانا
فَــكُــنْ عَلَــى حُــسْــنِ هَــذَا اليَــوْمِ مُصْطَــبِـحاً
مُــؤخَـــراً حَـــســـنــــاً فِــيــهِ وَحَـــســـانا
وَفِـــي الـبَـســاتِــيــنِ إنْ ضَــاقَ الـمَـحَــلُّ بِنا
مَــنْــدُوحَــةٌ لاَ عَدِمْــنـــا الــدَّهْـــرَ بُـسْـتَــانــا

ـ ثم أبو زيد عبد الرحمــن بــن مقانــا القـبــذاقــي الأشبوني:[1]
لــم يكــن ابــن مقانــا مــن المقيميــن في مالقــة؛ ولكنــه زار بــلاط الخليفــة العــالي إدريــس بــن يحــيى؛ خــلال تجوالــه في بــلاد الأندلــس؛ أيــن مدحــه كمــا مــدح بعــض الأمــراء في

[1] قــال فيــه ابــن بســام: ((مــن شعــراء غربنــا المشاهيــر، ولــه شعــر يُغــربُ عــن أدب غزيــر؛ تصــرف فيــه تصــرف المطبوعيــن المجيديــن؛ في عنفــوان شبابــه وابتــداء حالــه، ثــم تراجــع طبعــه عنــد اكتهالــه)). الذخيــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 786.

تلك الربوع. هذا وقد كتب الحميدي اسمه هكذا: ((عبد الرحمن بن مقناة البطليوسي؛ أبو زيد)).[1] وقال إنه شاعر مشهور؛ ثم أورد له هذا القطعة الشعرية:

وَرَوْضٍ مِنْ رِيَاضِ الحُزْنِ نَاءٍ
كَأَنَّ مُلَاءَهُ وَشْيٌ مُعَضَّدْ
خَرَقْنَا دُونَهُ أحْشَاءَ خَرْقٍ
كَأَنَّ سَرَاتَهُ جَيْشٌ مُزَرَّدْ
وَقَدْ نَشَرَ الصَّبَاحُ رِدَاءَ نُورٍ
عَلَى دُرَرٍ مِنَ الزَّهْرِ المُنَضَّدْ
كَأَنَّ الطَّلَّ مُنْتَشِراً عَلَيْهِ
بُرَادَةُ فِضَّةٍ فِي الجَوِّ تَبْرُدْ
كَأَنَّ غَدِيرَهُ مِرْآةُ قَيْنٍ
جَلَاهَا الصَّقْلُ أَوْ صَرْحٌ مُمَرَّدْ
إذَا طَرِبَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ غَنَّتْ
لإسْحَاقٍ وَزِرْيَابٍ وَمَعْبَدْ

أما ابن بسام فقد نقل عن الوزير الفقيه محمد بن إبراهيم الفهري قوله: ((كان أبو زيد بن مقانا قد انصرف شيخا إلى وطنه عندنا؛ بعد أن جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة؛ قال: فمررت به يوما بقريته التي تدعى بالقِبذاق من ساحل شِنترة؛ وبيده مزبرة [أداة لقطع الأشجار]؛ فلما رأيته ملت إليه ومال إلي، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حراثٍ يحرثُ بين يديه)).[2] ويبدو أن ابن مقانا كان لا يسمع جيدا؛ إذ وصف نفسه بالصمم في هذا البيت:

---

[1] جذوة المقتبس، ص: 279.
[2] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 787.

سمعتُ الكنكَ يصرُخُ في الرَّبيعِ
عَلى مَا بي مِنَ الصَّممِ الطَبيعي

ومن أشهر قصائده هذه القصيدة التي حظيت بانتشار واسع في المغرب والأندلس؛ وهي التي قال فيها ابن بسام: ((وله القصيدة المشهورة في ابن حمود؛ يتداول القوّالون أكثر أبياتها؛ لعذوبة ألفاظها، وسلامتها)).[1] ومما حكاه المقري بخصوص هذه القصيدة قوله: ((وقد كان بنو حمود من ولد إدريس العَلوي؛ الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس؛ وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى كلام بين أيديهم؛ يتكلم من وراء حجاب؛ والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة؛ ولما حضر ابن مقانا الأشبونيّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي؛ الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته النونية... وبلغ فيها إلى قوله: (أنظرونا نقتبس...)؛ رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: "انظر كيف شئت"؛ وانبسطَ مع الشاعر، وأحسن إليه)).[2] ومطلع هذه القصيدة التي مدح بها ابن مقانا إدريس العالي هكذا:

ألبَرق لائح مِنْ أندَرِينْ
ذرَفتْ عَيْناكَ بالمَاءِ المَعِينْ
لعِبَتْ أسْيَافهُ عَارِيَة
كمَخَارِيقَ بأيدِي اللاّعِبينْ

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 791.
[2] نفح الطيب، ج: 1، ص: 214.

وَلِصَوتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وَحَنِينْ
وَلِقَلْبِي زَفَرَاتٌ وَأَنِينْ
وَأُنَاجِي فِي الدُّجَى عَاذِلَتِي
وَيْكِ لاَ أَسْمَعُ قَولَ الْعَاذِلِينْ
عَيَّرَتْنِي بِسَقَامٍ وَضَنًى
إِنَّ هَذَيْنِ لَزَيْنُ الْعَاشِقِينْ

إلى أن يقول:
وَكَأَنَّ الطَّلَّ مِسْكٌ فِي الثَّرَى
وَكَأَنَّ النُّورَ دُرٌّ فِي الغُصُونْ
وَالنَّدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجَسِهِ
كَدُمُوعٍ أَسْبَلَتْهُنَّ الجُفُونْ
وَالثُّرَيَا قَدْ عَلَتْ فِي أُفْقِهَا
كَقَضِيبٍ زَاهِرٍ مِنْ يَاسَمِينْ
وَانْبَرَى جُنْحُ الدُّجَى عَنْ أُفْقِهِ
كَغُرَابٍ طَارَ عَنْ بَيضٍ كَنِينْ
وكَأَنَّ الشَّمْسَ لَما أَشْرَقَتْ
فَانْثَنَتْ عَنْهَا عُيونُ النَّاظِرِينْ
وَجْهُ إِدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَلِي
بْنِ حَمُّودٍ أَمِيرِ المُؤمِنِينْ
خَطَّ بِالمِسْكِ عَلَى أَبْوَابِهِ
ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينْ
وَيُنَادِي الجُودُ فِي آفَاقِهِ
يَمِّمُوا قَصْرَ أَمِيرِ المُسْلِمِينْ
مَلِكٌ ذُو هَيْبَةٍ لَكِنَّهُ
خَاشِعٌ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينْ
وَإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاتُهُ
خَفَقَتْ بَيْنَ جَنَاحَيْ جَبْرَئِينْ

وَإِذَا أَشْكَلَ خَطْبٌ مُعْضِلٌ
صَدَعَ الشَكَّ بِمِصْبَاحِ اليَقِينْ
وَإِذَا رَاهَنَ فِي السَبْقِ أَتَى
وَبِيُمْنَاهُ لِوَاءُ السَابِقِينْ
يَا بَنِي أَحْمَدَ يَا خَيْرَ الوَرَى
لأَبِيكُمْ كَانَ رَفْدُ المُسْلِمِينْ
نَزَلَ الوَحْيُ عَلَيْهِ فَاحْتَبَى
فِي الدُّجَى فَوْقَهُمُ الرُّوحُ الأَمِينْ
خُلِقُوا مِنْ مَاءَ عَدلٍ وَتُقَى
وَجَمِيعُ النَّاسِ مِنْ مَاءٍ وَطِينْ
انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ
إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ العَالَمِينْ

ولما خرج من بلنسية قاصدا طرطوشة؛ لزيارة صاحبها الفتى العامري المدعو مقاتلا؛ منع من الجواز إليها؛ فكتب إلى مقاتل هذه الأبيات:

إِنْ كَانَ وَادِيكَ نِيلاً لاَ يُجَازُ بِهِ
فَمَا لَنَا قَدْ حُرِمْنَا النَيْلَ وَالنِيلاَ
إِنْ كَانَ ذَنْبِي خُرُجِي مِنْ بَلَنسِيَةٍ
فَمَا كَفَرْتُ وَلاَ بَدَّلْتُ تَبْدِيلاَ
"هِيَ المَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعِنَّتِهَا"
لِيَقْضِيَ اللهُ أَمراً كَانَ مَفْعُولاَ

وله أيضا في مجاهد العامري:

وَلَمَّا سَقَتْنَا مِنِ ابرِيقِهَا
لَثِمْنَا يَدَيهَا وَخَلخَالَهَا
وَبِتْنَا وَبَاتَتْ عَلَى سَاقِهَا
تُصَفِّقُ لِلشُرْبِ جِرْيَالَهَا

كَـأنَّ نـجُـومَ الـدُّجَى رَوْضَـةٌ
تـجُرُّ بـهَا الـسُّـحْـبُ أذْيـالـهَـا
كـأنَّ الـثـرَيـا بـهــا رَايــةٌ
يـقـودُ الـمُـوَفّـقُ أبطـالـهـا

ـ ثم أبو عمرو بن هاشم وزير العالي إدريس بن يحيى: لم تتكلم جل المصادر عن هذا الوزير الشاعر؛ وما عرفناه عنه أتى في المغرب؛ حيث قال عنه صاحبه: **((من المسهب: كان له خلال توجب له الوزارة. أخبرت انه كان يوما في بيت وزارته؛ فدخل عليه غلام جميل بقل عذاره؛ فقال:**

أتـانِي وَقـدْ خـطَّ الـعِـذَارُ بـخـدِّهِ
كـمَـا خـطَّ مِـنْ جـمْـرٍ عَـلـى مُـهْـرَقٍ سَطـرَا
فـقـلـتُ لـهُ: لـمْ يَـقـتـنِـعْ بـحَـيَـائـه
مُـحـيـاكَ حَـتـى زَادَ مِـنْ شـعَـرٍ سِـتـرَا)).[1]

ـ ثم أبو علي الحسن بن حسون:[2] هكذا ورد اسمه في بعض المصادر. وثمة غموض كبير يكتنف هذا الفقيه القاضي؛ حيث يوجد ـ كما يتبادر إلى الذهن ـ اثنان ـ أو أكثر ـ وليا قضاء مالقة في فترة زمنية واحدة؛ أو متقاربة على الأقل؛ ولا يعرف إن كانا ـ في حقيقتهما ـ شخصا واحدا أم شخصين؛ إذ تسمي المصادر ذلك القاضي أحيانا باسم الحسن وأحيانا أخرى باسم الحسين أو باسم محمد بن الحسن؛ كما يكنيه

---

[1] المغرب، ج: 1، ص: 425.
[2] قال فيه ابن سعيد: ((من المسهب: "عين مالقة. ورب حلّها وعقدها، وعلم بُرْدِها وواسطة عِقْدِها، وكان من أئمة العلماء، ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي)). نفسه، ص: 430.

بعضهم بأبي علي وبعضهم الآخر بأبي عبد الله.[1] أضف إلى ذلك أن ابن بشكوال سمى أيضا قاضيا – ولي قضاء مالقة في زمن بني حمود؛ وبالتحديد في زمن إدريس بن يحيى – باسم أبي علي حسين بن عيسى بن حسين الكلبي المعروف بحسون؛ ونسبه إلى جراوة بالمغرب. وقال أنه توفي سنة 453هـ(1061م).[2]

أما صاحب المغرب فقد تكلم عن المدعو أبا علي الحسن بن حسون بإيجاز شديد؛ وقال فيه: **((عَيْن مالقة، وربُّ حَلِّهَا وعقدها، وعلم بُردها وواسطة عقدها؛ وكان من أئمة العلماء؛ ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي... وقاسى شدة من اختلاف الخلفاء على بلده)).**[3] كما أورد له قطعة شعرية صغيرة نسبها إليه؛ وهي:

خَلَعتُ عِذَارِي فِي هَوَاهَا وَعِندَمَا
تَبَدَّتْ نجومُ الشَيبِ فِي غَسَقِ الشَعْرِ
وَثَنَيتُ عَنَانِي وَارتَجَعتُ إلَى النهَى
وَعَاوَدَنِي حِلمِي وَرَاجَعَنِي صَبرِي

---

[1] تعرض ابن بسام خلال حديثه عن الفقيه الشاعر غانم بن وليد؛ (المتوفى سنة 470هـ) حين أورد قصيدته التي رثى فيها القاضي ابن حسون؛ فقال: ((وله [أي لغانم] من قصيدة يرثي الفقيه القاضي أبا عليّ بن حسون)). الذخيرة ق: 1، مج: 2، ص: 866. علما بأن صاحب القصيدة سماه فيها بالحسين؛ بقوله: ((ولّى حُسَينٌ والمحامد بعده)). أنظر أيضا المغرب، ج: 1، ص: 430. ونفح الطيب، ج: 3، ص: 390. وتاريخ قضاة الأندلس، ص ص: 90 – 94.

[2] جاء تحت رقم 327 ((حُسَين بن عيسى بن حسين الكلبي: قاضي مالقة؛ يُكنَى: أبا علي، ويعرف بحسون... وكان فقيه مالقة وكبيرها، أصله من جراوة (قلت: جراوة التي أصله منها هي بين تلمسان، وعقبه بها مشهور. اخبرني بذلك أهل ذلك الموضع)؛وتوفي صدر سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. قال الشعبي: وكان فقيها في المسائل حافظا لها، عالما بأصولها ونظرائها، ما رأيت مثله في علمه بها)). الصلة، ج: 1، ص: 142.

[3] المغرب، ج: 1، ص ص: 430 – 431.

وَأصْبَحْتُ لاَ أبغِي سِوَى العِلمِ خُطَّةً
فَفِيهِ الذِي أرْجُوهُ فِي مَوقِفِ الحَشرِ
وَلَوْلاَهُ مَا أصْبَحتُ أقضِي عَلَى الأُلَى
صَحِبْتُهمْ فِي عُنفُوَانٍ مِنَ العُمرِ

وفي المقابل ذكر المقري ما دار بين المدعو ابن حَسّون وإدريس بن يحيى؛ فقال: ((وحكي أن العالي إدريس الحمودي لما عاد إلى ملكه بمالقة؛ وبّخ قاضيها الفقيه أبا علي ابن حَسُّون؛ وقال له: "كيف بايعت عدوي من بعدي وصحبته؟". فقال: "وكيف تركت أنت ملكك لعدوك؟". فقال: "ضرورة القدرة حملتني على ذلك". فقال: "وأنا أيضا حصلت في يد مَنْ لا يسعني إلا طاعته")).[1] ثم أورد المقري لهذا القاضي أبياتا من الشعر نسبها ليه:

رُفِعتُ مِنْ دَهرِي إلَى جَائِرٍ
وَيَبتَغِي العَدلَ بِأحْكَامِي
أضْحتْ بِه أمْلاَكُهُ مِثْلَ أشْـ
ـكَالِ خَيَالٍ طَوْعَ أيَامِ
هذَا وَلَمَا أبْرَمَ ذَا نَاقِضٌ
كَأنَهُمْ فِي حُكمِ أحْلاَمِ

غير أن صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس المدعو أبا الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي النباهيّ. يذكر رواية يمكن أن تفك الإشكال بعض الشيء.[2] وذلك أنه تكلم عن قاضٍ ولي قضاء مالقة في

---

[1] نفح الطيب، ج: 3، ص: 390.
[2] أنظر كتاب تاريخ قضاة الأندلس المسمى بـ: كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. ص ص: 90 ــ 94.

الفترة الزمنية التي حددت للقاضي المدعو ابن حسون؛ غير أن الاسم الذي ذكره صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس يختلف عما ذكر سابقًا. فالاسم هنا هو: محمد بن الحَسَن الجُذاميّ النّباهيّ. وقال أنه ولي – لأول مرة – القضاء في عهد يحيى بن علي بن حمود؛ حيث أجبره على تلك المهمة؛ وذلك أنه خيره بين القبول بخطة القضاء أو السيف؛ فقبل بها بشروط. ولما توفي يحيى في قرمونة؛ عرفت مالقة اضطرابات وفوضى؛ جراء قدوم الفتى الصقلبي نجا إليها؛ وتكليف وزيره محمد السطيفي بتسيير البلد؛ فاستعفى القاضي محمد بن الحسن الجذامي النباهيّ. وبعد ثورة الجند والرعية على نجا والسطيفي وقتلهما؛ انتصب إدريس بن يحيى على عرش مالقة؛ فعين في خطة القضاء القاضي محمد بن الحسن بكتاب تولية نشره صاحب الكتاب وهو: ((هذا كتابٌ أمر به، وأنفذَه، وأمضاه من عَهده، وأحكَمَه الإمامُ أميرُ المسلمين، عبدُ الله العالي بالله، الظافرُ بحول الله، إدريس بن المُعتلي بالله – أعلى اللهُ أمره وأعزَّ نصره – للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن – وفقه الله – قلده به القضاءَ بين المسلمين بمدينة مالقة – حرسها الله – وأعمالها)). ثم يضيف مؤلف كتاب: ((وهو كتاب [يقصد كتاب التولية] كبيرٌ في رَق، وتأريخه في إحدى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة 445هـ[1053م]؛ وعليه توقيعُ العالي بخطّ يده، نصه: "يُنفَذُ هذا ويُعمَل عليه، واللهُ الموفق، وهو المستعان"))[1].

[1] تاريخ قضاة الأندلس، ص: 91.

ومما يبعث على الاعتقاد في احتمال كون هذا الشخص هو نفسه الذي ورد ذكره من طرف كل من: ابن بسام، وابن سعيد، والمقري؛ ما جاء ذكره في كتاب قضاة الأندلس (**المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**)؛ حول رواية مقتل القاضي النباهي؛ إذ جاء أنه كان رفقة بعض الفقهاء ومنهم الأديب غانم؛ الذي تمكن من النجاة مع الآخرين. ويبدو أن قصيدة غانم في رثاء القاضي الذي سماه ابن بسام بابن حسون تتفق مع هذا السياق؛ علما بأن صاحب القصيدة يكنيه فيها بأبي علي ويسميه بالحسين[1].

---

[1] وجاء فيها:

((الموتُ أعرَبَ في أصحِ مَساق
أنَّ المنِية شمرَتْ عَنْ ساق

المَوتُ يُخبرُ عَنْ مرَارَةِ كأسِهِ
وَالكأسُ ملأى لمْ يدِرْها ساق

هلاَّ توَاصَينا بصورَةِ حالِنا
وَالنفسُ ترقَى فِي لهَى وَترَاق

يَا آمِلَ الدُّنيا لباقِي عمرِهِ
اقصِرْ فما أملٌ عليها باق

حسناءُ زيِ بالنهَى ممهورَة
فإذَا تعرَّتْ مُتعتْ بطلاَق

مَغشوقة الحركاتِ إلاَّ أنها
أفعَى تدُبُّ لأعشق العشاق

كمْ أوْدَتِ الدُّنيا بِغضٌ شبيبةٍ
كالغصْنِ ماسَ بناضرِ الأوْرَاق

وَموَقرِ لبسَ المَشِيبَ جَلاَلة
بحر لباغِي العِلمِ عَذبِ مَذَاق

طرَقتهُ أحداثُ المَنونِ فأطرَقت
مِنهُ الفضَائلُ أيمَا إطرَاق

لوْ كانَ يُبقِي المَوت حَبراً عَالماً
لوقى الحِمامَ أبا عليَّ وَاق

ولى حسينٌ وَالمحامدُ بعدَهُ
كيلاَ تقاسِي جاحمَ الأشوَاق=

هذا ما سمح به المجال فيما يخص ذكر الأدباء والعلماء الذين أظلتهم الدولة الحمودية؛ على أنه من الضروري الإشارة إلى أن عهد العالي إدريس بن يحيى كان أكثر ثراء وازدهارا من غيره من العهود التي حكم فيها ملوك آخرون من بني حمود. وذلك لأن الفترة التي حكم خلالها العالي تميزت ـ على الرغم من قصرها وانقطاعها ـ بالحركة الأدبية والثقافية النشيطة؛ إذ كان بلاط تلك الدولة عبارة عن منتدى أدبي؛ سمح لكثير من الأدباء والشعراء بعرض إبداعهم ونشره وإذاعته. وكانوا يجدون كل تشجيع

= أسَفِي لِرَيَّة كُنْتَ عِقْدَ جَمَالِهَا
فَابْتُزَّ ذَاكَ العِقْدُ دُونَ وِفَاقِ

تَزْدَانُ مِنْكَ بِحُسْنِ مَا قَدْ طُوِّقَتْ
زَيْنَ الحَمَامِ الوُرْقِ بِالأَطْوَاقِ

عِلْمٌ أعِينَ بِفَضْلِ حِلْمٍ رَاجِحٍ
أخَذَ الأَمَانَ لَهُ مِنَ الأَخْلاَقِ

وَصَبَاحَةٌ وَسَمَاحَةٌ قَسَمَتْ لَهُ
رِزْقاً تَبَارَكَ قَاسِمُ الأَرْزَاقِ

وَمِنَ الغَرِيبِ غُرُوبُ شَمْسٍ فِي الثَّرَى
وَضِيَاؤُهَا بَاقٍ عَلَى الآفَاقِ

أبْقَيْتَ فِي الدُّنْيَا مَآثِرَ ثَرَّةً
تَبْلَى حُلَى الأيَّامِ وَهْيَ بَوَاقِ

قَدْ كَانَ مَجْلِسُكَ المُبَارَكُ مَوْسِماً
فَأَقَامَ أوْحَشَ مِنْ غَدَاةِ فِرَاقِ

غُيِّبْتَ عَنْهُ مَغِيبَ بَدْرٍ كَامِلٍ
وَاللَّيْلُ أدْهَمُ ضَارِبٌ بِرِوَاقِ

وَمِنَ العَجَائِبِ وَالكُسُوفُ مُرَتَّبٌ
قَمَرٌ تَوَارَى فِي زَمَانِ مُحَاقِ

مَنْ ذَا أُعَزِّي فِيكَ مِنْ هَذَا الوَرَى
لَمْ يَلْقَنِي إلاَّ بِحُزْنِكَ لاَقِ

وَالنَّاسُ مَحْزُونُونَ فِيكَ كَأنَّمَا
كَانَ اتِّفَاقُهُمُ عَلَى إصْفَاقِ

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 866-868.

وتكريم من قبل أمير الدولة العالي إدريس ابن يحيى بن علي بن حمود.

وهكذا ظلت الحال بين مد وجزر؛ حتى انتهى أمر الحموديين نهائيا في مالقة سنة 449هـ(1057م). وذلك بعد أن استولى باديس بن حبوس أمير غرناطة عليها؛ حيث ضمها إلى مملكته. ثم تلا ذلك خروج آخر أمراء الدولة الحمودية محمد بن إدريس (**المستعلي**) منها؛ قاطعا البحر إلى مليلة؛ أين بقي بها أميرا عليها حتى حلول تاريخ وفاته سنة 456هـ(1063م).

3)ـ دولة بني سليمان:

صاحب هذه الإمارة هو سليمان بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب.[1] وعليه فهو أخو إدريس الأكبر. هذا وقد تمكن سليمان من إنشاء هذه الدولة في تلمسان ـ التي اعتبرت قاعدة للمغرب الأوسط؛ وحاضرة لهذه الدولة العلوية ـ بفضل عون ومساعدة بعض القبائل الزناتية المهيمنة على تلك الربوع. وتم ذلك عندما لجأ إليها مؤسس الإمارة (**سليمان بن عبد الله**)؛ فارا من العباسيين بالمشرق. إذ تم ذلك عقب مقتل أخيه إدريس الأول؛[2] حيث جاء ـ هو الآخر ـ إلى هذه الديار بحثا عن الحماية والسلطان. ولما وصل إلى مشارف إفريقية؛ عرج جنوبا؛ اتقاء وخوفا من عيون أتباع العباسيين وولاتهم في القيروان.

---

[1] تضاربت الأقوال حول الشخص الذي يمكن أن تنسب إليه إمارة تلمسان؛ فإن كان معظم المؤرخين والجغرافيين يقولون بأنه سليمان بن عبد الله؛ فإن آخرون يقولون إنه سليمان ابن عبد الله المنحدر عن الحسين بن علي بن ابي طالب . من ذلك ما يقوله الطبري عن سليمان بن عبد الله؛ أنه قتل في وقعة فخ يوم التروية في سنة 169هـ. وفي المقابل يرى آخرون أن الذي تولى إمارة تلمسان هو شخص يدعى محمد؛ ولكنه من ابناء الحسين وليس من أبناء الحسن كما يتسلسل نسب بني إدريس بن عبد الله. ويقول أيضا آخرون أنه محمد بن سليمان من ولد الحسن بن علي؛ وليس سليمان من قدم إلى تلمسان. ويعتبر البكري أحد القائلين بهذا القول؛ الذي يقول عن تلمسان: ((وهي دار مملكة زناتة، وموسطة قبائل البربر، ومقصد لتجار الآفاق؛ ونزلها محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب)). أنظر المغرب، ص: 77. وللمزيد من التوضيح أنظر كل هذه الخلافات في كتاب دولة الأدارسة؛ لإسماعيل العربي، ص ص: 137 ـ 146. غير أن ابن حزم ـ وهو من المحققين المدققين الثقاة ـ يرى أن الذي أقام الدولة بتلمسان هو سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب. أنظر جمهرة أنساب العرب، ص: 48.

[2] يقول ابن خلدون: ((وأما سليمان أخو إدريس الأكبر؛ فإنه فر إلى المغرب أيام العباسيين؛ فلحق بجهات تاهرت بعد مهلك أخيه إدريس؛ وطلب الأمر هناك)). العبر، مج: 4، ص: 34.

وتبعا لذلك فقد وجد في أراضي الرستميين أمنا وسلاما؛ لا يمكن توفرهما في شمال البلاد. وكل ما يمكن قوله في هذا المجال؛ هو أن سليمان بن عبد الله بعد أن التحق ببلاد المغرب؛ عقب موت أخيه إدريس؛ كانت محطته الأولى منطقة تيهرت؛ حيث حاول فيها كسب تأييد القبائل المتواجدة بالمغرب الأوسط؛ طمعا في مناصرتهم، ودعمهم؛ غير أنهم كذبوه في بداية الأمر، ولم يصدقوا خبر انتسابه لعلي كرم الله وجهه. ولما لاحظوا ما يجري من عمليات مكثفة للبحث عنه؛ من طرف والي القيروان؛ تيقنت ـ عندئذ ـ قبائل المغرب الأوسط من صدقه، وصحة نسبه الهاشمي؛ فتحقق له ـ حينها ـ شرط أصحاب النصاب الملكي؛[1] واجتمعت حوله قبائل زناتة؛ التي كانت آنذاك في صراع مع أمراء الدولة الرستمية؛ بدءا بفتنة ابن فندين اليفرني الزناتي، وما تبعه من وقائع دارت بين الدولة الرستمية وشريحة عريضة من قبيلة زناتة؛ ممن كانوا متمذهبين بالواصلية. وعليه فقد اختارت شريحة عريضة من القبائل الزناتية مبايعة سليمان بن عبد الله، وإعلان الطاعة له. وفي هذا يقول ابن خلدون: **((وطلب الأمر هناك** [أي سليمان]؛ **فاستنكره البرابر؛ وطلبه ولاة الأغالبة؛ فكان في طلبهم تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان فملكها، وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك)).**[2] وبذلك تمكن سليمان من إقامة ملكا ـ وإن كان محدود السيادة ـ بواسطة قبيلة زناتة في

---

[1] أنظر في هذا مقدمة ابن خلدون، ((فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.

[2] العبر، مج: 4، ص، 34.

تلمسان. ويمكن تحديد امتداد نفوذ هذه الدولة بما كان يعرف في ذلك العهد بالمغرب الأوسط.[1]

ويبدو أن إمارة بني سليمان هذه كانت عبارة عن ولاية كبرى تابعة للمملكة الإدريسية؛ ولكنها تتميز باستقلال داخلي؛ مكن أمراءها من التصرف بحرية مطلقة. ومع هذا فقد كانت الدولة الإدريسية هي التي تتحمل أعباء الدفاع عن هذه الإمارة؛ وهذا هو ما حدث بالفعل؛ حين أقام إدريس الثاني في جوار ابن عمه محمد بن سليمان بتلمسان، والمغرب الأوسط عموما؛ طيلة ثلاث سنين؛ بغرض تمهيد تلك الإمارة، وتأمين السلامة لحدودها؛ وتأديب بعض القبائل الصفرية المتمردة؛ من قبيلة نفزة وغيرها؛ وذلك في سنة 199هـ.[2]

وكان إدريس الثاني – قبل ذلك – قد أقام فترة من الزمن في تلمسان؛ عقد خلالها اتفاقية بينه وبين الأغالبة؛ رسمت بموجبها الحدود الفاصلة بين دولته

---

[1] وقد ذكر عبد الرحمن الجيلالي بعض العلامات لحدود إمارة بني سليمان إذ قال: ((وإذا نظرنا إلى حدود الجزائر الإدريسية وجدناها لا تتعدى – من جهة الشمال الشرقي – مدينة وهران ونهر الشلف، ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر إلى جبال مديونة قبلي فاس؛ ولك أن تقول أنها تمتد – على الساحل – من الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقا، ثم تعود بناحية تنس غربا وجنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة)). تاريخ الجزائر العام، ج:، 1، ص: 183.

[2] وقد أورد هذا الخبر ابن أبي زرع إذ قال: ((ورجع [ادريس] إلى مدينة فاس؛ فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين [ومائة]؛ فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة؛ فسار حتى غلب عليهم، ودخل مدينة تلمسان؛ فنظر في أحوالها، وصلح أسوارها، وجامعها، وصنع فيها منبرا؛ قال أبو مروان عبد الملك الوراق: "دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك؛ مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين [الصحيح هو الحسن السبط] بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة". فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين، ثم رجع إلى مدينة فاس الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 27.

ودولتهم. وقد اتفقوا على جعل شلف حداً فاصلا بينهما. وكما هو واضح؛ فقد اتخذ إدريس الثاني إمارة بني سليمان بمثابة الحاجز الواقي لدولته بفاس؛ في وجه أطماع بني الأغلب بالقيروان من جهة، ودريئة تمنع امتداد النفوذ الإباضي، والصفري من جهة أخرى. كل هذا ولم تذكر مصادر الدولة الإدريسية شيئا عن بني سليمان في تلمسان خلال تلك الفترة؛ بل ركزت حديثها على أعمال إدريس الثاني ونشاطه في تلك الربوع.

وربما يعود السبب في عزوف المؤرخين عن الإسهاب والتدقيق في الحديث عن إمارة بني سليمان راجع إلى اعتقادهم بأنها لا تعدو أن تكون سوى ولاية تابعة للدولة الإدريسية بفاس. لذا فقد اقتصروا على الأحداث التي صنعها السلاطين الأدارسة لا غير؛ خاصة عندما يعلم القارئ بأن المؤرخين – آنئذ – كانوا لا يهتمون كثيرا بغير محيط السلطان وحاضرته. ومع هذا فلابد من الاعتراف بأن هذا القول لا يخرج عن كونه قولا افتراضيا لا غير؛ وذلك بسبب اضطراب السند التاريخي إن وجد.. لأن الأحداث التاريخية لدولة سليمان بن عبد الله يكتنفها غموض كثيف؛ بسبب قلة المصادر التي يمكن أن تتكلم عنها بتوسع واستفاضة. وكل ما توفر لدينا حتى الآن؛ لا يتجاوز بعض المصادر الحاملة لمعلومات هزيلة؛ تشير إلى أمراء هذه الدولة، والمدن التي يحكمونها؛ بدون تفاصيل تذكر، ومن دون ذكر تواريخ يمكن الاعتماد عليها؛ في تحديد الفترات الزمنية التي حكم خلالها أمراء هذه الدولة.

هذا وتجمع المصادر المتوفرة على أن الذي خلف سليمان؛ على عرش تلمسان بعد وفاته هو ولده محمد. كما تقول المصادر أن محمدا هذا هو الذي استدعى ابن عمه إدريس الثاني إلى تلمسان؛ كي يساعده على إخضاع الأطراف الشرقية من مملكته، وتأديب الثائرين من القبائل الصفرية؛ وبالفعل لبى محمد ابن إدريس طلب ابن عمه محمد بن سليمان وقدم إليه، كما سبقت الإشارة إليه؛ حيث ظل في تلك الربوع حتى استتب الأمر لبني سليمان بن عبد الله.

وحسب رواية ابن خلدون والتنسي؛ قد يكون محمد ابن سليمان قام بتوزيع عمالات الدولة، ومقاطعاتها على أبنائه. فخص أحمد ابنه بولاية العهد، ونصب ابنه عيسى على عمالة أرشقول، وولده الحسن بمقاطعة في جهات تيهرت، وولده إبراهيم بتنس، وولده إدريس في جراوة؛ وهكذا.[1]

ويبدو أن أحفاد سليمان بن عبد الله قد انتشروا في ربوع المغرب الأوسط كله؛ بدءا بحدود بجاية

---

[1] فمما قاله ابن خلدون مثلا: ((وورث [أي سليمان] ملكه ابنه محمد بن سليمان؛ على سننه؛ ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه؛ فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن محمد بن أحمد [بن محمد بن سليمان]؛ وأظنّ هذا القاسم هو الذي يدّعي بنو عبد الواد نسبه؛ فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس بمثل هذه الدعوى. وكانت أرشكول [أرشقول] لعيسى بن محمد بن سليمان؛ وكان منقطعا إلى الشيعة. وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى؛ وكنيته أبو العيش؛ ولم تزل إمارتها في ولده؛ ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى. وكان ادريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعا إلى عبد الرحمن الناصر، وأخوه يحيى كذلك... وكانت تنس لإبراهيم بن محمد بن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط. وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وَيَطوُش بن حناتِش بن الحسن بن محمد بن سليمان. قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جدا)). العبر، مج: 4، ص ص: 34 ـ 36.

شرقا، وحتى مدينة نمالتة **(مغنية حاليا)** غربا.[1] وكانوا بمثابة أمراء على مدن منعزلة؛ تقف كحصون في وجه منافسيهم: من بني الأغلب والرستميين. كما عرفت هذه الديار أيضا هجرات أخرى لأحفاد علي بن أبي طالب؛ وهو ما تؤكده الآثار الباقية بعدهم؛ ممثلة في أسماء الأماكن، والمدن الجزائرية؛ التي تنسب إليهم. كسوق حمزة **(البويرة حاليا)**، نسبة إلى أمير هاز حمزة بن الحسن بن سليمان بن سليمان وفيه يقول ابن حزم: ((**ملك هاز من أرض المغرب**، [موقعها بالقرب من عين بوسيف الحالية] **وملك قطيعا من صنهاجة؛ وإليه ينسب سوق حمزة، وولده بها كثير؛ وكذلك أيضا ولد اخوته في تلك الجهة**)).[2] وحسبما يبدو فقد يكون السهل المعروف الآن بسهل بني سليمان منسوبا إلى سليمان بن عبد الله أيضا. ثم سوق إبراهيم؛ المنسوب كذلك إلى إبراهيم بن محمد بن سليمان؛ كما أن مدينة بوفريك الحالية؛ منسوبة إلى أبي فريك الكبير **[كتب في بعض المراجع خطأ ـ الكافر]**؛ وهو من نسل جعفر ابن الحسن **(عم إدريس الأول)**؛ لأن منطقة متيجة ـ بقاعدتها قزرونة ـ كانت خاضعة لأبناء جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه. وإذا ما تتبع القارئ المصادر التاريخية؛ سيجد أن جل بلاد المغرب أضحت ملجأ مفضلا لأبناء علي بن أبي طالب؛ حيث وجدوا في تلك

---

[1] لمزيد من التدقيق أنظر إلى ما كتبه موسى لقبال عن بني سليمان في ديار الجزائر؛ في كتابه دور كتامة. ص ص: 209 ـ 213.

[2] جمهرة أنساب العرب، ص: 55.

الديار الأمن والتقدير والاحترام؛ تلك الأشياء التي فقدوه في جهات كثيرة من المعمورة.[1]

هذا وقد تم إسقاط دولة بني سليمان؛ بقواعدها كافة؛ بفعل ضربات جيوش الدولة الفاطمية؛ المنافسة لهم في النسب الهاشمي؛ تلك الدولة القوية المشكلة من قبائل: كتامة ومكناسة وصنهاجة. ونتيجة لذلك التهديد والتضييق؛ انكشف الجناح الشرقي لدولة الأدارسة؛ فأضحت ـ بدورها ـ عرضة لهجمات الفاطميين الشيعة من بني عبيد الله الفاطمي؛ الذين امتدت أيديهم إليها كذلك؛ فكانت نهايتها الحتمية هي الأخرى؛ بعد مدة من الزمن.

هذا ما توفر من معلومات حول دولة بني سليمان المغمورة في زوايا التاريخ المظلم تقريبا؛ كما أن موضوع الحضارة والنشاط الثقافي فيها يكاد الحديث عنه يدخل في عداد المستحيلات؛ وذلك بسبب غياب الشواهد اللازمة، وانعدام المعالم الضرورية لتكوين الصورة مقبولة حول هذا الموضوع. وعليه فقد تعذر الكشف عما يمكن أن يكون قد أنجز في ظل تلك الدولة من منشآت وأعمال حضارية وثقافية؛ لأن المصادر التاريخية ـ كما سبق ذكره ـ لم تقدم شيئا يذكر عنها في هذه المجالات، أو في غيرها من المجالات التاريخية الأخرى. ومع هذا يبدو أن لهذه الإمارة بعض الصلات الثقافية مع محيطها؛ شرقا وغربا. وحتى إن فقدت الشواهد على ذلك فليس معنى ذلك انعدام الحركة الثقافية بالتمام في إمارة بني سليمان.

---

[1] أنظر: العبر، ج: 4، ص ص: 34 ـ 36. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص ص: 474 ـ 484. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص ص: 182 ـ 190. ودور كتامة، ص ص: 209 ـ 215. ودولة الأدارسة، ص ص: 137 ـ 146. 293 ـ 294.

وخير دليل على ذلك تلك القصيدة التي قالها الشاعر الفحل بكر بن حماد في الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ وهي التي بقي منها مقطع صغير جاء فيه:

سَائلْ زُواغة عن طعان سُيوفه	ورَماحه في العَارضِ المُتهَلِل
وديار نفزة كيفَ دَاسَ حَريمَها	والخيلُ تمْرَغ في الوشيج الذبّل
وغشّى مَغيلة بالسيوف مُذِلة	وسقىَ جَراوة من نقِيعِ الحَنظل)).

على أنه يستحسن التنبيه إلى دور البيئة القبلية المنغلقة التي كانت تحيط بهذه الدولة؛ الأمر الذي أبقاها محاطة بالغموض؛ الذي كان له تأثير حتى عندما اقتصر الأمر على مجرد السرد التاريخي للمظهر السياسي الخاص بها.

4)- الدولة الفاطمية:[1]

ينتسب حكام هذه الدولة إلى فاطمة بنت محمدﷺ، وإلى جدهم علي بن أبي طالب رضي الله عليه. ويسمى مؤسسها وأول ملوكها - حسبما ورد في كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم - هو: عبيد الله بن أحمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه.[2] هذا وقد اختلفت المصادر التاريخية في سرد تسلسل آباء هذه الأسرة الحاكمة للدولة الفاطميين؛ وحتى نسبهم الهاشمي تضاربت الآراء حوله؛ فثمة من أنكره، وثمة من صدقه. ويبدو أنهم تعرضوا لهجمة إشاعات، وحملة تشويه؛ نظمها ضدهم أنصار الدولة العباسية المنافسة لهم؛[3] وقد رأينا أنهم استعملوا

---

[1] ينحصر البحث هنا في حدود الدولة الفاطمية القائمة ببلاد المغرب؛ وينتهي الاهتمام بها بدءا بانتقال الخليفة المعز إلى القاهرة.

[2] تضاربت الأقوال حول نسب مؤسس الدولة الفاطمية؛ ولم تتفق المصادر على سلسلة واحدة لآبائه؛ ومما يقوله ابن الأثير في هذا الباب: ((أول من ولي منهم أبو محمد عبيد الله؛ فقيل: هو محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم؛ ومن ينسب هذا النسب يجعله: عبد الله بن ميمون القداح الذي ينسب إليه القداحية. وقيل: هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني [ابن] محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي أبن أبي طالب رضي الله عنهم. وقد اختلف العلماء في صحة نسبه؛ فقال - هو وأصحابه القائلون بإمامته إن نسبه صحيح على ما ذكرناه، ولم يرتابوا فيه. وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضا؛ ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضيّ:

مَا مُقَامِي عَلَى الهوَانِ وَعِنْدِي ... مِقْوَلٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِيٌّ
أَلْبَسُ الذُلَّ فِي بِلَادِ الأَعادِي ... وَبِمِصْرَ الخَلِيفَةَ العَلَوِيٌّ
مَنْ أَبُوهُ أَبِي، وَمَوْلَاهُ مَوْلَا ... يَ إِذَا ضَامَنِي البَعِيدُ القَصِيُّ
لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سَيِّدَا النَّا ... سِ جَمِيعًا: مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ
إِنَّ ذُلِّي بِذَلِكَ الجَوِّ عِزٌّ ... وَأُوَامِي بِذَلِكَ الرَّبْعِ رِيُّ

وإنما لم يودعها ديوانه خوفا)). الكامل في التاريخ، ج: 6، ص : 124 - 125.

[3] لمن يريد أن يستزيد بخصوص محاولة التشهير بالفاطميين - من طرف العباسيين - وما نسب إليهم من تزوير وانتحال للنسب النبوي الشريف؛ عليه أن يراجع ما كتبه ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، ج: 6، ص=

الأسلوب نفسه مع إدريس الثاني؛ حيث حاولوا نشر الشكوك حول انتسابه لأبيه إدريس الأول؛ إذ كلفوا من يطعن في نسبه. ولكن بعض المحققين – من أهل العلم والمؤرخين المدققين – يميلون إلى تصديق نسبهم الهاشمي.[1] من ذلك ما قاله ابن الأثير: ((**ففي امتناع** [الشريف الرضيّ] **من الاعتذار، ومن أن يكتب طعنا في نسبهم مع الخوف؛ دليل قوي على صحة نسبهم؛ وسألت أنا جماعة من أعيان العلويين في نسبه** [أي نسب عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية] **فلم يرتابوا في صحته... وزعم القائلون بصحة نسبه؛ أن العلماء ممن كتب في المحضر** [الذي طلب منهم التوقيع عليه الخليفة العباسي القادر بالله] **إنما كتبوا خوفا وتقية، ومن لا علم عنده بالأنساب فلا احتجاج بقوله)).**[2]

ومما لا شك فيه؛ أن نجاح الأدارسة في بلاد المغرب جعل بقية العلويين بالمشرق يحسون بعطف سكان تلك الديار تجاه قضيتهم، وميلهم إليهم؛ بحكم النسب الذي يربطهم مع نبي المسلمين ﷺ. ومن هذا المنطلق أرسل سادس الأئمة العلويين؛ جعفر الصادق

=ص: 124 – 126. وما كتبه المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 25 – 40.

[1] ومن بينهم ابن خلدون الذي يقول: ((ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم؛ وبالمحضر الذي ثبت ببغداد – أيام القادر – بالطعن في نسبهم، وشهد فيه أعلام الأئمة – وقد مر ذكرهم – فإن كتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان، وابن مدرار بسجلماسة؛ يغريهم بالقبض عليه؛ لما سار إلى المغرب شاهد بصحة نسبهم. وشعر الشريف الرضي مسجل بذلك. والذين شهدوا في المحضر؛ فشهادتهم على السماع؛ وهي ما علمت. وقد كان نسبهم ببغداد منكرا عند أعدائهم شيعة بني العباس منذ مائة سنة؛ فتلون الناس بمذهب أهل الدولة؛ وجاءت شهادة عليه؛ مع أنها شهادة على النفي. مع أن طبيعة الوجود في الانقياد إليهم؛ وظهور كلمتهم حتى في مكة والمدينة أدل شيء على صحة نسبهم. وأما من نسبهم في اليهودية والنصرانية ليعمون القدح وغيره فكفاه ذلك إثما وسفسفة.)). العبر، مج: 4، ص: 64.

[2] الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 125.

بن محمد الباقر داعيتين إلى المغرب هما: عبد الله بن علي بن أحمد المعروف باسم الحلواني، وأبو سفيان الحسن بن القاسم. نزل الأول في أرض كتامة، والثاني في مرمجنة بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية الحديثة. وكان لهما الفضل الأول في التعريف بالقضية العلوية، ونشر الفكر الشيعي بين سكان المغرب الأوسط وإفريقية؛ حيث تمكنا من تحقيق طلب الإمام جعفر بتمهيد المناخ وحرث الأرض؛ انتظارا لمن سيقوم بالحصاد.[1] وما قدوم أبي عبد الله الشيعي ـ فيما بعد ـ إلا من باب استكمال العمل الذي بدأه هذان الداعيتان. ومع هذا فلا بد من الاعتراف بجهود أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد المعروف بالشيعي وبالمحتسب وبالمعلم؛ فهو المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية.[2] حيث لم يكتف ـ كغيره ـ بالدعوة الكلامية؛ بل قام بدور القائد العسكري المحنك؛ الذي ألحق بالأغالبة الهزيمة تلو الأخرى؛ حتى تغلب على حاضرة ملكهم القيروان. كما استطاع إخضاع بقية الممالك بالمغرب الأوسط؛ كمملكة بني رستم بتيهرت، ومملكة بني مدرار بسجلماسة. ودام به الوقت في ذلك العمل الكبير بدءا من عام وصوله إلى ديار كتامة سنة 280هـ(893م)، وحتى بيعة عبيد الله المهدي؛ أول أئمة الدولة سنة 297هـ(909م).

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 54 ـ 58. والكامل، ج: 6، ص: 126. واتعاظ الحنفا، ص ص: 53 ـ 54. ودور كتامة، ص ص: 216 ـ 238.

[2] أنظر الأعمال التي قام بها هذا الداعية الفذ في كتاب رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 71 ـ 236. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 127 ـ 133. والعبر، مج: 4، ص ص: 65 ـ 76. ودور كتامة، ص ص: 231 ـ 329.

ولم يحقق أبو عبد الله الشيعي تلك النجاحات بسهولة ويسر؛ إذ كان عليه ـ في بداية الأمر ـ توحيد كلمة عشائر كتامة؛ ثم الانتقال بعدئذ إلى خارج القبيلة؛ كي يستطيع ضرب الأعداء بقبيلة موحدة وقوية. وعليه فقد استغرق وقتا طويلا في تحقيق وحدة قبيلة كتامة. وبهذا يكون قد اتبع الأسلوب الذي شرحه ابن خلدون ضمن "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1] حيث تعمل عشيرة معينة على إخضاع بقية عشائر القبيلة وإلزامها بالطاعة والانقياد لقيادة واحدة؛ وذلك بالعمل على مزج العصبيتين الصغرى والكبرى ضمن عصبية واحدة قوية؛ كل هذا يتم بغرض الانتقال إلى مرحلة أخرى؛ تقوم فيها العصبية الموحدة بالتغلب على غيرها من العصبيات الغريبة وإخضاعها؛ في سبيل تحقيق الملك القاهر. وهذا هو الذي حدث بين عشائر كتامة؛ حيث قضى أبو عبد الله الشيعي وأنصاره وقتا طويلا في تمهيد سلطانه، وتوحيد العصبيات والعشائر الكتامية المتفرقة؛ ضمن عصبية واحدة متينة وقوية.

---

[1] جاء فيها: ((ثم إن القبيل الواحد ـ وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة ـ فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها؛ تغلبها، وتستتبعها؛ وتلتحم جميع العصبيات فيها؛ وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق؛ المفضي إلى الاختلاف والتنازع: "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ" [من الآية 251 من سورة البقرة]. ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها، أو مانعتها؛ كانوا أقتالا، وأنظارا؛ ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها؛ التحمت بها أيضا؛ وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغلبة الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها؛ ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة؛ أهل العصبيات؛ استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 609 ـ 610.

ويبدو أن بوادر الوحدة أخذت تتحقق في أواخر سنة 298 هـ(910م)؛ حيث تمكن الداعية الشيعي أبو عبد الله من إخضاع العشائر الكتامية بكاملها؛ خاصة التي كانت بعيدة شيئا ما عن أطراف المدن.[1] هذا بخصوص العشائر الكتامية؛ أما القبائل الأخرى؛ فيظهر أن عشائر عجيسة وزواوة تكون قد التحقت بالدعوة خلال عام 288هـ(900م).[2] أما قبيلة تلكاتة الصنهاجية ـ ذات القوة والنفوذ ـ فقد بقيت على الحياد طيلة الفترة التي ناضل فيها أبو عبد الله الشيعي؛ في سبيل إقامة الدولة الفاطمية؛ كما أن المصادر لم تذكر أي محاولة منه للتعرض لتلك القبيلة الواسعة الانتشار. والذي بادر ـ حسبما يبدو ـ إلى عقد صلات مع تلكاتة الصنهاجية هو عبيد الله المهدي نفسه؛

---

[1] وفي هذا يقول القاضي النعمان: ((واستولت أمور أبي عبد الله على عامة بلد كتامة؛ وظهرت دعاته في كل ناحية منها، وغلب أمره عليها، واستحكم فيها؛ ولم يبق فيها إلا من يدخل دعوته: إما راغبا، وإما راهبا، أو مخذولا؛ قد أنكرها بقلبه، وغلبت عليه شقوته؛ فأصر على إنكارها؛ فتمسك بما هو عليه؛ غير مدافع لأمر، ولا متوثب على أحد من أهله؛ بل قد صار كل من هذه حاله تحت أحكام الدين، وأيدي المؤمنين؛ يجري حكمهم عليهم، وينفذ أمرهم فيهم، ويحيط سلطانهم من ورائهم؛ بعد أن كانت لأبي عبد الله الشيعي في قبائل كتامة وقائع كثيرة يطول ذكرها؛ أقام ـ بعد انهزام الجميع عنه ـ نحو سنتين يوقعها بهم، وينقص أطرافهم، ويقتلهم، ويغنم أموالهم؛ حتى أجابوه، وسلموا لأمره؛ طائعين، ومكرهين، وراغبين، وخائفين. ولم يبق غير المدائن، ومن فيها من أهاليها، ومن انضم إليهم، وصار عندهم؛ من غلبت عليه الشقوة، وسبق في علم الله حلول البلاء به من رؤساء القبائل، ووجوه العشائر؛ ممن أنف عن الدخول في الدعوة، والوقوع تحت من كان يرى أنه واقع تحت أمره من العشيرة، ومن خامره الخوف من مقدمات سوء فطه، وزين له الشيطان التمادي على غيه وجهله؛ وطوائف من القبائل ممن قارب المداين، وعاشر أهلها، واستمالهم أمراؤها؛ يدارونهم، ويكاتبونهم، ويتسللون إليهم في السر؛ وهم على ظاهر الطاعة، والوقوع تحت الدعوة في الجهر؛ تركوا على حالهم مستورين؛ كما ترك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من كان بالمدينة وحولها من المنافقين)). رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 121 ـ 122.

[2] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 119 والعبر، مج: 4، ص: 69.

وذلك لما استتب الأمر في القيروان لعبيد له، وظهرت أمامه الأخطار المحدقة بدولته؛ تلك الأخطار التي بدأت بوادرها تبرز من خلال تحركات القبائل الزناتية؛ نتيجة لتحريض الأمويين بالأندلس؛ لذا فقد سعى ـ بكل جهده ـ لكي يكسب ود خصوم الزناتيين التقليديين؛ وهم بالطبع الصنهاجيين. هذا وقد تضاعفت الحاجة إلى عونهم بعد استفحال أمر أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ الذي كان على رأس القبائل الزناتية الثائرة على الدولة. ومن جهة أخرى فقد وجد المهدي نفسه في حاجة ماسة إلى التحالف مع عصبية أخرى ذات قوة تعادل قوة العصبية الكتامية؛ بغرض تحقيق شرط التوازن. وعليه فقد أخذ يفكر في هذا الأمر بعد أن بدأت فئات من قبيلة كتامة تلجأ إلى حركات فيها مشاغبة، وتمرد في بعض الأحيان. وهكذا شرع عبيد الله في إغراء قبيلة تلكاتة، والعمل على كسب ولائها. وبالفعل وجدت مساعيه أذنا صاغية لدى الصنهاجيين؛ نظرا لأنهم يميلون إلى أبناء علي ابن أبي طالب من جهة؛ ونظرا ـ أيضا ـ لحاجتهم الماسة إلى حليف قوي يساعدهم على كبح جماح خصومهم الزناتيين من جهة أخرى. وهكذا توافقت مصالح الطرفين؛ فالتحمت قواهما، وتناسقت جهودهما في مواجهة العدو المشترك.[1]

[1] ويشير إلى هذا ابن خلدون بقوله: ((ولما استوسق الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم [أي زيري بن مناد] للولاية التي لعلي رضي الله عنه فيهم. وكان من أعظم أوليائهم؛ واستطال بهم على عدوه من مغراوة؛ فكانوا ظهرا له عليهم. وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم؛ وتحيزوا إلى المروانيين ملوك العدوة بالأندلس؛ فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى ـ كما نذكره إن شاء الله تعالى ـ ولما كانت فتنة أبي يزيد؛ والتاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية؛ كان لزيري بن مناد منافرة إلى الخوارج؛ أصحاب أبي يزيد وأعقابهم؛ وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان؛ كما ستراه العبر، مج: 6، ص : 313.

وبالإضافة إلى القبائل المذكورة؛ لابد من الإشارة إلى أنه سبق لأبي عبد الله الشيعي ــ داعية الفاطميين ــ أن أخضع بعض الفئات من قبيلة مكناسة لما تغلب على سجلماسة سنة 296هـ(908م). أضف إلى ذلك أنه بدأ اتصاله بالقبائل الزناتية في سنة 296هـ(908م) أيضا؛ وذلك عندما شرع في زحفه نحو سجلماسة؛ لتخليص عبيد الله المهدي من الأسر. ففي تلك الأثناء وفد عليه أمير زناتة ــ محمد بن خزر ــ عند وصوله إلى طبنة؛ طالبا الأمان لقبيلته، ومقدما العهد بالمسالمة، وعدم التعرض لعمال وعساكر الشيعي.[1]

وكان أمر أبي عبد الله الشيعي قد استفحل، واشتدت سطوته بعد أن احتل القيروان، وأسقط دولة الأغالبة؛ بفضل ما وجهه من ضربات صوب تلك الدولة الهرمة؛ إذ طاولها بالحرب، واستنزف بقية قواها؛ فانهارت تحت أقدام القبائل الكتامية؛ التي كانت تمثل القوة الضاربة بالنسبة للشيعة. وهنا يتحقق ما قرره ابن خلدون أيضا ضمن "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة**".[2] وذلك أن القبيلة المتمردة والطامعة في الاستيلاء على الملك، الساعية نحو تحقيقه بالقوة والغلبة؛ تعمل على إسقاط الدولة القائمة بواسطة حرب الاستنزاف؛ أو بتعبير ابن خلدون بواسطة المطاولة لا بالمناجزة.

ومن يتابع الأحداث السياسية والعسكرية منذ وصول الداعية أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب سنة 288هـ(900م)؛ وحتى انتصاب عبيد الله المهدي

---

[1] وكان قد سقط ــ من قبل ــ رسل أبي عبد الله الشيعي في كمين نصبه جماعة من زناتة فقتلوهم؛ بينما كانوا طريقهم إلى سجلماسة؛ محملين ببعض المال إلى عبيد الله المهدي. أنظر رسالة افتتاح الدعوة، ص: 197 ــ 198.

[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.

على عرش القيروان سنة 297هـ(909م)؛ سيجد ـ حتما ـ أن الأعباء العظمى في مسيرة قيام الدولة الفاطمية تمت ـ بالدرجة الأولى ـ بفضل سواعد الكتاميين. وعليه فلا بد من التنويه بفضل هذه القبيلة الأمازيغية في تشييد صرح الدولة الفاطمية، وفي تمهيد سلطانها ببلاد المغرب، بالإضافة إلى الفتوحات العظيمة التي أنجزتها في بلاد المشرق. فهذه القبيلة وضعت أبناءها، وأموالها في خدمة الدعوة الفاطمية؛ نتيجة لما تزودت به عصبيتها من شحنات ذات طاقة معنوية هائلة؛ استمدت من تعاليم المذهب الشيعي؛ ذي السمات الدينية والسياسية. وهنا تصدق ـ أيضا ـ نظرية ابن خلدون؛ التي شرحها ضمن: "**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**" و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] فالدعوة الدينية هنا عززتها عصبية فياضة وقوية؛ مشخصة في قبيلة كتامة؛ التي تبنت المذهب الشيعي، وتحملت أعباء قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي.

ومفاد ذلك كله أنه إذا تحققت نشأة هذه الدولة على أسس مذهبية، ودعوة دينية؛ قد تفوز بنفوذ واسع، وسلطان عريض، وملك عظيم؛ ولكن بشرط أن توجد عصبية قوية تقف وراء تنفيذ العمل العسكري والسياسي. وهكذا توافرت شروط نجاح الدولة الفاطمية بالمغرب. وعليه نرى أنه ـ إلى جانب الدعوة الدينية ـ انتصبت عصبية كتامة؛ بصفتها الكفيلة بتنفيذ تلك المهمة في الميدان؛ ومن هنا تكون هذه القبيلة هي الوصية الفعلية على قيام وسلامة الدولة الفاطميين

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 636. 638 ـ 642.

الفتية. لم لا..؟ أليس عبيد الله المهدي من أهل النصاب الملكي؟ لذا فهو جدير بالمساندة، والدعم؛ كما يمكنه ـ في هذه الحال ـ الاستغناء عن عصبيته الخاصة؛ لأنه سيجد عصبية أخرى مستعدة للانقياد إليه. وهذا هو الذي قصده ابن خلدون؛ ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1]

والدولة الفاطمية ـ مثلها مثل الدولة الإدريسية ـ جاءت نشأتها نتيجة لما وصلت إليه عصبية بني هاشم؛ من ضعف وانقسام. فبعد استفحال أمر بني العباس، وسعيهم لتصفية أبناء علي بن أبي طالب؛ التجأ هؤلاء إلى أقاصي البلاد وأطرافها؛ مستترين ـ خوفا وتقية ـ من أذى أبناء عمومتهم؛ بني العباس. فوجدوا في تلك المناطق النائية الأمن والأنصار معا. وقد عالج ابن خلدون هذه الظاهرة ضمن فصلين في مقدمته: "**فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين**" و"**فصل في كيفية طروق الخلل للدولة**".[2] وكما سبقت الإشارة إليه؛ فقد تم التوسع في شرح رأي ابن خلدون في هذا الموضوع ضمن دراسة مستقلة وضعتها تحت عنوان "العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية" حيث تبرز نظرية ابن خلدون هذه؛ الكيفية التي تسقط بها الدول؛ عندما يتسرب إليها الفساد. وكيف تبدأ الدولة بالتفكك؛ حينما يتنكر حاكمها لأهل عصبيته؛ فيسعى لإذلالهم، وتقليم أظافرهم. إذ يستشهد هذا العلامة بما حدث لعصبية بني عبد مناف؛ وهي عصبية مركبة؛ يجتمع فيها بنو هاشم وبنو أمية. حيث انقسمت هذه

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.

[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 859 ـ 862. 863 ـ 867.

العصبية المركبة، الجامعة؛ بين بني هاشم وبني أمية. ثم انقسمت عصبية بني هاشم بدورها إلى بني العباس وبني أبي طالب.

وهكذا تتضح سلامة استقراء ابن خلدون. فكما نشأت الدولة الإدريسية من جراء الاضطهاد والقمع؛ المسلطين على أبناء علي بن أبي طالب. فقد نشأت الدولة الفاطمية بدورها عقب قمع وتشريد بني أبي طالب أيضا؛ إذ لجأ أعضاء هذه الأسرة إلى التقية والتستر؛ إلى جانب سعيهم الحثيث في نشر دعوتهم بأطراف البلاد النائية؛ بواسطة دعاة أكفاء. وتبعا لذلك؛ قدم إلى بلاد المغرب أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم؛ ذلك الداعية الداعية الشيعي الفذ. جاء إلى بلاد المغرب بغرض نشر الدعوة الفاطمية الشيعية في تلك الديار؛ فانطلق بالعمل من وسط قبيلة كتامة؛ التي انقادت إليه؛ بعد أن وحد عشائرها؛ ضمن عصبية واحدة؛ متينة الأسس؛ معتمدا على فعالية التعاليم الدينية؛ التي أضفت عليها هالة من القدسية، والفخامة. واستطاعت هذه القبيلة ضم قبائل أخرى إلى صفوفها؛[4] كما سبق ذكره. وبعد فترة تمكنت من اكتساح دولة بني الأغلب. وهنا فتح الباب على مصراعيه؛ أمام قيام دولة الفاطميين؛ على أنقاض دولة الأغالبة. وتم هذا ببيعة عبيد الله المهدي عام 297هـ(909م) برقادة.

وجملة القول.. فقد حققت دولة الفاطميين ما لم تتمكن دولة الأدارسة من تحقيقه. فالعصبية المناصرة للدولة الفاطمية تفوق العصبية المنحازة للأدارسة بكثير. إذ كان لدولة الفاطميين أتباع عددهم لا يحصى؛ مكنوها

من التغلب على إفريقية والمغرب كافة؛ بل مدوا نفوذ هذه الدولة إلى بلدان المشرق أيضا؛ حيث شمل مصر والشام والحجاز. وفي حالات خاصة؛ وصل نفوذ الدولة الفاطمية إلى بغداد نفسها؛ إذ التهمت الدول المتواجدة في تلك الربوع كلها. فغدت الخلافة الفاطمية تزاحم الخلافة العباسية، وتهدد وجودها في عقر دارها. ومرد هذا ــ طبعا ــ يعود إلى ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها؛ على نسبة القائمين بها؛ من القلة والكثرة**".[1] ومن جهة أخرى يمكن ملاحظة صدق نظرية ابن خلدون؛ من خلال ما قرره ضمن: "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة؛ لا بالمناجزة**".[2] حيث صنف الدول المستجدة إلى صنفين: الصنف الأول؛ تنشأ الدولة فيه بالأطراف؛ التي تكون الدولة المستقرة عاجزة عن حمايتها. وهذا الصنف قاصر ومحدود الفعالية. وإذا تأملنا في أحداث الدولة الإدريسية يتبين لنا بأنها تمثل الصنف الأول هذا.

أما الصنف الثاني؛ فهو الذي يعتمد على الدعوة والدعاة؛ بغرض التعبئة المعنوية الموجهة سواء إلى الحلفاء أو الخصوم. ويتم ذلك ــ عادة ــ بأن يقوم أولئك الدعاة بنشر مفاهيم وأفكار تستند إلى أصول مذهب معين بأساليب جذابة ومثيرة للعواطف؛ عاملين كل جهودهم لكي تحققون الغرض المطلوب من خلال بث مؤثرات نفسية تلهب قلوب العامة، ومن خلال طرح حجج منطقية يمكنها أن تستميل الخاصة؛ ثم

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 644 ــ 646.
[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.

العمل بكل القوى على شحذ الهمم وبعث روح التضحية في النفوس، تشجيع المترددين وحثهم على العصيان والثورة؛ ضد كل ما هو قائم. ومن جهة أخرى يسعون بكل الوسائل الممكنة إلى نشر الإشاعات الهدامة في صفوف الخصوم، والعمل على تثبط هممهم، وتفكيك وحدتهم وتشتيت شملهم؛ بواسطة حملات نفسية مدمرة. وهذا الصنف الثاني ـ طبعا ـ يمكن اعتبار الفاطميين مثلا بارزا له.[1]

ـ حكومة عبيد الله بن أحمد بن الحسين المهدي:

اختلفت الأقوال حول المكان الذي ولد فيه عبيد الله المهدي؛ فمن قائل بأنه ولد بسلمية في أرض الشام ومن قائل أنه ولد ببغداد سنة 260هـ(873م). كان قد تولى الإمامة بعد موت والده أحمد **(أو محمد في بعض الأقوال)** بن الحسين؛ حيث بقي في **(عَسْكر مُكرَم)** والشام مختفيا؛ إلى أن اشتد البحث عنه من طرف العباسيين؛ خاصة بعد استفحال أمر الشيعة في المغرب واليمن؛ فاضطر عبيد الله ـ عندئذ ـ إلى الهروب مع ولده أبي القاسم نزار نحو مصر؛ وذلك قصد اتقاء شر الخليفة العباسي المكتفي؛ الذي أمر بالقبض عليه.

---

[1] حيث يقول ابن خلدون: ((وكذا العبيديون؛ أقام داعيتهم بالمغرب؛ أبو عبد الله الشيعي؛ ببني كتامة؛ من قبائل البربر؛ عشر سنين ويزيد؛ يطاول بني الأغلب بإفريقية؛ حتى ظفر بهم، واستولوا [أي العبيديون] على المغرب كله، وسموا إلى مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها؛ يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت؛ ويجيء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام؛ وملكوا الإسكندرية، والفيوم، والصعيد؛ وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز؛ وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر؛ واستولى عليها، واقتلع دولة طُغج من أصولها، واختط القاهرة؛ فجاء الخليفة بعدُ المعز لدين الله؛ فنزلها لستين سنة، أو نحوها؛ منذ استيلائهم على الإسكندرية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 876 ـ 877.

ولما حل بمصر في زي التجار أكمل طريقه نحو بلاد المغرب. ويبدو أنه قام بذلك تبعا لما سبق له؛ حيث استقبل رسلا من كتامة بعثهم الداعية الفاطمي أبو عبد الله؛ يبشره بما تحقق له من الفتح. ولما وصل إلى إفريقية اتجه جنوبا نحو سجلماسة؛ بعد أن أحس بكثافة عمليات البحث عنه. غير أن أمره انكشف في تلك المدينة؛ حيث قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار، وأودعه السجن؛ بعد أن وصله خطاب من الخليفة ببغداد ــ أو ابن الأغلب ــ يطلب منه ذلك. وظل في سجنه حتى أخرجه منه الداعية الشيعي أبو عبد الله؛ بعد أن تغلب على القيروان وأسقط دولة بني الأغلب؛ ثم زحف إلى سجلماسة؛ التي تغلب عليها هي الأخرى وقبض على أميرها اليسع. ويصف القاضي النعمان لحظة اللقاء بين الداعية والإمام بقوله: ((فخرج إليهم وجوه أهل المدينة [مدينة سجلماسة]... **ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي عليه السلام فاستخرجوه، واستخرجوا القائم [وهو أبو القاسم نزار بن المهدي]؛ فكانت في الناس مسرة عظيمة؛ استفزتهم وكادت تطيش لها عقولهم. وقرِّب لهما عليهما السلام فَرَسَان؛ فركباهما، وحف المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: "هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون"، ويحمد الله عز وجل ويشكره ويبكي من شدة الفرح؛ حتى وصل الإمام إلى فازة وقد فرشت له)).**[1]

وبعد أن تم للفاطميين تمهيد الوضع في سجلماسة، وبعد أن تمكنوا من القبض على اليسع بن مدرار

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 239 ــ 240.

وقتله؛ تحركوا نحو رقادة؛ مقر الملك في القيروان؛ وفي الطريق عرجوا على إكجان؛ حيث أخذوا ما كان مكنوزا بها من الأموال والذخائر؛ ثم رحلوا صوب القيروان؛ فحلوا برقادة يوم خميس من أيام ربيع الآخر سنة 297هـ(909م).[1] وبادر المهدي في اليوم الثاني من وصوله ــ أي يوم الجمعة ــ بإصدار أوامر مكتوبة إلى خطباء المساجد؛ موضحا فيها الصيغة التي يجب إتباعها في الدعاء له ولأهل البيت. وقد أوردٍ نص هذه الصيغة القاضي النعمان وهي: ((**اللهم فصل على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك؛ عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين؛ كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين؛ الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون؛ اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة وعمادا، ولبريتك موئلا وملاذا؛ فانصره على أعدائك المارقين، واشف به صدور المؤمنين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين؛ إله الخلق رب العالمين**)).[2] غير أن

---

[1] وقد وصف ابن عذاري لحظة وصول المهدي ومن معه إلى رقادة؛ حيث قال: ((وصل عبيد الله إلى مدينة رقادة؛ ومعه ابنه أبو القاسم، وجعفر بن علي الحاجب، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن؛ ولقيه الفقهاء ووجوه أهل القيروان؛ فدعوا له، وهنؤوه، اظهروا له السرور بأيامه؛ وسألوه تجديد الأمان لهم. فقال لهم: "أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم"؛ ولم يذكر الأموال؛ فعاوده بعضهم، وسألوه التأمين لهم في الأموال؛ فأعرض عنهم؛ فخافه أهل العقل من ذلك الوقت. ودخل رقادة وعليه ثوبُ خزٍّ أدكنُ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ وَرْدٌ؛ وأبو القاسم ابنه خلفه؛ عليه ثوبُ خزٍّ خلوقيٌّ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ أشقر؛ أبو عبد الله أمامِ عبيد الله؛ وعليه ثوبٌ توتيٌّ، وظهارةُ كتان، وعمامةٌ، ومنديلٌ اسكندرانيٌّ، وتحته فرسٌ كُميْت، وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه؛ والناس حواليه وبين يديه أقواط يسلمون عليه. فنزل عبيد الله في القصر المعروف بالصَّحن، ونزل ابنه بقصر أبي الفتح. وتسمى عبيد الله بالمهدي)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 158.

[2] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 249 ــ 250.

رأي ابن عذاري يخالف ما ذكره النعمان إذ يرى أن المهدي اتخذ بعض الإجراءات التي توضح تشيع عبيد الله بشكل متطرف، وينسب إليه العداء لبقية المذاهب السنية.[1] كما أن ما جاء في كتاب القاضي النعمان من أشعار مدح بها الشعراء المهدي؛ لا يؤخذ عليها بمكره؛ إلا أن ابن عذاري له نظرة أخرى إذ نسب إلى بعضهم شعرا – في مدح المهدي – يدخل في عداد النصوص المارقة الداعية للكفر.[2] وربما يدخل ما ذكره ابن عذاري وغيره من السنة في عداد الإشاعات التي سلطت على الفاطميين من باب الحملة النفسية المضادة.

---

[1] يقول ابن عذاري: ((وأقر على عمالة القيروان الحسن ابن أبي خنزير، وعلى القضاء بها المَرْوذي. وأمر أن تقلع من المساجد والمواجل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها؛ وكتب عليها اسمه. وأظهر عُبيد الله التشيع القبيح، وسب أصحاب النبي – صلعم – وأزواجه؛ حاشى علي ابن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري؛ وزعم أن أصحاب النبي – صلعم – ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين سميناهم. ومنع المروذي الفقهاء أن يفتي أحدهم إلا بمذهب زعم انه مذهب جعفر بن محمد؛ منه سُقوطُ الحِنث عمن طلق البتةِ، وإحاطة البنات بالميراث، وأشياء كثيرة يطول ذكرها)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 159 – 160. ويقول محمد الصنهاجي أيضا في هذا الباب: ((وكان من جملة ما أخذت عبيد الله أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان، وأمر بصيام يومين قبله، وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من أذان صلاة الصبح "الصلاة خير من النوم"، وزاد حي خير، محمد وعلي خير البشر العمل)). أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص: 27.

[2] من ذلك ما زعموا أنه لمحمد البديل الذي يقول (بسيط):

حَلَّ بِرَقَّادَةَ المَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا أَحْمَدُ المُصْطَفَى حَلَّ بِهَا الكَبْشُ وَالذَّبِيحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو المَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

ويضيف ابن عذاري قائلا: ((لعنه الله، وغضب عليه، وأخزى القائل والمقول فيه! وكانت إيمان كتامة أول دخولهم إفريقية: "وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا المهديّ برقادة"! حتى كتب بعضُ أحداث القيروان هذين البيتين؛ وتلطفوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم؛ وهي (مجتث):

الجَوْرُ قَدْ رَضِينَا لا الكُفْرُ وَالحَمَاقَةْ
يَا مُدَّعِي الغُيُوبِ مَنْ كَاتِبُ البِطَاقَةْ؟)).

البيان، ج: 1، ص: 160.

المهم أن عبيد الله المهدي بمجرد أن انتصب على سدة الحكم في رقادة ؛ ذلك الحكم الذي وجده جاهزا وممهدا؛ فإنه لم يترك لأنصاره الفرصة لكي يشاكوه في السلطان والحكم؛ إذ سارع إلى الانفراد بالحكم؛ وذلك بتعزيز مركزه، وإزاحة أبي عبد الله الشيعي من مكانته الهامة في الدولة. ولم يشفع له ما مقدمه للدولة وإمام الدولة من خدمات جليلة؛ لأنه في الحقيقة هو الذي أوصل المهدي إلى ذلك المركز المرموق؛ بعد أن أخرجه من سجنه بسجلماسة، وبعد أن طلب من القبائل المناصرة لدعوته بطاعة الإمام المنتظر؛ حيث قال لهم: ((**هذا مولاي ومولاكم، وولي أمركم، وإمام دهركم، ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر؛ قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده، وأيد حزبه وجنده**)).[1] وهنا يصدق رأي ابن خلدون أيضا حين كتب: "**فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد**"[2] إذ يرى أن ذلك يتم بعد أن يتحقق الملك لرئيس العصبية البارز بين الجميع؛ عندئذ يقتضي منه خلق الكبر والأنفة المسيطر عليه ـ وهذان الصفتان من خواص الطبيعة الحيوانية ـ إلى السقوط في الغيرة والحرص على الاستحواذ على ما اكتسبه؛ فلا يرضى بمشاركة غيره في ذلك المجد؛ الذي غدا بين يديه؛ وعليه يسعى إلى إبعاد الطامعين في المشاركة، والمزاحمين له في تحقيق المجد؛ ولما يصطدم بمقاومة ما أو أي اعتراض من طرف شركائه في الأمر؛ يحول اهتمامه إليهم، ويسلط آلة القمع والدمار ضدهم.

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 245.
[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 649 ـ 650.

لذا فلا غرابة أن يكون أول ضحايا القمع المسلط من المهدي هو معاونه وداعيته، وصاحب الفضل عليه أبو عبد الله الشيعي؛ إذ وصل به حد الانتقام إلى قتله؛ بعد عام من بيعته؛ أي في سنة 298هـ(910م). وكان الذي نفذ أمر المهدي في أبي عبد الشيعي هو رفيقه وتلميذه القائد الكتامي عروبة بن يوسف؛ ولما هم بتنفيذ الأمر بالقتل قال له أبو عبد الله الشيعي: ((**لا تفعل يا بني**))، فأجابه عروبة: ((**الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك**)).[1] ومن غرائب أمزجة الملوك ما قام به المهدي أيضا؛ إذ انه بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي بأمره؛ تولى بنفسه الصلاة عليه، ثم قال: ((**رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك خيرا بجميل سعيك**)).[2] ومن المفارقات أن يكون عروبة بن يوسف الملوسي ــ ذلك القائد الكتامي العظيم الذي ضرب به المهدي أبا عبد الله الشيعي ــ هو نفسه ضحية سخط وقمع المهدي؛ إذ لم يسلم حتى هو من الانتقام الملكي؛ إذ قتله المهدي بعد فترة قصيرة؛ مع أخيه حباسة ابن يوسف؛ ذلك القائد الذي فتح الإسكندرية.

هذا وقد حدثت ــ نتيجة لمقتل أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس، وأصحابه الكتاميين ــ بعض الثورات بين العشائر الكتامية؛ الناقمة والساخطة على المهدي؛ ولكن هذا الأخير استطاع إخماد ثورتهم، والتنكيل بهم؛ فعادوا إلى ديارهم بأرض كتامة؛ حيث أعلنوا العصيان من جديد، ونصبوا صبيا من بينهم؛ وهو كادو بن معارك المدعو بالماوطي؛ مدعين أنه المهدي المنتظر؛ بل يقال أنهم تطرفوا في ادعائهم؛

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 135. البيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.
[2] الكامل، ج: 6، ص: 135. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.

حتى أنهم زعموا أنه نبي.[1] ولم تدم هذه الثورة؛ إذ جرد المهدي جيشا بقيادة ولده أبي القاسم محمد بن عبيد الله، وكان جل أفراده من قبيلة كتامة؛ فأخمدوا تلك الفتنة. وبهذا يتضح بأن قبيلة كتامة لم تتأثر بذلك الانقسام؛ إذ سرعان ما عادت إلى الطاعة، وإلى خدمة الدولة الفاطمية. ويبدو أن المهدي قد شغلهم بالفتوحات شرقا وغربا؛ فتركوا المشاغبات؛ واتجهوا صوب الفوائد التي تأتيهم من الحروب الخارجية. وقد كانت أيام الدولة الفاطمية بالمغرب مشحونة بالحروب والفتن والثورات؛ الأمر الذي جعلها لا تهنأ بفترة من الاستقرار والهدوء. وأخطر الثورات على الإطلاق هي التي نشبت في عهد أبي القاسم القائم بأمر الله؛ خليفة المهدي؛ وهي ثورة الخوارج؛[2] بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار؛ إذ كادت هذه الثورة أن تقضي على الدولة الفاطمية نهائيا؛ لولا الانقسامات التي حدثت في صفوف القبائل الثائرة.

هذا ولم يهنأ عبيد الله طويلا؛ إذ انشغل بعض الوقت في إخماد ثورات عديدة قامت هنا وهناك؛ مثل ثورة الكتاميين بالقيروان، وثورتهم كذلك ببلادهم خلف الصبي المدعو كادو بن معارك، وثورة في صقلية بقيادة ابن وهب، وثورة أخرى بصقلية كذلك بقيادة أحمد ابن زيادة الله بن قرْهب وثورة في تيهرت قامت بها جماعة من قبيلة زناتة، وثورة هوارة بطرابلس بقيادة أبي هارون الهواري، وثورة أهل طرابلس

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 273. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 166 ـ 167.
[2] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 277 ـ 279. وأخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 29 ـ 34. والبيان المغرب، ج:1، ص ص: 216 ـ 220. والعبر، مج:4، ص ص: 84 ـ 93. مج: 7، ص ص: 26 ـ 35. واتعاظ الحنفا، ص ص: 109 ـ 125.

أيضا بقيادة محمد بن إسحاق المعروف بابن القرلين وعصيان من طرف زناتة ولماية. هذا بالإضافة إلى الحملات العسكرية التي قام بها أبو عبد الله الشيعي المغرب الأوسط، وما قام به أبو القاسم بن المهدي من حملات أيضا ضد قبائل عديدة هنا وهناك.

ولم يكن هدف الفاطميين هو الاكتفاء بتشييد دولة لهم ببلاد المغرب فحسب – كما كان الحال بالنسبة للأدارسة – بل كانوا يتخذون من دولتهم بالمغرب خطوة تكتيكية؛ في سبيل تحقيق هدف استراتيجي؛ وهو الإطاحة بالخلافة العباسية، وقيام دولتهم بدلا منها. لذا فقد شرع المهدي منذ سنة 301هـ(913م) في غزو مصر. وكانت أولى خطوات تمت في هذا السبيل؛ هي أوامره بخروج حباسة بن يوسف في أسطول نحو مصر؛ حيث احتل المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ مثل سرت وإجدابية وبرقة؛ كما اشتبك مع جيش قدم من المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ فانتهى السجال بينهما أخيرا بهزيمة جيش مصر. ثم تقدم إلى الإسكندرية بحرا؛ حيث تغلب عليها. وبعد ذلك تقدم حباسة نحو مصر؛ أين فتح بعض الحصون هناك؛ إلى أن لحق به أبو القاسم بن عبيد الله في جيش عظيم؛ فاحتل الإسكندرية سنة 302هـ(914م)؛ ثم تقدم أبو القاسم إلى الفيوم؛ أين عسكر بها.[1] وهناك وصلته الأخبار بوصول القائد العباسي مؤنس الخادم إلى مصر بغرض محاربة جيش الفاطميين. عندها أرسل أبو القاسم إلى حباسة يطلب منه الالتحاق به، وتسليم أمر الجيش إلى أبي فريدن؛ فغضب حباسة بسبب ذلك؛ وقال: ((لما

---

[1] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 147. واتعاظ الحنفا، ص ص: 98 – 100. والنجوم الزاهرة، ج: 3، ص ص: 172 – 173، 186 – 187، 196.

أشرفت على أخذ البلد؛ يفوز أبو فريدن بخيره وذكره)).[1]وكان رد فعله أنه عاد مع مجموعة صغيرة إلى المغرب.[2] وكانت هذه ضربة شديدة ثبطت عزيمة أبي القاسم؛ فعاد أدراجه إلى القيروان؛ فانتهز الفرصة مؤنس الخادم فأغار على خلفيات الجيش الفاطمي وساقته.[3] ويرى ابن الأثير هنا أن الجيش الفاطمي تكبد خسائر كبيرة. ثم عاود المهدي في سنة 303هـ(915م) الكرة؛ حيث أمر بإرسال جيش آخر بقيادة أبي مدين ابن فروخ لجس النبض في الحدود المصرية؛ فاحتل برقة في سنة 304هـ(916م)؛ بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا.

ولم يقتصر اهتمام عبيد الله المهدي بمصر والمشرق فحسب؛ بل اهتم ــ في الوقت ذاته ــ بالمناطق الغربية أيضا؛ حيث جرد جيشا بقيادة أمير تيهرت مصالة بن حبوس المكناسي لفتح البلاد الغربية الخاضعة للدولة الإدريسية، وإمارة بني صالح في نكور. وبالفعل فقد تحقق ما كان يرجوه عبيد الله المهدي من تلك الحملة؛ إذ تمكن مصالة من التغلب على مناطق شاسعة في المغرب الأقصى؛ بدولها وقبائلها؛ مثل نكور التي احتلها في سنة 305هـ(917م)؛ وفاس حاضرة الدولة الإدريسية؛ بعد أن أجبر ملكها الإدريسي يحيي بن إدريس بن عمر إلى تقديم الطاعة إلى المهدي إمام الدولة الفاطمية.

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 173.

[2] وكانت هذه الحادثة هي السبب في عصيان حباسة وأخيه عروبة؛ إذ خرجا عن طاعة الدولة ؛ فانتهى أمرهما إلى الإعدام.

[3] تختلف رواية ابن الأثير عن رواية ابن عذاري؛ إذ يرى ابن الأثير أن الذي اشتبك مع مؤنس الخادم هو حباسة؛ ولم يشر إلى أبي القاسم بن عبيد الله. الكامل، ج: 6، ص: 149.

وفي سنة 306هـ(918م) جهز المهدي ولده أبو القاسم ابن عبيد الله وأمره بالزحف ـ مرة ثانية ـ نحو مصر في جيش ضخم من كتامة وبعض قبائل إفريقية؛ فانطلق الجيش عن طريق البر؛ فتغلب على برقة؛ ثم تقدم إلى الإسكندرية فدخلها؛ وتقدم إلى الجيزة؛ فاحتل الأشمونيين وجزء كبير من الصعيد. ثم شحن عبيد الله أسطولا بحريا ـ مشكلا من ثمانين مركبا ـ نحو مصر؛ لدعم ولده أبي القاسم؛ بقيادة يعقوب الكتامي وسليمان الخادم. وبالمقابل بعث الخليفة العباسي مؤنس الخادم برا، وأسطولا من طرسوس ـ مشكلا من خمسة وعشرين مركبا ـ لمواجهة جيوش الفاطميين. وانتهت الحرب بهزيمة الجيوش الفاطمية؛ التي فتكت بها الأمراض والأوبئة.[1]

ومن طرائف بعض المؤرخين أنهم عللوا زحف أبي القاسم بن عبيد الله نحو مصر والمشرق؛ بأنه لم يكن سوى رد انفعالي على استفزاز العباسيين؛ بعد أن أمر الخليفة العباسي المقتدر ـ كما قالوا ـ الشاعر محمد بن يحيى المعروف بالصولي بأن يكتب قصيدة إلي أبي القاسم بن المهدي؛ ردا على قصيدة كان قد أرسلها إليه أبو القاسم؛ مفتخرا بما فتح الله عليه؛ ومن قصيدة الصولي هذا البيت:

فَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِثَالاً لِطَائِرِ
لَكَانَ لَكُمْ مِنْهَا بِمَا حُزْتُمَ الذَّنَبُ

من بين أولئك المؤرخين المقريزي؛ الذي يكمل حديثه فيقول: ((**فحرك همته** [أي همة أبي القاسم] **هذا البيت؛ فقال: "والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر**

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 161. واتعاظ الحنفا، ص ص: 103 ـ 104. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 181 ـ 182.

ورأسه – إن قدرت – وإلا أهلك دونه". وكابد على ديار مصر من الحروب أهوالا، ومات ولم يظفر بها؛ وأوصى ابنه المنصور... وكان الظافر بها المعز)).[1]

وحتى أن صحت حكاية هذه القصيدة؛ فلا يمكن أن يقوم المهدي وولده أبو القاسم بشن حرب على دولة بني العباس امتدت زمنيا بعشرات السنين، وكلفت الدولة آلاف الأرواح، وأموالا لا تحصى؛ لا لشيء سوى أنه أصر – بعناد ونكاية في القادر العباسي – أن يستولي على صدر الطائر ورأسه..!! فهذا التعليل فيه كثير من الأصباغ الأسطورية ما يضحك. أما الحقيقة فتكمن في الرغبة الجامحة لدى الفاطميين للإطاحة بالخلافة العباسية – التي يرون فيها دولة مغتصبة لحقوق العلويين – حتى يتسنى لهم إقامة الخلافة الفاطمية العلوية الشرعية في نظرهم.

وبعدها انشغل عبيد الله المهدي بتطويع القبائل المنتشرة في المغربين الأوسط والأقصى؛ كزناتة ومكناسة وهوارة ونفوسة وفي هذا يقول ابن خلدون: ((واضطرب المغرب؛ فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازيا إلى المغرب في عساكر كتامة أولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة؛ ففر محمد بن خزر [الزناتي] وأصحابه في الرمال. وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة، وسائر الإباضية والصفرية، ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها؛ ثم عاج إلى الريف؛ فافتتح بلد نكور من ساحل المغرب الأوسط(!) ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش، وضيق عليه، ودوخ أقطار

---

[1] اتعاظ الحنفا، ص: 99.

المغرب؛ ورجع ولم يلق كيدا)).[1] وفي سنة 322هـ(933م) توفي عبيد الله المهدي؛ بعد أن حكم الدولة الفاطمية ببلاد المغرب مدة أربع وعشرين سنة؛[2] فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته مدة من الزمن قيل أنها وصلت إلى السنة تقريبا؛ بينما يقول أبي عبيد الله محمد الصنهاجي أنها لم تتجاوز الشهر؛ وذلك خوفا من حدوث فتنة أو بعض الاضطرابات[3].

ـ <u>حكومة القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبيد الله</u>:

ثمة من يقول أن اسمه عبد الرحمن أو نزار وليس محمدا. وتلقب من ألقاب الخلافة بلقب القائم بأمر الله. وولد هو الآخر في سلمية بأرض الشام؛ وقدم إلى المغرب رفقة والده؛ حيث تعرض لنفس الظروف التي عرفها والده؛ من خوف وتستر وسجن ..الخ. تولى شئون الدولة بعد ممات والده؛ دون أن يعلن موته في بداية الأمر؛ خوفا من حدوث فتن. ولم يعلن نبأ وفاة والده حتى تمكن من الأمر،[4]

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 82.

[2] قال محمد الصنهاجي: ((وتوفي عبيد الله يوم الإثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة 322هـ؛ وكسف القمر في تلك الليلة كسوفا كليا (؟!). وعمره اثنتان وستون سنة ـ أو ثلاث وستون ـ وكانت وفاته من دواء سقاه إياه ابن الجزار؛ يقال أنه حب (السورنجان)؛ لنقرس كان يشكوه؛ وكان إسحاق الإسرائيلي نهاه عنه، وأعلمه أنه يجد على إثره إفاقة، ثم يشتد عليه. وقد يتسبب في هلاكه. فلم يقبل منه قوله؛ لشدة ما يجده؛ فوجد تلك الإفاقة ثم مات)) أخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 26 ـ 27.

[3] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 27. والكامل، ج: 6، ص: 238.

[4] قال ابن عذاري: ((ولم يركب أبو القاسم طول إمارته بمظلة. فقام بسيرة أبيه، واظهر من الحزن عليه ما لا يعهد لمثله، وواصل الحزن لفقده، وأدامه من بعده؛ فما ركب دابة من باب قصره منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين. وافتتحت في أيامه مدائن كثيرة من مدائن الروم بصقلية، وثار عليه عدة ثوار؛ فأمكنه الله منهم)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 208 209.

وقبض دفة التسيير بيد ثابتة.[1] ومع هذا فقد وقع ما كان يتوجس منه؛ إذ أنه ما أن أعلن وفاة والده حتى اشتعلت بعض الثورات في عدة جهات؛ كانت أبرزها ـ آنئذ ـ هي الثورة التي قام بها في نواحي طرابلس شخص يدعى ابن طالوت القرشي؛ إذ ادعى أنه ابن المهدي؛ غير أن أمره كشف، واتضح للناس كذبه؛ فقتله من كان في تلك الجهات من الأمازيغ. كما أرسل أبو القاسم جيشا بقيادة ميسور الفتى إلى النواحي الغربية بغرض إخضاع؛ حيث دخل إلى نكور وفاس. ومن جهة أخرى فإنه لم ينس الهدف الرئيسي لوالده؛ وهو فتح الديار المصرية؛ لذا فقد جهز جيشا بقيادة خادمه زيدان فدخل الإسكندرية أيضا؛ ولكنه انهزم في الأخير أمام جيش الإخشيد.[2]

وفي سنة 333هـ(944م) اشتدت الثورة الخارجية في المغرب الأوسط وإفريقية ضد الدولة الفاطمية تلك الثورة التي كان يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الخارجي؛ المعروف بصاحب الحمار. وكانت هذه الثورة أعنف الثورات وأعتاها على الدولة الفاطمية؛ حتى كادت أن تسقطها نهائيا؛ لولا ضربات من الحظ أنقذتها. وقد انهزمت أمامه جيوش الفاطميين مرات عديدة؛ حتى أن القائم بأمر الله نفسه اضطر

---

[1] يقول ابن الأثير: ((ولما توفي [أي عبيد الله] ملك بعده ابنه أبو القاسم محمد؛ وكان أبوه قد عهد له. ولما أظهر وفاة والده كان قد تمكن، وفرغ من جميع ما أراده، واتبع سنة أبيه. وثار عليه جماعة فتمكن منهم؛ وكان من أشدهم رجل يقال له: ابن طالوت القرشي؛ في ناحية طرابلس؛ وزعم انه ولد المهدي؛ فقاموا معه، وزحف إلى مدينة طرابلس؛ فقاتله أهلها؛ ثم تبين للبربر كذبه؛ فقتلوه، وحملوا رأسه إلى القائم)). الكامل، ج: 6، ص: 238.

[2] الكامل، ج: 6، ص : 238.

إلى الفرار أمامه من رقادة إلى المهدية.[1] ويعود – في الحقيقة – ظهور أبي يزيد في الساحة المذهبية إلى عهد عبيد الله؛ وبالتحديد إلى سنة 316هـ(928م)؛ إلا أنه كان يقتصر – في نشاطه – على الدعوة باللسان؛ دون اللجوء إلى السلاح. ولما مات عبيد الله خرج للعلن؛ رافعا لواء العصيان المسلح ضد الدولة الفاطمية. وبقي يكيل لجيوش الدولة الهزيمة تلو الهزيمة؛ ولم يترك لأبي القاسم فرصة لاسترداد أنفاسه؛ وحصره مدة طويلة في المهدية؛ دون أن يجد سبيلا لفك ذلك الحصار الذي أنهك أهل المدينة، وأوصلهم إلى حافة الهلاك جوعا.[2] بل مات أبو القاسم في الوقت الذي كان فيه أبو يزيد محاصرا لسوسة.[3] ولم تتمكن الدولة الفاطمية من أبي يزيد إلا بعد أن انفضت عنه القبائل الزناتية التي كانت تناصره؛ بعد أن انحرف عن الطريق السوي،[4]

---

[1] قال ابن عذاري: ((وكان أبو يزيد أحد أئمة الإباضية النكار بالمغرب. قال الرقيق: "وقرأ على عمار الأعمى. وكان يركب الحمار. وتسمى شيخ المؤمنين." قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنوده، وقام المسلمون معه." وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه؛ سماهم ابن سعدون في كتابه رجلاً رجلاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 – 217.

[2] يقول ابن خلدون: ((واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي؛ ولم يبق بها إلا الجند. وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي، وفرقها فيهم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

[3] قال ابن خلدون: ((ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخر من سنته [يقصد هنا سنة 334هـ وهذا يخالف التاريخ الذي ذكره ابن عذاري]؛ وبها عسكر القائم؛ وتوفي القائم وهو بمكانه [يقصد أبا يزيد] من حصارها)). العبر، مج: 4، ص: 89. أما ابن عذاري فيقول: ((وفي سنة 335هـ وصل أبو يزيد إلى المهدية. ثم نهض إلى سوسة؛ فناوشه أهلها؛ فقيل فيه (وافر):

أَلَمَّ بِسُوسَةَ وَبَغَى عَلَيْهَا   وَلَكِنَّ الإِلَهَ لَهَا نَصِيرُ

[4] يقول ابن خلدون: ((ثم انتقض البربر عليه [أي على أبي يزيد] بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات، والمنافسة بينهم؛ فانفضوا عنه؛ ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين [وثلاثمائة]. وغنم أهل المهدية معسكره؛ وكثر عبث البربر في أمصار إفريقية وضواحيها؛ وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

وبعد أن شعرت تلك القبائل مدى الخطورة هذا الرجل لو استولى على الحكم. وبذلك انتهى أمره إلى الأسر والقتل.[1]

ـ حكومة المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله:

ولد المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بالمهدية سنة 299هـ(911م) أو سنة 302هـ. ولما تولى الحكم ـ خلال المحنة التي مرت بها الدولة الفاطمية جراء حصار أبي يزيد لها ـ قام هو بدوره بإخفاء خبر موت والده القائم بأمر الله؛ خوفا من تثبيط عزائم أنصاره وجيوشه من جهة؛ وتشجيع أبي يزيد ـ الذي كان أمره قد استفحل في تلك الأثناء ـ من جهة أخرى؛ حيث كان يقف على أبواب سوسة محاصرا إياها. لذا فقد التزم بكتمان خبر موت والده: **((فلم يُسمَّ بالخليفة، ولا غيَّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود إلى أن فرغ من أبي يزيد))**.[2] وكان المنصور يتمتع بعزيمة فولاذية، وشجاعة ملحوظة؛ ويبدي عند الحاجة إصرارا شديدا؛ في سبيل تحقيق أهدافه. وكان فصيح اللسان وخطيبا موهوبا؛ إذ يتمتع بقدرة على إنشاء وارتجال الخطبة حاضرا.

ومن أهم الأعمال التي قام بها بعد موت أبيه هي المبادرة بإرسال الإمدادات إلى سوسة بحرا؛ في أسطول محمل بالمقاتلين والأسلحة والأمتعة والميرة؛ فكانت هذه الخطوة الجريئة والحازمة منه سببا في هزيمة أبي يزيد، وفك الحصار عن المدينة؛ حيث

---

[1] قال ابن خلدون في موت أبي يزيد: ((ثم هلك من الجراحة التي به؛ فأمر [المنصور إسماعيل] بسلخ جلده، وحشوه تبنا، واتخذ له قفصا؛ فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه)). العبر، مج: 4، ص: 93.

[2] العبر، مج: 4، ص: 89.

خرج إليه أهلها مع المدد الذي جاءهم؛ فانهزم أبو يزيد أمامهم.[1] ولم يترك المنصور هذه الفرصة تفوت؛ إذ واصل ضغوطه المتتالية على أبي يزيد في كل مكان، وتابع تحركاته أينما سار حتى تمكن من القبض عليه أخيرا في جبل كيانة بالقرب من المسيلة؛ حيث وضع في قفص ونقل إلى المهدية. ويقال أنه سلخ لما مات وحشي جلده تبنا؛ ووضع مع قرد في قفص. وفي هذا يقول أحد الشعراء:

أمَّا النفاق فقدْ نسَخْ ... وَأبُو الكبَائر قدْ سُلِخْ
كانَ الفويسِقُ مخلدٌ ... قرْداً ولكنْ قدْ مسِخْ
لوْ قدْ رَأيتَ محلهُ ... وَبنو الحداينة تَصْطرِخْ
لرَأيتَ مَا عَقدَ اللعِيـ ... ـنُ بلُطفِ رَبكَ قَدَ فسِخْ

وقال أحدهم في أخرى:

... فسَلخَتهُ مِنْ جِلدِهِ ... وَحَشوَتهُ حَشْوَ المَزَاوِدْ
وَضَرَبتهُ مَثلاً يَسِيـ ... ـر فِي الأقارِبِ وَالأبَاعِدْ
وَرَدَتْ بهِ أطمَاعهُ ... وَظنُونهُ شرًّ المَوَارِدْ

وزحف المنصور نحو تيهرت ـ بعد القبض على أبي يزيد ـ حيث ضبط الأمور بها؛ وانتقم من الخارجين عن طاعة الدولة الفاطمية؛ الأموات[2] منهم والأحياء. وكذلك الحال في القيروان؛ إذ نقل ابن عذاري

---

[1] وفي سوسة يقول أحد شعرائها آنئذ وهو أحمد بن افلح:

ألمْ بسُوسَة وَبغَى عَليْهَا ... ولكِنَّ الإلهَ لهَا نصِيرُ
مَدِينة سُوسَةَ لِلمَغرْب ثغرٌ ... يَدِينُ لها المَدَائِنُ وَالثُّغورُ
لقدْ لعِنَ الذينَ بَغَوْا عَليهَا ... كَمَا لعِنتْ قُرَيْضَة وَالنَّضِيرُ
أعَزَّ الدِّينَ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ ... بِسُوسَة بَعدَمَا التوَتِ الأمُورُ

[2] قال محمد الصنهاجي: ((ثم انصرف إسماعيل إلى المسيلة، وتوجه منها إلى تاهرت يوم الثلاثاء، لست بقين من صفر من هذه السنة؛ فلما وصل إليها أمر بنبش عظام مصالة وفضل ابني حبوس، وأحرقها بالنار، وأحرق منبر جامعها؛ لكونه خطب عليه لعبد الرحمن بن محمد (الخليفة الناصر الأموي) وأقام بها أياما وولى عليها)). أخبار ملوك بني عبيد، ص: 45.

عن ابن حمادوه خبر عمليات التنكيل التي سلطها المنصور على بعض سكان القيروان.[1] ومن إنجازات المنصور العمرانية تشييده لمدينة صبرة التي سماها المنصورية؛ حيث أمر بالبدء في بنائها سنة 336هـ(947م)؛ إذ انتقل إليها تاركا المهدية، التي تهدمت جل أحياؤها.

ومما نسب للمنصور أيضا سعيه لإعادة الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة؛ بعد أن انتزعه منها القرامطة. وهنا يظهر هذا الخبر مغلفا بكثير من الغموض والاضطراب؛ إذ يزعم بعض المؤرخين أن المنصور انتقل بنفسه للمشرق لإعادة الحجر الأسود إلى موضعه؛ بينما يرى آخرون أن القرامطة هم الذين أرجعوه بأنفسهم بعد أن هددهم المنصور؛ ومنهم أيضا من أشار لموضوع إعادة الحجر دون التطرق لدور الفاطميين في ذلك.[2] والخلاصة أن وفاة إسماعيل المنصور حدثت في سنة 341هـ(952م)؛ بينما كان في عز شبابه؛ إذ لم يتجاوز عمره آنئذ تسع وثلاثين سنة. ويقال أن سبب موته هي قرحة في كبده؛ تسببت في حدوث إسهال شديد لديه؛ فتوفي نتيجة لذلك الإسهال الحاد.

---

[1] قال ابن عذاري: ((وقال ابن حمادوه: "ولما ظفر بأبي يزيد؛ نهض إلى القيروان؛ فدخلها في هذه السنة؛ فقتل من أهلها خلقا، وعذب آخرين؛ ولم يزالوا معه في الامتحان إلى أن هلك")). البيان المغرب، ج: 1، ص: 220.

[2] يقول ابن عذاري: ((وفي سنة 339 تحرك أبو طاهر المنصور بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى بلاد المشرق، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام؛ وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المُطِيع. وكان الذي اقتلعه سليمان ابن الحسن القرمطي ـ لعنه الله ـ في سنة 317؛ في أيام المقتدر العباسي ـ رحمه الله ـ والذي تولى قلعه بيده بأمر القرمطي جعفر بن أبي علاج ـ لعنه الله ـ ولما مات القرمطي؛ وجه اخوته الحجر؛ فرد إلى موضعه في هذه السنة؛ ووضعه بيده حسين بن المروذي الكناني)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 220. غير أن أقوالا أخرى تخالف هذا الرأي؛ وردت في الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 335.

ـ حكومة المعز لدين الله معد بن إسماعيل:

خلف المعز لدين الله والده إسماعيل في سدة الملك بإفريقية وبلاد المغرب سنة 341هـ(952م) كما جاء في أشهر الأقوال. وكان مولد هذا الخليفة بالمهدية سنة 319هـ(931هـ) ولما ولي الخلافة كان عمره في حدود اثنين وعشرين سنة. ويعتبر المعز من أشهر الخلفاء الفاطميين على الإطلاق؛ إذ شاع ذكره في العالم الإسلامي؛ نظرا لكونه أول من تغلب على مصر بالكامل، ونقل مركز الخلافة الفاطمية إليها. وتقول المصادر التاريخية أنه بدأ عهده في سنة 342هـ(953م) بالخروج إلى جبل أوراس في جيش عظيم؛ بغرض تأديب وإخضاع من بقي متمردا عن الدولة؛ من أتباع أبي يزيد. فسلط غضبه على قبيلتي: هوارة ومليلة المنحازتين ـ سابقا ـ إلى أبي يزيد؛ ولم تثنهم موته عن مواصلة العصيان، والخروج عن طاعة الدولة الفاطمية. وبعد أن حقق المعز هدفه نحو الخوارج ـ من بقايا أنصار أبي يزيد ـ اتجه صوب المغرب الأقصى؛ حيث بعث إلى تلك الديار سنة 347هـ(958م) خادمه الوفي ـ الذي بدأ نجمه يسطع؛ جوهر الكاتب ـ قصد تطويع القبائل المتمردة من زناتة ومكناسة وغيرهما.[1]

[1] قال المقريزي في تلخيص لخبر ابن الأثير: ((وفي سنة سبع وأربعين عظم أمر أبي الحسن جوهر عند المعز، وعلا محله، وصار في رتبة الوزارة؛ فسيره في صفر منها على جيش كثيف؛ فيهم الأمير زيري بن مناد الصنهاجي وغيره؛ فسار إلى تاهرت، وحارب قوما وافتتح مدنا، ونهب وأحرق، وسار إلى فاس؛ فنازلها مدة، وسار إلى سجلماسة؛ وقد قام بها رجل وتلقب بالشاكر، وخوطب بأمير المؤمنين؛ ففر من جوهر؛ فتبعه حتى أخذ أسيرا. ومضى جوهر إلى البحر المحيط؛ فأمر أن يُصاد من سمكه، وبعثه في قلال إلى المعز؛ وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها، ثم عاد فقاتل أهل فاس حتى افتتحها عنوة، وقبض على صاحبها، وجعله مع=

وفي سنة 355هـ(965م) شرع المعز لدين الله في التمهيد للعمل الهام الذي شغله وحلم به هو آبائه منذ قيام دولتهم؛ ويتمثل ذلك الحلم في السعي بدون كلل للاستيلاء على مصر؛ التي ستكون خطوة أمامية في سبيل إسقاط الخلافة العباسية ببغداد، وقيام الدولة الفاطمية بدلا منها. وعليه فقد أمر بالشروع في حفر آبار الماء بين مصر وإفريقية؛ وكما أمر أن يبنى له عدة قصور على طول الطريق؛ فنفذ ما أمر به. وفي تلك السنة بالذات وصل خبر وفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر؛ فازداد المعز لهذا عملا وإصرارا في سبيل تحقيق حلمه؛ فبادر إلى جمع المال والعتاد اللازمين للمهمة الكبرى؛ ويقال أنه خصص سنة 357هـ(967م) للحملة المقبلة على مصر مبلغا من المال يقدر بأربعة وعشرين ألف دينار؛ ووضعت كلها تحت تصرف القائد الفاطمي جوهر الصقلي.[1] وتحرك الجيش الفاتح من القيروان نحو مصر يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة؛ فوصل إلى مصر في يوم الثلاثاء ثامن عشر شعبان من السنة نفسها.[2] وقال محمد بن هاني الأندلسي مودعا الجيش ومادحا جوهر الكاتب في قصيدة طويلة نذكر منها:

رَأيتُ بعيني فوقَ مَا كنتُ أسمعُ
وَقدْ رَاعني يومٌ مِنَ الحشرِ أرْوَعُ
غداة كأنَّ الأفقَ سدَّ بمثلهِ
فَعادَ غرُوبُ الشمْسِ مِنْ حَيثُ تَطلعُ

=صاحب سجلماسة في قفصين، وحملهما إلى المعز بالمهدية، وعاد في أخريات السنة)). اتعاظ الحنفا، ص ص: 134 ــ 135.

[1] اتعاظ الحنفا، ص ص: 138 ــ 139.

[2] النجوم الزاهرة، ج: 4، ص: 28.

فلم أدرِ إذْ سلمتُ كيفَ أشيعُ
وَلَمْ أدرِ إذْ شيعتُ كيفَ أودِّعُ

وكيفَ أخوضُ الجيشَ وَالجَيشُ لجَّةٌ
وَإنِّي بمنْ قدْ قادَهُ الدَّهرُ مُولعُ

وَأينَ وَمَا لي بَينَ ذَا الجَمعِ مَسْلكٌ
ولاَ لجوَادِي فِي البسيطةِ مَوْضِعُ

ألاَ إنَّ هذَا حَشدُ مَنْ لمْ يذُقْ لهُ
غِرَارَ الكرَى جَفنٌ ولاَ باتَ يَهجعُ

نَصيحَتهُ للمُلكِ سَدَّتْ مَذاهِبي
ومَا بَينَ قيدِ الرُّمْحِ وَالرُّمحِ إصْبعُ

فقدْ ضَرعَتْ منهُ الرَّوَاسِي لمَا رَأتْ
فكيفَ قلوبُ الإنسِ وَالأنسُ أضْرَعُ

فلاَ عَسْكرٌ مِنْ قبلِ عَسْكرِ جَوْهرٍ
تخبُّ المَطايا فِيهِ عَشراً وَتُوضِعُ

تَسيرُ الجبالُ الجامِدَاتُ بسيرِهِ
وَتسجدُ مِنْ أدنَى الحَفيفِ وَتركَعُ

إذَا حلَّ فِي أرْضٍ بَناهَا مَدَائناً
وَإنْ سَارَ عَنْ أرْضٍ ثوَتْ وَهيَ بَلقعُ

إلى أن يقول:

وَنودِيَ بالترْحَالِ فِي فَحمةِ الدُّجَى
فَجَاءَتهُ خيلُ النَّصْرِ ترْدِي وَتَمزَعُ

فلاَحَ لهَا مِنْ وَجْههِ البدْرُ طالعاً
وَفِي خدِّهِ الشعرَى العبورُ تَطلعُ

وَأضْحَى مردًّى بالنجادِ كأنهُ
هِزَبرُ عَرِينٍ ضَمَّ جَنبيهِ أشجعُ

فكبرَتِ الفرْسَانُ للهِ إذْ بدَا
وَظلَّ السِّلاَحُ المُنتضَى يَتقعْقعُ

ثم أضاف:

فَسِرْ أيها الملكُ المطاعُ مُؤَيداً
فلِلدِّينِ وَالدُّنيا إليكَ تطلعُ

وَقدْ أشعرَتْ أرْضُ العِرَاقينِ خِيفةً
تكَادُ لهَا دَارُ السَّلامِ تضَعضعُ

وَأعطتْ فِلسْطِينُ القِيادَ وَأهلُها
فلمْ يبقَ مِنها جَانبٌ يَتمَنعُ

وَمَا الرَّمْلةُ المَقصُورَةُ الحَظْوِ وَحْدَهَا
بأوَّلِ أرْضٍ مَا لهَا عَنكَ مَفزَعُ

وَمَا ابْنِ عُبَيْدَ اللهِ يَدْعوكَ وَحدَهُ
غدَاةَ رَأى أنْ ليسَ فِي القوْسِ مَنزَعُ

بَلِ الناسُ، كلُّ الناسِ يَدْعُوكَ، غيْرَهُ،
فلاَ أحدٌ إلاَّ يذِلُّ وَيخضعُ

وَإنَّ بأهلِ الأرْضِ فقراً وَفاقةً
إلَيكَ وكلُّ الناسِ آتيكَ مهطعُ

ألاَ إنمَا البُرْهَانُ مَا أنتَ مُوضِحٌ
مِنَ الرَّأيِ وَالمِقدَارُ مَا أنتَ مُزْمِعُ

رَحَلتَ إلَى الفسْطاطِ أيمنَ رِحْلةٍ
بأيمنِ فالٍ فِي الذِي أنتَ مُجْمِعُ

وَلمَّا حَثثتَ الجَيْشَ لاحَ لأهلِهِ
طريقٌ إلَى أقصَى خرَاسَانَ مَهيعُ

ثم قال:

وَمَا جهلتْ مِصْرٌ وَقدْ قِيلَ مَنْ لهَا
بأنكَ ذَاكَ الهِبرِزِيُّ السميذَعُ

وَأنكَ دُونَ الناسِ فاتحُ قفلِها
فأنتَ لها المرْجوُّ وَالمُتوَقعُ

فَإنْ يَكُ فِي مِصْرٍ رِجَالٌ حُلُومُهَا
فقدْ جَاءَهُمْ نِيلٌ سِوَى النيلِ يَهْرَعُ
وَيَمَّمَهُمْ مَنْ لاَ يَغِيرُ بِنِعْمَةٍ
فَيَسْلُبَهُمْ لَكِنْ يَزِيدُ فَيُوسِعُ

ويبدو أن الذي شجع المعز لإرسال جيشه إلى مصر هو ما أصبحت عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في مصر بعد موت كافور؛ إذ يقال أن بعض المصريين قد بعثوا إليه مستنجدين به، ومحفزين إياه لفتح البلاد، وطرد الاخشيذيين.[1] ولما أصبحت مصر في يد الفاطميين؛ بادر جوهر من يومه الأول إلى رفع الدعوة في المنابر باسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي؛ كما ألزم المؤذنين بإتباع نص الأذان المتبع عند الشيعة؛ وأمر بترك شعار

[1] قال يوسف بن تغري بردي: ((كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيذي؛ لما قام على مصر أحمد بن علي بن الإخشيذ وهو صغير؛ فصار ينوب عنه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، والوزير ـ يمئذ ـ جعفر بن الفرات؛ فقلت الأموال على الجند؛ فكتب جماعة منهم إلى المعز لدين الله معد؛ وهو بالمغرب يطلبون منه عسكرا ليسلموا إليه مصر؛ فجهز المعز جوهرا هذا بالجيوش والسلاح في نحو ألف فارس أو أكثر؛ فسار جوهر حتى نزل بجيوشه إلى تروجة بقرب الإسكندرية؛ وأرسل إلى أهل مصر؛ فأجابوه بطلب الأمان، وتقرير أملاكهم لهم؛ فأجابهم جوهر إلى ذلك، وكتب لهم العهد. فطم الإخشيذية بذلك؛ فتأهبوا لقتال جوهر المذكور؛ فجاءتهم من عند جوهر الكتب والعهود بالأمان؛ فاختلفت كلمتهم؛ ثم اجتمعوا على قتاله، وأمروا عليهم ابن الشويزني، وتوجهوا لقتاله نحو الجيزة وحفظوا الجسور؛ فوصل جوهر إلى الجيزة، ووقع بينهم القتال في حادي عشر شعبان، ودام القتال بينهم مدة، ثم سار جوهر إلى منية الصيادين، وأخذ مخاضة منية شلقان؛ ووصل إلى جوهر طائفة من العسكر في مراكب؛ فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح: "لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله! "فعبر عريانا في سراويل وهو في موكب ومعه الرجال خوضا؛ والتقى مع المصريين، ووقع القتال بينهم، وثبت كل من الفريقين؛ فقتل كثير من الإخشيذية، وانهزم الباقون بعد قتال شديد. ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمنهم؛ وحضر رسوله ومعه بند وطاف بالأمان ومنع من النهب؛ فسكن الناس وفتحت الأسواق، ودخل جوهر من الغد إلى مصر في طبوله وبنوده)). النجوم الزاهرة، ج: 4، ص ص: 30 ـ 31.

السواد، ولبس الأبيض من اللباس. وبعدها أرسل بالبشرى إلى المعز يعلمه بما فتح الله له. فوصلت الأخبار إلى القيروان في رمضان من سنة 358هـ(968م).

وبهذا يكون قد امتد الزمن بالخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب؛ حتى حل عهد المعز لدين الله معد بن المنصور – وهو رابع ملوكهم – حيث استطاعت الدولة الفاطمية – في عهد هذا الخليفة – تحقيق أعظم إنجازاتها السياسية؛ إذ تمكنت من نشر سلطانها على ديار مصر كلها؛ ثم الحجاز وبلاد الشام بعد ذلك؛ ومن ثمة أصبحت تهدد الخلافة العباسية بحق. وما أن وصلت البشائر بالفتح؛ حتى أنشد شاعر البلاط الفاطمي؛ محمد بن هاني الأندلسي قصيدته الشهيرة التي قال فيها مادحا الخليفة المعز:

تَقُولُ بَنُو العَبَّاسِ هَل فُتِحَتْ مِصْرُ
فَقُلْ لِبَنِي العباسِ قَدْ قُضِيَ الأَمْرُ
وَقَدْ جَاوَزَ الإسكِنْدَرِيةَ جَوْهَرٌ
تطالِعُهُ البُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصْرُ
وَقَدْ أوفَدَتْ مِصرٌ إلَيهِ وُفُودَهَا
وَزِيدَ إلَى المَعْقُودِ مِنْ جِسْرِهَا جِسْرُ
فَمَا جَاءَ هَذَا اليَوْمُ إلاَّ وَقَدْ غَدَتْ
وَأيدِيكُمُ مِنْهَا وَمِنْ غَيرِهَا صِفْرُ
فَلاَ تُكْثِرُوا ذِكْرَ الزَّمَانِ الَّذِي خَلاَ
فَذَلِكَ عَصْرٌ قَدْ تَقَضَّى وَذَا عَصْرُ
أفِي الجَيشِ كُنْتُمْ تَمْتَرُونَ، رُوَيدَكُمْ
فَهَذَا القَنا العَرَّاصُ وَالجَحْفَلُ المَجْرُ
وَقَدْ أشْرَفَتْ خَيلُ الإلَهِ طَوَالِعاً
عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيا كَمَا طَلَعَ الفَجْرُ

وَذَا ابنُ نبيٍّ اللهِ يطلبُ وترَهُ
وكانَ حرٍ أنْ لاَ يضيعَ لهُ وترُ
ذَرُوا الوِرْدَ فِي مَاءِ الفرَاتِ لِخيلِهِ
فلاَ الضَّحلُ مِنهُ تمنعُونَ ولاَ الغمرُ
أفِي الشمْسِ شكٌ أنها الشَّمسُ بعدَمَا
تجلتْ عِياناً ليسَ مِنْ دُونها سِترُ
ومَا هِيَ إلاَّ آيةٌ بعدَ آيةٍ
ونُذْرٌ لكمْ إنْ كانَ يغنيكمُ النذرُ
فكونوا حَصِيداً خامِدِينَ أو ارْعوُوا
إلى مَلِكٍ فِي كفهِ الموْتُ والنشرُ
أطيعوا إماماً للأئمةِ فاضلاً
كما كانتِ الأعمالُ يفضُلها البرٌّ
رِدُوا سَاقياً لاَ تنزِفونَ حِياضهُ
جموماً كما لاَ تنزف الأبحرُ الذُّرٌ
فإنْ تتبعوهُ فهوَ موْلاَكمُ الذِي
لهُ برسولِ اللهِ دُونكمُ الفخرُ
وَإلاَّ فبعداً للبعيدِ فبينهُ
وبينكمُ ما لاَ يقرِّبُهُ الدَّهرُ
أفِي ابنِ أبي السبطَينِ أمْ فِي طليقِكمُ
تنزَّلتِ الآياتُ والسوَرُ الغرٌّ؟

وما أن استقر جوهر في مصر؛ حتى بادر إلى بناء جامع الأزهر، وبعض الأحياء من المدينة التي سماها القاهرة؛ حسب وصية المعز. ثم جرد في سنة 359هـ(969م) جيشا بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي لفتح بلاد الشام؛ فكان له ذلك؛ إذ تمكن ذلك القائد الكتامي من أسر الحسن بن عبد الله بن طغج بالرملة؛ ثم زحف على طبرية ودمشق؛ فصالح الأولى وتغلب على

الثانية بسيف القوة والقهر. وفي سنة 361هـ(971م) تحرك المعز لدين الله نحو مصر؛ تاركا بلاد المغرب بين أيدي الصنهاجيين من بني زيري؛ وذلك أنه قرر نقل سلطات الدولة الفاطمية إلى المشرق بعد أن تم بناء القاهرة؛ من خلال انتقاله هو بنفسه إليها؛ واستقراره بها. وتعتبر هذه الفترة نهاية لمجال هذه الدراسة؛ المخصصة للدول التي قامت وسقطت في المغرب والأندلس لا غير. لذا فأحداث الدولة الفاطمية بالمشرق تخرج عن هذا السياق.

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

وفيما يخص المنجزات الثقافية والحضارية التي تمت في الدولة الفاطمية؛ يمكن استخلاص أن لهذه الدولة مرحلتين متباينتين: الأولى تمتد عبر حياة الدولة في بلاد المغرب، والثانية تمثلها الفترة الزمنية التي انتقل فيها مركز الدولة إلى بلاد المشرق. ومع أن هذه الفترة المشرقية تزخر بالإنجازات الرائعة والأعمال العظيمة إلا أنها خارجة عن اهتمام هذه الدراسة. لذا ستترك لمجال آخر. وأما حياة الدولة في بلاد المغرب فلم تكن كلها حبلى بالأعمال الجليلة؛ من حيث الإنجازات الحضارية والنشاطات الثقافية؛ إذ كانت في معظمها مليئة بالحروب والفتن؛ الأمر الذي لم يسمح للقائمين بشئون الدولة أن يتفرغوا ـ بشكل أوسع ـ للإنجازات الحضارية، والنشاط الثقافي؛ تلك الإنجازات؛ التي لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل الاستقرار والأمن؛ كما أن النشاط الثقافي لا يتحقق وينمو إلا عندما تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية في وضع جيد. لذا فقد كانت منجزات الدولة الفاطمية: العمرانية والثقافية في

بلاد المغرب؛ تتم في محيط قبلي ضيق، ومنغلق على نفسه؛ وقد ازداد تضييقا وانغلاقا بسبب التوجه المذهبي المتعصب لأصحاب الدولة الفاطمية؛ ذلك التوجه المبني على أساس أن الدولة الفاطمية كانت تستخدم الثقافة باستمرار لتحقيق أغراض سياسية وعسكرية ومذهبية؛ تلك الأغراض التي حرصت الدولة الفاطمية على ترسيخها وتمتين أسسها؛ لكي تحقق سيطرة وهيمنة مذهبها الشيعي في كامل أقطار المغرب.

ويتضح هذا التوجه من خلال ما استحدث وأنجز من منشآت عمرانية في هذه الربوع؛ إذ كل ما أنجز في ظل الدولة الفاطمية ببلاد المغرب؛ يخدم بالأساس أهدافا عسكرية وسياسية قبل كل شيء؛ فالمدن – مثلا – التي بنيت في تلك الفترة كـ: المهدية والمحمدية والمنصورية؛ كلها تدخل في هذا المعنى. وما أستحدث أيضاً من أعمال ثقافية؛ كانت كلها تخدم المذهب الشيعي فقط؛ بل كان القائمون على هذه الدولة يقمعون كل إنجاز ثقافي يخالف تعاليم مذهبهم. إذ وصل بهم الحد إلى إتلاف كل الأعمال التي كانت قائمة قبل دولتهم، تلك الأعمال التي تتعارض مع معتقداتهم المذهبية؛ من ذلك مثلا ما قاموا به تجاه مكتبة المعصومة بتيهرت؛ التي يقال – إن صح الخبر – أن أبا عبد الله – الداعية الشيعي – أتلف معظم مجلداتها؛ التي تبلغ نحو الثلاثمائة ألف من المجلدات؛ ولم يترك منها سوى الكتب التي وجد انه سيستفيد منها؛ وهي الكتب ذات الطابع العلمي والتقني؛ ويقال أن ما حدث للمعصومة حدث أيضا لمكتبة الأغالبة بالقيروان. ومع ذلك فقد استفادت الدولة الفاطمية واستعانت بما ورثته عن الدول التي تغلبت عليها في بلاد

المغرب؛ مثل: الدولة الأغلبية والدولة الرستمية والدولة المدرارية والدولة الإدريسية وغيرها؛ من إنجازات عمرانية، وتراث علمي وثقافي؛ إذ استولى الفاطميون على خزائن الكتب التي وجدت في تلك الدول المنهارة. كما أن جل علماء الدولة وأدبائها وشعرائها؛ ورثتهم عن دولة القيروان؛ وحتى كبار موظفيها وفقهائها كانوا من أتباع الدولة الأغلبية قبل ذلك؛ وإن كان بعضهم ينتمي – في السابق – إلى مذاهب غير المذهب المالكي؛ مثل: الفقيه إسحاق بن أبي المنهال؛ المتمذهب بالحنفية قبل ظهور الشيعة. والفقيه علي بن منصور الصفار؛ الذي كان من أتباع سعيد بن الحداد، والفقيه عبد الملك بن محمد الضبي المعروف بابن البردون؛ الذي كان مالكيا من قبل، والفقيه أبي بكر بن سليمان؛ الحنفي المذهب كذلك؛ وغيرهم.

وجملة القول إنه كان لهذه الدولة ببلاد المغرب نشاط ثقافي معين؛ في حدود ما يسمح به المذهب الشيعي؛ حيث عمل أصحاب الدولة على نشر مذهبهم الشيعي بواسطة الدعاة والخطباء؛ وبواسطة المدارس التي أنشئت في ربوع الدولة؛ بغرض تعليم الصغار والكبار مبادئ المذهب الإسماعيلي؛ وهي المدارس التي عرفت بمدارس الدعوة. كما كان للآداب والشعر حظوة لدى ملوك الدولة وأمرائها. حيث كان أئمة الدولة يقرضون الشعر ويتذوقونه؛ بدءا بعبيد الله المهدي؛ الذي يعتبر هو نفسه من علماء الشيعة الباطنية؛ ويقال أنه ألف بعض الكتب؛ منها كتاب الأسرار. كما كان يقرض الشعر أحيانا. ومن الشعر المنسوب إليه هذه الأبيات التي بعث بها لسعيد بن صالح صاحب نكور يتوعده:

فإنْ تَستقيموا أستقِمْ لِصَلاحِكُمْ
وَإنْ تعدِلوا عنّي أرَى قتلَكم عدْلا

وَأعلو بسيفِي قاهراً لسيوفكم
وَأدْخلها عفواً وَأملؤها قتلاَ

ثم إن الداعية أبا عبد الله الشيعي – أيضا – كان من العلماء المتفقهين في المذهب الإسماعيلي؛ وقد عرف بالقدرة على الإقناع؛ والتمكن من فنون الخطابة؛ وحب الآداب. وكان ولده أبو القاسم يقرض الشعر أيضا. كما اشتهر كذلك إسماعيل المنصور بالفصاحة والبيان، وبالتفنن في الخطابة، والقدرة على اختراع الخطبة ارتجالا في حينها. أما المعز لدين الله فقد كان يحسن عدة لغات؛ منها: العربية والأمازيغية واللاتينية والصقلبية والإسبانية والسودانية؛ وكان يقول: **((والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلم والحكمة))**. ويقول فيه القاضي النعمان: ((**نظر في كل فن وبرع في كل علم**)). وهو إلى جانب كل ذلك يقرض الشعر؛ ومن شعره:

أطلعَ الحسنُ مِنْ جبينكَ شمسا
فوقَ وَرْدٍ فِي وَجنتيك أظلاّ

وكأنَّ الجمالَ خافَ عَلَى الورْ
دِ جفافاً فمدَّ بالشعرِ ظلاّ

وتنسب إليه هذه الأبيات أيضا:

للهِ مَا صَنعتْ بنا
تلكَ المحاجرِ فِي المعاجرْ

أمضَى وَأقضَى فِي النفو
س مِنَ الخناجرِ فِي الحناجرْ
وَلقدْ تعبتُ ببينكمْ
تعب المهاجرِ فِي الهوَاجرْ

هذا ويحتل عصر المعز – في بلاد المغرب . الذروة في مجال نشر العلم والأدب والفنون. ومع هـ يبدو أن الشعر كان هو الفن الأكثر حظوة واستحسان لديه، ولدى حكام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب؛ لأن – في نظرهم – كان بمثابة السلاح الذي يستخدم في الدعاية للدولة ومذهبها؛ كما يستخدم لتشويه صور الأعداء في أذهان الناس. وكما كان المعز شغوف بالعلوم وحفظ اللغات، ومحبا للآداب والشعر؛ فقد سار على نهجه جل أبنائه؛ فهذا ولي عهده العزيز بالله الذي ولد في المهدية سنة 344هـ(955م)؛ كان يجيد – كوالده – لغات عديدة؛ كما كان يتمتع بذوق فني رفيع؛ وقد أبدا تسامحا جليلا في قضايا الدين والمذهب؛ واعتنى بنشر العلوم؛ إذ يعتبر هو صاحب المبادرة في جعل الأزهر منارة للعلم بمصر. كما كان يجيد قول الشعر؛ ومن شعره هذه الأبيات التي قالها في يوم عيد؛ جلس فيه للعزاء بسبب موت ولد له:

نحنُ بنو المصطفَى ذَوُو إحنٍ
جرِّعها فِي الحياةِ كاظِمنا
عجيبة فِي الأنامِ محنتنا
أوَّلنا مبتلى وَآخرُنا
يفرَحَ هذَا الورَى بعيدِهمْ
طراً وَأفرَاحنا مآتمنا

واشتهر أيضا – من بين أبناء المعز – ولده تميم الذي برع في الآداب وتفنن في قرض الشعر؛ وهو من مواليد المنصورية سنة 337هـ(948م). وكان قد انغمس في اللهو والمجون؛ وقد تعددت الأغراض التي تناولها في شعره؛ ومن شعره:

مَا بَانَ عُذْرِي فِيهِ حَتَّى عَذَّرَا
وَمَشَى الدُّجَى فِي خَدِّهِ فَتَحَيَّرا
هَمَّتْ تُقَبِّلُهُ عَقَارِبُ صُدْغِهِ
فَاسْتَلَّ نَاظِرُهُ عَلَيها خِنْجرا
وَاللهِ لَوْلاَ أنْ يُقَالَ تَغَيَّرَا
وَصَبَا وَإنْ كَانَ التَّصَابِي أجْدَرَا
لأعَدْتُ تُفَاحَ الخُدُودِ بَنَفْسَجاً
لَثْماً وَكَافُورَ التَّرَائِبِ عَنْبَرَا

ومن شعره أيضا:

أمَا وَالَّذِي لاَ يَمْلِكُ الأمْرَ غَيْرُهُ
وَمَنْ هُوَ بِالسِّرِّ المُكَتَّمِ أعْلَمُ
لَئِنْ كَانَ كِتْمَانُ المَصَائِبِ مُؤلِماً
لإعْلاَنُهَا عِنْدِي أشَدُّ وَآلَمَ
وَبِي كُلُّ مَا يُبْكِي العُيُونَ أقَلُّهُ
وَإنْ كُنْتُ مِنْهُ دَائِماً أتَبَسَّمُ

وله كذلك:

وَمَا أمُّ خِشْفٍ ظَلَّ يَوْماً وَلَيْلَةً
بِبَلْقَعَةٍ بَيْدَاءَ ظَمْآنَ صَادِيا

تـهـيـمُ فـلاَ تـدرِي إلـى أيـنَ تـنـتـهِـي
مُولَهـة حـيـرَى تـجـوبُ الـفـيـافـيـا
أضَـرَّ بـهـا حـرُّ الـهـجـيـرِ فـلـمْ تـجـدْ
لغـلـتـهـا مِـنْ بـاردِ الـمـاءِ شـافـيـا
فـلـمَّا دَنـتْ مِـنْ خِـشْـفِـهَـا انـعَـطـفـتْ لهُ
فألـفـتـهُ مـلـهـوفَ الـجـوَانـحِ طـاوِيـا
بـأوْجَـعَ مـنِّـي يـوْمَ شـدَّتْ حـمـولـهـمْ
ونَـادَى مـنـادِي الـحـيِّ أنْ لاَ تـلاَقِـيـا

ومـن شعـره أيضـا هـذه الأبيـات:

يـومٌ لـنـا فِـي الـنـيـلِ مـخـتـصـرٌ
ولـكـلِّ يـوْم مـسـرَّةٍ قِـصـرُ
وَالـسـفـنُ تـصْـعـدُ كـالـخُـيـولِ بـنـا
فـيهِ وَجـيـشُ الـمـاءِ يـنـحـدِرُ
فـكـأنـمـا أمـوَاجـهُ عـكـنٌ
وكـأنـمـا دَارَاتـهُ سـرَرُ

وممـا قـال أيضـا:

اشـرَبْ عَـلـى غـيـمٍ كـصِـبـغِ الـدُّجَـى
أضـحـكَ وَجـهَ الأرْضِ لـمـا بـكَـى
وَانـظـرْ لـمـاءِ الـنـيـلِ فِـي مـدِّهِ
كـأنـمـا صـنـدلَ أوْ مـسـكـا

ومـن شعـره الـذي يفتخـر فيـه:

أنـا ابـنُ الـمـعـزِّ سـلـيـل الـعـلا
وَصِـنـوُ الـعـزِيـزِ إمـام الـهـدَى
سـمـا بـي مـعـدٌّ إلـى غـايـةٍ
مِـنَ الـمـجـدِ مَـا فـوقهـا مـرتـقَـى

فـرُحـتُ بـهـا فـاطِـمِـيٌّ الـنـجـار
حـسـيـنـيـهُ عـلـويٌّ الـجـنـى
وَمَـا احـتـجـتُ يـومـاً إلـى نـاصِـرٍ
وَلاَ رُحـتُ يـومـاً ضَـعِـيـف الـقـوَى

وقد برز في هذه الدولة كذلك شعراء محترفون، وآخرون جعلوا من الشعر وسيلة للترويح عن النفس، والتعبير عما تنطوي عليه صدورهم من مشاعر وأفكار. وضمت أيضا إليها عددا كبيرا من العلماء في الدين واللغة، وقادة عسكريين وأمراء يهتمون بالعلم والثقافة. وفي هذا السياق نذكر أهم علماء الدولة الفاطميين في الفترة المغربية؛ وأولهم بالطبع هو:

ـ <u>أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم والداعية الشيعي:</u> ويعتبر هذا الداعية المتميز هو المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية. وكان أبو عبد الله الشيعي ـ كما لا يخفى ـ من العلماء البارزين في المذهب الشيعي؛ كما كان خطيبا قوي الحجة. وقد وصفه ابن الأثير بقوله: **((وكان له علم وفهم ودهاء ومكر))**.[1] ويقول المقريزي أن أصله من رَامَ هُرْمُز بخراسان؛ وولد بالكوفة؛ غير أن بعضهم كابن الأثير ينسبه إلى اليمن؛ إذ يسميه الصنعاني نسبة إلى صنعاء. وثمة من يقول أنه اشتغل ـ في بداية الأمر ـ في التعليم؛ حيث كان من العلماء المعلمين في مذهب الإمامية الباطنية. بينما يقول آخرون أنه كان محتسبا في سوق الغزل بالبصرة.[2] ويقول عنه القاضي النعمان بن محمد: **((كان أبو عبد الله هذا**

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 127.
[2] اتعاظ الحنفا، ص: 68.

من الكوفة؛ واسمه الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة؛ وكان أكثر علمه الباطن؛ ونظر في علم الظاهر نظراً لم يبالغ فيه)).[1] ويقال أنه اتصل بالإمام محمد بن جعفر؛ فأعجب به، وبعثه إلى أبي القاسم ابن حوشب داعية الشيعة في اليمن؛ حيث أكمل أعداده هناك للقيام بالمهمة التي تنتظره؛ وذلك ما تجلى من خلال تكليفه بأمر الدعوة في بلاد المغرب. وبعد أن اكتمل تكوينه خرج إلى مكة لأداء فريضة الحج؛ أين تعرف على بعض الحجيج من قبيلة كتامة؛[2] فرافقهم إلى المغرب؛ دون أن يفصح عن الغرض الحقيقي لهجرته معهم. ولما حلت الفرصة المناسبة صرح بما تنطوي عليه نفسه، وما ينوي عمله. فلقي استجابة لدى مضيفيه، ونهضوا معه ضد الدولة الأغلبية؛ ودام الصراع مدة

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 59.

[2] يقول ابن عذاري في هذا: ((فلما وصل للموسم ـ لا للحج؛ لأن الحج ليس من مذهبهم الفاسد؛ بل تكلف حضوره ليتسبب في مراده ـ فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب؛ فلصق بهم وخالطهم. وكانوا نحو عشرة رجال من قبيل كتامة؛ ملتفين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم؛ فأخبروه بصفتها؛ وسألهم عن مذهبهم؛ فصدقوه عنه. فتكلم أبو عبد الله الداعي عن المذاهب؛ فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة؛ فدخل عليه من هذه الثلمة؛ ولم يزل يستدرجهم، ويَخلبهم بما أوتِيَ من فضل اللسان والعلم والجدل؛ إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه. فلما حان رجوعهم إلى بلادهم؛ سألوه عن أمره وشأنه؛ فقال لهم: "أنا رجل من أهل العراق؛ وكنت أخدم السلطان؛ ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البرّ؛ فتركتَها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال؛ فلم أرَ لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان؛ فسألت: أين يتأتى لي ذلك تأتيا حسنا؛ فذكر لي بلاد مصر". فقالوا له: "ونحن سائرون إلى مصر؛ وهي طريقنا؛ فكن في صحبتنا إليها". ورغبوا منه في ذلك؛ فصحبهم في الطريق؛ فكان يحدثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء؛ إلى أن أشربت قلوبهم محبته؛ فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم؛ فاعتذر لهم ببعد الشقة، وقال: "إن وجدت بمصر حاجتي، أقمت بها؛ وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان". فلما وصلوا مصر، غاب عنهم كأنه يطلب بغيته. ثم اجتمعوا به وسألوه؛ فقال لهم: "لم أجد بهذه البلاد ما أريد". فرغبوه أن يصحبهم؛ فأنعم لهم بذلك)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 124 ـ 125.

طويلة بين الدولة والقبائل المؤيدة لأبي عبد الله؛ حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الأغلبية السنية وإعلان قيام الدولة الفاطمية الشيعية.

- **ثم أبو جعفر محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المَرْوَرُذي أو مرُّوذي**: وهو منسوب إلى مَرْوُ الروذ في خراسان. وقد اختلفت المصادر في رسم اسمه وفي تسلسل آبائه؛ ويقال أنه كان من جند خراسان. وقد كان من علماء المذهب الحنفي في القيروان[1] قبل ظهور الفاطميين؛ إلا أنه أصبح من المتعصبين للمذهب الشيعي؛ عندما تغلب الفاطميون على القيروان؛ خاصة وأن له - من قبل - ميلا للشيعة. ولما دخل أبو عبد الله الشيعي للقيروان مسقطا بذلك دولة الأغالبة؛ ولاه - مؤقتا - قضاء القيروان؛ ثم أقره في منصبه عبيد الله المهدي؛ ولكنه انقلب عليه فيما بعد؛ خاصة بعد مقتل عبيد الله الشيعي؛ وذلك بعد اتهامه بانتقاد الدولة ومعارضة المهدي؛ لذا فقد قبض عليه ورمي في إسطبل مقيد الأيدي والأرجل؛ فقتلته الدواب بحوافرها. وهكذا مات تحت العذاب في محبسه برقادة سنة 303هـ(919م) على الرغم من ولائه وإخلاصه وتفانيه في نشر المذهب الشيعي. ويقول فيه ابن عذاري: ((**ولّى أبو عبد الله على قضاء مدينة القيروان محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المروذي؛ من جند خراسان؛ يوم الخميس لاثني عشر ليلة بقيت من شعبان؛ فقعد في الجامع، وأمر بإسقاط صلاة الإشفاع في شهر رمضان؛ واحتج في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الإقتداء بفعل عمر ابن الخطاب في القيام، وتركهم الإقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة "حي**

---

[1] تراجم أغلبية، ص: 516.

على خير العمل" في الآذان؛ وقال لهم: "اعملوا بمذهب أهل البيت واتركوا الفضول". فلما كان في أول يوم من شهر رمضان؛ أقبل المروذي إلى المسجد الجامع؛ فوجد في حائط المسجد في القبلة، في موضع جلوسه مكتوبا: "وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا" إلى آخر الآية. فلما رآه سأل القَوَمَة؛ هل رأوا من جلس في ذلك الموضع؛ فقالوا: "لا" فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع. ووقف يوما على المرُّوذي رجُلٌ مُحمَقٌ خليعٌ، والناس حوله؛ فقال له: "قد لطفتَ لنا ـ أصلحك الله ـ في قطع قيام شهر رمضان؛ فلو اختلتَ في ترك صيامه؛ لكفيتنا مَؤُونتهُ كلّها". فقال له المروذي "اذهب عني يا ملعون"، وأمر بدفعه)).[1] وكان المروذي شديد التعصب ضد الفقهاء المالكية؛ إذ تسبب في قتل عدد منهم والتنكيل بآخرين.

ـ ثم إسحاق ابن أبي المنهال: وهو من أسرة معروفة بالعلم والجاه في القيروان، ومن العاملين في خدمة الدولة الأغلبية؛ وكان من قبل حنفي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي؛ مثله مثل المروذي وبعض فقهاء الحنفية الآخرين. ويقال أنه ولي قضاء صقلية أيام بني الأغلب؛ قبل أن يلتحق بخدمة الدولة الفاطمية؛ في المنصب نفسه بصقلية عند قيام الدولة؛ ثم ولاه عبيد الله المهدي خطة القضاء ـ بعد المروذي ـ في فترتين: الأولى من 307هـ(919م) إلى 311هـ(923م)؛ والثانية من 312هـ(924م) إلى أن مات في عهد ولده أبي القاسم. وذكر ابن عذاري السبب في عزله من منصبه

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص ص: 151 ـ 152.

وعودته إليه؛ فقال: ((وفي سنة 311هـ عزل عبيد الله إسحاق بن المنهال عن قضاء مدينة القيروان؛ يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة؛ وأخرج إليه عبيد الله من قال له: "لم نعزلك عن حرجة؛ وإنما عزلناك للينك ومهانتك". وولى قضاء مدينة القيروان محمد بن عمران النفطي؛ وكان قبل ذلك في قضاء مدينة إطرابلس؛ فجمع بها أموالا كثيرة من الرّشى والأحباس، ورفعها إلى عبيد الله؛ فكانت له وسيلة إليه)).[1] أما عودته إلى منصبه فيقول ابن عذاري عنه: ((وفي هذه السنة [سنة 312هـ] مات بالقيروان القاضي محمد بن عمران النفطي؛ في شهر ربيع الأول؛ وكان يرتشي على الأحكام، ويستهتر في ضروب المنكر. فولى عبيد الله القضاء مكانه إسحاق ابن أبي المنهال مرة ثانية؛ وكتب في عهده: "وإنما كنا عزلناك للينك ومهانتك؛ ورددناك لدينك وأمانتك")).[2] وتجمع جل المصادر على أن إسحاق ابن أبي المنهال هذا قد سار على نهج المروذي في اضطهاد فقهاء المالكية والتنكيل بهم.

ـ <u>ثم أبو حنيفة القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي</u>: ولد هذا الفقيه بالقيروان سنة 302هـ(914م) ضمن أسرة تنتهج المذهب المالكي؛ ولنكه اختار ـ عندما كبر ـ المذهب الإسماعيلي؛ حيث أصبح أبرز فقيه إسماعيلي بالمغرب؛ بل أهم منظر في أصوله؛ إذ كان المجتهد الأول في الفقه الإسماعيلي أيام الدولة الفاطمية؛ حيث يعتبر هو الواضع الحقيقي لأسس الفقه الإسماعيلي؛ وذلك ضمن كتابه دعائم الإسلام. هذا وقد شغل في

[1] نفسه، ص: 188.
[2] نفسه، ص: 189.

الدولة الفاطمية وظيفة قاضي القضاة في عهد الخليفة المعز لدين الله؛ علما بأنه عمل في ميادين علمية عديدة خلال الفترة المغربية من حكم آباء المعز. ومن مؤلفاته: رسالة افتتاح الدعوة، وكتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، وشرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، وتأويل دعائم الإسلام، وتأويل الشريعة، وكتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة، وكتاب المجالس والمسايرات. هذا وكانت وفاته بمصر سنة 363هـ(973م).

ـ <u>ثم أبو اليَسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي المعروف بالرياضي</u>: وهو من الأدباء البارزين في القيروان. ويرجع في أصوله إلى بغداد. وكان مكلفا ـ في زمن الأغالبة ـ بديوان الرسائل؛ ثم وأسندت إليه مهمة الإشراف على بيت الحكمة؛ وذلك إلى جانب ديوان الإنشاء. وذكر ابن عذاري حكاية طريفة وقعت له عندما ذهب إلى الأندلس؛ قال فيها: ((**وكان [أي أبو اليسر] ظريفا، أديبا، مُرَسلاً، شاعرا، حسن التأليف؛ وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن [الأموي] ـ رحمه الله ـ بكتاب اخترقه إليه على ألسنةِ أهل الشام؛ فتقبله الإمام محمد، وأنزله، ووسع عليه، ووصله؛ وأطلع على أن الكتاب مخترَقٌ مصنوع؛ فلما أراد أبو اليسر الانصراف؛ دُفع إليه كتابٌ مختومٌ؛ جواباً عن كتاب أهل الشام فيما أرى. فلما جاز البحر؛ فك أبو اليسر الكتاب ليقرأه؛ فإذا هو بياضٌ؛ وليس فيه إلاّ: "بسم الله الرحمن الرحيم". فعلم أنَّ تمويهه لم يَجزْ؛ وأن الذي أعطِيَ وحبي عن تكرم وفضل؛ وعظم في عينه ملوك الأندلس ورجاله؛ وحدث بما عرض له، وعجب**

الناس منه. وكتب أبو اليسر لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم؛ ثم كتب لعبيد الله حتى مات. وله مؤلفات حسان في فنون من العلم، ومسند في الحديث، وكتاب في القرآن سماه "سراج الهدى"، وله كتاب "لقيط المرجان" ورسالة "الوحيدة المؤنسة"، و"قطب الأدب"؛ وغير ذلك من الأوضاع)).[1] هذا وتوفي أبو اليسر في سنة 298هـ(910م)

ـ ثم أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي: كان هذا الرجل بمثابة وزير في دولة عبيد الله المهدي؛ وقد لعب دورا أساسيا في الإيقاع بأبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. ويقال أنه كان ـ من قبل ـ يشتغل في ديون بني العباس ببغداد؛ ثم فر إلى عبيد الله المهدي؛ حيث انضم إليه قبل قيام الدولة الفاطمية؛ فكلفه بمهمة القيام بنشر الدعوة في بلاد الأندلس؛ ولما نشأت الدولة الفاطمية برقادة التحق بها. وقد تولى ـ في البداية ـ المهام التي كانت مسندة إلى أبي اليسر بعد وفاته سنة 298هـ(910م)؛ منها الكتابة وديوان البريد؛ ثم كلفه ـ بعد قتل أبي عبد الله الشيعي ـ بتسيير شئون الدولة؛ الأمر الذي جعله بمثابة الوزير. وكان أبو جعفر البغدادي هذا شديد الذكاء والدهاء؛ كما عرف بالعلم والتمكن من فنون الأدب؛ ولقد تمكن ـ بدهائه ـ من تصفية كثير من المقربين من المهدي كـ: أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس؛ والقاضي أبي جعفر المروذي وغيرهم.

وظهر ـ إلى جانب هؤلاء الفقهاء والعلماء ـ في الفترة المغربية للدولة الفاطمية أدباء وشعراء عديدون نذكر عينة من شعرهم الذي قيل بدءا بعهد عبيد

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 162 ـ 163.

الله المهدي وانتهاء بعهد المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر:

- أبو عثمان سعدون بن سعيد الورجيني: وهو من موالي بني الأغلب، ومن شعرائهم المعدودين. ولما تغلب الفاطميون على الأغالبة التحق بشراء البلاط الفاطمي. ومما قاله فيه القاضي النعمان: ((وكان أول من مدحه [أي عبيد الله] منهم [أي الشعراء] وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني؛ وكان شاعرا يمدح بني الأغلب، ويلي أعمالهم، وكان قد أسر ببلد الروم وفدي؛ واستؤذن له في الدخول عليه [أي عبيد الله] وإنشاده ما قال فيه؛ وكان ذلك بعقب وصول الحرم وقد جلس وهنأه الأولياء بسلامتهم؛ فدخل إليه وأنشده الشعر الذي يقول فيه:

قِفْ بِالمَطِيِّ عَلَى مَرَابِعِ دُور
لَبِسَتْ مَعَالِمُهنَّ ثَوبَ دُثُورِ
لَعِبَتْ بِهَا حَتَّى مَحَتْ آثارَهَا
رِيحَانُ: رِيحِ صَبا وَرِيحِ دُبُورِ

فلما انتهى إلى قوله:

وَسَفِيهَةٍ هَبتْ تَصُدُّ عَنِ النوَى
وَيَدُ النوَى مَلكتْ عَنانَ مَسِيرِي
خافَتْ عَليَّ مِنَ الخُطُوبِ لأنَّنِي
مِنْ قَبلُ غِبتُ فَأبتُ بَعدَ دُهُورِ
ثُمَّ اجتَمَعنا بَعدَ ذَاكَ فَيَالَها
مَأسُورَةً جُمِعتْ عَلَى مَأسُورِ

فلما قال هذا استعبر المهدي عليه السلام وتلقى دموعه بكمه؛ فسكت سعدون، وأومأ إليه أن قل؛ فمر فيها حتى انتهى إلى قوله:

أَعَنِ ابْنِ فاطِمَةٍ تَصُدَّينَ امرءاً
بِنتِ النبيِّ وعِترَةِ التطهيرِ
كُفِّي عَنِ التثبيطِ إنِّيَ زائرٌ
مِنْ أهلِ بَيتِ الوَحيِ خيرَ مُزُورِ

فقال له أبو عبد الله — وكان بين يدي المهدي — صدقت هو افضل العالمين؛ فقبل سعدون الأرض بين يدي المهدي عليه السلام، ومر فيها حتى انتهى إلى قوله:

هذا أميرُ المُؤمِنينَ تَضَعْضَعتْ
لِقدُومِهِ أركانُ كلِّ أميرِ
هذا الإمامُ الفاطميُّ وَمَنْ بهِ
أمِنتْ مَغاربُها مِنَ المَحذُورِ
وَالشرقُ ليسَ لِشامِهِ وَعِراقِهِ
مِنْ مَهرَبٍ مِنْ جَيشِهِ المَنصُورِ
حَتَّى يَفوزَ مِنَ الخِلافَةِ بالمُنى
وَيَفازَ مِنهُ بِعدلِهِ المَنشورِ

فقال أمير المؤمنين: "ما شاء الله"؛ ومر فيها إلى أن ذكر أبا عبد الله فقال:

يا مَنْ تَخيرَ مِنْ خِيارِ دُعَاتِهِ
أرْجاهُمُ لِلعُسْرِ وَالمَيسُورِ

حَتَّى استمالَ إليهِ كلَّ قبيلةٍ
وَرَمَى إليهِ قيادَ كلِّ عثورِ
أشْبَهتَ مُوسَى وَهوَ حَيتكَ التي
تلقَى فتلقفُ كلَّ إفكٍ سُحورِ

فنظر المهدي إلى أبي عبد الله وتبسم؛ فقبل أبو عبد الله الأرض؛ قال للورجيني: "أنا دون ذلك بعد ما بين السماء والأرض". فأمر له [أي للشاعر] أمير المؤمنين بصلة جزيلة، وبأن يجرى عليه لكل عام؛ ووصله أبو عبد الله أيضا)).[1]

وكان سعدون الورجيني هذا قد تعرض – أيام الأغالبة – للأسر من طرف النصارى؛ ثم وجد من افتداه. فلما وصل إلى صقلية من القسطنطينية؛ وهو في حال يرثى لها؛ تمكن من الدخول على والي صقلية أبي الحسين محمد بن الفضل؛ وكان هذا الوالي من أفاضل القوم ومن أدبائهم وشعرائهم المجيدين؛ فواتته فرصة ذهبية حين عرض كاتب ابن الفضل بيتين قالهما سيده على الشعراء الجالسين؛ طالبا منهم الزيادة عليهما بأبيات تناسبهما. والبيتان هما:

تثنى فقلتُ: الغُصْن منهُ تعلما
وَأزرَى بحسنِ البدْرِ حينَ تبسَّما
هلالٌ كأنَّ اللهَ ناجَى جمالهُ
بتصويرهِ إياهُ لما تجسما

فبادر سعدون الورجيني فورا قائلا:

تناثرَ منهُ الدُّرُّ لما تكلما
وَأبصرَهُ بدْرُ السماءِ فأظلما

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 254 – 256.

هِلالٌ كسَتهُ الشَّمسُ حلةَ وَجْهِهِ
وَأهدَى إليهِ الغصنُ قداً منعما

سقاني بكفِّ الحُسنِ كأسَ صُبابةٍ
وَوَكلَ بي قلباً عليلاً متيما

فما زلتُ أشكوهُ إلى حُسنِ وَجْهِهِ
بخطٍّ يدي حتى بكَى قلبي دَما

وَمسمعةٍ لما رَأتْ ذلَّ موقفي
لديهِ تغنتْ كيْ يرقَّ وَيرْحما

((تثنى فقلتُ: الغُصنُ منهُ تعلَّما
وَأزرَى بحسنِ البدرِ حِينَ تبسما))

فقلتُ لها مَنْ ذَاكَ؟ قالتْ مجيبةً
وَأومَيتْ بعينيها إلي ليفهما

((هِلالٌ كأنَّ اللهَ ناجَى جمالهُ
بتصويرهِ إياهُ لما تجسما))

فأعجب كاتب محمد ابن الفضل ببديهته وحسن طريقته؛ فكافأه بصرة من الدنانير؛ أصلحت حاله، وفكت حاجته.

ويبدو أن سعدون الورجيني هذا كان من الشعراء المعروفين في الدولة الأغلبية؛ وقد ورد ذكره في رياض النفوس للمالكي، وفي مدارك القاضي عياض؛ حيث نشرت فيهما قصيدة له رثا بها العالم الصالح الزاهد يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي؛ جاء فيها:

عينُ ألمَّ بها وَجدٌ فلمْ تنمِ
تبكي بدَمْعٍ كنظمِ الدرِّ منسَجمِ

مدامعَ الصَّبِّ أقلامٌ تخطُّ بها
أيدِي الصَّبابةِ مَا بالقلبِ مِنْ سَدَمِ

لفظُ الضَّمِيرِ لِسَانُ الدَّمعِ تَرجَمَهُ
حَتَّى بَدَا كُلُّ سِرٍّ فِيهِ مُنكَتِمِ
لَولاَ المَدَامِعُ لَمْ يَعلَمْ بِلَوعَتِهِ
يُخفِي تَبَارِيحَ وَجدٍ غَيرِ مُنصَرِمِ
وَهَلْ تَلَذُّ بِطَعمِ النَّومِ مُقلَةُ مَنْ
كَستهُ كَفُّ الرَّزَايَا حلةَ السَّقَمِ
وَكُلُّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ قَدَحَتْ
فِيهَا يَدُ البَثِّ نِيرَاناً مِنَ الألَمِ
لَمْ يَعدَمِ الحُزْنَ إلاَّ أنَّ مُهجَتَهُ
قَدْ أبدِلَتْ مِنْ سُرُورِ العَيشِ بِالعَدَمِ
تَأبَى اللَّيَالِي عَلَينَا أنْ تَدُومَ عَلَى
جَمعٍ مِنَ الشَّمْلِ أوْ سَدٌّ مِنَ الثَّلمِ
لاَ لَومَ إنْ كُنتُ بَعدَ الثُّكلِ لَمْ أنَمِ
لَوْ ذَاقَ مَنْ لاَمَنِي مَا ذُقتُ لَمْ يَنَمِ
أنَّى يُجِيبُ إلَى جَنبِ الكَرَى رَجُلُ
قَدْ أفرَدَتهُ المَنَايَا مِنْ ذَوِي الرَّحِمِ
عَجِبتُ أنْ لَمْ أمُتْ حُزناً وَقَدْ دَفَنَتْ
كفاَيَ فِي التُّربِ أتقَى العُربِ وَالعَجَمِ
يَا مَوتُ أثكَلتِنَا يَحيَى وَكَانَ لَنَا
فِي بَلدَةِ الغَربِ مِثلَ البَدرِ فِي الظُّلَمِ
يَنجَابُ عَنَّا بِهِ غَيمُ الخَنَا وَمَتَى
نقِسْ بِهِ النَّاسَ فَضلاً كَانَ كَالعَلَمِ
مَا كَانَ إلاَّ سِرَاجاً يُستَضَاءُ بِهِ
فِي العِلمِ يُسْمَعُ مِنهُ العِلمُ فِي الحُلُمِ
وَكَانَ يَحيَى ـ إذَا خِفنَا ـ لَنَا حَرَماً
نَلجَأ إلَيهِ، فَقَدْ صِرنَا بِلاَ حَرَمِ
وَكَانَ يَحيَى لَنَا سَيفاً يُعَزُّ بِهِ الـ
ـدِّينُ الحَنِيفُ وَيَحمِي كُلَّ مُهتَضَمِ

وكان يحيى لنا في الزائغين إذا
ضلوا لساناً يبين الحق عن أمم
وكان يحيى لنا حرزاً، وكان لنا
كنزاً، وكان لنا كالغيث في الأزم
لتبك يحيى عيون بالدمع فإن
غاضت مدامعها فلتبكه بدم
أبكي على العلم والتقوى به اجتمعا
ومن مضى وهو أوفى الناس بالذمم
أبكي على الحلم ثوب كان يلبسه
أبكي على طاهر الأخلاق والشيم
أبكي فتى الدهر، أبكي شيخ كل حجى
أبكي أخا الفضل، أبكي معدن الكرم
من كان من بعد سحنون لنا خلفاً
من كان في الحق مثل الصارم الخذم

إلى أن يقول:

ما كان أشجعه، ما كان أورعه
ما كان أفصحه في محفل الكلم
ما كان أرغبه في سنة درست
يشيدها ببناء الحاذق الفهم
ما كان أفقهه، ما كان أعلمه
ما كان أحماه عند الخوف للحرم
ما كان أطهر تلك النفس من ريب
ما كان أكتب تلك الكف بالقلم
سقاك يا قبر يحيى عارض لجب
سمح الرذاذ كريم الوبل والديم
مبارك الظل يكسو الأرض أرديةً
كالوشي يلقى على القيعان والأكم

يـا رَبّ! صَاحِبُ هـذَا الـقـبر خـادِمـ
ـكَ المَعْرُوفِ بالـنـصْـحِ وَالإِحْسَانِ وَالخـدَمِ
أتـاكَ ضـيـفـاً فـلاَ تـجـعـلْ قِـرَاهُ سِوَ
ى الـرِّضْـوانِ، إنـكَ ذُو فَـضْـلٍ وذُو كـرَمِ

- ثم محمد بن رمضان النفطي: كان يعتنق المذهب الشيعي قبل ظهور أبي عبد الله داعية الفاطميين بالمغرب. ويبدو أنه كان من المتأثرين بالدعوة التي بثها أبو سفيان؛ الذي استقر في تالة أو (تالا) جنوب الكاف. وتقول المصادر أن أهل نفطة تشيعوا بتأثير منه.[1] وكان محمد ابن رمضان شاعرا؛ فاتخذ من شعره وسيلة للدعوة ونشر ما يتناقله أهل الحدثان عن المهدي المنتظر. ومن شعره في هذا الباب قوله:

سـلاَ ظـبـيـة الـقـنـاص أيـنَ احـتـلاَلـهـا
فقدْ هـاجـنِـي تـفـتِـيـرُهـا وَامـذِلاَلـهـا
لـعـلَّ الـتِـي عـنـهـا تـفـرَّقَ أهـلـهـا
فبـادَتْ مَـغـانـيـهـا وَطـالَ احـتـيَـالـهـا
أرَقـتُ لـهـا مِـنْ بـعـدِ أنْ نـامَ إنـسـهـا
خنـاطِـيـلُ آرَامِ الـظـبـاءِ جـمـالـهـا
فـعـدِّ عـنِ الـدَّارِ الـتِي بـانَ أهـلـهـا
وَعَـنْ كـيْـفَ مِـنْ بـعْـدِ الـبـلَـى صَـارَ حَالـهَـا
فـهـذَا أوَانُ الـحـقِّ قـدْ حـانَ حِـيـنـهُ
وَدَوْلـةِ أهـلِ الـبـغـيِ آنَ زَوَالـهـا
كـأنـي بـشـمْـسِ الأرْضِ قـدْ طـلـعـتْ لـنـا
مِـنَ الـغـرْبِ مقـرُوناً إلـيـهـا هِـلاَلـهـا
فـيـمـلأ أرْضَ الـلـهِ قـسـطـاً بـعـدْلـهِ
بما ضـمَّ مِـنـهـا سَـهـلـهـا وَجـبـالـهـا

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 54 – 55.

وَآمنُ فيها ما أخافُ وَأتقِي
وَأظفرُ بالزُلفَى به وَأنالها

ويقول القاضي النعمان أن محمد بن رمضان هذا أدرك أيام عبيد الله المهدي؛ بعد أن وصل من العمر عتيا؛ وبعد أن خرف؛ ومع هذا فقد ولاه المهدي قضاء ميلة؛ وبقي في منصبه حتى مات. كما أورد القاضي النعمان – أيضا – حكايته مع الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد؛ حيث هجاه محمد بن رمضان؛ بعد المجزرة التي قام بها في حق أهل بلزمة؛ إذ غدر بهم وقتل منهم ألف رجل ببرودة وبشاعة؛ وكان محمد بن رمضان في تلك الأثناء ببلزمة في جوار أهلها وفي ضيافتهم؛ فقال:[1]

جلَّ المصَابُ لئنْ كانَ الذِي ذَكرُوا
مِما أتَتنا بهِ الأنباءُ وَالخبرُ
عَنْ ألفِ أرْوعٍ كالآسادِ قدْ قتلوا
لساعَةٍ مِنْ سوَادِ الليلِ إذْ غدرُوا
لوْ كانَ مَنْ بيتَ الآسادَ أيقظهمْ
حلتْ بهِ منهمُ الأحدَاثُ وَالغِيرُ
قلْ لابنِ أحمدَ ابرَاهِيم مألكة
عَنِ الخبيرِ بما يأتِي وَما يذَرُ
عَنِ المشرَّدِ فِي حبٍّ الأئمةِ مِنْ
آلِ النبيِّ وَخيرِ الناسِ إنْ ذُكِرُوا
اعلمْ بأنَّ شِرَارَ الناسِ أطوَلهمْ
يداً بمكرُوههمْ يوْماً إذَا قدِرُوا
لاَسِيمَا الضيْفُ وَالجَارُ الغرِيبُ وَمَنْ
أعطوْهُ ذِمتهمْ مِنْ قبلِ مَا خفرُوا

---

[1] نفسه، ص ص: 88 – 90.

فما اعتذارُكَ مِنْ عارٍ وَمَنقصةٍ
أتيتها عامِداً إنْ قامَ مُعتذِرُ
جرّعتَ ضَيفكَ كأساً أنتَ شاربها
عما قليلٍ وَأمرُ اللهِ ينتظِرُ
فدَولةُ القائمِ المهديِّ قدْ أزفتْ
أيامُها وَالذِي أنبا بهِ الأثرُ
عنِ النبيِّ، وَفيها قطعُ مدّتكمْ
يا آلَ أغلبَ أهلَ الغدْرِ فاقتصِرُوا
وَقطعُ أمرِ بنِي العَباسِ بعدَكمُ
وَقطعُ آلِ بنِي مَرْوَانَ إذْ بطرُوا

ولما علم إبراهيم بن أحمد بالقصيدة؛ أراد خداعه واستدراجه؛ إذ قال: ((لعن الله من طلبه وشرده؛ فما مثل هذا يؤذى؛ ولو أتانا لصفحنا عنه وأحسنا إليه؛ ولقد أحسن في الوفاء لمن أجاره، وصنع المعروف إليه؛ ومثل هذا تزكو عنده الصنائع، وما ينتقم عليه تشيعه؛ بل ذلك ما يقربه منا ويدنيه عندنا؛ فأبلغوه عنا ذلك؛ فإن أحبَّ القدوم إلينا فهو آمن، وله عندنا ـ مع ذلك ـ الحباء والإكرام)). ولما وصل قوله إلى محمد ابن رمضان؛ لم تنطل عليه الخدعة؛ وعلم بالفخ الذي نصبه له إبراهيم؛ فقال:

لوْ لمْ أعاينهُ يَصيدُ بحبهِ لقطتُ حبةْ
مَنْ ذَا يغرُّ بغادرٍ ما إنْ يخافُ اللهَ ربّهْ

ـ ثم علي بن محمد الإيادي: كان من شعراء بني الأغلب قبل أن يتغلب عليهم الفاطميون؛ ثم أصبح من شعراء البلاط الفاطمي بعد ذلك. وله قصائد في مدح

عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، ثم إسماعيل المنصور ابن أبي القاسم. وتوفي الإيادي في سنة 365هـ(975م). ومن شعره في وصف قصر صبرة:

وَلَمَّا استطالَ المجدُ وَاسْتَوْلَتِ العلا
عَلَى النجمِ وَامتدَّ الرِّوَاقُ المروَّقُ
بَنَى قبةً للمُلكِ فِي وَسطِ جنةٍ
لَها مَنظرٌ يَزْهَى بهِ الطرْفُ مونقُ
وَإنْ صَافَحتها لاحتْ كأنها
فرندٌ عَلَى تاجِ المعزِّ وَرَونقُ
كأنَّ شُرُفَاتِ المقاصرِ حولَها
عذَارَى عَليهنَّ مِملاء الممنطقِ

ومن شعره في وصف الأسطول الفاطمي في عهد إسماعيل المنصور:

أعجب لأسطولِ الإمامِ محمدٍ
ولحسنهِ وَزَمانهِ المستغربِ
لبستْ بهِ الأمواجُ أحسَنَ مَنظرٍ
يبدُو لعينِ الناظرِ المتعجبِ
مِنْ كلِّ مُشْرِفَةٍ عَلَى مَا قابلت
اشرَافَ صَدْرِ الأجدَلِ المنتصِبِ
دَهماء قدْ لبستْ ثيابَ تَصَنُّعٍ
تسبي العقولَ عَلَى ثيابٍ ترهبِ

ـ ثم أيوب بن إبراهيم: يبدو أنه كان من أعوان الدولة الفاطمية وأتباعها المخلصين. ولم نعثر على ما يفيد عنه؛ أكثر من هذه الأبيات الشعرية التي مدح بها أبا طاهر إسماعيل المنصور؛ وهي:

يا بْنَ الإمَامِ المُرتضَى وَابنِ الوَصِيِّ
المُصْطفَى وَابنِ النبيِّ المرْسَلِ
اللهُ أعطاكَ الخلافَةَ وَاهباً
وَرَآكَ للإسلامِ أمنعَ معقلِ
نلتَ الخِلافَةَ وَهْيَ أعظمُ رُتبةٍ
نيلتْ، ولَيستْ مِنْ علاكَ بِأفضَلِ
فمَنَعتَ حَوزَتهَا وَحطتَ حَريمَهَا
بالمَشرَفيةِ وَالوَشيجِ الذُبلِ

ـ ثم أبو العباس خليل بن إسحاق: وهو من القادة العسكريين والأمراء الذين يتكل عليهم إمام الدولة الفاطمية؛ وقد ولاه الخليفة أبو القاسم صقلية فظل بها أربع سنوات تقريبا؛ حيث أظهر فيها سوء سيرة، إذ ارتكب جرائم شنيعة في حق الرعية. ومما جاء في مجموع المكتبة العربية الصقلية: ((وفي سنة 325هـ قدَّم أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي على صقلية خليل بن إسحاق؛ فعمل بها ما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين؛ أهلكهم قتلا وجوعا حتى فروا إلى بلاد الروم، وتنصر كثير منهم؛ وبقي بصقلية أربعة أعوام؛ ولما قدم منها سنة 329هـ؛ قال يوما مفتخرا بظلمه في مجلس حَضَرَهُ جماعةُ من وجوه الناس؛ تكلموا فيه معه في أمورٍ شتَّى؛ ثم جرى ذكر خروجه إلى صقلية؛ فقال: "إني قتلت ألف ألف ـ يقول المُكثرُ؛ والمُقلِلُ يقول مائة ألف ـ في تلك السفرة"؛ ثم قال: "لا والله الآ أكثر". فقال له أبو عبد الله المؤدِّب: "يا أبا العباس لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك". وكان خليل هذا يكنى أبا العباس؛

وكان عبيد الله الشيعي يصرفه في الأعمال وجبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال؛ ثم وقعت فيه أقوال فكرهه عبيد الله وأبغضه؛ ولولا ابنه أبو القاسم لأهلكه)).[1] ومن شعره الذي قاله في عبيد الله المهدي:

إنَّ الإمامَ أقامَ سنةَ جدِّهِ
لِلمسلمينَ كما حذَوْتَ نعالها
أحيَى شرائعهُ وَقوَّمَ كتبهَا
وَفرُوضها وَحرَامها وَحلاَلها

وقال أيضا هذه الأبيات الشعرية عندما بعثه إسماعيل المنصور لقتال أبي يزيد؛ وهي:

وَمَا وَدَّعتُ خيرَ الخلق طراً
وَلاَ فارَقتهُ عَنْ طِيبِ نفسِ
ولكِني طلبتُ به رِضَاهُ
وَعَفوَ اللهِ يومَ حُلولِ رَمسِ
فعاشَ مُملكاً مَا لاَحَ نجمٌ
عَلَى الثقليْنِ مِنْ جنٍّ وَإنسِ

ـ ثم أبو جعفر بن أحمد بن محمد المروذي: على الرغم من توافق اسم هذا الرجل مع اسم سابقه قاضي القيروان محمد بن عمر المروذي؛ الذي توفي سنة 303هـ من شدة العذاب الذي سلطه عليه عبيد الله المهدي؛ إلا أن العلاقة الأسرية بين الرجلين ليست

---

[1] البيان المغرب، ج:1، ص: 215. والمكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)، جمع: المستشرق الإيطالي ميخائيل أماري، ص ص: 368 ـ 369.

واضحة – بالضبط – إذ يبدو أن هذا الشاعر الزجال المدعو أحمد بن محمد المروذي ربما كانت له صلة قرابة مع ذلك القاضي. المهم إن المصادر التاريخية ترسم اسمه – كسابقه – أحيانا بالمروذي، وأحيانا أخرى بالمروزي، وفي بعض الحالات الموزي. وعليه تشدنا فكرة أنه ربما كان من أبناء القاضي المذكور؛ تبعا لتوافق الأسماء ولحظوة المروذي الشاعر في بلاط الفاطميين. وجملة القول لم يصل إلينا عنه سوى بعض الأبيات المتواضعة المتناثرة هنا وهناك؛ وهي لا تدل على شاعرية كبيرة أو على تمكن من علوم اللغة؛ لذا لم نر له قدرة كبيرة في ابتكار وابتداع الصور الشعرية الجميلة؛ إذ كان شعره – في الحقيقة – عبارة عن تسجيل للأحداث بواسطة النظم الشعري. ومما قاله في أرجوزة عن وصول إسماعيل المنصور بجيشه إلى مدينة المحمدية أثناء مطاردة أبي يزيد؛ قوله:

ثمَّ إلى مَدِينةٍ مرْضِيهْ
أسَّتْ عَلى التقوَى محمَّدِيهْ
أقبل حتّى حَلها عَشِيهْ
بِالنورِ مِنْ طلعَتِهِ المُضيهْ
فَحلَّ فِي عَسْكرِهِ المَسِيلهْ
فِي هيأةٍ كامِلةٍ جَمِيلهْ

وقال أيضا في أخرى عن حركة إسماعيل ومطاردته لأبي يزيد:

لقدْ تَاهتْ بِطلعتِكَ الغرُوبُ
كما ابتهجتْ بِدَوْلتِكَ القلوبُ

لـقـدْ زَهـتِ الـخِـلاَفـة إذْ حـداهـا
نـجِـيـبٌ رَاحَ بِـحـمـلِـهِ الـنَّـجِـيـبُ

وقال عند الوصول إلى طبنة أثناء مطاردة أبي يزيد أيضا:

سِرنا وقد حلَّ بقربِ طبنة
وصَارَ منها أهلها في مِحنة
فأعظمَ اللهُ العزيزُ المنة
وبدَّلوا مِنْ بعدِ نارٍ جنة

ـ ثم محمد بن المنيب: كان في جيش إسماعيل المنصور؛ عندما طارد أبا يزيد في المغرب الأوسط؛ ولم نعثر في المصادر أكثر من اسمه وقصيدته هذه:

حَلَّ البَلاَءُ بمخلدِ
وَجَميعِ شِيعتِهِ النَواكِرْ
أمسَى بأرْضِ كيانةٍ
قدْ بانَ منهُ كلُّ ناظِرْ
يرنو بطرفٍ خاشعٍ
نظرَ المُحَاصَرِ للمُحَاصِرْ
يرنو إلى عدَدِ الحَصَى
وَالرَّمْلِ مِنْ تِلكَ العَسَاكِرْ
يا مُخلدُ بنِ سَبيكةٍ
ياشَرَّ بيتٍ فِي العشائرْ
ذُقْ مَا جَنتهُ يَدَاكَ قبـ
ـلُ مِنَ الكَبَائرِ والصَّغائرْ
ذُقْ هَولَ شقكَ للبطو
نِ وَمَا ارتكَبْتَ مِنَ الجَرَائرْ

يا شرَّ مَنْ بكيانةٍ
وكيَانةَ شرُّ البرَابرْ
أنظرْ إلَى القفص الذِي
لاَ بدَّ فِيهِ أنتَ صَائِرْ
أنظرْ إلَى يَديَكَ فيـ
ـهِ وَمؤنسِيكَ وَمَنْ تجَاوِرْ
قدْ طالَ شوقِهمَا إليـ
ـكَ فزُرْهمَا يَا شرَّ زَائر

ـ ثم أبو القاسم محمد بن هاني بن سعدون الأندلسي: ولد بإشبيلية ـ في عهد الخليفة الأموي الناصر لدين الله بين سنتي: 322هـ و326هـ ـ من أسرة كانت تسكن المهدية بإفريقية. وينسدب ابن هاني في أصوله الأولى إلى قبيلة الأزد اليمنية العربية. ويقال أنه منحدر من أسرة يزيد بن حاتم بن قبيصة. كما تذكر المصادر أنه تأثر بالمذهب الشيعي منذ صباه في الأندلس؛ إذ تشبع بالأفكار الفلسية ذات المنطلق العقلاني المعتزلي. ويكون ابن هاني قد ترك الأندلس، وانتقل إلى الضفة المغربية سنة 347هـ(958م)؛ حيث التحق ببني بني علي بن حمدون: جعفر ويحيى؛ أمراء المسيلة؛ فلما علم به المعز لدين الله الفاطمي بعث يطلبه؛ جاعلا منه شاعر البلاط الفاطمي الأول. فقدم غليه حيث حلاه بأفضل ما قيل في مدح الملوك؛ من غرر الأشعار؛ لولا بعض الغلو الذي نسب إليه، والذي يدخل في سياق الكفر وكبائر القول. أما وفاته فقد اكتنفها غموض كبير؛ سواء من حيث المضمون والتفاصيل أو في تحديد تاريخ وقوعها. وكل ما يمكن قوله هنا أنه قتل، أو مات في برقة بينما كان متوجها إلى مصر

ليلحق بالمعز هناك. وقال عنه ابن خلكان: ((ولما بلغ المعز وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيرا وقال: "هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق؛ فلم يقدر لنا ذلك". وله في المعز المذكور غرر المدائح ونخب الشعر... وفي هذا الأنموذج دلالة على علو درجته وحسن طريقته. وديوانه كبير؛ ولولا ما فيه من الغلو في المدح المفضي إلى الكفر لكان من أحسن الدواوين؛ وليس في المغاربة من هو في طبقته: لا من متقدميهم ولا من متأخريهم؛ بل هو أشعرهم على الإطلاق؛ وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة؛ وكانا متعاصرين؛ وإن كان في المتنبي مع أبي تمام من الاختلاف ما فيه... ويقال أن أبا العلا المعري كان إذا سمع شعر ابن هانيء يقول: "ما أشبهه إلا برَحَى تطحن قرونا"؛ لأجل القعقعة التي في ألفاظه؛ ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ؛ ولعمري ما أنصفه في هذا القول؛ وما حمله على هذا إلا فرط تعصبه للمتنبي؛ وبالجملة فما كان إلا من المحسنين في النظم)).[1]

ومن شعر ابن هاني هذه القصيدة؛ وهي أولى القصائد التي مدح بها المعز؛ فور قدومه من المحمدية. ويقال أنه كافأه عليها بدست ثمنه ستة آلاف دينار؛ فقال ابن هاني: "يا أمير المؤمنين ما لي موضع يسع الدست إذا بسط"؛ فأمر له ببناء قصر؛ فغرم عليه ستة آلاف دينار، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار. وقد رأيت أنه من الأفضل أن أثبت معظم أبياتها هنا؛ نظرا لما تشتمل

[1] وفيات الأعيان، ج: 4، ص ص: 423 ـ 424.

عليه من أفكار ومعان توضح ما يتضمنه المعتقد الشيعي الفاطمي آنئذ؛ وقد بدأها بهذا المطلع:

هل من أعقة عالج يبرين
أم منهما بقر الحدوج العين[1]
ولمن ليال ما ذممنا عهدها
مذ كن إلا أنهن شجون[2]
المشرقات كأنهن كواكب
والناعمات كأنهن غصون
بيض وما ضحك الصباح وإنها
بالمسك من طرر الحسان لجون[3]
أدمى لها المرجان صفحة خده
وبكى عليها اللؤلؤ المكنون
أعدى الحمام تأوهي من بعدها
فكأنه فيما سجعن رنين
بانوا سراعاً للهوادج زفرة
مما رأين وللمطي حنين
فكأنما صبغوا الضحى بقبابهم
أو عصفرت فيها الخدود جفون[4]
ماذا على حلل الشقيق لو انها
عن لابسيها في الخدود تبين[5]

[1] الأعقة: جمع عقيق؛ أي الوادي. وعالج: موضع ما في البادية. يبرين: مكان في البحرين به رمال كثيرة. بقر العين: تشبيه للنسوة ذات العيون الجميلة. الحدوج: جمع حدج وهو عبارة عن مركب تركبه النساء.
[2] الشجون: الهموم.
[3] جون: شديد السواد.
[4] أي احمر الضحى من احمرار قبابهم. وصبغت دموعهم الدامية خدودهم.
[5] حلل الشقيق: الثياب الحمر التي تشبه شقائق النعمان.

وهنا يشرع في مدح المعز بطريقته المستفزة؛ المليئة بالمبالغة الغريبة، والغلو الفاضح؛ وهو ما رفضه معظم المسلمين من أهل السنة ونددوا به؛ وفي ذلك يقول:

هَذَا مَعَدٌّ وَالخَلاَئِقُ كُلُّهَا
هَذَا المعِزُّ مُتَوَّجاً وَالدِّينُ

هَذا ضَمِيرُ النَشْأَةِ الأُولَى التِي
بدَأ الإلهُ وَغَيبُهَا المكْنُونُ

مِنْ أجْلِ هَذَا قَدَّرَ المقْدُورُ فِي
أمِّ الكتابِ وكَوَّنَ التكْوِينُ

وَبِذَا تَلَقَّى آدَمٌ مِنْ رَبِّهِ
عفواً وَفَاءَ ليونسَ اليقْطِينُ

يَا أرْضُ كَيْفَ حَمَلْتِ ثِنْيَ نِجَادِهِ
وَالنَّصرُ أعظمُ مِنْكِ وَالتمْكِينُ[1]

حَاشَا لِمَا حُمِّلْتِ تَحمِلُ مِثْلَهُ
أرْضٌ ولَكِنَّ السمَاءَ تُعِينُ

ولَوْ يَلْتَقِي الطوفَانُ قَبْلُ وَجُودُهُ
لَمْ يُنجِ نوحاً فُلكهُ المَشْحُونُ

لَوْ أنَّ هَذَا الدَّهرَ يَبْطشُ بَطشَهُ
لمْ يَعْقُبِ الحَرَكَاتِ مِنْهُ سُكُونُ

الرَّوْضُ مَا قَدْ قِيلَ فِي أيامِهِ
لاَ أنَّهُ وَرْدٌ وَلاَ نِسْرِينُ

وَالمِسْكُ مَا لَثَمَ الثرَى مِنْ ذِكْرِهِ
لاَ أنَّ كُلَّ قَرَارَةٍ دَارِينُ[2]

---

[1] الثني: الطي. تقول: "أرسلته ثني كتابي" أي طي كتابي. النجاد: حمائل السيف؛ لأنه يعلو العاتق. يقال: "هو طويل النجاد" كناية عن انه طويل القامة.
[2] دارين: موضع بالبحرين؛ وهو همزة وصل لجلب المسك من الهند.

مَلِكٌ كما حُدِّثْتَ عنهُ رَأفةً
فالخمرُ ماءٌ وَالشراسةُ لينُ
شِيَمٌ لوْ أنَّ اليمَّ أعطِيَ رِفقَها
لمْ يَلتقِمْ ذَا النونِ فِيهِ النونُ[1]
تاللهِ لاَ ظِللُ الغمامِ مِعاقِلٌ
تأبَى عليهِ ولاَ النجومُ حُصُونُ
وَوَرَاء حَقٍّ ابْنِ الرَّسولِ ضَرَاغِمٌ
أسْدٌ وَشَهباءُ السِّلاَحِ منونُ
الطالبانِ: المشرَفيةَ وَالقنا،
المدْرِكانِ: النصْرُ وَالتمكِينُ

ثم يضيف قائلا:

أنظرْ إلَى الدُّنيا بإشفاقٍ فقدْ
أرْخَصْتَ هذَا العِلقَ وَهوَ ثمينُ
لوْ يَسْتَطِيعُ البَحْرَ لاسْتَغْدَى على
جدْوَى يَدَيكَ وَإنهُ لقمينُ
أمددهُ أوْ فاصْفحْ لهُ عنْ نيلِهِ
فلقدْ تخوَّفَ أنْ يقالَ ضَنِينُ
وَأذَنْ لهُ يغرقْ أميةَ معلِناً
ما كلُّ مأذُونٍ لهُ مأذُونُ
وَاعذِرْ أميةَ أنْ تغصَّ بِرِيقِها
فالمهلُ مَا سُقِيتَهُ وَالغِسْلِينُ[2]
ألقتْ بأيْدِي الذُّلِّ مُلقَى عَمْرِهَا
بالثوْبِ إذْ فغرَتْ لهُ صِفينُ[3]

---

[1] ذا النون: النبي يونس. والنون الحوت الذي التهمه.
[2] المهل: الصديد والقيح. الغسلين: ما يسيل من جلود أهل جهنم.
[3] عمرها: المقصود هنا عمرو بن العاص؛ وأراد بعبارة ملقى: ما جرى له حين طعنه علي بن أبي طالب فألقاه أرضا في موقعة صفين.

قَـدْ قَـادَ أَمْـرَهُـمُ وَقَـلّـدَ ثَـغْـرَهُـمُ
مِـنْـهُـمْ مَـهِـيـنٌ لاَ يَـكَـادُ يُـبِـيـنُ

ويقـول أيضـا:

وَرَمَى إِلَـى الـبَـلَـدِ الأَمِـيـنِ بِـطَرفِهِ
مَـلِـكٌ عَـلَـى سِـرِّ الإِلَـهِ أَمِـيـنُ
لَـمْ يَـدْرِ مَـا رَجْـمُ الـظُّـنُـونِ وَإِنَّمَا
دُفِعَ الـقَضَـاءُ إِلَـيْـهِ وَهْـوَ يَـقِـيـنُ
كَـذَبَـتْ رِجَـالٌ مَا ادَّعَـتْ مِـنْ حَـقِّـكُـمْ
وَمِـنَ الـمَقَـالِ كَـأَهْـلِـهِ مَـأْفُـونُ
أَبَـنِي لُـؤَيٍّ أَيْـنَ فَـضْـلُ قَـدِيـمِـكُـمْ
بَلْ أَيْنَ حِـلْـمٌ كَـالـجِـبَـالِ رَصِـيـنُ[1]
نَـازَعْـتُـمُ حَـقَّ الـوَصِـيِّ وَدُونَـهُ
حَـرَمٌ وَحِـجْـرٌ مَـانِـعٌ وَحَـجُـونُ[2]
نَـاضَـلْتُـمُـوهُ عَلَـى الخِـلاَفَـةِ بِالـتِـي
رُدَّتْ وَفِـيـكُـمْ حَـدُّهَـا الـمَسْـنُـونُ
حَـرَّفْـتُمُوهَـا عَـنْ أَبِـي السِّبْطَـيْنِ عَـنْ
زَمَعٍ وَلَـيْـسَ مِـنَ الـهِـجَـانِ هَـجِـيـنُ[3]
لَـوْ تَـتَّـقُـونَ اللَّـهَ لَـمْ يَـطْـمَحْ لَـهَا
طَرَفٌ وَلَمْ يَـشْـمَـخْ لَـهَـا عِـرْنِـيـنُ[4]
لَـكِـنَّـكُـمْ كُـنْـتُـمْ كَـأَهْـلِ العِجْـلِ لَـمْ
يُحْـفَـظْ لِـمُـوسَى فِـيـهِـمُ هَـارُونُ[5]

[1] بنـو لـؤي: قريـش.
[2] الـوصي: علـي بـن أبي طالـب.
[3] السبطيـن: الحسـن والحسيـن. عـن زمـع: أي عـن إصـرار ومضـاء في الأمـر. الهجـان مـن كـل شـيء: خيـاره. والهجيـن: مـن كـان أبـوه عـربي وأمـه أمـة.
[4] العرنيـن: الأنـف كلـه؛ جمعـه عرانيـن.
[5] أهـل العجـل: بنـو إسرائيـل.

لـوْ تـسْـألـونَ الـقـبـرَ يَـومَ فـرحتـمُ
لأجـابَ أنَّ مـحـمـداً مـحـزُونُ
مَـاذَا تـريـدُ مِـنَ الـكِـتـابِ نـوَاصِـبٌ
وَلَـهُ ظـهـورٌ دُونـهـا وَبـطـونُ[1]
هِيَ بُغـيَـة أضْـلـلـتـمُـوهَـا فـارْجِـعُوا
فِي آلِ يَـاسـيـنِ ثـوَتْ يـاسِـيـنُ
رُدُّوا عـلـيْـهـمْ حـكـمَهـمْ فَـعَـلـيهـمُ
نـزَلَ الـبـيـانُ وَفِـيـهـمُ الـتـبـيينُ
الـبَـيْـتُ بَـيْـتُ الـلـهِ وَهـوَ مـعَظـمٌ
وَالنـورُ نـورُ الـلـهِ وَهـوَ مـبـيـنُ
وَالـسِّتـرُ سِتـرُ الغـيْـبِ وَهْـوَ مُحَجَّـبٌ
وَالـسِّـرُّ سِـرُّ الـوَحْيِ وَهْـوَ مـصُـونُ
الـنـورُ أنـتَ وَكـلُّ نـورٍ ظـلـمـةٌ
وَالفـوقُ أنـتَ وَكـلُّ فـوقٍ دُونُ
لـوْ كـانَ رَأيـكَ شَـائـعـاً فِـي أمـةٍ
عَـلِمُوا بما سَـيَـكونُ قـبْـلَ يَـكـونُ
أوْ كـَانَ بـِشْـرُكَ فِي شُعَـاعِ الشـمْسِ لـمْ
يُكْسَـفْ لَهَـا عِـنـدَ الشّـرُوقِ جَبيـنُ
أوْ كـَانَ سُخـطـكَ عـدْوَةً فِي الـسُّـمِّ لـمْ
يَحْمِـلـهُ دُونَ لـهاتِـهِ الـتـنـيـنُ
لـمْ تـسْـكـنِ الـدُّنـيَـا فـوَاقَ بَـكِيـةٍ
إلاَّ وَأنـتَ لـخـوفـهـا تـأمـيـنُ
الـلـهُ يَـقـبَـلُ نـُسـكَـنـا عـنا بـما
يُرْضِـيكَ مِـنْ هذي وَأنـتَ مُـعِـيـنُ
فـرَمَضَانِ مِـنْ صَـوْمٍ وَشُـكـرِ خـلِـيفـةٍ
هـذَا بِـهـذَا عِـنـدَنَـا مَـقـرُونُ

[1] النواصـب: الذيـن ينصبـون لعـلي بـن أبي طالـب العـداء.

فَارزُقْ عِبَادَكَ مِنكَ فَضْلَ شَفَاعَةٍ
وَاقرُبْ بِهِمْ زُلفَى فَأنتَ مَكِينُ
لَكَ حَمْدُنَا لاَ أنَّهُ لَكَ مَفخَرٌ
مَا قَدْرُكَ المَنثُورُ وَالمَوزُونُ
قَدْ قَالَ فِيكَ اللهُ مَا أنَا قَائِلٌ
فَكَأنَّ كُلَّ قَصِيدَةٍ تَضْمِينُ
اللهُ يَعْلَمُ أنَّ رَأيَكَ فِي الوَرَى
مَأمُونُ حَزْمٍ عِندَهُ وَأمِينُ
وَلأنتَ أفضَلُ مَنْ تُشِيرُ بِجَاهِهِ
تحْتَ المِظَلَّةِ بِالسَّلاَمِ يَمِينُ

ومع مرور الوقت، وتفاوت الزمن؛ بدأت أعراض الشيخوخة تدب في كيان الدولة الفاطمية؛ وذلك بعدما فسدت عصبيتها، وتلاشت قوتها؛ بافتراق الأنصار، وزوال الدعوة الصادقة، وانعدام الدعاة الأكفاء. وتلك هي سنة الله في الحياة، وذلك ما تقتضيه طبيعة الدول. وعليه فقد انتهى الأمر بالدولة الفاطمية ـ كما انتهى بدول أخرى في ذلك العصر ـ إلى السقوط والاندثار في القاهرة سنة 567هـ(1171م)؛ بواسطة صلاح الدين الأيوبي.

وعند المقابلة بين الدولتين: الإدريسية والفاطمية؛ ضمن منظور يبرز إنجازاتهما الحضارية والثقافية. سرعان ما يتضح قصور الأدارسة، وعجزهم، وضيق إمكاناتهم أمام الفاطميين. لأنهم لم يتمكنوا من إنجاز معالم حضارية ذات قيمة كبيرة؛ تضاهي المعالم الحضارية الفاطمية. وقد يعود السبب ـ على ما يبدو ـ إلى الوسط القبلي الكثيف الذي يكتنف الدولة الإدريسية، وإلى عجزها عن التخلص منه. أما الدولة الفاطمية؛ فقد شرع حكامها في بعث بوادر حضارية وثقافية منذ البداية.

ولكن في حدود ضيقة؛ لأن شدة الفتن القبلية وتلاحقها الواحدة بعد الأخرى في بداية عهدهم خلال المرحلة المغربية عطلت حركتها التنموية. ولم تتمكن هذه الدولة من تشييد حضارتها الممتازة إلا بعد التخلص من الوسط القبلي؛ الذي نشأت فيه ببلاد المغرب، أي بعد انتقالها إلى وسط آخر؛ يختلف عن الأول؛ في كونه انتقال من طور القبلية؛ إلى طور المؤسسات المتمدنة.

❁ ❁ ❁

وهكذا نكتفي بهذا القدر من المعلومات التي تخص دول: الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس. على أنه من الواجب التنبيه هنا إلى أن اهتمام هذا البحث كان محصورا ضمن فترة زمنية محددة؛ وعليه فقد تكون بعض الدول والإمارات التي ظهرت في فترات زمنية متأخرة لم يرد ذكرها في هذا البحث؛ وذلك تبعا لأسباب منهجية لا غير. على أن ذلك متروك للذين يرغبون في استكمال الموضوع حسب وجهة نظرهم.

أهم المصادر والمراجع



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

- **آراء الخوارج الكلامية**: (تحقيق وتقديم عمار طالبي لكتاب الموجز لأبي عبد الله الكافي التناوتي الإباضي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.
- **الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى**: صالح باجية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1976م.
- **الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية: الإباضية في ليبيا)**: علي يحيى معمر، مكتبة وهبه، القاهرة.
- **ابن هاني**: أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
- **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، أحمد بن عمر بن أبي الضياف، (ت: 1291هـ/1845م): الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، والدار التونسية للنشر، تونس، 1976م.
- **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**: أحمد بن علي المقريزي، (ت: 845هـ/1441م)؛ تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م.
- **الإحاطة في أخبار غرناطة**: لسان الدين بن الخطيب، (ت: 776هـ/1374م)؛ تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، ج: 1، ط: 2، 1973م، ج: 2، ط: 1، 1974م، ج: 3، ط: 1، 1975م، ج: 4، ط: 1، 1977م.
- **أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام (الخوارج والشيعة)**: فلهوزن؛ بوليوس: ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م.
- **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها يرحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم**: لمجهول، مكتبة المثنى، بغداد، طبع بمطبعة ريَدَنَيَرَ Rivadeneyra بمدريد 1867م.
- **أخبار ملوك بني عبيد**: محمد بن علي بن حماد الصنهاجي، (ت: 626هـ/1230م)؛ تحقيق جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- **أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السَّفر للسِّلفي)**: أحمد بن محمد السِّلفي (ت: 576هـ/1180م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

- **الأدب المغربي**: محمد بن تاويت، ومحمد عفيفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1969م.
أزهار الرياض في أخبار عياض: أحمد بن محمد التلمساني المقري (ت:1041هـ/1631م)؛ تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1892م - 1942م.
- **الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**: أحمد بن خالد الناصري السلاوي، (ت: 1315هـ/1897م)؛ تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب بالمغرب، الدار البيضاء، 1954 - 1956م.
- **الإسلام في إسبانيا**: لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: 1، 1958م.
- **الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)**: خير الدين الزركلي، مطبعة كوستا تسوماس وشركاه، 1954م - 1959م).
- **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم المخصص لتاريخ إسبانيا الإسلامية)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، 1956م.
- **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم الثالث المخصص لتاريخ المغرب العربي تحت عنوان: **تاريخ المغرب العربي**)؛ تحقيق أحمد العبادي، ومحمد الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.
- **الأغالبة، نظامهم الاداري والسياسي**: محمد المسعود الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، (سلسلة اعلم)، 1970م.
- **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**: حسن بن رشيق القيرواني (قد تكون وفاته في سنة 456هـ/1063م)؛ تحقيق محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- **الأنيس المطرب بروض القرطاس**: علي بن عبد الله بن أبي زرع، أو عبد الحليم بن صالح، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ثم نسخة مطبوعة حجريا؛ تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال، السويد، 1943م.
- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**: يحيىٰ بن خلدون (ت: 780هـ/1378م)؛ تحقيق ألفرد بل، والغوثي أبو علي،

مطبعة فنطانة الشرقية، الجزائر، ج: 1، 1903م، وج: 2، 1910م، والنسخة المحققة للجزء الأول من طرف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

ـ **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**: أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت: 599هـ/1202م)؛ مكتبة المثنى، بغداد، وطبع بمطبعة روخس، مدريد، 1884م.

ـ **بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي**: إبراهيم العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م.

ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: محمد بن عذاري المراكشي (ت: 669هـ/1272م)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، وكولان، وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

ـ **تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)**: إحسان عباس؛ دار الثقافة، بيروت، 1978م.

ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج: 1 ـ 2، ط: 7، 1964، ج: 3، ط: 7، 1965م، ج: 4، ط: 1، 1968م.

ـ **تاريخ افريقية والمغرب**: إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني (ت: بعد 417هـ/1026م)؛ تحقيق المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي، تونس، 1968م.

ـ **تاريخ الأمم والملوك**: محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ/923م)، مكتبة خياط، بيروت.

ـ **تاريخ الجزائر العام**: عبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت، 1980م.

ـ **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**: مبارك بن محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

ـ **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: 3، 1964م.

ـ **تاريخ صقلية الإسلامية**: عزيز أحمد، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1980م.

ـ **تاريخ علماء الأندلس**: عبد الله بن محمد الأزدي بن الفرضي (ت: 403هـ/1012م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

ـ **تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين**: علي مصطفى الغزالي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1959م.
ـ **تاريخ قضاة الأندلس (وهو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)**: علي بن عبد الله النُّباهي الأندلسي (ت: بعد 793هـ/1390م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
ـ **تاريخ مسلمي إسبانيا (ج: 1، الحروب الأهلية)**: دوزي؛ رينهارت؛ ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.
ـ **تاريخ المغرب الكبير**: محمد علي دبوز، طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1963م ـــ 1974م.
ـ **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**: محمد بن عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.
ـ **تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض)**: القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: 544هـ/1149م)؛ تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، 1968م.
ـ **التكملة لكتاب الصلة**: محمد بن عبد الله بن الأبار البلنسي (ت: 658 أو 659هـ/1260م)، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، 1956م.
ـ **تلمسان عبر العصور (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)**: محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **الثغر الأعلى الأندلسي (دراسة في أحواله السياسية)**: خليل إبراهيم صالح السامرائي، جامعة بغداد، 1976م.
ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**: محمد ابن أبي نصر الحميدي الأزدي (ت: 488هـ/1095م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
ـ **جمهرة أنساب العرب**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون.
ـ **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول**: شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.
ـ **حضارة العرب في الأندلس**: خير الله طلفاح، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م.
ـ **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**: محمد بن محمد السراج الأندلسي (ت: 1149هـ/1736م)؛ تحقيق محمد الحبيب الهيله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970 ـ 1973م.

- **خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والأندلس)**: محمد بن محمد الأصفهاني (ت: 597هـ/1200م)؛ تحقيق محمد المرزوقي، وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971- 1972- 1973م.
- **الخوارج في المغرب الإسلامي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريطانيا)**: محمود إسماعيل.
- **دائرة المعارف الإسلامية**: محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة، 1933م.
- **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**: أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
- **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي**: جمع وتعليق: محمد رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966م.
- **دليل المؤرخ في المغرب الأقصى**: عبد السلام بن سودة؛ دار الكتاب، المغرب، الدار البيضاء، 1960م.
- **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**: محمد بن عميرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية**: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.
- **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
- **دولة الإسلام في الأندلس (العصور: الأول، والثاني، والثالث، والرابع)**: محمد عبد الله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960م - 1969م.
- **الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي)**: محمد الطالبي؛ ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.
- **الدولة العربية في إسبانيا**: إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.
- **ديوان ابن هانئ الأندلسي**: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.
- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: علي بن بسام الشنتريني الأندلسي (ت: 542هـ/1147م)؛ تحيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، 1975م - 1979م.
- **رسالة افتتاح الدعوة**: القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون (ت: 363هـ/973م)؛ تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

ـ **رسائل بن حزم الأندلسي**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 1، 1981م.
ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام)**: محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 727هـ/1326م)؛ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.
ـ **السجلات المستنصرية**: تحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.
ـ **السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي**: محمد الصالح مرمول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
ـ **شذرات الذهب في من أخبار من ذهب**: عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ/1678م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
ـ **صبح الاعشى في صناعة الإنشاء**: أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)، المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.
ـ **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**: عبد العزيز المجدوب، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.
ـ **صلة الصلة**: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (ت: 708هـ/1308م)، مكتبة خياط، بيروت.
ـ **ضحى الإسلام**: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10.
ـ **طبقات علماء إفريقية وتونس**: أبو العرب محمد بن أحمد القيرواني (ت: 333هـ/944م)؛ تحقيق علي الشابي، ونعيم حسن الباني، الدار التونسية للنشر، 1968م.
ـ **طبقات المشائخ بالمغرب**: أحمد بن سعيد الدرجيني (ت: 670هـ/1271م)؛ تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.
ـ **ظهر الإسلام**: أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952 ـ 1959م
ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**: عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3، 1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م.

ـ **عصر هشام بن عبد الملك**: عبد المجيد محمد صالح الكبيسي، جامعة بغداد، بغداد، 1975م.
ـ **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**: عبد الكريم جودت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**: عبد العزيز فيلالي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
ـ **فتوح مصر والمغرب**: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت:257هـ/871م)؛ تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1961م.
ـ **فجر الإسلام**: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10، 1969م.
ـ **فجر الأندلس**: حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.
ـ **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**: ألفرد، بل؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1181م.
ـ **فوات الوفيات والذيل عليها**: محمد بن أحمد بن شاكر الكتبي (ت: 764هـ/1362م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973 ـ 1974م.
ـ **في التاريخ العباسي والفاطمي**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971م.
ـ **في تاريخ المغرب والأندلس**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.
ـ **القبائل الأمازيغية**: بوزياني الدراجي؛ دار الكتاب العربي، الجزائر، (ج: 1: 1999م ـ وج: 2: 2000م).
ـ **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**: الفتح بن محمد بن خاقان الإشبيلي (ت: 529هـ/1134م)؛ تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
ـ **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي**: الحبيب الجنحاني، الدار التونسية للنشر، 1968م.
ـ **الكامل في التاريخ**: علي بن أبي المكارم الجزري المعروف بابن الأثير (ت: 630هـ/1332م)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.

ـ **كتاب الجغرافيا**: علي بن موسى بن سعيد (ت: 685هـ/1274م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
ـ **كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**: عبد الله بن محمد المالكي (قد تكون وفاته في سنة 474هـ/1081م)؛ تحقيق بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1981م ـ 1983م.
ـ **كتاب سير الأئمة وأخبارهم**: أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الورجلاني (ت: 471هـ/1078م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.
ـ **كتاب الصلة**: خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت: 578هـ/1182م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
ـ **كتاب فتوح البلدان**: أحمد بن يحي البلاذري (ت: 279هـ/892م)؛ تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
ـ **كتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ ج:1، 1317هـ، ج: 2 ـ 3، 1320هـ، المطبعة الأدبية بمصر، ج: 4، 1321هـ، مطبعة التمدن بمصر، ج: 5، 1321هـ، مطبعة الموسوعات بمصر.
ـ **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي)**: شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1966م.
ـ **مجموعة الوثائق الفاطمية**: جمال الدين الشيال، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط: 2، 1965م.
ـ **مختصر تاريخ الإباضية**: سليمان الباروني (ت: 1359هـ/1940م).
ـ **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.
ـ **مصر في عصر الدولة الفاطمية**: محمد جمال الدين سرور؛ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة؛ (سلسلة 1000 كتاب)، 1960م.
ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**: عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.
ـ **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.
ـ **معجم البلدان**: أبو عبد الله الرومي البغدادي المعروف بياقوت الحموي (ت: 626هـ/1228م)، دار صادر، بيروت، 1977م.

ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.
ـ **المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم)**: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
ـ **المغرب في حلى المغرب**: أبو محمد الحجاري، وعبد الملك بن سعيد، وآخرون؛ تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964م.
ـ **المغرب عبر التاريخ**: إبراهيم حركات، مطبعة دار السلمي بالمغرب، الدار البيضاء 1965م
ـ **المغرب العربي تاريخه وثقافته**: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.
ـ **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك)**: عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت: 487هـ/1094م)؛ تحقيق ماك قوكين دي سلان MAC GUCKIN DE SLANE، مكتبة أمريكا والشرق، بباريس، Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris، 1965م.
ـ **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**: حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ القطعة التي حققها عبد الرحمن علي حجي، دار الثقافة، بيروت، 1965م.
ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**: حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ وهي القطعة التي حققها محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.
ـ **مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)**: محمد بن عبد الله الحمودي الإدريسي السبتي (يكون قد توفي سنة 560هـ/ 1164م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
ـ **مقدمة ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ج: 1، 1965م، وج: 2، 1966م، وج: 3، 1967م، وج: 4، 1968م.
ـ **المكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)**: أماري؛ ميخائيل: مكتبة المثنى، بغداد و PRESSO F. A. BROCKHAUS Libraio Della Societa LIPSIA. .1857.

- **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري**: إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.
- **الملل والنحل**: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: 548هـ/1153م)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1975م.
- **المهدي المنتظر بين العقيدة الدينية والمضمون السياسي**: حجاب؛ محمد فريد؛ المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1984م.
- **نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر**: لمجهول عاش في سنة 712هـ (وربما كان لأبي علي صالح بن عبد الحليم؛ حسب تحقيق موسى لقبال)؛ تحقيق ليفي بروفنسال 1934م.
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: أبو المحاسن يوسف الأتابكي ابن تَغري بَرْدِي (ت: 874هـ/1469م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.
- **نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد الزيانية**: بوزياني؛ الدراجي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.
- **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم مما مضى من الزمان**: محمد بن عبد الله التلمساني التنسي (ت: 899هـ/1493م)، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.
- **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**: عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953م.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**: أحمد بن محمد التلمساني المقري (ت: 1041هـ/1631م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**: أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت: 733هـ/1332م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بمصر، 1954م.
- **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**؛ أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)؛ تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959م.
- **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي**: محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1974م.
- **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**: حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس، 1966 – 1972م.

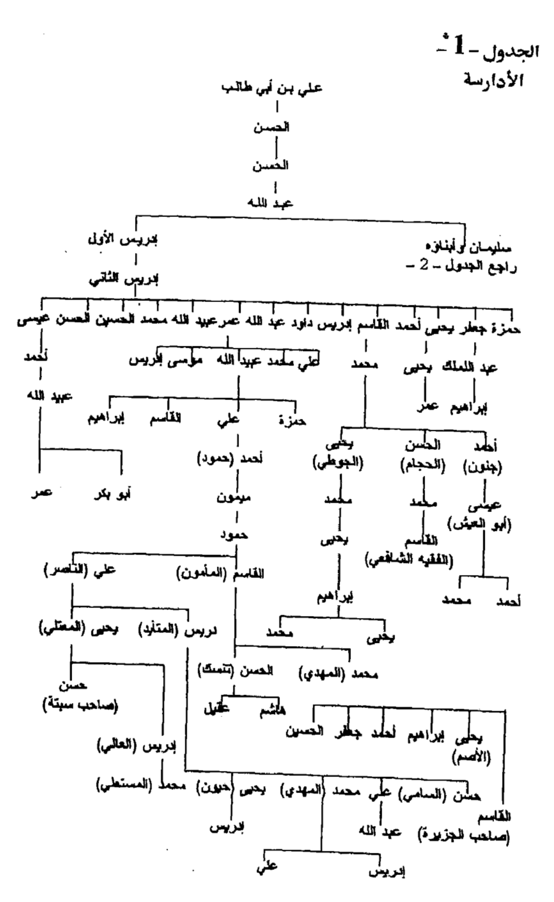
- **الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي**: محمد حمدي المناوي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970م.
- **وصف إفريقيا**: الحسن بن محمد الوزان الفاسي الشهير بليون الأفريقي (ت: بعد 957هـ/1550م)؛ ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: أحمد بن محمد بن خلكان (ت: 681هـ/1282م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر ببيروت. ج:1، 1968م، ج: 2، 1969م، ج:3، 1970م، ج: 4، 5، 6، 7،1971م، ج: 8، 1972م.

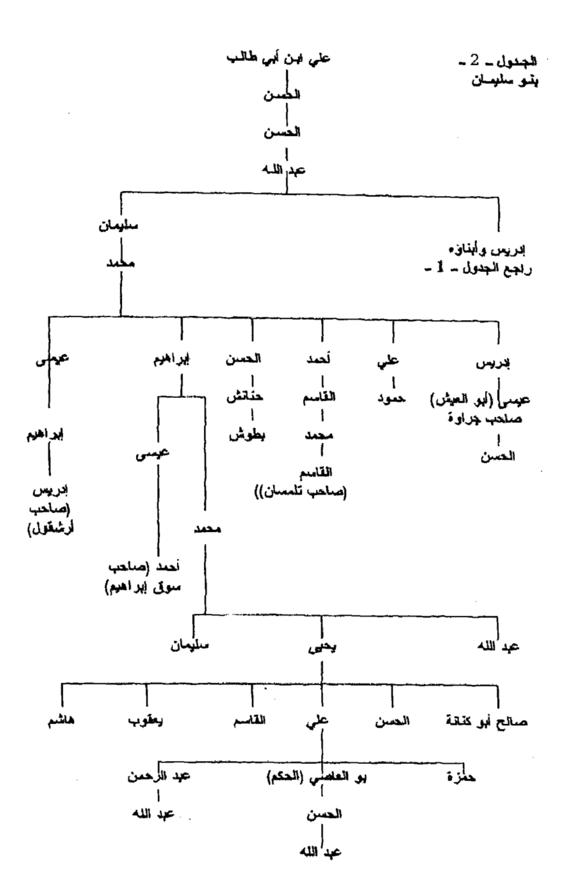
المراجع باللغة الأجنبية:

- ABOU OBEID EL-BEHRI: - **Description de l'afrique septenrionale**. Tràduit par MAC GUCKIN de Slane. librairie D'Amerique et D'Orient ADRIEN- MAISONNEUVE, PARIS,1965.
- BEL - ALFRED: - **La religion musulmanes en Berbérie** (Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses), PARIS,1938.
- BOURDIEU. PIERRE: - **Sociologie de L'Algérie**. Presses Universitaires de Paris, 1970.
- BOUSQUET (G.H.): - **Les Berberes**. Presses Universitaires de france 1967.
- BREMOND. C.R (Général): - **Berbères et Arabes**, Payot, Paris, 1950.
- FARHAT. DACHRAOUI: - **LE CALIFAT FATIMIDE au MAGHREB**. S. T. D. TUNIS. 1981.
- GAUTIER. (EMILE .F.): - **Le Passé de L'Afrique du Nord. (les Siécles Obscures)** Payot , Paris, 1952.
- IDRIS. Hady Roger: - **La Berbérie Orientale .Sous les Zirides (Xème - XIIème Siècles).** Librairie D'Amérique et D'Orient Adrien - Maisonneuve, Paris, 1981.
- JEAN LEON LAFRICAIN: - **Description de L'Afrique.** Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.
- KADDACHE; MAHFOUD: - **L'Algérie Medievale.** S. N. E. D. Alger.1982.
- MARCAIS GEORGES: - **La Berbérie Musulmane et L'Orient Au Moyen Age,** Editions Montaigne, Paris. 1946. et -MARCAIS GEORGES: **Les Arabes en Berbérie**

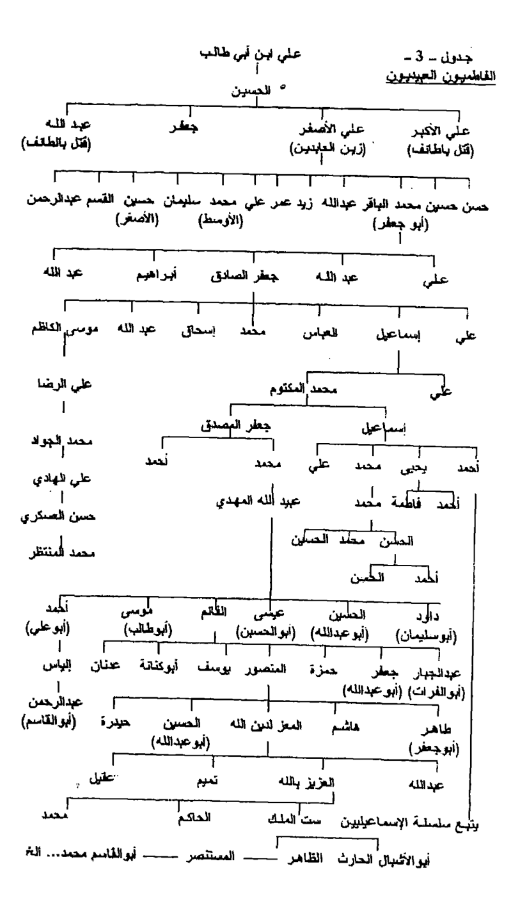
لوائح توضيحية

الجدول - 1 -
الأدارسة





الجدول - 2 -
بنو سليمان
علي ابن أبي طالب
الحسن
الحسن
عبد الله
إدريس وأبناؤه
راجع الجدول - 1 -
سليمان
محمد
إدريس
علي
أحمد
الحسن
إبراهيم
عيسى
عيسى (أبو العيش)
صاحب جراوة
الحسن
حمود
القاسم
محمد
القاسم
(صاحب تلمسان))
حنانش
بطوش
عيسى
أحمد (صاحب
سوق إبراهيم)
محمد
إبراهيم
إدريس
(صاحب
أرشقول)
عبد الله
يحيى
سليمان
صالح أبو كنانة
الحسن
علي
القاسم
يعقوب
هاشم
حمزة
بو العاصي (الحكم)
عبد الرحمن
الحسن
عبد الله
عبد الله

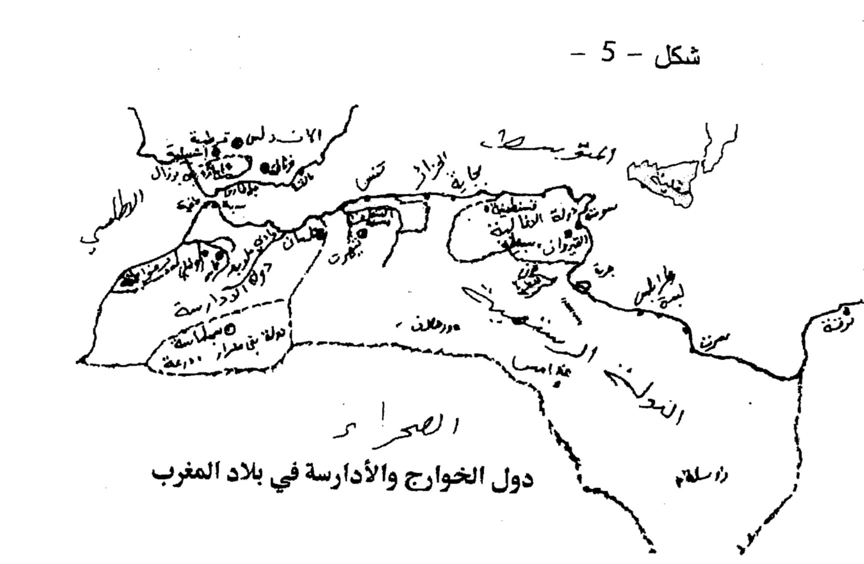


جدول ـ 3 ـ
الفاطميون العبيديون
علي ابن أبي طالب
الحسين
علي الأكبر (قتل بالطائف)
علي الأصغر (زين العابدين)
جعفر
عبد الله (قتل بالطائف)
حسن حسين محمد الباقر عبدالله زيد عمر علي محمد سليمان حسين القسم عبدالرحمن
(أبو جعفر)
(الأوسط)
(الأصغر)
علي
عبد الله
جعفر الصادق
أبراهيم
عبد الله
علي
إسماعيل
العباس
محمد
إسحاق
عبد الله
موسى الكاظم
علي الرضا
محمد الجواد
علي الهادي
حسن العسكري
محمد المنتظر
علي
محمد المكتوم
إسماعيل
جعفر المصدق
أحمد
يحيى
محمد
علي
محمد
أحمد
أحمد
فاطمة
محمد
عبيد الله المهدي
الحسن
محمد
الحسين
أحمد
الحسن
داود (أبوسليمان)
الحسين (أبو عبدالله)
عيسى (أبو الحسين)
القائم
موسى (أبوطالب)
أحمد (أبو علي)
عبدالجبار (أبوالفرات)
جعفر (أبو عبدالله)
حمزة
المنصور
يوسف
أبوكنانة
عدنان
إلياس
عبدالرحمن (أبوالقاسم)
طاهر (أبوجعفر)
هاشم
المعز لدين الله
الحسين (أبو عبدالله)
حيدرة
عبدالله
العزيز بالله
تميم
عقيل
يتبع سلسلة الإسماعيليين
ست الملك
الحاكم
محمد
أبو الأشبال الحارث
الظاهر
المستنصر
أبوالقاسم محمد... الخ

شكل - 4 -

الدول التي هيمنت على المغرب الإسلامي والأندلس

شكل - 5 -

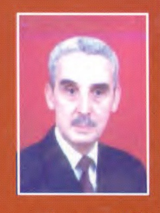


دول الخوارج والأدارسة في بلاد المغرب



فهرس المحتويات

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة
حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51   الجـوال: 070 91.77.73



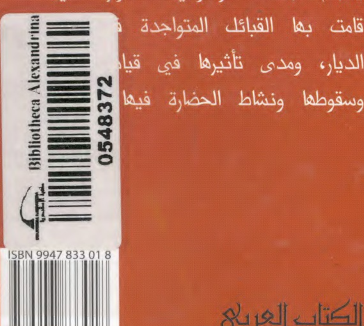
بوزياني الدراجي

هو قراءة جديدة للأحداث التاريخية التي عرفتها ديار المغرب العربي والأندلس خلال الفترة التي تلت الفتح الإسلامي لهذه الديار، وحتى سقوط الدولتين الأموية والفاطمية.

يعتمد المنهج الخلدوني الأساس الذي يفسر أثر العصبية القبلية كظاهرة اجتماعية سلبية في قيام الدول وسقوطها والتي هيمنت على المجتمعات المغربية ردحا طويلا من الزمن، ومازالت هذه المجتمعات تعاني من آثارها السلبية حتى اليوم.

لنستقرأ التاريخ كمخزون حضاري وثقافي وليس بمعنى التأريخ فقط وإنما من أجل تلخيص تجارب الأسلاف ووضعها بين يدي الأجيال الصاعدة للإستفادة منها وربط الماضي بالحاضر والإنطلاق نحو المستقبل بخطا واضحة وثابتة.

يتابع بشكل موضوعي الأدوار التي قامت بها القبائل المتواجدة
الديار، ومدى تأثيرها في
وسقوطها ونشاط الحضارة فيها



دار الكتاب العربي